

ثلاثون مجلسًا في التدبر

مجالس علمية وإيمانية

إعداد اللجنة العلمية في مركز تدبر



مركز تدبر للدراسات والاستشارات

مجالس التدبر (١)

ثلاثون مجلساً في التدبر

مجالس علمية وإيمانية

الطبعة الأولى

١٤٣٣هـ - ٢٠١٢

الرياض - الدائري الشرقي - مخرج ١٥

هاتف ٢٥٤٩٩٩٣ - تحويلة ٣٣٣

ناسوخ ٢٥٤٩٩٩٦

ص.ب. ٩٣٤٠٤ الرمز: ١١٦٨٤

البريد الحاسوبي: tadabbor@tadabbor.com

www.tadabbor.com

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

مركز تدبر للاستشارات التربوية والتعليمة

ثلاثون مجلسا في التدبر: مجالس علمية وإيمانية

/مركز تدبر للاستشارات التربوية والتعليمية - الرياض، ١٤٣٣هـ

٢٠٢ ص؛ ١٧ × ٢٢سم

ردمك: ١-٠-٩٠٣٦٤-٦٠٣-٩٧٨

١- القرآن - مباحث عامة ٢- القرآن - التفسير الحديث أ. العنوان

ديوي ٢٢٧,٦   ١٤٣٣/٦٢٣٤

رقم الإبداع: ١٤٣٣/٦٢٣٤

ردمك: ١-٠-٩٠٣٦٤-٦٠٣-٩٧٨


بسم الله الرحمن الرحيم



مقدمة رئيس الهيئة العالمية لتدبر القرآن الكريم

الحمد لله الذي أكرمنا بنزول القرآن، ومنّ علينا ببعثة سيد ولد عدنان، وصلى الله على مَنْ كان خلقُه القرآن، فزكاه ورباه بـ ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ وربّى أصحابه بمدارسة آياته في مجالس الذكر والقرآن، ففتح الله به قلوبًا غلفًا، وأعينًا عميًا، وآذنًا صُمًا، وسلم تسليمًا كثيرًا ما ترددت على الألسن آيات الرحمن، وتليت في المحاريب هدايات الفرقان، أما بعد:

ففي صحيح مسلم من طريق الأغر أبي مسلم، أنه قال: أشهد على أبي هريرة وأبي سعيد الخدري أنهما شهدا على النبي ﷺ أنه قال: «لا يقعد قوم يذكرون الله عز وجل إلا حفتهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة، ونزلت عليهم السكينة، وذكرهم الله فيمن عنده»[١].

فهذه بشارة نبوية، تستحق من أتباعه ﷺ أن يتنادوا لنيل هذه الثمرات الأربع العظيمة، التي تعادل الواحدة منها الدنيا وما فيها، فكيف بها مجتمعة لمن حقق هذا المعنى: تلاوة كتاب الله وتدارس معانيه، وقد كان جبريل عليه السلام يلقى النبي ﷺ في رمضان (فيدارسه القرآن) .

ورغبةً في التعاون مع إخواننا المسلمين في إحياء هذه المجالس في المساجد والبيوت، جاءت فكرة «مجالس تدبر القرآن»، وستكون ضمن سلسة متتابعة -بمشيئة الله تعالى-؛ لتكون امتدادًا لبقية الإصدارات العلمية والتربوية التي سبق نشرها، وتهدف إلى تحقيق رؤيتنا -أن يتدبر القرآن كل من يقرؤه- في هذا المشروع العظيم.

(١) صحيح مسلم: (٢٧٠٠).

إننا نقدم باكورة هذه المجالس الثلاثين في «مجموعتها الأولى» -والتي حرر كثيرًا منها عدد من الأعضاء المؤسسين لمشروع تدبر- حيث نرجو الله تبارك وتعالى أن تحقق أهدافًا منها:

- أن تكون معينةً للإمام في مسجده -وخاصة في شهر رمضان- وللخطيب في منبر الجمعة، في تناول بعض القضايا المهمة -التي يحتاجها الناس- من منظور تدبري، وفق أصول علمية للتدبر.

- أن تكون مادةً مناسبة للمجالس التي يعقدها عدد كبير من الآباء مع أزواجهم وأولادهم في بيوتهم، سواء في رمضان أو غيره، تأسيًا بهدي القرآن الذي ربّى عليه أمهات المؤمنين: ﴿ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ﴾[1].

ـ أن تكون عونًا لمن أحب أن يقرأ مادة مختصرةً في المنتديات أو المجالس أو الاجتماعات العائلية.

وفي الختام أشكرُ إخواني في اللجنة العلمية في مركز تدبر، الذين قاموا بالعمل على إعداد هذه المجالس منذ زمن ليس بالقريب؛ لتخرج بهذه الحلة المناسبة.

وغني عن القول أن هذا العمل لا يستغني عن التقويم من قبل إخواننا وأخواتنا من أهل القرآن، فهذه المجالس منهم وإليهم، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلّم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وكتب/ ناصر بن سليمان العمر
naser@tadabbor.com
رئيس الهيئة العالمية لتدبر القرآن الكريم
٢٠/ ٦/ ١٤٣٣هـ

(١) الأحزاب: ٣٤.



مقدمة المستشار العلمي لمركز تدبر

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجًا، وصلى الله وسلم على مَنْ كان له القرآن منهجًا وخُلُقا، وعلى آله وأصحابه الأئمة النجباء، والهُداةِ الفضلاء، أما بعد:

فهذه باكورة سلسلةٍ جديدة تحمل اسمًا نتمنى انتشاره حسًا ومعنى في أصقاع الدنيا إنها "سلسة مجالس تدبر القرآن" ضمن سلسة متتابعة بمشيئة الله تعالى؛ لتتمم ما ابتدأناه في مركز تدبر من إصدارات علمية وتربوية ابتدأ نشرها من عام ١٤٢٩هـ، ولله الحمد والمنة، وبلغت حتى الآن (عشرون إصدارًا)، نسأل الله أن ينفع بها، ويبارك فيها.

وفي مقدمة فضيلة أ.د.ناصر العمر ـ التي سبقت هذه المقدمة ـ ما يوضح شيئًا من أهدافنا من إطلاق هذه السلسلة العلمية في تدبر القرآن، إلا أن الذي أود أن أضيفه هنا ما يلي:

أولًا: أن طبيعة هذه المجالس لا ترتبط بموسمٍ معيّن، ولا موضوع محدد، بل ستكون منوّعة بتنوّع موضوعات القرآن الكريم، وسيكون التركيز على ما يمسّ بشكل مباشر عموم المسلمين من جهة مناسباتهم الشرعية، أو مشاكلهم الاجتماعية والاقتصادية، ومحاولة علاجها في ضوء القرآن الكريم، وفق منهج علمي سليم.

ثانيًا: سيلحظُ القارئ الكريم أن هذه المجالس مختصرة في مادتها ـ على تفاوت نسبي في طولها وقصرها ـ، متنوعة في مضامينها. وهذا التنوع يعود إلى منهج القرآن في تنوع موضوعاته، واختلافِ أساليبه في بناء القِيَم، وتصحيح الأخطاء.

ثالثًا: اجتهدنا في ترتيب هذه المجالس على النحو الذي يراه القارئ الكريم، مع يقيننا بأن غيرنا قد يرى ترتيبًا آخر أجود منه، والخطب في هذا يسير إن شاء الله.

ختامًا: إننا لندعو إخواننا وأخواتنا الكرام ـ الذين شرفونا باقتناء هذا الكتاب أو غيره من كتب "تدبر" ـ ألا يبخلوا علينا بآرائهم واقتراحاتهم، ولهم منا وافر الدعاء، ومن الله جزيل الأجر والثواب.

وصلى الله وسلّم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وكتب/ عمر بن عبدالله المقبل
omar@tadabbor.com
المستشار العلمي في مركز تدبر
وعضو هيئة التدريس بجامعة القصيم
١٤٣٣/٦/٢١هـ



المجلس الأول

أفلا نتدبّرُ القرآن؟ (١)

الحمد لله، والصلاة والسلام على عبدِهِ ورسولِهِ ومصطفاه، أما بعد:

فكثيرًا ما تَعْرِضُ لنا مشكلاتٌ ومُعضلات، وطريقُ كشفِها وعلاجُها في القرآن.

اتّصل أحدُ الإخوةِ ممّن يُعالِجُ بالرُّقية، وقال: إني سمعتُ أحدَ طلابِ العلمِ يقول: إنَّ مَن واجهَتْه المشكلاتُ، فعليه بتدبُّرِ أوّلِ سورةِ الطلاق: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾(٢).

يقول: فبَدَأتُ أَصِفُها للناس بَعدَ أَنْ أَرْقيَهم، وأقول لهم: تدبَّروها وطبِّقوها.

يقول: فاتّصل بي خلالَ أيام قلائلَ ثلاثةُ أشخاص، وقالوا: واللهِ لقد تغيَّرت حياتُنا، وقد ذَهَبَ ما نشكو، ولله الحمد!

(١) للأستاذ الدكتور ناصر بن سليمان العمر، رئيس مجلس إدارة الهيئة العالمية لتدبر القرآن الكريم.
(٢) الطلاق ١ - ٣.

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾[1].

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾[2].

﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾[3].

﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾[4].

نَقِفُ مع هذه الآيات؛ لِنتدبَّرَ كلامَ اللهِ جل وعلا، ونقفُ مع دلالاته ومعانيه!

وإنّ مما يَسُرُّ ويُفْرِحُ القلبَ، الإقبالُ الكبيرُ على تلاوةِ القرآنِ، وفي شهرِ رمضان بالذات، ولكن؛ أهذا الإقبالُ على القرآنِ بألسنتِهم أم بقلوبِهم؟!

لِنتأمّل في قولِه تعالى: ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾[5]. فلم يقل (فإنّه نزّله على سمعك)، ولا على بصرك، ولكن على قلبك!

فلْنواجِه أنفسَنا بهذا السؤال: هل تتجاوزُ الآياتُ -التي نتلوها ونسمعُها- أسماعَنا وأبصارَنا وألسنتَنا، إلى قلوبنا!

(١) محمد: ٢٤.
(٢) النساء: ٨٢.
(٣) المؤمنون: ٦٨.
(٤) ص: ٢٩.
(٥) البقرة: ٩٧.

هذا هو الأملُ المُرتجى، وبه نجتني ثمراتِ القرآن، ذلك الكتابُ العزيزُ الذي جعلَه الله نورًا للقلوب، وهدايةً للبشرية:

نـورٌ على مَـرِّ الزمان تألَّـقـا ... وأضاءَ للدُّنيا طـريقًا مُشرقـا

وهُـدىً من الرَّحمن يَهدينا به ... للصَّالحات وللمكارم والتُّقى

هـذا كتابُ اللهِ زادُ قلوبِـنـا ... وشفـاؤنا من كلِّ داءٍ أرهقا

هـذا هو القرآنُ مصدرُ عزِّنا ... فَبِهِ تبـوَّأنا المكانَ الأسـمـقـا

يا حافظَ القرآنِ لستَ بحافظٍ ... حتـى تكونَ لما حفظتَ مُطبِّقا

فينبغي أنْ تكونَ غايتُنا من تلاوةِ القرآنِ وسماعِه، هي التدبّرُ؛ وفرع عنه العمل!

إنَّ اللهَ عز وجل نعى على المنافقين فقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾، ونعى على الكفار فقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا﴾، وقال: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ﴾؟!

فهذا استفهامٌ إنكاريٌّ، ومعناه: لو كانوا يتدبّرون القرآنَ، لَمَا وقعوا فيما هم واقعون فيه من الضلال، فإذا كان القرآنُ يَنْعى على الكفارِ والمنافقين عدمَ تدبُّرِهم للقرآن، فعوامُّ المسلمين ليسوا أقلَّ من الكفارِ والمنافقين فَهْمًا وقدرةً على التدبر؟!

إذن، التدبُّرُ يكونُ: للكبيرِ والصغيرِ، للذكرِ وللأنثى، للعالِمِ وللعامي، فكلُّ مَن يفهمُ لغةَ الخِطابِ ثم يقرأُ آياتِ وعدٍ أو وعيدٍ يَفهمُ إلى ما تَرْمي إجمالًا، وإنْ لم يُدركْ معاني بعضِ الألفاظ، أو تفاصيلَ ما تضمّنَتْهُ مِن الأحكام، فإنْ هو انزَجَرَ للزواجرِ عند سماعِ آياتِ الوعيد، وانبعثَ لفعلِ الخيراتِ والفضائلِ عند سماعِ آياتِ الوعد، فله مِن التدبُّر حظٌّ وقدرٌ يُحمَدُ عليه بحسبه.

وحقيقةُ التدبُّر: هو النَّظَرُ والتفكُّرُ المؤدِّي للعيشِ مع دلالاتِ القرآن، فإنَّ القرآنَ مقاصدُه جليّة، وغاياتُه واضحة، بدءً من تقريرِ التوحيدِ ونبذِ الشرك، إلى آخرِ خَصْلةٍ من خِصال الخير، والعكسُ صحيح!

فهل نحن نتدبّرُ القرآنَ عند تلاوتِنا له وسماعِنا إيّاه، أم أنّ حالَنا قد صارتْ كحالِ بعضِ أهلِ الكتابِ الذين قال اللهُ فيهم: ﴿وَمِنۡهُمۡ أُمِّيُّونَ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾[(١)] أي: أحاديث يقولونها ويكذبون فيها، كما ذكر المفسرون[(٢)].

اتَّصَلَ عليَّ أحدُ الإخوةِ في يومٍ ما، وقال لي: أَمَامي مشكلةٌ كبرى في حياتي، أنا على مُفتَرَق طُرُق، أَنقِذْني، ساعِدْني!

(١) البقرة: ٧٨.
(٢) انظر تفسير ابن جرير: ٢/ ١٥٧، وفي معنى الآية أقوال.

فقلتُ له: اقرأْ هذه الآيةَ وتدبَّرْها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾[١]. فما هي إلا لحظاتٌ ويُرسِلُ لي رسالةً عجيبة، قالَ فيها: سبحانَ الله! النورُ بين يديَّ ولم أَنتبِهْ له!

أنا أَحفظُ أكثرَ القرآن، ومنه هذه السورةُ؛ سورةُ الأنفال، فكأنِّي لأوّل مرةً أقرؤها!

فقلتُ له: هل تحتاجُ إلى أحدٍ بعد هذه الآية؟

فردَّ عليَّ: لا والله، لا أحتاجُ إلى أحدٍ بعدها، والله إني أعيشُ أسعدَ أيامِ حياتي!

أيها المؤمنون: إنّ تدبّرَ القرآنِ ضرورةٌ؛ لأنه مصدرُ عِزِّنا! ولأنه مَنهجُ النبيِّ محمد ﷺ، وكما قال الإمامُ مالكٌ، فإنه: «لن يَصلُحَ آخرُ هذه الأمة، إلا بما صلَحَ به أوّلُها»[٢]، وهل صَلَحَ أوّلها إلا بالكتابِ والسنة، فالتدبُّر في معانيهما هو السبيلُ للإصلاحِ بهما، وهو السبيلُ لربْط واقعِ الأمة بالكتاب والسنة؟!
وكما يقول الرسول ﷺ: «تَرَكْتُ فِيكُمْ أَمْرَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا مَا تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ»[٣].

(١) الأنفال: ٢٩.

(٢) ذكر القاضي عياض في كتاب (الشِّفا بتعريف حقوق المصطفى: ٢/ ٨٨) نصًّا للإمام مالك نقله عن كتاب (المبسوط) للقاضي إسماعيل بن إسحاق الجهضميّ المالكي (ت ٢٨٢هـ)، يتضمّن هذه العبارة بهذه الصيغة: «وَلَا يُصْلِحُ آخرَ هذه الأمة إلا ما أَصْلَحَ أَوَّلَهَا».

(٣) الموطأ (٣٣٣٨).

ولا تمسُّك بلا فَهْمٍ وتدبّرٍ وهما سبيلُ الفقهِ في الدين، وقد دعا النبي ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما أنْ يُعلِّمه التأويل، وأن يُفقِّهَه في الدين[١]، فكان حَبْرَ الأمةِ وترجمانَ القرآن!

وقد ثبت في الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «من يُرِدِ اللهُ به خيرًا يُفقِّه في الدين»[٢]، وتدبُّرُ القرآنِ من أعظمِ سبلِ الفقهِ في الدين.

ولْنتأمَّل ـ أيها المؤمنون ـ هذه الآياتِ جيدًا: يقول الله تعالى: ﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾[٣]، ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾[٤]، ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾[٥]!

وواللهِ لن تَتَحقّقَ هذه الطمأنينةُ وهذا التثبيتُ وهذه الرحمةُ وهذا الشفاء، إلا بالاستماعِ والإنصاتِ والتدبرِ: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾[٦].

(١) صح ذلك في مسند أحمد (٣٠٣٣)، وغيره.
(٢) متفق عليه: البخاري (٣١١٦)، ومسلم (١٠٣٧).
(٣) الرعد: ٢٨.
(٤) هود: ١٢٠..
(٥) الإسراء: ٨٢.
(٦) الأعراف: ٢٠٤.

وتدبُّرُ القرآنِ مِن أعظمِ الوسائلِ في بيانِ الفرقانِ بين الحقِ والباطل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾[(١)].

ثم أين نحنُ مِن نداءِ الرسولِ ﷺ لربِّه، وشكواه: ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ﴾[(٢)]، وهذا وإنْ كان في المشركين المكذبين، غيرَ أنه يُعرِّض بمَن أَعرضَ عن تدبُّر القرآنِ في هذه الأمة!

وقد ذكر ابنُ القيِّمِ -رحمه الله- أنَّ مِنْ هَجْرِ القرآنِ: هجرَ تدبُّرِه، وهجرَ الاستشفاء به[(٣)].

فيا أيها المؤمنُ المحبُّ لكتابِ ربه، إنْ أردتَ التنعُّمَ بالتدبر، فاحذر من العَجَلةِ في التلاوة، وقد قال بعضُ السلف: كيف يَرِقُّ قلبُك، وأنتَ هِمّتُك في آخرِ السورة!.

فعليك أنْ تتدبَّرَ القرآنَ عند قراءتِك له، وأنْ تَترَسَّل، وأنْ تخشع، وتخضع! وهكذا كان النّبي ﷺ ؛ ولاسيّما حينما يلقاه جبريلُ في رمضانَ فيُدارسُه القرآن[(٤)].

(١) الأنفال: ٢٩.
(٢) الفرقان: ٣٠.
(٣) الفوائد: ص٨٢.
(٤) صحيح البخاريّ (٦).

وفي الصحيح: «وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ، يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ، إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمِ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ»(١).

فتدبَّروا القرآنَ وتدارسوه بينكم فتلك سُنةُ نبيكم!

اللهم اجعلنا لكتابِك من التالين، وبه من العاملين، ولآياتِه من المتدبرين، واغفر اللهم لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.



(١) صحيح مسلم (٢٦٩٩).



المجلس الثاني

القرآن من دلائل صدق النبوة

الحمدُ لله، والصلاةُ والسلامُ على عبدِه ورسولِه ومصطفاه، أما بعد:

فإنّ أعداءَ الإسلامِ لما رأوا قوّةَ هذا الدين، وصدقَ رسولِه، وعظيمَ آيتِه التي جاءَ بها من عندِ الله -وهي القرآنُ الكريم-، سلكوا في سبيلِ الصدِّ عنه أساليبَ شتى، وألوانًا من الغزوِ الفكري، بغيةَ التشكيكِ في الرسولِ والرسالة.

وهذا التشكيكُ والتشويشُ ليس جديدًا، بل هو قديمٌ قِدَمَ الرسالة، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ﴾[(١)].

ولقد كان تدبُّرُ العلماءِ لهذا القرآنِ العظيم، من أعظمِ الأسلحةِ التي قاوَموا بها تشكيكَ المشككين، وتشويشَ المغرِضين، وانتقاصَ الجاهلين لمقامِ رسولِ ربِّ العالمين، وعلى رأسِ أولئك العلماء: الصحابةُ رضوان الله عليهم.

ومن ذلك: أنهم رأوا أنَّ ثمةَ آياتٍ لا يمكن أن يَنقُلَها إلا صادق؛ لأنها

(١) فصلت: ٢٦.

تتضمنُ عِتابًا إلهيًا له ﷺ، وبهذا استدلَّتْ أمُّ المؤمنين عائشةُ -رضي الله عنها- على ذلك، فقالت: ولو كان محمدٌ ﷺ كاتمًا شيئًا مما أُنزِلَ عليه لكَتَمَ هذه الآية: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾[1].[2].

ومِن تلك الدلائلِ التي تزيدُ المؤمنَ يقينًا، تدبُّرُ بعضِ الأحداثِ التي نَزَلَ فيها القرآن، ومن ذلك[3]:

١ ـ في قصةِ الإِفْك: ألَمْ يرجف المنافقون بحديثِ الإفك عن زوجِه عائشةَ -رضي الله عنها-، وأبطأ الوحي، وطالَ الأمرُ والناسُ يخوضون، حتى بَلَغت القلوبُ الحناجر، وهو ﷺ لا يستطيعُ إلّا أنْ يقولَ بكلِّ تحفُّظٍ واحتراسٍ: «إني لا أعلمُ عنها إلا خيرًا»[4]، ثم إنه بَعْدَ أن بَذَل جُهدَه في التحرِّي والسؤالِ واستشارةِ الأصحاب، ومضى شهرٌ بأكملِه والكل يقولون: ما علمنا عليها مِن سوء، لم يَزِدْ على أنْ قال لها آخرَ الأمر: «يا عائشة، أَمَا إنّه بَلَغني كذا وكذا، فإنْ كنتِ بريئةً فسيبرِّئكِ الله، وإنْ كنتِ ألَمْتِ بذنبٍ فاستغفري الله»[5].

(١) الأحزاب: ٣٧.
(٢) رواه مسلم (١٧٧).
(٣) من كتاب «النبأ العظيم» للشيخ عبدالله دراز رحمه الله، ص: (٢٠ - ٢٨)، بتصرف واختصار يسيرين.
(٤) البخاري (٢٦٦١)، ومسلم (٢٧٧٠).
(٥) المصدر السابق.

هذا كلامُه بوحيِ ضميرِه، وهو كما نرى كلام البشر الذي لا يعلم الغيب، وكلام الصدّيْق المتثبّت الذي لا يتبع الظن، ولا يقولُ ما ليس له به علم، على أنه لم يغادرْ مكانَه بعدَ أنْ قال هذه الكلماتِ حتى نَزلَ صدرُ سورةِ النور مُعلنًا براءتها، ومُصدِرًا الحكمَ المُبْرَمَ بشرفِها وطهارتِها.

والسؤال ـ أيها المؤمنون: ماذا كان يمنعُه -لو أنّ أَمْرَ القرآنِ إليه- أنْ يتقوّلَ هذه الكلمةَ الحاسمةَ مِن قَبْل؛ لِيَحميَ بها عرضَه، ويَذُبَّ بها عن عرينِه، ويَنسبَها إلى الوحيِ السماوي، لتنقطعَ ألسنةُ المتخرِّصين؟! ولكنه ﷺ ما كان لِيذرَ الكذبَ على الناسِ ويَكذِبَ على الله: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾[1].

٢ ـ ومِن المواضعِ التي ردَّ بها العلماءُ على المشككين في صحةِ هذا القرآن:

مخالفةُ القرآنِ لطبعِ الرسول -ﷺ- وعتابُه الشديدُ له في المسائلِ المباحة:

وأُخرى كان يجيئُه القولُ فيها على غيرِ ما يحبُّه ويهواه، فيخطِّئُه في الرأيِ يراه، ويأذنُ له في الشيء لا يميلُ إليه، فإذا تلبَّثَ فيه يسيرًا تلقّاه القرآنُ بالعتاب القاسي، والنَّقدِ المرّ، حتى في أقلِّ الأشياءِ خطَرًا، فتأمَّلوا هذه الآيات: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ﴾[2]، ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا

(١) الحاقة: ٤٤ - ٤٧.
(٢) التحريم: ١.

ٱللَّهُ مُبۡدِيهِ وَتَخۡشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُ﴾، ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾[1]، ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾[2]، ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٦٧ لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٦٨﴾[3]، ﴿أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ٦ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ٨ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ٩ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ﴾[4]!

أرأيتَ لو كانتْ هذه التقريعاتُ المؤلمةُ صادرةً عن وُجدانِه، معبرةً عن ندمِه ووخْزِ ضميرِه؛ حين بدا له خلافُ ما فَرَطَ من رأيِه، أكان يُعلنُها عن نفسِه بهذا التهويلِ والتشنيع؟ ألم يكن له في السكوتِ عنها سِترٌ على نفسه، واستبقاءٌ لحرمةِ آرائه؟ بلى؛ إنّ هذا القرآنَ لو كانَ يفيضُ عن وجدانِه لكان يستطيعُ عند الحاجةِ أن يَكْتُمَ شيئًا من ذلك الوجدان، ولو كان كاتمًا شيئًا لكَتَمَ أمثالَ هذه الآيات، ولكنه الوحي لا يستطيعُ كتمانَه: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٖ﴾[5] ﷺ.

(١) التوبة: ٤٣.
(٢) التوبة: ١١٣.
(٣) الأنفال: ٦٧ – ٦٨.
(٤) عبس: ٥ – ١٠.
(٥) التكوير: ٢٤.

وتأمّل آيةَ الأنفالِ المذكورة -﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ... ﴾ الآية - تجد فيها ظاهرةً عجيبة، فإنها لم تَنْزِلْ إلا بعدَ إطلاقِ أسارى بدر، وقبولِ الفداء منهم، وقد بُدِئتْ بالتخطئةِ والاستنكارِ لهذه الفِعلة، ثم لم تلبثْ أنْ خُتِمتْ بإقرارِها وتطبيبِ النفوسِ بها، بل صارتْ هذه السابقةُ التي وقعَ التأنيبُ عليها هي القاعدةُ لما جاء بعدها، فهل الحالُ النفسيّةُ التي يصدُرُ عنها أوّلَ هذا الكلام -لو كان عن النفس مصدُرُه- يمكن أنْ يَصدُرَ عنها آخرُه؟ ولمّا تَمْضِ بينهما فترةٌ تفصلُ بين زمجَرَةِ الغضبِ والندم، وبين ابتسامةِ الرضا والاستحسان؟ كلا [1].

وهكذا كلما دَرَسْتَ مواقفَ الرسول ﷺ من القرآنِ في هذه المواطنِ أو غيرِها، تَجَلَّى لك فيها معنى العبوديةِ الخاضعةِ، ومعنى البشريةِ الرحيمةِ الرقيقة؛ وتجلى لك في مقابل ذلك مِن جانبِ القرآن، معنى القوةِ التي لا تَتَحكَّمُ فيها البواعثُ والأغراض، بل تَصْدَعُ بالبيانِ فُرقانًا بين الحق والباطل،

(١) وأنت لو نظرتَ في هذه المواقف التي عُوتِب فيها النبي صلى الله عليه وسلم، لوجدتها تنحصرُ في شيء واحد، وهو أنه عليه الصلاة السلام كان إذا ترجّح بين أمرين ولم يجد فيهما إنما اختار أقربهما إلى رحمةِ أهلِه، وهدايةِ قومه، وتأليفِ خصمِه، وأبعدِهما عن الغلظةِ والجفاء، وعن إثارةِ الشُّبَهِ في دين الله، لم يكن بين يديه نصٌّ فخالفَه كفاحًا، أو جاوزَه خطأً ونسيانًا، بل هو مجتهدٌ، بَذلَ وسعه في النظر، ورأى نفسَه مخيرًا فتخير، هبه مجتهدًا أخطأ باختيار خلافِ الأفضل، أليس معذورًا ومأجورًا؟ على أن الذي اختارَه كان هو خير ما يختاره ذو حكمة بشرية، وإنما نبّهه القرآنُ إلى ما هو أرجح في ميزانِ الحكمة الإلهية، هل تُرى في ذلك ذنبًا يستوجب عند العقلِ هذا التأنيب والتثريب؟ أم هو مقامُ الربوبية ومقامُ العبودية، وسُنّة العروج بالحبيب في معارج التعليم والتأديب؟!.

وميزانًا للخبيث والطيب، أَحَبَّ الناسُ أم كرهوا، ورضوا أم سخطوا، آمنوا أم كفروا؛ إذ لا تزيدُها طاعةُ الطائعين، ولا تنقصُها معصيةُ العاصين. فترى بين المقامين ما بينهما. وشَتّان ما بين سيِّدٍ ومَسُود، وعابدٍ ومَعبُود.

فاحمدوا الله تعالى -أيها المؤمنون- الذي هداكم لاتباع هذا النبي الكريم، الذي تَطَابَقت الأدلةُ على صدقِه في نفسِه، وصدقِه فيما بَلَّغَ عن ربّه.

اللهم فكما هديتنا لدينِه، فثبّتْنا عليه حتى نلقاك، واغفر اللهم لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.





المجلس الثالث

من أسرار الاستعاذة [١]

الحمدُ لله، والصلاةُ والسلامُ على عبدِهِ ورسولِهِ ومصطفاه، أما بعد:

فإنَّ اللهَ تعالى شَرَعَ لعبادِهِ أنْ يَستعيذوا عندَ إرادةِ البدءِ بتلاوةِ هذا القرآنِ العظيم، فقال سبحانه: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾[٢]!

فدعونا ـ أيها المؤمنون ـ نتأمّل في بعضِ أسرارِ هذا الأمرِ الإلهي!

إنَّ العبدَ عندما يَستفتِحُ لحظاتِ الاستدرارِ لنورِ الله العظيم، تلاوةً لكتابِهِ الكريم، فإنه يخشى أنْ يسطوَ الشيطانُ على قناةِ الاتصالِ بوجدانِه فيجعلُه من الغافلين!

والشيطانُ كلُّ مُتمرِّدٍ على اللهِ من الجنِّ والإنس، وإبليسُ اللعينُ رأسُ الشياطينِ في العالمين، وهو عدوٌّ مبين! فقد تعهَّدَ لربِّ العالمين بإفسادِ الأرضِ

(١) مجالس القرآن، للدكتور فريد الأنصاري: ص: (١١٩) وما بعدها، بتصرف يسير.
(٢) النحل: ٩٧.

وإضلالِ أهلِها أجميعن! ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾[1].

وقد طَرَدَ اللهُ -جَلَّ جلالُه- إبليسَ من سماواته، ورَجَمَهُ بالشُّهُبِ الثواقب! فتَفَرَّغَ اللعينُ لهذا الكيدِ العظيم! لا يدعُ للخيرِ بدايةً إلا أَرْبَكَها بقاصفِ الوساوس ونيرانِ الفِتن! فجَعَلَ الرحمنُ «الاستعاذَةَ» لعبادِه المؤمنين، نجاةً وأمانًا مِن كلِّ شيطانٍ رجيم. وماذا أعظمُ مِن جِوارِ اللهِ الواحدِ القهارِ سلامًا للمؤمنين؟

ومن هنا كانت صيغةُ الاستعاذةِ راجعةً إلى معنى قولِ القائل: أستجيرُ باللهِ وحدَه مِن الشيطانِ الملعون، المطرودِ من رحمةِ الله، وأَعتصِمُ به تعالى مِن أنْ يَضُرَّني في ديني، أو يَصُدَّني عن حقٍّ من حقوقِ ربي!

فإذا قالها الإنسانُ بين يدي تلاوة، أو صلاة، أو نحوِ هذا؛ استحضَرَ دلالةَ الاستعاذةِ قبل بدء ذاك العمل، واجتهدَ في تطهيرِ مداخلِ نفسه تطهيرًا من كلِّ طَرْقٍ شيطانيٍّ خفي، مُستجيرًا بربِّه القوي العزيز: (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم!) فتُوَلِّي الشياطينُ الأدبارَ هاربةً في متاهاتِ ضَلالِها، وظُلُماتِ كيدِها، بعيدًا عن شلّالِ النورِ الذي تَدفَّقَ على القارئِ بمجرَّدِ طلبِ الغَوثِ والأمانِ من ربِّ العالمين!

(١) الحجر: ٤٠ – ٤٢.

والاستعاذةُ بهذه الصيغةِ ليستْ آيةً من كتابِ الله، لكنْ رسولُ اللهِ ﷺ كان يقرؤها؛ استجابةً لأمرِ اللهِ تعالى في القرآن: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ فهي أمرٌ ربانيٌّ وسنةٌ نبوية.

وهذه الآيةُ مع الصيغةِ النبويةِ في الاستعاذة، كلاهما مُتضمِّنٌ لخمسِ رسالات، لا بُدَّ للسائرِ إلى اللهِ – جَلَّ ثناؤه – عَبْرَ مِعْرَاجِ القرآنِ الكريم من تَلَقِّيها جميعًا، الواحدة تِلوَ الأخرى، وإلا فلا وصولَ ولا قَبولَ:

- الرسالة الأولى:

أنه لا بَدْءَ في طريقِ الله، ولا فَتْحَ للعبدِ الطَّارِقِ أبوابَ مَعَارِجِ القرآن؛ إلا بإعلانِ الولاءِ للهِ الحق، والانتظامِ في صفِّ العابدين له وحده دون سواه! وإعلانِ معاداة الشيطانِ بما هو عدوٌّ لله رب العالمين، والتبرؤِ منه ومن حزبه وأتباعِه! وإنما الاستعاذةُ فتحُ عينِ القلبِ على بصيرةٍ قرآنيةٍ عُظمى، لا يجوزُ نسيانُها أبدًا! هي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾[1] إنّ الاستعاذةَ ليستْ مجرَّدَ عباراتٍ تُلْقَى في الهواءِ فحسب، ولكنّها اتخاذُ موقفٍ! فتَدَبَّرْ!

(١) فاطر: ٦.

- **الرسالة الثانية:**

في أنّه لا قوةَ للعبدِ على الانطلاقِ وبدءِ السيرِ إلى اللهِ والتعرُّف إليه تعالى؛ إلا بالاحتماءِ به، والالتجاءِ إليهِ ابتداءً! فلا وصولَ إليهِ بمجرَّدِ الجُهدِ الخاصِ والكسبِ الذاتي، بل لا بُدّ مِن استدرارِ توفيقِه ورحمتِه، فالهدايةُ والتوفيقُ والسداد، كلُّ ذلك إنما هو بيدِهِ وحدَه جلّ علاه! وذلك من صَميمِ التوحيدِ والإخلاص.

وتحقيقُ معنى الاستعاذةِ في النفس تَخَلُّقٌ عميقٌ بهذا المعنى العظيم، ولا صحةَ لعملٍ - من حيثُ القصدُ التعبديُّ الخالص - إلا باستدراجِ هذا الأصلِ الإيماني في عمقِ القلب، نيةً تعبدية خالصةً، لتخليصِ العملِ وتصفيتِه مِن كلِّ مَنٍّ، ومِنْ كُلِّ حَوْلٍ وقوةٍ، إلا ما كان باللهِ وله، وحدَه دونَ سواه!

- **الرسالة الثالثة:**

في أنّ التعبدَ بالقرآنِ تلاوةً، وتزكيةً، وتعلُّما وتعليما، لن يؤتيَ ثمارَه، ولن يُكشَفَ عن أنوارِه لعبدٍ؛ إلا إذا تبرَّأَ مِن كلِّ حولٍ وقوة، وقدَّم بين يدي تلاوته علامةَ الافتقارِ إلى الله الغنيِّ الحميد، وهي الاستعاذةُ، ولذلك ليس كلُّ قارئٍ للقرآنِ بقارئ! ولا كلُّ تَالٍ له بِتَالٍ! وإنما القارئُ والتالي له هو مَن يتلوه حقَّ تلاوتِه. والتحققُ بمقاصدِ الاستعاذةِ شرطٌ من شروطِ التلاوةِ الحق! فمَن أخطأَ حقيقتَها أو استهانَ بها عَدِمَ الثمرة، وحُرِمَ النور! فكم مِن قارئٍ يقرأُ القرآنَ وهو عليه عَمًى! والعياذُ بالله! ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾[1].

(١) فصلت: ٤٤.

- الرسالة الرابعة:

في أنّ الشيطانَ قد يتدخَّلُ فيما يقعُ بقلبِ العبدِ مِن آثارِ التلاوة -وهو مِن أشدِّ الكيد- فيُفْسِد الفهمَ، أو يُفسِد نيةَ الافتقارِ والتعبدِ عند التلقّي عن الله، أو يَصرِف البالَ عن مشاهدةِ نورِ الهداية؛ فلا يخرُجُ العبدُ مِن تلاوتِه بشيء، وربما خرَجَ بضلالٍ وحَيرةٍ والعياذُ بالله، كما حَصَل لأهلِ الضّلالةِ قديماً وحديثًا عند قراءةِ القرآن! وذلك نحو ما في قولِه ﷺ: «سيخرجُ في آخرِ الزمانِ قومٌ أحداثُ الأسنان، سفهاءُ الأحلام، يقولون من خير قولِ البرية، يقرؤون القرآنَ لا يُجاوِزُ حناجِرَهم! يمرقون من الدينِ كما يمرُقُ السهمُ من الرَّمِيَّةِ!»[1]، فلا ينجو المؤمنُ مِن هذا وذاك إلا بطلبِ الغوثِ من اللهِ استعاذةً به تعالى؛ لِتصِلَ رسالاتِ القرآنِ إلى قلبِه صافيةً خالصةً! لا أَثَرَ فيها لإلقاءات الشيطان فَهْماً وقصدًا.

- الرسالة الخامسة:

في أنّ العبدَ المستجيرَ آمِنٌ مِن كلِّ ذلك وغيرِه بإذنِ الله؛ لأنه استجارَ بعظيم! وهو -جل وعلا- لا يُضَامُ جارُه!

(١) رواه البخاري (٦٩٣٠)، مسلم (١٠٦٦).

فالهُدَى المستنبَطُ من «الاستعاذةِ» راجعٌ إلى كونها تعبيرًا عن وَصْفٍ نفسيٍّ، وَوِجْدَانٍ إيماني، يقعُ بقلبِ العبدِ قبلَ أنْ يقعَ بلسانِه، والتحقُّقُ به هو أوّل الطريق، وتلك هي المنـزلةُ الأولى مِن منازلِ الإيمان، لمن رامَ الإقلاعَ في طريقِ التعرُّفِ إلى الله.

إنها كلمةُ الأدبِ بإعلانِ الافتقارِ الكاملِ إلى اللهِ الغنيِّ الحميدِ جل علاه، والتبرؤِ مِن كلِّ حولٍ وقوةٍ في العلمِ والعمل، إلا ما كان مَنًّا كريمًا وفضلًا جميلًا مِن اللهِ وحده! فلا انطلاقَ بغيرِ التخلُّقِ بوصفِها والتحقق بمقامِها. فإنْ تَفْعَلْ بصدقٍ وإخلاصٍ فأبشِرْ! إنك آمِنٌ بإذنِ الله، محروسٌ بجنودِه جلَّ عُلاه، فَانْعَمْ مُطْمَئِنًّا بِجِوَارِهِ تعالى وحِمَاه!

أما كيف نُحقِّقُ أثرَ هذه الاستعاذةِ عمليًّا؟

فإنَّ البدايةَ تكونُ من مُساءلةِ النفس بصدق: ماذا تريد؟ ماذا تُريدُ بما هي مُقبلةٌ عليه مِن قِراءةٍ أو عبادة؟ أَحقًّا تريدُ الوصولَ إلى الله؟ أَحَقًّا تريدُ القيامَ بحقِّهِ العظيمِ جل علاه؟ والدخولَ في القيامِ بوظيفةِ الخدمةِ لدينه؟ وحملَ ميثاقِ عهدِه وأمانتِه، وتَلَقِّي رسالاتِ هَدْيِهِ وقرآنِه؟ واستدرار مددِه وأنوارِه؟ أم أنها تقرأُ وكفى؟! بلا قصدٍ تعبُّدي، إلا قَصْدَ التَّعَوُّدِ والتسميع، وما دون ذلك مِن مُبطلاتِ الأعمالِ ومحبِطاتها؟!

حتى إذا صارت لك حقائقُ الاستعاذةِ الإيمانيةِ خُلُقًا وطَبْعًا، أصبحَ معناها بقلبِكَ زادًا إيمانيا، تجدُه جاهزًا - إن شاء الله - متى استدعيتَه بقراءتِها، عندَ كلِّ تلاوة، وعندَ كلِّ تصرُّفٍ تعبديٍّ أنَّى كان؛ فأَبْشِرْ!

ثم إنّ أوّلَ ما يبعثُ النفسَ على الانطلاقِ السليم - بعد ذلك - هو تخليصُ الوجهةِ وتوحيدِ القبلة!

ومما يُعينُ على ذلك: تَذَكُّرُ أحوالِ السابقين الأولين كيف سَبَقوا؟! وتشاهد غبطة الواصلين الصادقين كيف وصلوا؟! لقد قرؤوا القرآنَ بكمالِ الافتقارِ إلى اللهِ وتَلَقِّي رسالاتِه هُدًى وشفاءً لقلوبهم؛ فانفتحت لهم مَعَارِجُ الروح، وارتقوا في الدنيا وفي الآخرة! وتلك مَعَارِجُهُمْ لم تزلْ مفتوحةَ الأبواب؛ فاقْرَأْ يَا صَاحِ وارْتَقِ!

فيا نفسي المغرورة.. إلى متى تبقين هكذا شاردةً عن بابِ الله؟ إلى متى وأنت تستجيبين لأهوائِك؟ تَفِرِّين إلى شهواتِكِ ومَلذّاتِك؟ وتَتَلفعين بذاتِكِ وأنانيتك؟ وما أنتِ إلا قطرةٌ من روحٍ في جَرَّةٍ من طين! متى انكسرتْ سالت! آهٍ يا نفسُ! هذه مَسَامُّكِ الصغيرة تتسعُ من حينٍ لآخر؛ فيتسرَّبُ منها الشيطانُ إلى نفسِك لِيَعيثَ فسادًا داخلَ خواطرِكِ وأشواقِك! فيَحُولَ دون انطلاقِ الروح في رحلةِ السيرِ الكوني إلى الله!

عجبًا كيف تصبرين على هذه الحال! وها كلُّ الطيورِ قد أَعلنتْ توبتَها، وانطلقت تضربُ بأجنحتِها بعيدًا في رحلة المحبين؟! فَفِرِّي إلى الله مستعيذةً بالله! وأعلني الافتقارَ الكاملَ له وحدَه جلَّ عُلاه؛ عسى أن تكوني من أهلِ النجاةِ والفتحِ المبين! ذلك قولُ الحق ذي القوة المتين: ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴾[1]. واجْأَرِي إلى مولاكِ باستغاثةِ الفقراءِ الصادقين: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم!».

اللهم أَعذِنا من الشيطانِ الرجيم، ومِن كلِّ ما يحولُ بيننا وبين فهمِ كتابِك العظيم.

اللهم اغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.



(١) الذاريات: ٥٠.



المجلس الرابع

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[1]

الحمدُ لله، والصلاةُ والسلامُ على عبدِه ورسولِه ومصطفاه، أما بعد:

فإنّ سورةَ الفاتحةِ أعظمُ سورةٍ في القرآن، وأجمعُ آياتِ هذه السورةِ لمعاني الدينِ وحقائقِ الملةِ قولُه تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[2]، إذ يعترفُ العبدُ عند تلاوتِها بأمرين عظيمين:

الأول: أنّه عبدٌ للهِ لا يعبُدُ أحدًا سواه، ولا يتوجَّه برغبتِه ورهبتِه ومحبتِه ورجائِه وصلاتِه ونُسُكِه وجميعِ عباداتِه إلا للهِ وحدَه، لا يَشرِكُ به شيئًا.

والثاني: أنّه لا يَستعينُ على قضاءِ حوائجِه، وكَشْفِ كُرَبِه وتفريجِ همومِه، وإجابةِ دعائِه وتحقيقِ آمالِه ورفعِ آلامِه، إلا بالله، فهو القادرُ وحدَه على كلِّ شيءٍ، وهو المستعان على كلِّ شأن، وهو بهذا يَعترِفُ لربِّه بالقوَّةِ المطلقة

(١) للدكتور محمد بن عبد العزيز الخضيري، عضو الهيئة العالمية لتدبر القرآن، وعضو هيئة التدريس بجامعة الملك سعود.

(٢) الفاتحة: ٥.

والقدرةِ التامة، والعلمِ الكاملِ والرحمةِ الواسعةِ والربوبيةِ الشاملة، والفضلِ والمُلْكِ والإنعام، جَل جَلالُه وتَقدَّستْ أسماؤه.

وهذه الآيةُ على قِلَّةِ ألفاظِها، فإنّها تَضَمَّنت معانيَ جليلةً وحقائقَ عالية، تَستَحِقُّ أنْ يَتَوَقَّفَ المسلمُ عندها مَلِيًّا.

فمِن ذلك: أنّ العبادةَ قُدِّمَت فيها على الاستعانة؛ لأَنَّ العبادةَ حقُّ الله، والاستعانةَ حقُّ المخلوق، وحقُّ اللهِ -بلا شك- مُقدَّمٌ على حقِّ المخلوق، وهي بهذا تُعلِّمُنا الأدبَ مع اللهِ، وتقديمَ حقِّهِ وأمرِهِ ونهيِهِ على كلِّ شيءٍ؛ اعترافًا بفضلِهِ وألوهيتِه، وإجلالًا له وخضعانًا لجَنَابِه.

ومن ذلك: أنّ الفعلينِ فيها جاءا بلفظِ الجمعِ (نعبد ونستعين)، ولم يقل (أعبد وأستعين)؛ تذكيرًا للمسلمِ بارتباطِه مع الجماعةِ المسلمة، وحرصِه على إيجادِها، وبُعدِهِ عن الفَردِيَّةِ والانعزال، إضافةً إلى ما فيها من التواضعِ الذي يقتضيه هذا الاعتراف، ذلك أنّه إذا ذَكَرَ عِبادتَه مع عبادةِ الجماعة، واستعانتَه مع استعانتِها؛ ارتَفَعَ مِن قلبِه الالتفاتُ إلى عبادتِه والعُجْبُ بها، فهو يقولُ بلسانِ الحالِ: أنا يا رب ليس مني عبادةٌ تَستَحِقُّ أن أَعترِفَ بها؛ لكن عبادتي مع إخواني هي مَحَلُّ اعترافي لك وتَوَسُّلي إليك، فيَسقُطُ بذلك رؤيةُ المصلي لعملِهِ، وهذا داعٍ لِقَبولِهِ عند ربه واستجابةِ دعائِه، فإنّه لا يقبلُ عملًا مِن مُعجَبٍ، ولا يَسمعُ دعاءًا مِن مُتكبِّر.

ومن ذلك: أنّ تقديمَ العبادةِ في الآيةِ على الاستعانةِ وافَقَ قِسمَةَ السورةِ المذكورَ في الحديثِ القدسي: (قَسَمْتُ الصلاةَ بيني وبين عبدي نصفين)[1].

فالنصفُ الأولُ لله، والنصفُ الثاني للعبد، والسورةُ مُكَوَّنةٌ مِن سبعِ آياتٍ، تبدأُ -على الصحيح- بقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[2] فيكونُ ما للهِ فيها ثلاثُ آياتٍ ونصف، وما للعبدِ ثلاثُ آياتٍ ونصف.

ومن ذلك: أنّ الدِّينَ مُنقسمٌ إلى قسمين، عبادةٌ واستعانة، ولا يَكمُلُ دينُ امرئٍ حتى يقوم بهما على أكمل الوجوه. فالصلاةُ عبادةٌ واستعانة، وسؤالُ اللهِ ودعاؤه عبادةٌ واستعانة، وأفضلُ الخَلق مَن كَمَّلَهما وقام بهما على أكملِ وجهٍ وأحسنِ حال، وشَرُّ الخَلْق مَن تَرَكَ عبادةَ اللهِ، وتَرَكَ الاستعانةَ به على قضاءِ الحوائجِ، وكَشفِ الكُرَبِ، وتَيسيرِ الأمورِ، وشرحِ الصدور.

هذان صنفان وبقي صنفان:

أولهما: مَن قَامَ بالعبوديةِ وقَصَّرَ في الاستعانة، وهذا يحصُلُ لبعضِ الصالحين، فهو يُؤَدِّي المأمورات ويترك المنهيات، ويَفعلُ ذلك بانتظام، لكنه مُقلٌّ من الاستعانةِ باللهِ على قضاءِ حاجتِه وعبادةِ ربه، وقد حُرِم بذلك حَظًّا عظيمًا مِن الافتقارِ إلى اللهِ، واللجأِ إليه، والانطراح بين يديه، وعَرْض حاجتِه على مَن يفرحُ بقضائِها، ويَبتَلي عبادَه بأنواعِ البلاءِ ليُقبِلوا بها على ربهم، مُتضَرِّعةً

(١) رواه مسلم عن أبي هريرة -رضي الله عنه-: (٣٩٥).
(٢) الفاتحة: ٢.

قلوبُهم، وَجِلةً أفئدتُهم، فتَسكُن بمناجاةِ السميعِ العليمِ الرحيم، تَلَذُّ بدعائِه، وتَأنَسُ بِعَرْضِ حاجتِها عليه.

وهذا الصنفُ يقعُ منه التقصيرُ في الاستعانةِ جَهلًا بمقامِ الاستعانة، الذي لا يَكمُلُ إيمانُ عبدٍ إلا به، وغفلةً عن الاقتداءِ بالأنبياءِ الذين يحرِصون على الاستعانة بربهم، والالتجاء إليه، ويَعرضون حوائجَهم على ربهم في كل شؤون حياتهم، لا يُقصِّرون في ذلك، وتأمَّلْ حالَ كليمِ الرحمنِ، عندما قَتَلَ القِبطيَّ، وجاء الرجُلُ مِن أقصى المدينةِ يحذِّرُه، قال الله: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾[1].

ثم لمَّا وَرَدَ ماء مدينَ، وسَقَى للفتاتينِ بلا أَجْرٍ: ﴿تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾[2].

وهذا سيِّدُ ولدِ آدم – ﷺ – عندما التقى الجمعانِ في بدر، رَفَعَ كَفَّيهِ إلى السماءِ يَسألُ ربَّه ويناجيه، ويدعوه دعاءَ المُفتقِرِ إلى الفَرَجِ مِن ربِّه الكريم، ويُناشِدُه قائلًا: «اللهم أَنجِزْ لي ما وعدتني، اللهم إنَّك إنْ تَهلِك هذه العِصابةَ مِن أهلِ الإسلامِ لا تُعبدُ في الأرض»[3]، حتى أَشْفَقَ أبو بكرٍ عليه مِن شِدَّة تَضَرُّعِه وقال له: «يا نبيَّ اللهِ كفاك مناشدتك ربك، فإنّه سينجزُ لك ما وَعَدَك»[4].

(١) القصص: ٢١ – ٢٢.
(٢) القصص: ٢٤.
(٣) رواه مسلم (١٧٦٣).
(٤) المصدر السابق.

لقد كان هؤلاء الأنبياءُ قائمين بعبادةِ ربِّهم على أَكْملِ الوجوه، ولم يمنعْهم ذلك أو يحمِلْهم على أن لا يستعينوا بالله، ويلتجئوا إليه في كشفِ الكُرَب، وقضاءِ الحوائج، لِعِلْمِهم بأنّ ذلك مِن تمامِ العبوديةِ، ومما يحبُّه الربُّ مِن عبادِه.

وثاني الصنفين: مَن يَستَعِينُ باللهِ في أمورِه، وتحصيلِ حاجتِه ولو كانت محرمة، لكنّه مُقصِّرٌ في العبادة، أو تاركٌ لها بالكُلِّية، وهذا موجودٌ في بعضِ العُصاةِ المنحرفين، وعُتاةِ المجرمين، فتَجِدُهم يدعون الله كثيرًا لقضاءِ حوائجِهم -حلالًا كانت أم حرامًا-، لكنّهم لا يَرعَون أمْرَ اللهِ ولا نهيَه، ولا يُطيعُون اللهَ ولا رسولَه ﷺ في قليلٍ أو كثير.

فهؤلاء أصنافٌ أربعةٌ مِن أصنافِ الخَلْقِ في العملِ بِرُكْنَي هذه الآيةِ الكريمة.

وبهذا يُعلَم أنّه يَنبغي للعاقلِ أنْ يَتَفَقَّدَ هذين الأمرين العظيمين؛ في أعمالِه وسائرِ أحوالِه، فإذا عَزَمَ على الصيامِ استعانَ باللهِ على صِدقِ النيةِ وصِحّةِ العمل، والإقبالِ بقلبِه على الله، ثم سَألَ ربَّه القبول، وإذا أرادَ أنْ يُصليَ سَألَ اللهَ الإعانةَ على إقامتِها، والخشوعِ فيها، وإخلاصِ النيةِ وسلامتِها من الوساوس والخطرات، وأَكْثَرَ مِن الدعاءِ النبوي: «اللهم أعِنِّي على ذكرِك وشُكرِك وحسنِ عبادتِك»[1].

(١) رواه أحمد (٢٢١١٩)، وصححه ابن خزيمة (٧٥١)، وابن حبان (٢٠٢١).

ومِن عجائبِ هذه الآية، أنّ العبدَ يَتوسَّلُ بها بين يدي الدعاءِ الأعظم في السورةِ: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾[1]، فيَعْتَرِفُ أنّه عبدٌ ذليلٌ مُفتقِرٌ مُحتاجٌ طالِبٌ للعون، وهذه مِن أَعظمِ وسائلِ إجابةِ الدعاء، فيُقالُ له ما أَهمُّ شيءٍ تريدُ أنْ يُعينَكَ اللهُ عليه فيقول: اهدِنا الصراط المستقيم.

وحَريٌّ بمن حَمِدَ اللهَ وأثنى عليه ومجَّدَه، ثم اعترَفَ بِعُبوديتِهِ بربِّهِ أن يُجابَ دعاؤه وتُحَقَّقَ طلباتُه.

والحاصلُ أن هذه الآيةَ عظيمةُ القَدْرِ، جليلةُ المكانة، جديرةٌ بالتأمّل والتدبُّر، فيها أضعافُ ما ذكرنا من الوقفات، والتوجيهاتِ والحقائقِ العاليات، رَزَقَنا اللهُ القيام بها، وأداءَ حقِّها، وحُسْنَ التفكُّرِ فيها.

اللهم وارزقنا صدقَ التعبُّد لك، والاستعانة بك، واغفر اللهم لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.



(١) الفاتحة: ٦.



المجلس الخامس

عظمة الله في ضوء اسمه العليم

الحمدُ لله، والصلاةُ والسلامُ على عبدِه ورسولِه ومصطفاه، أما بعد:

فإنّ مِن أعظمِ ما ينبغي للمؤمن أنْ يتأمّلَ في معانيه، ويَتدبَّرَ في آثارِه: أسماءُ الله الحسنى.

ومِن هذه الأسماءِ الحسنى التي تَكَرّرَ ورودُها في كتابِ اللهِ تعالى: اسمُه (العليم) جل جلاله، وتَقدَّستْ أسماؤه، العالمُ ببواطنِ الأمورِ وظواهرِها، دقيقِها وجليلِها: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾[1].

«وهو سبحانه وتعالى يعلمُ الأمورَ المتقدمةَ والأمورَ المتأخرة، أزلًا وأبدًا ﴿يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَا﴾[2].

وهو سبحانه يعلمُ جليلَ الأمورِ وحقيرَها، وصغيرَها وكبيرَها: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ۝٥ هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾[3].

(١) الأنفال: ٧٥.
(٢) سبأ: ٢.
(٣) آل عمران: ٥ – ٦.



ويعلمُ تعالى ظواهرَ الأشياءِ وبواطنَها، غيبَها وشهادتَها، ما يعلمُ الخلقُ منها وما لا يعلمون ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ﴾[1].

ويعلمُ تعالى ما تحت الأرضِ السفلى، كما يعلمُ ما فوق السماواتِ العُلى ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾[2].

ويعلمُ تعالى جزئياتِ الأمورِ، وخبايا الصدور ﴿يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾[3].

ويعلم سبحانه خفايا ما وَقَعَ ويَقعُ في أرجاءِ العالَم، وأنحاءِ مُلْكه ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ أَيۡنَ مَا كَانُواْۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾[4].

وهو سبحانه يعلمُ الأقوالَ والأسرار ﴿وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى﴾[5]، ﴿سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ﴾[6]، أحاطَ علمُه بجميعِ الأشياءِ في كلِّ الأوقات، ولا

(١) الجن: ٢٦، ٢٧.
(٢) الحج: ٧٠.
(٣) التغابن: ٤.
(٤) المجادلة: ٧.
(٥) طه: ٧.
(٦) الرعد: ١٠.

يَعرِضُ تعالى لعلمِه خفاءٌ ولا نسيان ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ۝٥٢﴾[1]»[2].

وغير ذلك من النصوصِ الكثيرة الدالةِ على عظمةِ علم الله جل جلالُه، فإنَّ تَدبُّرَ بعضِ ذلك يكفي المؤمنَ البصيرَ معرفةً بإحاطةِ علمِ الله تعالى، وكمالِ عظمتِه، وجليلِ قَدْرِه، وأنه الربُّ العظيمُ المالكُ الكريم.

أيها المؤمنون:

دعونا نقف -نحن وإياكم- مع آيةٍ من آياتِ الله، الدّالةِ على عظمةِ علمه سبحانه وتعالى، وكمالِ إحاطته بالمعلومات، يقول تعالى: ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾[3].

يا له من مشهدٍ شاملٍ واسعٍ عميق: مَشهدِ الورقِ الساقطِ من شجرِ الأرض جميعًا، والحبِّ المخبوءِ في أطواءِ الأرضِ جميعًا، والرَّطْبِ واليابسِ في أرجاءِ الأرضِ جميعًا.

إنَّ هذا المشهدَ كما أنه لا يتَّجهُ إليه الفكرُ البشريُّ والاهتمامُ البشريُّ، وكذلك لا تَلْحَظُه العينُ البشرية، ولا تَلمُّ به النّظرةُ البشرية، فهو المشهدُ الذي يَكْشِفُ بجملتِه عن سعَةِ علمِ اللهِ وحده، المشرفِ على كلِّ شيء، المحيطِ بكلِّ شيء،

(١) طه: ٥٢.
(٢) «المواهب الربانية» لابن سعدي ص: (١٠٨-١٠٩) (بتصرف).
(٣) الأنعام: ٥٩.

الحافظِ لكلِّ شيء، الذي تَتعلقُ مشيئتُه وقَدَرُه بكلِّ شيء: الصغيرُ كالكبير، والحقيرُ كالجليل، والمخبوء كالظاهر، والمجهول كالمعلوم، والبعيد كالقريب.

﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ﴾ فتأمّل ماذا يدخُلُ تحت كلمةِ الغيب؟ إنه غيبٌ ممتدٌّ في عُمقِ الزمانِ والمكان، وفي الماضي والحاضرِ والمستقبل، وفي أحداثِ الحياةِ وتصورات الوجدان.

﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾، فكم في البرِّ والبحرِ من مخلوقاتٍ ساكنةٍ ومُتحركة؟!

﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا ﴾ الله أكبر! ماذا لو أنّ كلَّ دُولِ العالمِ اجتمعتْ لِتُشكِّلَ جيوشًا من العمّالِ؛ لِتَرصِدَ حركةَ الأوراقِ المتساقطة؟ كم سَتُحصي؟ وكم سيفوتُ عليها؟ أمَّا اللهُ العليم، فلا يَعزُبُ عنه ورقةٌ واحدة! رطبةٌ أو يابسة! صغيرةٌ أم كبيرة! ورقةٌ من شجرِ البر أم من شجرِ البحر! فسبحانه!

ثم قال تعالى: ﴿ وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ ﴾ فأَطْلِق لِفكرِكَ وخيالك ـ أيها المؤمن بربه العليم ـ وتَفكّر في مساحةِ هذه الظلمات، وفي حجمِ هذه الحبّة!... إنها لا تخفى على الله!

﴿ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾: إنه عمومٌ لا يَشِذُّ عنه شيء! لِيدخُلَ فيه كلُّ آدميٍّ وحيوانٍ وشجرٍ وبرٍ وبحر.. كلُّها في «كتابٍ مبين»[1]!

(١) ينظر «في ظلال القرآن» آية (٥٩) من سورة الأنعام.

يا أمةَ القرآن!

ومما اختص الله بعلمه: مَفاتِحُ الغيب، وهي خمسٌ لا يعلمُهن إلا الله، وهي المذكورةُ في آخرِ آيةٍ من سورةِ لقمان: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾[1].[2].

أما الساعة: فقد قال الله عنها: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[3].

وأما نزول الغيث: فإنَّ علم البشر مهما اتسع، فإنما غايتُه التوقُّعُ لوقتِ النزول، وقد يتِمُّ وقد لا يتم، ثم لو قُدِّرَ قدرتُهم على التوقيت الدقيق، فمن الذي يعلمُ عددَ قطرِ الأمطارِ إلا الله! ومَن الذي يعلمُ مصدرَ تلكمُ القطراتِ إلا الله! ومن ذا الذي يعلمُ بمواقعِ تلك القطراتِ حين تنزل! هذه على سَهْل، وتلك على جبل، وثالثةٌ تصيبُ رأسَ كائنٍ حي، ورابعةٌ على شجرة، وهكذا، فسبحان من أحاط علمُه بكلِّ شيء.

وأما علم الأرحام: فإنَّ غايةَ ما وَصَلَ إليه علمُ الطبِّ الحديث، هو القدرةُ على تحديدِ جنسِ الجنين، وهم يُصيبون كثيرًا، ويُخطئون كثيرًا، ولو قُدِّر أنهم

(١) لقمان: ٣٤.
(٢) كما جاء في صحيح البخاري (٤٦٢٧) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.
(٣) الأعراف: ١٨٧.

يُصيبون تمامًا، فإنّ تحديدَ جنسِ المولودِ إنما هو معلومةٌ واحدةٌ من معلوماتٍ كثيرةٍ جدًا في علمِ الأرحام، فمَنِ الذي يعلمُ وقتَ التقاء النطفةِ بالبويضةِ بالساعةِ والدقيقةِ والثانية؟ ومن الذي يعلمُ حين التقتا عن نوعِ الجنس؟ ومن الذي يعلمُ بتلكم الأسئلةِ الأربعة التي يُؤْمَرُ المَلَكُ بكتابتها: عمله، ورزقه، وأجله، وشقي أو سعيد؟ ومن الذي يعلمُ متى نُفِخَت في الجنين الروح؟ ومن الذي يعلمُ هل سيعيش هذا الجنينُ حتى يخرج؟ ومن الذي يعلمُ اللحظةَ التي يخرجُ فيها هذا الجنين إلى هذه الدنيا؟ إنه الله وحده، جل جلاله.

وأما خفاءُ كَسْبِ الغدِ والأجلِ فهذا مما لا يحتاجُ إلى تفصيل، فكيف يُصَدِّقُ بعد ذلك -بعضُ الناس- ما يُرَوِّجه بعضُ الدجالين والكهان، عَبْرَ بعضِ الفضائيات أو الإذاعات باسمِ قراءةِ الحظ، أو الكف، أو الفنجان!

يا أمة القرآن!

هذه ومضةٌ في عالمٍ عظيمٍ من معاني هذا الاسم الكريم من أسماء الله الحسنى، التي ينبغي أن يُورِثَ العلمُ بها: الخوفَ منه سبحانه، وخشيتَه في السر، وحفظَ الجوارحِ عما يُغضبُه، فإنه سبحانه، شهيد، مُطلعٌ، لا يخفى عليه شيءٌ من أحوالنا.

اللهم ارزقنا خشيتَك في الغيبِ والشهادة، ومراقبتَك في السرِّ والعَلَن.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.





المجلس السادس

منهجُ السلفِ في تلقي القرآنِ وتدبُّرِه(١)

الحمدُ لله، والصلاةُ والسلامُ على عبدِه ورسولِه ومصطفاه، أما بعد:

فإنَّ الرِّفْعةَ والعِزَّةَ التي نالها السَّلَفُ الصالح، وذَلّتْ لهم رِقابُ العربِ والعجم، إنما كانت بسببِ تمسُّكِهم الحقيقي بِكتابِ اللهِ تعالى.

وحَقيقٌ بمَن يُريدُ سلوكَ طريقِهم، أنْ يَتَعرَّفَ على منهجِهم في تلقي هذا القرآنِ وتدبُّرِه، وهذا ما سَنُحاولُ الإشارةَ إليه بإيجازٍ في هذا المجلس.

إنَّ مَن تأمَّلَ حياةَ السلفِ مع القرآن، وَجَدَ أنَّ لهم مَنْهجًا في العنايةِ بهذه العبادةِ العظيمة، يُمكِن تحديدُ معالمِها فيما يلي؛ لعلَّنا نُفيدُ مِنها، ومِن أَبْرزِ تلك المعالم:

أولًا: معرفتُهم لمنزلةِ هذا القرآن، وإدراكُهم لمقصدِه الأعظم:

ذلك أنّ تلقِّي الأمرِ بالمحبةِ والتعظيمِ والإيمان؛ يؤدِّي إلى حُسْنِ التعامُلِ معه، ومَن عَرَفَ قِيمةَ الشيءِ اعتنى به واهتمَّ به، وقد ظَهَرَ ذلك في الجيلِ الأولِ من خِلالِ أقوالِهم وأفعالِهم، ومن أقوالِهم المأثورةِ في بيانِ عظمةِ القرآنِ

(١) للدكتور محمد بن عبد الله الربيعة، عضو الهيئة العالمية لتدبر القرآن، وعضو هيئة التدريس في جامعة القصيم.

وأَثَرِه، التي ترجموها إلى الاستجابةِ العملية:

قولُ عبدِ الله بنِ مسعود -رضي الله عنه-: «إنّ هذا القرآنَ مأْدبةُ الله، فتعلَّموا من مَأدبتِه ما استطعتم، إنَّ هذا القرآنَ هو حَبلُ اللهِ الذي أَمَرَ به، وهو النور المبين، والشفاءُ النافعُ عصمةٌ لمن اعتصم به»[1]،

وعنه رضي الله عنه قال: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَعلَم أَنه يُحِبُّ اللهَ ورسولَه فليَنظُر: فإِنْ كان يُحبُّ القرآنَ، فهو يحبُّ اللهَ ورسولَه»[2].

ويقولُ ابنُ عباسٍ -رضي الله عنهما-: «ضَمِنَ اللهُ لَمن قَرَأَ القرآنَ لا يَضِلُّ في الدنيا ولا يشقى في الآخرة، ثم قَرَأَ: ﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾[3].»[4]. والمرادُ بالقراءةِ الاتِّباعُ بدليلِ نَصِّ الآية.

وقال الإمام البخاري -رحمه الله-: «لا يجدُ طَعْمَه ونَفْعَه إلا مَن آمَنَ بالقرآنِ، ولا يحملُه بحقِّه إلا الموقِن»[5].

ونحن بحاجةٍ ماسّةٍ لتربيةِ قلوبنا على هذا المعنى، فلقد ضَعُفَ تعظيمُ القرآنِ ومحبتُه الصادِقةُ والإيمانُ به في قلوبِ كثيرين، مما أدَّى إلى ضَعفِ

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ١/ ٧٤١رقم ٢٠٤٠ وقال (صحيح الإسناد ولم يخرجاه). وابن أبي شيبة ٦/ ١٢٥برقم ٣٠٠٠٨.
(٢) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن ص٢١.
(٣) طه: ١٢٣.
(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك ٢/ ٤١٣ برقم ٣٤٣٨.
(٥) صحيح البخاري ٢٤/ ٤١٠.

الاتصال به، والتأثُّرِ فيه، وهنا مَكمَنُ المشكلة، والحلُّ: غَرْسُ تعظيمِ القرآنِ في نفوسِ الناشئة، ومحبتهم له محبة صادقةً ينبعِثُ معها الأثَرُ والقبول، واستمرارُ التذكيرِ بقيمةِ القرآن، وبالهدفِ الأسمى لنزولِه.

ثانيًا: تعلُّمُهم وتعليمُهم الإيمانَ قَبلَ القرآن:

والمقصودُ: أنهم غُرِسَ في قلوبهم تعظيمُ الله، وتعظيمُ أمرِه ونهيِه، فسَهُلَ عليهم بَعدَ ذلك تَلَقِّي الأحكامِ الشرعية، وهذا جانبٌ رئيسٌ في إحياءِ التربيةِ القرآنيةِ في النفوس.

وهذا المنهجُ قد اتخذَهَ القرآنُ في تربيتِهِ للصحابةِ أوَّلَ الإسلام، حيثُ كان أوَّلُ نزولِ القرآنِ تَرْبيةً على الإيمانِ في السُّور المكية -وخاصّةً المُفصَّل منها- فكُلُّه في تَرْسِيخِ الإيمانِ باللهِ واليوم الآخر، فأَوْرَثَ في نفوسِهم الإيمانَ الصحيحَ والتعظيمَ للقرآن، وهَيَّأَ نفوسَهم لِتَلَقِّي تَوجيهاتِه.

يوضِّحُ هذا المنهجَ -الذي رَبَّى النبيُّ ﷺ عليه أصحابَه- أحدُ التلاميذِ النُّجباءُ في مدرسةِ محمدٍ ﷺ، وهو جُندبُ بنُ عبد الله -رضي الله عنه- قال: «كنّا مع النبيِّ ﷺ ونحن فتيان حزاير فتَعَلَّمْنا الإيمانَ قبلَ القرآن، ثم تَعلمنا القرآنَ فازددنا إيمانًا»[1].

(١) أخرجه ابن ماجه ١/ ٧٤ رقم ٦٤ والتاريخ الكبير للبخاري ٢/ ٢٢١ وسنن البيهقي الكبرى ٢/ ٤٩ رقم ٥٤٩٨ والطبراني في المعجم الكبير ٢/ ٢٢٥ رقم ١٦٥٦ وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه ١/ ١٦ رقم ٥٢

فتأمّل كيف كان النبيُّ ﷺ يَبدأُ في بناءِ الإيمانِ في نفوسِهم؛ حتى إذا ما رَسَخَ الإيمانُ في قلوبِهم، وكانوا مُؤهَّلِين لِتَلَقِّي القرآن، وجَّهَهُم إليه، فازدادوا به إيمانًا[١].

ثالثًا: حُسنُ تَلَقِّيهم القرآنَ بأنه رسائلُ من ربهم للعمل والامتثال، فكانوا يتدبَّرونها بالليل ويتمثلونها بالنهار.

وقد تواترت الأدلةُ من القرآنِ والسنةِ وآثارِ السلفِ على الأمرِ بالعملِ بالقرآنِ وأنه المقصودُ الأعظم[٢].

١- يقول ابن مسعود -رضي الله عنه-: (كان الرجُلُ مِنّا إذا تعلَّمَ عَشرَ آياتٍ لم يجاوزْهن حتى يَعرِفَ معانيَهُن والعملَ بهن)[٣].

ويقول ابن عمر -رضي الله عنهما-: «كان الفاضِلُ من أصحابِ النبيِّ ﷺ في صَدْرِ هذه الأُمّةِ لا يحفظُ من القرآنِ إلا السورة أو نحوها، ورُزِقوا

(١) وروي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: (لقد عشنا برهة من دهرنا وأحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن، فتنزل السورة على محمد ﷺ فنتعلم حلالها وحرامها، وأمرها وزجرها، وما ينبغي أن يقف عليه منها، ثم رأيت رجالًا يؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان فيقرأ ما بين خاتمته ما يدري أمره ولا زجره، ولا ما ينبغي أن يقف عنده، فينثره نثر الدقل). أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف ٢/ ٤٠٣ والبيهقي في السنن الكبرى ٣/ ١٢٠ رقم ٥٠٧٣ والحاكم في المستدرك ١/ ٩١ رقم ١٠١ وقال هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولا علة له ووافقه الذهبي.

(٢) انظر عظمة القرآن، مبحث (فضائل العمل بالقرآن) ص٤٩٦.

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/ ٤.

العملَ بالقرآن، وإنَّ آخرَ هذه الأُمَّةِ يُرْزَقُون القرآنَ منهم الصبي والأعمى، ولا يرزقون العملَ به»[١].

كما كان هذا هو منهجُهم في تربيةِ أبنائِهم وطُلّابِهم، وتعظيمه في نفوسِهم والتوصية به، فتأمَّل هذه الكلماتِ العظيمةِ التي قالها سَيِّدٌ من ساداتِ التابعين، وهو الحسنُ البصري -رحمه الله- حيث يقول: «إنَّ هذا القرآنَ قَرأَه عبيدٌ وصبيانٌ لم يأخذوه مِن أوَّله، ولا عِلْمَ لهم بتأويلِه، إنَّ أَحقَّ الناسِ بهذا القرآنِ مَن رُئِي في عملِه، قال اللهُ عز وجل في كتابه: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[٢]، وإنَّما تدبُّرُ آياتِه اتّباعُه بعملِه، أَمَا واللهِ ما هو بحفظِ حروفِهِ وإضاعةِ حدودِهِ! حتى إنَّ أحدهم لَيقول: قد قَرأْتُ القرآنَ كلَّه فما أَسْقَطتُ منه حرفًا؛ وقد واللهِ أَسقَطَه كلَّه! ما يُرَى له القرآنُ في خُلُقٍ ولا عمل! حتى إنَّ أحدَهم لَيقول: إني لأقرأُ السورةَ في نَفَسٍ واحدٍ، واللهِ ما هؤلاءِ بالقُرَّاءِ ولا العلماءِ ولا الحكماءِ ولا الوَرَعةِ! متى كانت القُرّاءُ تقولُ مثل هذا؟ لا أَكْثَرَ اللهُ في الناسِ مثلَ هؤلاء»[٣].

كما يُؤكِّدُ ذلك أيضًا وصاياهم لِحَمَلةِ القرآنِ والتأكيدِ على ظُهورِ الأَثَرِ فيهم، كما قال ابن مسعود: (ينبغي لحاملِ القرآنِ أَنْ يُعرفَ بليلِه إذا الناسُ

(١) الجامع لأحكام القرآن ١/ ٣٠.
(٢) ص: ٢٩.
(٣) الزهد والرقائق لابن المبارك ت أحمد فريد ج٦/ ٦١٠ رقم ٧٤٢ ط دار المعراج.

ينامون، وبنهارِه إذا الناسُ يُفطرون، وبحزنِه إذا الناس يَفرحون، وببكائِه إذا الناسُ يَضحكون، وبِصَمتِه إذا الناسُ يَخُوضُون، وبخشوعِه إذا الناس يختالون، وينبغي لحاملِ القرآن أَنْ يكونَ مُستكينًا لَيِّنًا، ولا ينبغي له أن يكونَ جَافيًا ولا مماريًا ولا صَيّاحًا ولا صَخّابًا ولا حديدًا)[١].

وهذا المنهجُ هو الذي خَرَّجَ ذلك الجيلَ وصَنَعَه، ولو أننا تَلَقَّينا القرآنَ كما تَلقّاه الجيلُ الأولُ بهذا المنهج، وربَّينا عليه أَجيالَنا، لَظَهَر لنا أَثَرُه وتَأثيرُه في نفوسنا.

«وحين نقرأُ القرآنَ بهذا الوعْي؛ سنجِدُ عنده ما نريد. وسنجدُ فيهِ عجائبَ لا تخطُرُ على البالِ الساهي! وسنجدُ -عندئذٍ- في القرآنِ مَتاعًا وحياة؛ وسَنُدرِكُ معنى قولِه تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡ﴾[٢]، فهي دعوةٌ للحياة، للحياةِ الدائمةِ المُتجدِّدة»[٣].

رابعًا: تلاوةُ القرآنِ بتَرتيلٍ وتمهُّل وتحزّن، والقيامُ به في الليل:

وهذا هو المنهجُ الذي قَرَّرهُ القرآنُ وأَشادَ بأهلِه في قولِه تعالى: ﴿وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا ١٠٦ قُلۡ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَۤ لِلۡأَذۡقَانِ سُجَّدٗا﴾[٤].

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف ٨/ ٣٠٥.
(٢) الأنفال: ٢٤.
(٣) في ظلال القرآن ١/ ٢٦١.
(٤) الإسراء: ١٠٦، ١٠٧.

فتأمَّل كيف أَمَرَ اللهُ تعالى نبيَّه بأَنْ يَقرأَ القرآنَ على مُكْثٍ؛ وهو التَّمهُّل والتّرتيلُ وعدمُ الإسراعِ فيه، ثم أَشادَ بأهلِ هذا الوصفِ بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾.

وقد تجلَّى ذلك في حالِ السلف، ومما وَرَدَ عنهم في ذلك قولُ ابنِ أبي مليكة: «سافرتُ مع ابنِ عباس - رضي الله عنهما - مِن مكةَ إلى المدينةِ، فكان يَقومُ نصفَ الليلِ فيقرأُ القرآنَ حرفًا حرفًا، ثم يَبكي حتى تَسمعَ له نَشيجًا»(١).

وقال ابن مسعود: «لا تَهُذُّوا القرآنَ هذَّ الشِّعْر، وتَنثروه نَثْرَ الدَّقَل، وقِفُوا عند عجائبِه، وحَرِّكوا به القلوب، ولا يكن هَمُّ أحدِكم مِن السورة آخرَها»(٢).

فِقراءةُ القرآنِ بِترتيلٍ وتمهلٍ وتدبرٍ هو مِن أعظم ما يُؤَثّرُ في النفس، ويُصلِحُ القلب، وذلك كان منهجُ السلفِ الصالحِ، فهل نُربِّي أنفسَنا وأجيالَنا عليها؟

أما قراءةُ القرآنِ بالليلِ فهي أَقوى وسيلةٍ للتدبُّر، وأَجدَرُ أَنْ يُفقَهَ بها القرآن، ولهذا قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾(٣)، قال ابن عباس: هو أَجدرُ أن يفقه القرآن.

(١) مختصر قيام الليل لمحمد بن نصر ص١٣١.
(٢) مختصر قيام الليل ص١٣٢.
(٣) المزمل: ١ - ٦.

يقول الشنقيطي -رحمه الله-: « لا يُثبِّتُ القرآنَ في الصّدْرِ، ولا يُسَهِّلُ حِفظَه ويُيَسِّرُ فَهمَه، إلا القيامُ به في جوفِ الليل»[1].

وبالجُملةِ -أيها المؤمنون- « فلَقَد كان القرآنُ هو مِحْوَرُ حياةِ السلف، ومادةُ حياةِ قلوبِهم، يحرصون عليه أَكْثرَ مِن حِرصِهم على تحصيلِ الطعامِ والشرابِ والراحة، ولِمَ لا! وهم يُدركون بأنَّ الحياةَ الحقيقيةَ هي حياةُ القلب»[2]

فإنْ أَرَدْنا ذوقَ حلاوةِ القرآنِ كما ذاقوها، فَلْنَسِرْ على طريقتِهم، التي أَشَرْنا إلى بعضِ معالمِها.

اللهم كما مَننتَ على مَن شِئتَ مِن عبادِك بِلذّةِ مُناجاتِك بتلاوةِ كتابِك، فامْنُن علينا بمنِّك وكرمِك، واجعلنا مِن أهلِ القرآن، الذين هم أهلُك وخاصّتُك، واغفر اللهم لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.



(١) مقدمة أضواء البيان ١/ ٤.
(٢) تحقيق الوصال بين القلب والقرآن ص٩١.



المجلس السابع

كيف نقرأ سُوَرَ القرآن؟ (١)

الحمدُ لله، والصلاةُ والسلامُ على عبدِه ورسولِه ومصطفاه، أما بعد:

فالقرآنُ حدائقُ ذاتُ بهجة، إذا أَتَمَمْتَ سورةً وبدأتَ بأُخرى فقد انتَقَلْتَ مِن شَجَرةٍ يانعةِ الثمرةِ إلى شجرةٍ تُشبِهُها بِثمرةٍ تختلفُ عنها، وإذا انتقلتَ من حِزبٍ إلى حزبٍ فمن حَديقةٍ غَنّاءَ إلى روضةٍ أخرى، فـ (السَّبْعُ الطِّوال) و(ذواتُ الراء) و(المسبحات السبع) و(الطواسيم) و(الم) و(الحواميم) و(المفصل)؛ لِكلِّ حِزبٍ لونُه وطعمُه الخاصُّ به، ولِكلِّ سورةٍ ذَوقُها الخاصُّ بها، فتَذَوَّقْها بِرفْقٍ وحاذِر الهرس! والجرش! فهو سببُ التخمة والملل.

وهذا التنزيلُ العظيمُ هو مَأدُبةُ الله في الأرض، والناسُ حولها ثلاثةُ أصناف:

جائعٌ محرومٌ منها، وسَقيمٌ يأكلُ وقد فَقَدَ حاسةَ الذَّوقِ فلمْ يَتَهَنَّ بها، ومُعافى رَأى على مَأدُبَةِ الكريم (١١٤) مختلفًا ألوانُها، فأَصبَحَ يَطعَمُ بِرِفقٍ

(١) للشيخ الدكتور عصام بن صالح العويّد، عضو الهيئة العالمية لتدبر القرآن الكريم، وعضو هيئة التدريس في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، بالرياض.

وأَدَبٍ كاملين، وفي فَمِهِ مع كلِّ (سورة) منها طَعْمٌ وذَوقٌ وعِطرٌ هو لها، ولأُختِها مِن سُورِ القرآنِ غيرُها، فكيف نتَذَوَّقُ لَذَّةَ القرآنِ، ونميِّزُ حلاوةَ كلِّ سورةٍ في القرآنِ عن حلاوةِ أختها؟

أولًا: لِيَكنْ بين يديك دائمًا تفسيرٌ مختصرٌ، كالتفسيرِ الميَسَّر أو زُبدةِ التفسير أو الجلالين، أو المصباحِ المنيرِ أو السراجِ في غريبِ القرآن لـ د.الخضيري ونحوِها.

ثانيًا: أَحضِرْ قَلبَك وحَرِّكْهُ بالقرآن، فإنْ شَرَدَ فَقِفْ والْحَقْ به، سَتَتعَبُ في البدايةِ وسَيُذعِنُ لك في النهاية [1]، لكنْ لِتَكُنْ على يَقينٍ أنه ضَرورةٌ كضرورةِ الروحِ للجَسَد.

ثالثًا: اجعلْ نفسَك طَرَفًا ثم ظرْفًا لخطابِ ربِّك، اجعل القرآنَ مِرْآةً نورانيةً تَرى فيها أقوالَك وأفعالَك، فهذا يُعَطَّرُ وهذا يُغْسَل، وهذا يُقَصُّ وهذا يُصفَّف، وهذا يُعالج وهذا يُبتَرُ إن لزم الأمر، وهكذا.

رابعًا: قَبْلَ أَنْ تَبدأ بالسورةِ؛ تأمَّل في اسمِها أو أَسمائِها فهو مِفتاحُها الذي تَدخُلُ به إليها، وقد قال ابنُ القَيِّم -رحمه الله-: «لَمَّا كانت الأسماءُ قوالبَ للمعاني، ودالةً عليها، اقتضت الحكمةُ أنْ يكونَ بينها وبينها ارتباطٌ

(١) وقد بيّنت ذلك بالتفصيل في رسالتي (فن التدبر في القرآن) فلتنظر لمن أحب التفصيل.

وتناسب، وأن لا يكونَ المعنى معها بمنزلةِ الأجنبيِّ المحضِ الذي لا تَعلُّق له بها، فإنَّ حكمةَ الحكيمِ تأبى ذلك، والواقعُ يَشهدُ بخلافِه، بل للأسماءِ تأثيرٌ في المسمَّيات، وللمسمَّياتِ تأثُّرٌ عن أسمائِها؛ في الحُسْنِ والقُبح، والخِفّة والثِّقَل، واللطافةِ والكَثَافة، كما قيل:

وَقَلّما أَبْصَرَتْ عَيْنَاكَ ذَا لَقَب   إلّا وَمَعْنَاهُ إنْ فَكّرْتَ فِي لَقَبه

ولما كان بين الأسماءِ والمسمياتِ من الارتباطِ والتناسُبِ والقَرابةِ ما بين قوالبِ الأشياءِ وحقائقِها، وما بين الأرواحِ والأجسامِ عَبرَ العَقلُ مِن كلٍّ منهما إلى الآخر، كما كان إياسُ بنُ مُعاويةَ وغَيرُه يرى الشخص، فيقول: ينبغي أنْ يكونَ اسمُه كيت وكيت، فلا يكادُ يخطئ!... الخ كلامه رحمه الله [1].

وهذا إنْ كانَ في غيرِ القرآنِ فما بالُك بالقرآنِ العظيم؟ الذي أسماءُ سُورِهِ إمّا بِنَصِّ كتابٍ أو سنةٍ، أو إجماعِ صحابةٍ أو استفاضةٍ في الأمة!

وكان الصحابةُ رضوانُ الله عليهم -خصوصًا ابن عباس- يَعتَنون بأسماءِ السُّورِ، أو أوصافِها التي تدلُّ على مقصودِها، ورَحاها الذي تَدور حوله، فَعَن ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما أنّ عُمَرَ الفاروقِ رضي الله عنه قيل له: سورةُ التوبة؟ قال: هي إلى العَذابِ أَقرَبُ! ما أَقْلَعتْ عن الناسِ حتى ما كادَت تَدَع منهم أحدًا.

(١) زاد المعاد (٢/ ٣٠٧).

وعن حذيفة رضي الله عنه في براءة: يُسمُّونها سورةَ التوبةِ وهي سورةُ العذاب!.

وعن سعيدٍ بنِ جبير رضي الله عنه قال: قلتُ لابن عباس رضي الله عنهما: سورة التوبة؟ قال: التوبةُ! بل هي الفاضحة، ما زالتْ تَنزِلُ (ومنهم)، حتى ظَنَنّا أنْ لن يَبقى منّا أحدٌ إلا ذُكِرَ فيها.

وعن قتادةَ قال: كانت تُسمَّى هذه السورة: (الفَاضِحَةَ)، فاضِحةُ المنافقين[1].

وعن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس: سورةُ الأنفال؟ قال: تلك سورةُ بدر[2].

وفي صحيحِ مسلم عن سعيدٍ بنِ جُبير قال: قلتُ لابنِ عباسٍ: سورة الحشر؟ قال: قل: بني النضير، أي: سورةُ بني النضير[3].

وفي البخاريِّ عن سعيدٍ بنِ جُبير عن ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما قال: جَمَعْتُ المُحْكَمَ في عهدِ رسولِ الله -ﷺ-، فقلتُ له: وما المحكم؟ قال المُفَصَّل[4].

قال سعيدُ بنُ جُبير: إنّ الذي تَدعونه المُفَصَّل هو المحكم.

(١) جميع الآثار السابقة راجعها في الدر المنثور الجزء ٤.
(٢) رواه مسلم (٣٠٣١).
(٣) المصدر السابق
(٤) (٥٠٣٦).

وأَضربُ مَثَلًا بأَعظمِ سَورِ القرآنِ وهي سورةُ الفاتحة:

هذا هو اسمُها الأَشهَرُ، وهو محلُّ إجماعٍ يَقينيٍّ في أُمةِ القرآن، قال ابنُ عاشور -رحمه الله-: والفاتحةُ مُشتقةٌ مِن الفَتْح، وهو إزالةُ حَاجزٍ عن مكانٍ مقصودٍ وُلُوجُه، فَصِيغَتُها تَقتَضي أنَّ مَوصوفَها شيءٌ يُزيلُ حاجزًا [١].

فهي المفتاحُ الأعظمُ الذي يَفتحُ لك كلَّ بابٍ للخير، فهي مِفتاحُك لِعلْم الكِتاب، وهي مِفتاحُ الحُجُبِ بينك وبين الله، تأمَّل قولَ ابنِ كثير: وتَحوُّلُ الكلام مِن الغَيْبَةِ إلى المواجهةِ بكافِ الخطابِ هو المناسب؛ لأنَّه لما أثْنى على اللهِ فكأنَّه اقتَرَبَ وحَضَرَ بين يدي الله تعالى؛ فلهذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[٢].

ويقولُ ابنُ عاشور: وما هنا التفاتٌ بديع، فإنَّ الحامدَ لمّا حَمِدَ اللهَ تعالى ووَصَفَه بعظيم الصفاتِ، بَلَغَتْ به الفِكرةُ منتهاها، فتَخَيَّلَ نفسَه في حَضرةِ الربوبية، فَخَاطَبَ ربَّه بالإقبال[٣].

فهي أبوابٌ تُفتَحُ شيئًا فشيئًا لمن وَفَّقَه الله، فَتَعَلَّم كيف يفتح بالفاتِحةِ تلك الأبوابَ المُغلَقَة.

(١) التحرير والتنوير ١/ ١٣١.
(٢) تفسير ابن كثير ١/ ١٣٥.
(٣) التحرير والتنوير ١/ ١٧٩.

فإذا أَضفتَ إليها أسماءَها الأُخرى «أم القرآن»، «الحمد»، «الشافية»، «الكافية»، وغيرَها، تَجَلَّتْ معانيها في قلبِ المتدبِّرِ أَكثَرَ فأكثر.

اللهم افتحْ قُلوبَنا لِتَدَبُّرِ كتابِك، وأَزِلْ ظُلمتَها بِنُورِ آياتِك، واغفِر اللهم لنا ولوالدينا ولجميعِ المسلمين.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.





المجلس الثامن

بين فواتح الآيات وخواتمها [1]

الحمدُ لله، والصلاةُ والسلامُ على عبدِهِ ورسولِهِ ومصطفاه، أما بعد:

فإنّ مِن أبوابِ تدبُّرِ القرآنِ الكريم، التأمُّلُ في علاقَةِ الآيةِ بخاتمتِها، والوقوفُ على ذلك يَفتحُ لك بابًا مِن أبوابِ فَهم كتابِ الله تعالى، ويُبيِّنُ لك نوعًا مِن إعجازِ القرآنِ الكريم، وسوف نَعرِضُ بعضَ الأمثلةِ[2] مع شرحٍ مُبسَّطٍ لها، ويَستطيعُ المُوَفَّقُ أنْ يَقيسَ عليها:

المثالُ الأول:

لمّا ذَكَرَ الله قَوامةَ الرجلِ على المرأة، وحَقَّ الزوجِ في تأديبِ امرأتِهِ الناشزِ في قولِهِ سبحانه: ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّ﴾، خَتمَ الآيةَ بقولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا﴾[3]، فذَكَّرَ بِعُلُوِّهِ وكِبريائِهِ جَل جلالُه تَرهيبًا للرِّجال؛ لئلّا يَعتَدوا على النساء، ويَتَعدَّوا حدودَ اللهِ التي أَمَرَ بها.

(١) للدكتور عبد المحسن بن زبن المطيري، عضو الهيئة العالمية لتدبر القرآن، وعضو هيئة التدريس بكلية الشريعة في جامعة الكويت.
(٢) وكل هذه الأمثلة مأخوذة من كتاب (ليدبروا آياته) بأجزائه الأربعة الأولى.
(٣) النساء: ٣٤.

المثالُ الثاني:

لمّا ذكَرَ اللهُ تعالى عُقوبَةَ السَّرِقَةِ في قولِه: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا﴾، قال في آخِرِها: ﴿نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[1]، أي: عَزَّ وحَكَمَ فقَطَعَ يَدَ السارق، وعَزَّ وحَكَم فعَاقَبَ المُعتَدِين شرعًا، وقدرًا، وجزاء، وفي ذلك القصةُ المشهورة، أنّ أعرابيًّا سمعَ قارِئًا يقرأُ هذه الآيَةَ فأخطأَ في آخِرِها، وقال: (والله غفور رحيم)، فقال الأعرابيُّ: لو غَفَرَ ورَحِم لَمَا قَطَع، ولكنّه عَزَّ وحَكم فقطع، فنَظَروا في المصحفِ فإذا هي ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

المثالُ الثالث:

في قولِه تعالى: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ من الإنسِ والجنِّ والملائكةِ وكلِّ المخلوقات، ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾[2]، وفي هذا حَفَاوةٌ بالدعاءِ والسؤال، والتَّعَرُّضُ لنَفَحاتِ ذي الجلال، فإنها مَظِنَّةُ تعجيلِ التبديلِ والتغيير، فإذا سألوه وأَلَحُّوا في سؤالِهم، كان مِن شأنِه أنْ يُجيبَ سائلَهم، ويُغيِّرَ أحوالَهم مِن الهوانِ والتَّخَلُّفِ، والجهلِ، والمرضِ والفُرقةِ والضياع؛ إلى الرِّفعةِ والمجدِ والعلمِ والعافيةِ والاتحاد. وهذه مناسبةُ اتصالِ أوَّلِ الآيةِ بآخرِها [3].

(١) المائدة: ٣٨..
(٢) الرحمن: ٢٩.
(٣) انظر تفسير ابن كثير ٧/ ٤٩٥ وما بعدها.

المثالُ الرابع:

حُكِيَ أنّ أعرابيًّا سمع قارئًا يقرأ: ﴿فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ (فاعلموا أن الله غفور رحيم)! ولم يَكن الأعرابيُّ مِن القُرّاءِ فقال: إنّ كان هذا كلامَ الله، فلا يقول كذا، ومَرَّ بهما رجل، فقال له الأعرابيُّ: كيف تَقرأُ هذه الآية؟ فقال الرجل: ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[1] فقال الأعرابيُّ: هكذا يَنبغي، الحكيمُ لا يَذكُرُ الغفرانَ عند الزَّلَل، لأنه إغراءٌ عليه!

المثالُ الخامس:

قولُه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾[2]، ومُناسبةُ خَتْمِ الآيةِ بهذين الاسمين الكريمين: ﴿ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ دونَ غيرِهما؛ لمناسبتِهما للإغاثةِ، لأَنَّ الوَليَّ يُحْسِنُ إلى مواليه، والحميدُ يُعطِي ما يُحمَدُ عليه.

المثالُ السادس:

قولُه تعالى عن الحُجّاج: ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾، لَمّا كان الحجُّ حَشْرًا في الدنيا، والانصرافُ منه يُشبه انصرافَ أَهلِ الموقفِ بعدَ الحشرِ -فريقًا إلى الجنة وفريقًا إلى السعير-؛ ذَكَّرَهم بذلك بقولِه: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾[3]، فاعملوا لِما يكونُ سببًا في انصرافِكم منه إلى دارِ كرامتِهِ لا إلى دارِ إهانتِه.

(١) البقرة: ٢٠٩.
(٢) الشورى: ٢٨.
(٣) البقرة: ٢٠٣.

المثالُ السابع:

في قولِهِ تعالى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[1]، فلم تُخْتَمُ الآيةُ بقوله (الغفور الرحيم)؛ لأَنَّ المقامَ مَقامُ غَضبٍ وانتقامٍ مِمَّن اتخذ إلهًا مع الله، فنَاسَبَ ذِكْرُ العِزَّةِ والحكمة، وصار أولى مِن ذِكرِ الرحمةِ.

المثالُ الثامن:

قولُه تعالى بَعدَ ذِكْرِ أحكام القَذْف: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾[2]، قد يُقال: إِنَّ المُتَوَقَّعَ أَنْ يُقال: (تواب رحيم)؛ لأَنَّ الرحمةَ مناسبةٌ للتَّوبة، لكنْ خُتِمتْ باسمِ الله ﴿حَكِيمٌ﴾ إشارةٌ إلى فائِدةِ مَشروعيّةِ اللعانِ وحِكمتِه، وهي السِّترُ عن هذه الفاحشةِ العظيمة.

هذه -أيها المؤمنون- بعضٌ مِن الحِكَم التي تُلتَمسُ مِن المناسبةِ بين فَواتحِ الآياتِ وخَواتِمِها، وهي بابٌ عظيمٌ مِن أبوابِ التدبُّر، فاجتهدوا في تدبُّرِ كِتابِ ربِّكم، تَنْعَموا وتَسْعَدوا دنيا وأخرى.

اللهم لا تحرِمْنا بَرَكَةَ كتابِك، ولا تحجُبْ عنا -بذنوبِنا- فَهمَهُ والعملَ به، واغفر اللهم لنا ولوالدينا ولجميعِ المسلمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.



(١) البقرة: ٢٠٣.
(٢) النور: ١٠.



المجلس التاسع

الطلاق الراقي [(١)]

الحمد لله، والصلاة والسلام على عبده ورسوله ومصطفاه، أما بعد:

فيقول الله تعالى: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖ﴾[(٢)].

قد يحصلُ الشقاق، ويقعُ الطلاق، فلماذا تتغيرُ النفوس، ويظهَرُ العبوس؟ ففي الزواج كان الفرحُ والسرور، والبهجةُ والحُبور، وعند الطلاقِ ننسى كلَّ شيء، وكأنها معركةٌ مع عدوٍّ لا يستحق رحمة ولا رأفة، فلا مجال لتسامُحٍ ولا تعاطُف، ولا تراحمٍ ولا إحسان، بل صلفٌ وجحود، وظلمٌ وغضبٌ وبغضاء!

ما هذا الذي يفعله الناس؟ ألا يقرؤون كلامَ ربهم جلّ في علاه، ألا يتدبّرون آياتِه؟ ألا يحتكمون إلى أحكامِه، ويتخلّقون بآدابِه؟

ألا يُدْرِكون كيف هذَّب اللهُ أخلاقَ المؤمنين، وزرع في قلوبهم الرحمة، على خِلاف أهل الجاهلية الذين كانوا يظلمون ويتجاوزون الحدَّ دون رادع.

(١) للدكتور عويض العطوي، عميد البحث العلمي في جامعة تبوك.
(٢) البقرة: ٢٢٩.

وقد ورد في سبب نزول هذه الآية ما روته عائشةُ رضي الله عنها، حيث قالت: كان الرجل يُطلِّقُ امرأتَهُ ما شاء أنْ يُطلِّقَها وإنْ طلّقَها مائةً أو أكثر، إذا ارتجعها قبل أن تنقضيَ عِدَّتُها، حتى قال الرجل لامرأته: والله لا أطلقك فتبيني مني، ولا آويك إليّ، قالت: وكيف ذلك؟ قال: أطلقك وكلّما قاربتْ عِدَّتُك أن تنقضيَ ارتجعتُك، ثم أطلقك وأفعل ذلك، فشَكَتْ المرأةُ ذلك إلى عائشة، فذَكَرَتْ ذلك عائشةُ إلى رسول الله ﷺ فسَكتْ فلم يقل شيئًا حتى نزل القرآن ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٍ﴾[١].

وعلينا أن نتلقّى هذا الحكمَ بالرّضى والقبول، وأن نطبِّقَه واقعًا عمليًّا عند الحاجة إليه، ولو تأمّلنا الآية الكريمة، وجدناها جَمعتْ الحكمَ الفقهي مع الإشارة إلى خُلُقٍ نبيلٍ يحسنُ التخلُّق به، فقد قال سبحانه: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ﴾، لقد عرّف اللهُ لنا الطلاق، وسمّاه لنا بهذا الاسم، والطلاق من الإطلاق وهو ضد التقييد، والقيدُ هنا هو عقد النكاح الذي سمّاه اللهُ ميثاقًا غليظًا، وكما تمّ هذا الميثاق بمحبة ووئام، يمكن أن يَتِمّ فكُّه وحَلُّه بتقدير واحترام.

ومع أن المعروف أنّ الطلاق ثلاث، إلا أن الله -عز وجل- قال: ﴿مَرَّتَانِ﴾، قالوا: المراد أن الطلاق الذي فيه رجعةٌ مرتان، فإن راجع زوجتَه

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣١٠٦)، والبيهقي (١٤٩٥٠).

فقد أمسكها، وإن تركها حتى تنقضيَ العِدّةُ فقد سرَّحها، وقد قال سبحانه: ﴿مَرَّتَانِ﴾ ولم يقل: طلقتان؛ تنبيهًا على أنه ينبغي أن تكون مرّة بعد مرّة، كلُّ طلقة في مرّة، لا أن يجمعهما في مرّة.

وتأمل كلمة: (إمساك)، فهي تشير إلى الحرص والحياطة والحفظ، وحتى لا يُفهَم أمرٌ آخر قال سبحانه: ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾، والباء للمصاحبة، أي: هذا الإمساك يكون مصحوبًا بمعروف، وجاء المعروف (نكرة)، ولم يقل جَلَّت قدرتُه: (المعروف)؛ ليكونَ ذلك أكثر شيوعًا، فلن يَعدَمَ الزوجُ العاقلُ صورًا كثيرة من المعروف يعاملُ بها زوجتَه التي عادتْ إليه، المُهم أن يضعَ الزوجُ هذه الكلمة: ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾ أمام عينيه، فينظر عندما يُعيدُ زوجتَه إلى بيتِهِ كيف يعاملُها، وكيف يكلِّمها، وكيف يعاشِرُها؟

أين هذا من أولئك الذين يرون في ضَعفِ الزوجةِ فرصةً لإبراز رجولاتٍ مُزيَّفة، في موقفٍ يَحسُنُ فيه المعروفُ والتعاملُ الحَسَن؟

إنّ عودةَ الزوجةِ تعني استمرارَ الحياةِ الزوجية، تعني استقرارَ العائلة، وإبحارَ السفينةِ من جديد، ولهذا بدأ سبحانه بها، فإنه «لما كان سبحانه وتعالى قد خَيَّره بين شيئين: الرجعة والتسريح الموصوفين، وكانت الرجعة أقرب إلى الخير، بدأ بها».

أمّا إذا تعذّر الإمساك، وكان الحل هو الفراق، فهنا يكون اللُّطفُ أكثر، والإحسانُ أظهر، لذا قال سبحانه في هذا المقام: ﴿أَوۡ تَسۡرِيحُۢ﴾، يا لها من كلمة ما ألطفها في موقف لا يعرف فيه كثيرٌ من الناس إلا العنف! إنه لُطْفٌ حتى في الكلمة المعبرة عن الفراق، فلم يقل سبحانه: (أو فراق، أو طرد، أو إبعاد) بل ﴿أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖ﴾، إن أصواتَ الكلمة كلَّها هامسة هادئة، فأين هذا من صُراخِ الأزواج، وعباراتِ السبِّ واللَّعن، والطردِ والتهديد؟!

يا لها من أخلاق أصبحنا نتذكَّرُها كالأحلام، فهل من عودة لأخلاق القرآن؟

ليس هذا فحسب، بل لمّا كان التسريحُ يحملُ معنى المفارقةِ دون رجعة، وهذا ما لا يعهد فيه الإحسان عادة، جاء تقييد ذلك التسريح بالإحسان فقال جَلَّت قدرتُه: ﴿أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖ﴾، والباء للمصاحبة والملابسة، فإن حصل ذلك التسريحُ فليكن مصحوبًا بما يُخفِّفُ أَلَمَ الفراقِ بعد العشرة.

والإحسانُ أعلى من المعروف، فأمَرَنا بالإحسان حالَ الطلاق، حال الفراق، فمن يفعل ذلك اليوم؟!

والإحسانُ هو حُبُّ الخيرِ للناس، ومساعدتُهم، ورفعُ معاناتهم،

والإحسانُ عطاءٌ وحُبٌّ وكَرَم، وصُورُهُ كثيرةٌ تتناسبُ مع كلِّ حالة، وهذا هو المطلوبُ ولو في حال الطلاق، وقد قالوا: ومن الإحسان: «أنه إذا تركها أدَّى إليها حقوقَها المالية، ولا يذكُرُها بعد المفارقة بسوء، ولا يُنَفِّر الناسَ عنها»، يقول السعدي: «ومن الإحسان، أن لا يأخُذَ على فراقِهِ لها شيئًا من مالها، لأنه ظُلْمٌ، وأخْذٌ للمال في غير مقابلة بشيء»، ومن ذلك أيضًا: «بذْلُ الصَّدَاقِ كاملًا وأن لا يشاحِحَها في شيء لها فيه حق، مع طيب المقال وكرم الفعال».

مَنْ اليوم مَنْ يطبِّق هذا المفهوم الراقي في الطلاق؟ ويتسامى بأخلاقه فوق ما ألِفَه الناسُ من سلوكياتٍ وتصرُّفاتٍ لا تتناسبُ مع عَظَمةِ هذا الدين؟

مَنْ يَهدي هديةً مع طلاقِه؟ أو يقولُ كلامًا طيّبًا مع طلاقِه؟ أليس هذا أدْعى إلى بقاءِ علاقات أهل الزوجة مع الزوج؟ هل المطلوب أن يغضبَ الجميع، ويتألم الجميع؟ أليس هذا أدْعى لحفظِ الوفاء بين الرجل والمرأة حتى بعد الطلاق، فيحفظان أسرارَ بعضهما؟ بلى والله.

هذا رجلٌ في زماننا قدَّر اللهُ أن يُطلِّق زوجتَه، لكنّه لم يَرْعَ حقَّ اللهِ فيها، بل قال لها: واللهِ لأُحرِقَنّ قلبَك في بناتِك، فكانت لا تراهن إلا خِلْسَةً في المدرسة!

وعلى النقيض من ذلك: ذُكِر أنّ رجلًا كانت بينه وبين زوجتِه خلافات، فإذا سُئِل عن ذلك، قال: هذه أسرارُ بيتي لا أُفشيها، وبعد مُدَّةٍ طلّقها، فقالوا له: لم فعلْتَ ذلك، ما عيوبُها؟ فقال: هي الآن غريبةٌ عني لا يحقُّ لي التحدُّثَ في عرضِها، يا لها من أخلاق، وصدق الله: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٍ﴾.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.





المجلس العاشر

﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾[1]

الحمدُ لله، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ الله، وعلى آلِه وصحبِه ومَن والاه، أما بعد:

فإنه لما تَقلَّبَت الأحوالُ بيوسفَ عليه الصلاةُ والسلام، وتَطوَّرَتْ به الأطوار، عَرَف أنّ هذه الأشياءَ وغيرَها لُطفٌ من لُطفِ اللهِ له، فاعترفَ بهذه النعمةِ فقال: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾[2].

وهذا من أَعظمِ نِعَمِ اللهِ على العبد، أنْ يَعرِضَ أحوالَه التي تمرُّ به على معاني أسماءِ الله الحسنى، وصفاتِه العلى؛ فإنّ هذا له فائدتان:

الأولى: زيادةُ الإيمان.

الثانية: سهولةُ تلقي المصائبِ المؤلمة، وهذا يزدادُ حين يبلُغُ العبدُ منزلةَ الرضا عن الله، بحيث يوقِنُ أنَّ اختيارَ اللهِ خيرٌ مِن اختيارِه لنفسِه.

(١) الدرس في أغلبه ملخص من كتاب «المواهب الربانية» لابن سعدي (بتصرف)، ص: (١١٩) وما بعدها.
(٢) يوسف: ١٠٠.

أيها المؤمنون!

إنّ مِن أسماءِ اللهِ الحسنى التي تكرَّرَ ذِكرُها في كتابِ الله تعالى، ولها أثرُها البالغُ في حياةِ العبد -لمن فقه معناها وعمل بمقضاها-: اسمُ اللهِ اللطيف، الذي تمّدّحَ سبحانه به في مواضعَ مِن كتابِ الله، منها: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾[1]، ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾[2]، فكيف نعيشُ مع هذا الاسم؟ وما آثارُه الإيمانيةُ علينا؟

إنّ التأمُّلَ في آثارِ لطفِه بعبادِه، هو الذي يُجيبُ على هذه الأسئلة، والتي تعرَّضُ لها العلامة السعدي -حين بيّن شيئًا من آثارِ لطف اللهِ بعباده- فقال:

«ومِن لطفِه بعبادِه: أنه يُقدّر أرزاقَ عبادِه، بحسَبِ علمِه بمصلحتِهم لا بحسَبِ مراداتِهم، فقد يريدون شيئًا وغيرُه أصلح؛ فيُقدِّرُ لهم الأصلحَ وإن كرهوه؛ لطفًا بهم وبرًّا وإحسانًا ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ﴾[3]، ﴿۞ وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٖ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ﴾[4].

(١) الأنعام: ١٠٣.
(٢) الملك: ١٤.
(٣) الشورى: ١٩.
(٤) الشورى: ٢٧.

ومِن لطفِه بهم: أنه يُقدِّرُ عليهم أنواعَ المصائب، وضروبَ المحنِ، والابتلاءِ بالأمرِ والنهيِ الشاق؛ رحمةً بهم ولطفًا، وسَوْقًا إلى كمالِهم وكمالِ نعيمهم: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[1].

ومِن لطفه بعبدِه: أن يُقدّرَ له أن يتربّى في ولاية أهلِ الصلاحِ والعلمِ والإيمان، وبين أهلِ الخير؛ ليَكتَسِبَ مِن أدبِهم وتأديبِهم، ولينشأَ على صلاحِهم وإصلاحِهم، كما امتنَّ الله على مريمَ في قوله تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾[2].

ومن ذلك: إذا نشأَ بين أبوين صالحين، وأقاربَ أتقياء، أو في بلدِ صلاح، أو وفّقه الله لمقارنةِ أهلِ الخيرِ وصحبتِهم، أو لِتربيةِ العلماءِ الربانيين؛ فإنّ هذا مِن أعظمِ لطفِه بعبدِه، فإنّ صلاحَ العبدِ موقوفٌ على أسبابٍ كثيرة: منها؛ بل مِن أكثرِها وأعظمِها نفعًا: هذه الحالة، ومن ذلك إذا نشأَ العبدُ في بلدٍ أهلُهُ على مذهبِ أهلِ السنةِ والجماعةِ فإنَّ هذا لُطفٌ له.

ومِن لطفِ اللهِ بعبدِه: أنْ يجعلَ رزقَه حلالًا في راحةٍ وقناعة، يحصلُ به المقصود، ولا يَشغَلُه عما خُلق له من العبادةِ والعلمِ والعمل، بل يُعينه على

(١) البقرة: ٢١٦.
(٢) آل عمران: ٣٧.

ذلك ويُفرّغه، ويُريحُ خاطرَه وأعضاءَه، ولهذا مِن لُطفِ اللهِ تعالى لعبدِه أنه ربما طَمِحتْ نفسُه لسببٍ من الأسباب الدنيوية، التي يَظُنّ فيها إدراكَ بغيتِه، فيَعلَمُ اللهُ تعالى أنها تَضرُّه وتَصُدُّه عما ينفعه؛ فيحولُ بينَه وبينها، فيظلّ العبدُ كارهًا وهو لم يدرِ أنّ ربَّه قد لَطَفَ به، حيث أبقى له الأمرَ النافع، وصرفَ عنه الأمرَ الضار، ولهذا كان الرضى بالقضاء في مثل هذه الأشياء من أعلى المنازل.

ومِن لطفِ الله بعبدِه – إذا قَدَّر له طاعةً جليلةً لا تُنال إلا بأعوان –: أن يُقدِّرَ له أعوانًا عليها ومساعدين على حملِها، قال موسى عليه السلام: ﴿وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا﴾[1]، وكذلك امتنّ على عيسى بقوله: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾[2]، وامتنَّ على سيد الخلق في قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[3].

ومِن لُطفِ اللهِ بعبدِه: أنْ يُعطيَ عبدَه – من الأولادِ والأموالِ والأزواج – ما به تقرّ عينُه في الدنيا، ويحصُلُ له به السرور، ثم يبتليه ببعضِ ذلك، ويأخذُه ويُعوّضُه عليه الأجرَ العظيمَ إذا صبرَ واحتَسَب، فنعمةُ اللهِ عليه بأخذِه على هذا الوجهِ أعظمُ من نِعمتِه عليه في وجودِه، وقضاءُ مجرد وطَرِه الدنيوي منه.

(١) طه: ٢٩ – ٣٤.
(٢) المائدة: ١١١.
(٣) الأنفال: ٦٢.

وهذا أيضًا خيرٌ وأجرٌ خارجٌ عن أحوالِ العبدِ بنفسه، بل هو لُطفٌ مِن الله له، قيّض له أسبابًا أعاضَه عليها الثوابَ الجزيل، والأجرَ الجميل.

ومِن لُطفِ الله بعبدِه: أن يبتليَه ببعضِ المصائب، فيوفِّقَه للقيامِ بوظيفةِ الصبرِ فيها؛ فيُنيلُه درجاتٍ عاليةً لا يدركُها بعملِه، وقد يُشدِّد عليه الابتلاءَ بذلك، كما فُعِل بأيوب عليه السلام، ويوجِد في قلبه حلاوةَ روحِ الرجاء، وتأميلَ الرحمة، وكشفَ الضر، فيُخفِّف ألمُه، وتنشطُ نفسُه، ولهذا من لُطفِ الله بالمؤمنين: أنْ جَعَل في قلوبِهم احتسابَ الأجر؛ فخفَّتْ مصائبُهم، وهان ما يلقون من المشاقِّ في حصولِ مرضاتِه.

ومِن لُطفِ الله بعبدِه المؤمنِ الضعيف: أن يعافيَه من أسبابِ الابتلاءِ التي تُضعِف إيمانَه، وتُنقِصُ إيقانَه، كما أنَّ مِن لُطفِه بالمؤمنِ القوي: تهيئةَ أسبابِ الابتلاءِ والامتحانِ ويعينُه عليها، ويحمِلُها عنه ويزدادُ بذلك إيمانُه، ويعظُمُ أجرُه، فسبحان اللطيفِ في ابتلائِه وعافيتِه، وعطائِه ومنعِه.

ومِن لطفِ الله بعبدِه: أنْ يسعى لكمالِ نفسِه مع أقربِ طريق يوصلُه إلى ذلك، مع وجودِ غيرِها من الطُرُقِ التي تبعُدُ عليه، فيُيَسّر عليه التعلُّم مِن كتابٍ أو مُعلمٍ يكونُ حصولُ المقصودِ به أقربَ وأسهل، وكذلك يُيسرُه لعبادةٍ يفعلُها بحالةِ اليسرِ والسهولة، وعدمِ التعويقِ عن غيرِها مما ينفعُه، فهذا من اللطف.

ومِن لُطفِ اللهِ تعالى بعبدِه: أنْ يجعلَ ما يبتليه به مِن المعاصي سببًا لرحمتِه، فيفتحُ له عند وقوعِ ذلك بابَ التوبةِ والتضرع، والابتهالِ إلى ربه، وازدراءِ نفسِه واحتقارِها، وزوالِ العُجبِ والكبرِ من قلبِه ما هو خيرٌ له من كثيرٍ من الطاعات.

ومِن لطفِه بعبدِه الحبيبِ عنده: إذا مالتْ نفسُه مع شهواتِ النفسِ الضارة، واسترْسلَتْ في ذلك؛ أن يُنَغِّصَها عليه ويُكدِّرَها، فلا يكاُد يتناولُ منها شيئًا إلا مَقرونًا بالمكدِّرات، محشوًّا بالغصص؛ لئلا يميلَ معها كلَّ المَيل، كما أنّ مِن لُطفه به أن يُلذِّذ له التقرُّبات، ويُحَلِّي له الطاعات؛ ليَميلَ إليها كلَّ المَيل.

ومِن لَطيفِ لطفِ اللهِ بعبدِه: أن يأجُرَه على أعمالٍ لم يعملْها بل عزَمَ عليها، فيعزِمُ على قُربةٍ من القُرَب ثم تَنحلُّ عزيمتُه لسببٍ من الأسبابِ فلا يفعلُها، فيحصُلُ له أجرُها، فانظر كيف لَطَفَ اللهُ به! فأوقَعَها في قلبِه، وأَدارَها في ضميرِه، وقد عَلِمَ تعالى أنه لا يفعلُها؛ سَوقًا لبِرِّه لعبدِه وإحسانِه بكلِّ طريق. وأَلطَفَ من ذلك: أنْ يُقيِّضَ لعبدِه طاعةً أخرى غيرَ التي عَزَمَ عليها، هي أنفعُ له منها؛ فيَدَعَ العبدُ الطاعةَ التي تُرضي ربَّه لطاعةٍ أخرى هي أرضى لله منها، فتحصُلُ له المفعولةُ بالفعل والمعزومُ عليها بالنية، وإذا كان من يُهاجرُ إلى اللهِ ورسولِه، ثم يُدرِكُهُ الموتُ قبل حصولِ مقصودِه قد وقَعَ أجرُهُ على الله - مع أنّ قَطعَ الموتِ بغيرِ اختياره - فكيف بمن قَطَعت عليه نيتُه الفاضلةُ طاعةً قد عَزَمَ على فعلِها؟! وربما أدار اللهُ في ضميرِ عبدِه عِدَّةَ طاعات، كلُّ طاعةٍ لو انفردتْ

لفعلَها العبد؛ لكمالِ رغبتِه، ولا يمكنُ فعلُ شيءٍ منها إلا بتفويتِ الأخرى، فيوَفِّقُهُ للموازنةِ بينها، وإيثارِ أفضلِها فعلًا، مع رجاءِ حصولِها جميعِها عَزْمًا ونيةً.

وألْطفُ من هذا: أنْ يُقدِّرَ تعالى لعبدِه ويبتليهِ بوجودِ أسبابِ المعصيةِ، ويُوفِّرَ له دواعيها، وهو تعالى يعلمُ أنه لا يفعلُها؛ ليكونَ تَرْكُهُ لتلك المعصيةِ التي توفَّرَتْ أسبابُ فِعلِها مِن أكبرِ الطاعات، كما لَطَفَ بيوسفَ عليه السلام في مُراودةِ المرأة، وأحدُ السبعةِ الذين يُظلُّهمُ اللهُ في ظلِّه يومَ لا ظل إلا ظله: رجلٌ دعتْه امرأةٌ ذاتُ منصبٍ وجمالٍ فقال: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ.

ومِن لُطفِ اللهِ بعبدِه: أنْ يُقدِّرَ خيرًا وإحسانًا مِن عبدِه، ويُجريَه على يدِ عبدِه الآخر، ويجعله طريقًا إلى وصولِه للمُستَحِق، فيُثيبُ اللهُ الأولَ والآخِرَ.

ومِن لُطفِ اللهِ بعبدِه: أن يُجرِيَ بشيءٍ مِن مالِه شيئًا من المنافعِ وخيرًا لغيرِه؛ فيُثيبهُ من حيث لا يحتسِبُ، فمَن غَرَسَ غرساً، أو زَرَعَ زرعًا؛ فأصابت منه رُوحٌ من الأرواحِ المحترمةِ شيئًا، آجرَ اللهُ صاحبَه وهو لا يدري! خصوصًا إذا كانتْ عنده نيةٌ حسنة، وعَقَدَ مع ربِّه عقْدًا في أنه مهما تَرتّب على ماله شيءٌ من النفع، فأسألُك يا ربِّ أنْ تأجرَني، وتجعلَه قربةً لي عندك، وكذلك لو كان له بهائمُ انْتُفِعَ بدَرِّها ورُكُوبِها والحَمْلِ عليها، أو مساكنُ انْتُفِعَ بسُكناها ولو شيئًا قليلًا، أو ماعونٌ ونحوُه انْتُفِع به، أو عينٌ شُرِبَ منها، وغيرُ ذلك – ككتابٍ انْتُفِع به في تعلُّمِ شيءٍ منه، أو مُصحفٍ قُرِئَ فيه – واللهُ ذو الفضل العظيم.

ومِن لُطفِ اللهِ بعبدِه: أنْ يفتحَ له بابًا من أبوابِ الخيرِ لم يكن له على بال، وليس ذلك لقلةِ رغبتِه فيه، وإنما هو غفلةٌ منه، وذهولٌ عن ذلك الطريق، فلم يَشعُرْ إلا وقد وَجَدَ في قلبِهِ الداعيَ إليه، واللافتَ إليه؛ ففَرِحَ بذلك، وعَرَفَ أنها مِن أَلطافِ سيِّدِه، وطُرُقِه التي قَيّضَ وصولَهَا إليه؛ فصَرَفَ لها ضَميرَه، ووجّه إليها فِكْرَه، وأَدرَكَ منها ما شاء اللهُ وفَتَحَ» اهـ كلامه:.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.





المجلس الحادي عشر

واستنارت حياتهم بالقرآن [١]

الحمدُ لله، والصلاةُ والسلامُ على عبدِه ورسولِه ومصطفاه، أما بعد:

فلقد تَأثَّرَ سَلَفُنا الصالحُ بآياتِ الله، وكانوا حَديثي عَهْدٍ بنزولِها، وكان رسولُ اللهِ ﷺ يحيا بالقرآنِ بين أظهُرِهم، ولكنّ القرآنَ الكريمَ الذي أَخرَجَ لنا تلك النماذِجَ المشرقةَ مِن سَلَفِ الأمة؛ لم يَفْقِدْ قُدرَتَه على التّأثيرِ على قَارِئِيهِ في زمانِنا، ولم يُعْدَمْ مِنْ أهلِه مَن يَتلوه حَقَّ تلاوتِه؛ ويَستخرِجُ منه كُنُوزَه، ويَسْتَلْهِمُ منه تَوجِيهَه، ويَسيرُ على خُطاه وهَديِه، حيث تَبقى هذه الخَيريَّةُ في أُمَّةِ الاستجابةِ إلى آخِرِ الزمانِ كما جاءَ فيما رُوي عن النبيِّ ﷺ مِن وُجوهٍ مُختلِفَةٍ: «مَثَلُ أمتي مَثَلُ المَطَرِ لا يُدرَى أولُه خيرٌ أم آخِرُه»[٢]. قال شيخُ الإسلامِ ابنُ تيمية -رحمه الله- في بيانِ معناه: «أيْ أنَّ في المتأخرين مَن يُشبِهُ المتقدمين ويُقارِبُهم حتى يَبقى -لِقوَّةِ المُشابَهَةِ والمقارَنَةِ- لا يَدرِي الذي يَنظُرُ إليه أهذا

(١) للدكتورة أسماء بنت راشد الرويشد، عضو الهيئة العالمية لتدبر القرآن الكريم، والمشرفة العامة على مؤسسة آسية للاستشارات والتدريب، وموقع آسية الإلكتروني.

(٢) رواه أحمد (١٢٣٢٧) وصححه ابن حبان (٧٢٢٦)، وقال ابن عبدالبر عنه: روي من وجوه حسان، ينظر: التمهيد (٢٠/ ٢٥٣).

خيرٌ أم هذا، وإنْ كان أحدُهما في نفسِ الأمرِ خيرًا، فهذا فيه بُشرى للمتأخرين بأنّ فيهم مَن يُقارِبُ السابقين»[1].

وها هنا بعضُ المواقفِ المعاصرةِ التي تَحَدَّثَ بها أصحابُها في بيانِ حالِهم مع القرآنِ تَدبُّرًا وعملا، وكيف كان أَثَرُ ذلك في تَحَوُّلِهم مِن الضلالِ إلى الهداية، ومِن اتِّباعِ الشهواتِ إلى الاجتهادِ في العبادات، لقد أَثَمَرَ ذلك في قلوبِهم حلاوةً وإيمانًا لا يجدُهما إلا مَن عاشَ مع القرآنِ كما عاشوا، وتَدبَّرَه كما تَدبَّروا!

ـ فهذا أحدُهم أَزْهَرَتْ حياتُهُ بالقرآنِ، يقول: اكتَشَفْتُ أَنَّ العلاجَ الناجحَ لكلِّ داءٍ هو القرآنُ الكريم، دائي كان ذنوبي، وضَعْفُ سيطرتي على شهواتِ نفسي، حتى أَوْصَلني ذلك إلى حدِّ كُرْهِ ذاتي، ولم يكنْ عُمْري قد تجاوَزَ السابعةَ عشرةَ بعد!

وقُبَيْلَ رمضانَ بأيام؛ سمعتُ كَلِماتٍ ناصحةٍ تَحُثُّ على استثمارِ فرصةِ رمضانَ، وجَعْلِهِ نقطةَ انطلاقٍ لحياةٍ جديدةٍ مِن خلالِ تَدبُّرِ القرآنِ الكريم، فامتثلتُ لهذه الموعظةِ وقَرَأْتُهُ بخشوعٍ وتدبُّرٍ، فأحسستُ به يَغْسِلُ كُلَّ رُكامِ الآثامِ بِداخِلي، وبَدَأْتُ أُدوِّنُ كلَّ آيةٍ أَتَأَثَّرُ بها في دَفترٍ خاصٍّ! وأَبحثُ عن تفسيرِها، فأقرؤه بعد ذلك فيزيدُ إيماني وأَهْنأُ بالسكينة، وأَزْهَرَت حياتي بالقرآن، والحمدُ للهِ الذي بنعمتِه تتِمُّ الصالحات.

(١) ينظر: مجموع الفتاوى (١١/ ٣٧١).

ـ وآخَرُ استوقفته آيةٌ مِن سورةِ الأنفال، إنها قولُ الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ ﴾[1]، فيقولُ: بحثتُ عن تفسيرِها وتأثّرتُ بهِ جدًا، فأصْبَحَتْ بَعدَ ذلك المقياسَ والمحكَّ لكلِّ موقفٍ يمرُّ بي: هل أنا في المسارِ الصحيح، أم حِدْتُ عن الطريق؟ فتَسْتَحِثُّني للإسراعِ في الاختيار، ففي الآيةِ دعوةٌ بنداءِ الإيمان، وأمرٌ بالمسارعةِ إلى طاعةِ كلِّ أَمرٍ مِن اللهِ ورسولِه؛ خشيةَ أن يُحالَ بينكَ وبين قلبِك إذا توانيتَ أو تردَّدتَ، ثم تَتمنى بعد ذلك الوصولَ إليه فلا تستطيع!.

ـ وهذه فَتاةٌ عَرَفَتْ طَعْمَ الحياةِ الحقيقيَّةِ يومَ تَدَبَّرتْ كلامَ اللهِ فأحبَّتْه وآثَرَتْ مَحابَّه على كلِّ شهواتِها، فتقول: مَرَرْتُ ذاتَ يوم -وأنا أقرأُ في كتابِ الله- بآيةٍ لَكأنَّني أقرؤها لأوَّلِ مَرّة، وقَفْتُ هذه المرة أمامَها وُقوفًا طويلا، انتهى بي إلى بكاءٍ شديد، ولَّدَ في أعماقِي إصرارًا كبيرًا، وقوةً لا تقفُ عند حدٍّ في تغييرِ واقعِ نفسي وأُمَّتي؛ ولو خُطوةً واحدةً إلى الأمام، لقد أَحْسَسْتُ بقَشْعَريرةٍ لا تزالُ تَسري في أَوصالي كلّما ردَّدتُها، وكأنّها تُناديني قائلةً: غَيِّـــري وإلّا تُغَيَّري! إنها قولُهُ تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾[2]، إنه فَضْلُ اللهِ يُؤتِيه

(١) الأنفال: ٦٤.
(٢) المائدة: ٥٤.



مَن يَشاء، وإني لأَسألُ اللهَ أَن أَكونَ ممَّن يُؤتاه بِمنَّتِه ورحمتِه، وأنْ نَكونَ ممَّن يَستَعمِلُهم سبحانه في طاعتِه وخِدمةِ دينِه، لا ممَّن يَستَبدِلُهم... آمين.

- فتاةٌ أُخرى تُحدِّثُ عن آيةٍ غَيَّرتْ حياتَها، فتقول: قَرأتُ ذاتَ يومٍ آيةً غَيرت مَجْرَى حياتي كلِّه، وهي قولُه تعالى: ﴿ يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمۡ إِذۡ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرۡضَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ ﴾[1]، مَعصيةُ اللهِ عز وجل ثلاثَ سنواتٍ كاملة، حَاوَلْتُ أَنْ أَتْرُكَ المعصيةَ لكنني ما استطعت! وجَلَسْتُ يومًا أَبكي بِشِدَّة، وأُناجِي ربي، فسمعتُ الآيةَ السابقة، فانشَرَحَ لها صدري، وتَمَلَّكني الحياءُ مِن ربي عز وجل، وسَألتُ نفسي حينها بصدقٍ: هل أَقْبَلُ أنْ يَرَاني أَبي أو أُمِّي أو أيُّ أَحَدٍ في هذه الدنيا على ما أنا فيه؟ أو حتى أنْ يَسمَعوا بما أَفْعَل؟

وكان جوابي الأكيد لِنفسي: لا، وألْفُ لا...، فإنْ كنتُ قد استحييتُ مِن العبادِ، فكيف بِرَبِّ العبادِ وهو المطَّلعُ على كلِّ شيء! فاستحييتُ مِن نَظَرِه سبحانه إليَّ وأنا أَعصِيه، وقَرَّرتُ أنْ أَتْركَ ما أنا فيه، ومَن تَرَكَ شيئًا للهِ عَوَّضَه اللهُ خيرًا منه، وبمنَّةٍ مِن اللهِ وفَضلٍ تركتُ المعصية، وها أنا أَنعَمُ بالسعادةِ بِفضلِ ربي مُنذُ سنوات.

(١) النساء: ١٠٨.



- ما أَعظَمَ أَثَر هذا القرآنِ في النفوسِ المؤمنةِ! فهذا مُتدَبِّرٌ يقول: كم أَثَّر فِيَّ قولُهُ سبحانه: ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾[1]، لقد صارَتْ أمامَ عيني كلّما هَمَمْتُ بمعصيةٍ، أَتَخَيَّلُ أنَّ اللهَ -سبحانه- يُخاطِبني بها فأَرْتَدع، فها هو القرآنُ بين أَظهرِنا يُتلى آناءَ الليلِ والنهار، نُورًا يَمحُو ظلماتِ الهوى، لا يَترُكُ لأَحدٍ على اللهِ حُجَّة، فلْنَستَمِع لآياتِه، ونَتَّعظ بها قَبلَ أنْ يُقالَ لنا ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾.

- وهذا أحدُهُم يقول: احتاجَتْ أُمِّي في يومٍ مِن الأيامِ لِشيءٍ يُكلِّفُ بعضَ المال، وكُنتُ أَلْمُسُ رَغبتَها فيه وحاجَتَها إليه، وكان لديَّ بعضُ المالِ الذي رَصَدتُه لحاجَةٍ لي، لكنَّه قَد يَقضي حاجةَ أُمّي، ومَرَّ في نَفسي خاطر: لِمَ لا أُقدِّمُ حاجتَها على حاجتي؟ أَلَمْ يأمرْنيَ اللهُ بِبرِّها؟ ورَاوَدَتْني نفسي فصارعتُها؛ حتى قَرَّرتُ تقديمَ حاجتِها على حاجتي مهما كَلَّفَني ذلك، وتَذَكَّرْتُ قولَه تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾[2]، قَضيتُ حاجتَها، وكَلفني ذلك مَبلغًا مِن المال، كُلِّي أَمَلٌ في رِضاها بَعدَ رِضا الله، ولَمّا فاجَأتُها بِالأَمرِ بَكَتْ من شِدَّة الفَرَح، فانْشَرَحَ صَدري لِمَا وَفَّقنيَ اللهُ إليه مِن بِرِّها وإِدخالِ السرورِ عليها.

(١) المؤمنون: ١٠٥.
(٢) الحديد: ١١.

العجيبُ في الأَمرِ أنَّه في اليومِ التالي لِقضائي حاجتَها؛ تمَّ تحويلُ مَبلغٍ لحسابي مُكافأةً مِن جِهةٍ رسمية، والأَعجبُ أنها كانت بمعدَّلِ الضِّعفِ وزيادة، فبَكَيْتُ حينها؛ لأنني تَذَكَّرْتُ مَوعودَ اللهِ عز وجل: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجۡرٞ كَرِيمٞ﴾.

إنهم جميعًا عاشوا مع الآياتِ بتَفَاعُلٍ! حتى سَرَت الروحُ في قلوبِهم، وشَعَّتْ أنوارُ القرآنِ في نفوسِهم، إنّه الحقُّ في قولِه تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَا﴾[1].

هذه –أيها المؤمنون– نماذجُ مِن أحوالِ أُناسٍ يعيشون في عصرِنا، ويتأثرون بما حولِهم، عاشوا مع آيةٍ فنَقَلَتهم إلى عالَمٍ آخرَ مِن السعادة، وحياةِ القلوب، التي هي الحياةُ الحقيقة. هذا حالُهم مع آية، فكيفَ بِمَن عَاشَ مع القرآنِ طِيلةَ حياتِه؟!

اللهم اجعل القرآنَ ربيعَ قلوبِنا، ونورَ صدورِنا، وجلاءَ أحزانِنا، وذهابَ همومِنا، واغفر اللهم لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.



(١) الأنعام: ١٢٢.



المجلس الثاني عشر

كيف نقرأ ونستمع لسورة النساء؟ (١)

الحمدُ لله، والصلاةُ والسلامُ على عبدِهِ ورسولِهِ ومصطفاه، أما بعد:

فإنَّ الحديثَ عن تَدبُّرِ القرآنِ الكريمِ حديثٌ ذو شُجُون، والكلامُ فيه له شُعَبٌ، وتفاصيلُ، ومناهج. وإنَّ مِن الأساليبِ التي تُعينُ على تَقريبِ فهم هذه العبادة العظيمة -عبادة التدبر- أن يُذْكَرَ نموذجٌ يُحْتَذى، ويُقاسُ عليه في كَيفيةِ قِراءةِ القرآنِ قراءةً تدبُّرية.

ولَعلَّنا في هذا المجلسِ نَضرِبُ لذلك مَثَلًا بسورةٍ عظيمةٍ من السبعِ الطوال، المليئةِ بالأحكام، تِلكم هي سورةُ النساء، نُحاوِلُ أنْ نُجيبَ على هذا السؤالِ: كيف نَقرَأُ ونَستَمِعُ سورةَ النساء؟.

سورةُ النساءِ -أيها المؤمنون- عامَّتُها في «حقوقِ الضعفاء»: المرأةُ، واليتيمُ، واليتيمةُ، والسفيهُ، والوارثُ الضعيف، والذي يُغلَب في التجارة، والموالي (الخدم)، والمظلومُ، والمريضُ، والمسافرُ، والخائفُ، والمُستَضْعَفُ في

(١) للشيخ الدكتور عصام بن صالح العويّد، عضو الهيئة العالمية لتدبر القرآن الكريم، وعضو هيئة التدريس في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، بالرياض.

الأرض، والكلالةُ ونحوُهم؛ لذا لم يَأْمُرِ اللهُ عز وجل بالقِسطِ (العدل) في شيءٍ مِن القرآن كما أَمَرَ به في سورتي النساء والمائدة، وبعضُ آياتِها قد يحتاجُ ربطُها بهذا المعنى إلى تَكَلُّف وقد نُهينا عنه كما في البخاري عن عمر رضي الله عنه[(١)]، لكن مَعاقِدُها تدورُ على القِسْطِ والعَدْل:

-ففي مَطلعِها نَقرأُ قولَه تعالى: ﴿ وَءَاتُواْ ٱلْيَتَـٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ﴾[(٢)]، وقولَه: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِى ٱلْيَتَـٰمَىٰ ﴾[(٣)]، وقولَه: ﴿ وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَـٰتِهِنَّ نِحْلَةً ﴾[(٤)]، وقولَه: ﴿ وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾[(٥)].

-وفي وَسَطِها نقرأُ قولَه تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ ﴾[(٦)]، وقولَه: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا ﴾[(٧)]، وقولَه: ﴿ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ﴾[(٨)]،

(١) البخاري (٧٢٩٣).
(٢) النساء: ٢.
(٣) النساء: ٣.
(٤) النساء: ٤.
(٥) النساء: ٥.
(٦) النساء: ١٩.
(٧) النساء: ٢٨.
(٨) النساء: ٣٣.

وقولَه: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ... فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾[1]، وقولَه: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ﴾[2].

ونقرأ في أواخرِها: أنَّ الجهادَ فيها مِن أَجْلِ الضُّعفاء: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾[3].

ونقرأ فيها صلاةَ الخوف: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ﴾ الآيات[4].

وتكَرَّرَ الأَمرُ فيها بالعدلِ مع الضعفاء، والتخويفِ باطِّلاعِ اللهِ وكمالِ علمِه بالخفايا، كما قال سبحانه: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾[5].

(١) النساء: ٣٤.
(٢) النساء: ٤٣.
(٣) النساء: ٧٥.
(٤) النساء: ١٠٢.
(٥) النساء: ١٣٥.

- وخُتِمت «النساءُ» بآيةِ الكَلالَة ﴿يَسۡتَفۡتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِي ٱلۡكَلَٰلَةِۚ﴾[1] والكلالةُ: مَن لا وَلَدَ له ولا وَالِد، وهذا نوعُ ضَعفٍ في المالِ ظاهر.

فإنْ شَرَعْتَ -أيها الموفق- في قراءتِها أو سماعِها؛ فاعرِضْ نفسَك عليها، كيف أنت في إنصافِك مِن نفسِك وأَدائِك لِحَقِّ الضعيف، أو انتصارِك له حين يُظلَم، أَيًّا كان:

- المرأةُ؛ سواءً كانت: أُمًّا أو بنتًا أو أختًا أو زوجةً أو قريبةً أو بعيدة، مُسلمةً أو كافرة.

- اليتيمُ واليتيمةُ أو اللقِيطُ واللقيطةُ؛ حين يُظلمون مِن الأفرادِ أو المجتمع.

- الوارِثُ أو الوارِثةُ حُرِموا مِن مِيراثِهم.

- سائقٌ أو خادِمةٌ أو عامل؛ لم يَستَلِموا حُقوقَهم مِن أَشْهُرٍ مُتطاوِلة.

- مَظلومٌ مِن الناسِ أو مِن الحكومات.

- مَرِيضٌ لم يجد مُستشفى يُؤويه.

(١) النساء: ١٧٦.

- خائفٌ مُستضعَفٌ مِن جبّارٍ في الأرض.

وغيرُهم كثيرٌ، ثم تأمَّلْ بعضًا مِن تهديدِ اللهِ للباغين على حقوقِ الضعفاء:

- ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾[1]!

- وبَعدَ آيةِ المواريثِ وَعَدَ وتوَعَّد سبحانه: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾[2].

-وقال في المَهرِ: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾[3].

-وقال في شَأْنِ الزّوجةِ وظلمِها: ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾[4].

(١) النساء: ٦.
(٢) النساء: ١٣، ١٤.
(٣) النساء: ٢١.
(٤) النساء: ٣٤.

-وقال في الأموالِ وظُلمِ الناسِ فيها: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[(١)]

هذا -أيها المؤمنون- بَعضُ حديثِ سورةِ «النساء» إلينا، جَعلَها اللهُ حجةً لنا لا علينا، وغَفَر لنا ولوالدينا، ولجميع المسلمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.



(١) النساء: ١٦٠ - ١٦١.



المجلس الثالث عشر

﴿ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾[1]

الحمدُ لله، والصلاةُ والسلامُ على عبدِه ورسولِه ومصطفاه، أما بعد:

فتَمُرُّ بالأُمّةِ والفَرْدِ أوقاتٌ من الانتصار، ومثلُها من الانكسار، وأوقاتٌ من الفرح، وأُخرى من الحزن، فيُسَرّ بالأولى، ويَحزَنُ للثانية، ورُبما بَلَغَت عند البعضِ حَدَّ اليأسِ، أو إِساءة الظنِّ باللهِ وبإخوانِه المسلمين، فأَورَثَه ذلك قُعودًا وإحباطًا.

ولا يَقتَصِرُ هذا الأمرُ على أفرادِ الناسِ أو آحادِهم و عوامِّهم؛ بل رُبما يَشمَلُ فئاتٍ كثيرةً من المجتمع؛ من علمائِه أوقادتِه أو غيرِهم، وهي طبيعةٌ حَدَّثَنا عنها القرآنُ الكريمُ في مواضِعَ كثيرة، لِنعالجَها ونتَبَصَّرَ الطريقَ إزاءَها.

وإذا عُدنا إلى قِصةِ الأَحْزاب؛ ستَتَذَكَّر أنّ الأحزابَ اجتمعتْ على النبيِّ ﷺ من خارجِ المدينةِ وداخلِها؛ كقريشٍ ويهودٍ والمنافقين، ولكن لِنتأمَّل وَصْفَ القرآنِ

(١) للدكتور محمد بن مصطفى السيد، عضو مجلس إدارة الهيئة العالمية لتدبر القرآن.

لهذه الحال، إذ يقول: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾[1]، فتأمَّل التعبيرَ بقوله: ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾.

ثم يُعيدُ التاريخُ نَفسَه بَعدَ أكثرَ مِن ستةِ قرون من حادثة الأحزاب، حين هَجَمَ التَّتارُ على بلادِ الإسلامِ، فيأتي الإمامُ ابنُ الأثير، وهو أحدُ كِبار المؤرِّخين فيقول: «لقد بَقِيتُ عِدَّةَ سنينَ مُعْرِضًا عن ذِكر هذه الحادثةِ -يقصد دخول التتارِ وإفسادَهم وقتلَهم في بلاد المسلمين- استعظامًا لها، كارِهًا لِذكرِها، فأنا أُقدِّم رِجْلًا، وأُؤخِّرُ أخرى، فمن يَسهُل عليه نعيُ الإسلام والمسلمين، ومَن الذي يَهُون عليه ذِكرُ ذلك، فيا لَيتَ أُمِّي لم تَلِدْني، ويا ليتني مِتُّ قبل هذا وكنتُ نَسْيًا مَنسيًّا»[2].

تأمَّلوا معي هذه الروحَ التي غَلَبت عليه أثناءَ تَسطِيرِ هذه الكلمات، وهي من جِهةٍ تُحمدُ له على حُزنِهِ على ما أَصابَ الإسلامَ والمسلمين، لكن لا تُحمدُ له تلك النظرةُ التشاؤميةُ التي عاشَها ونَقَلَها إلى كلِّ من قَرَأَ كلماتِه هذه، ولكم أنْ تَتَساءلوا هل ماتَ الإسلامُ بعدَ سقوط بغداده، أَمْ أنَّه اتَّسَعَ وانتَشَرَ، ووَصَل إلى أماكِنَ لم يَصِلْ إليها مِن قبل؟

(١) الأحزاب: ١٠، ١١.
(٢) «الكامل في التاريخ» لابن الأثير ١٠/ ٣٣٣.

بعضُ الناسِ -وبعضُهم فُضَلاء- قد يَقعُ -مِن حيث لا يشعر- فيما ذَمَّ اللهُ به طائفةً مِن المنافقين، وهم الذين قال الله عنهم: ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ﴾[(١)]، كما يَغيبُ عنه الحديثُ القُدسي: «أنا عند حسن ظن عبدي بي، فليظنّ بي ما شاء»[(٢)].

قال ابن القيّم رحمه الله: «وإنما كان هذا ظنُّ السوءِ وظنُّ الجاهليةِ المنسوب إلى أهل الجهل، وظنّ غيرِ الحق؛ لأنه ظنُّ غير ما يليقُ بأسمائِه الحسنى، وصفاتِه العليا، وذاتِه المبرَّأة مِن كلِّ عيبٍ وسوء، بخلافِ ما يليقُ بحكمتِه وحمدِه، وتفرّدِه بالربوبية والألوهية، وما يليقُ بوعدِه الصادقِ الذي لا يخلِفُه، وبكلمتِه التي سَبَقت لِرُسُلِه أنه يَنصرُهم ولا يخذُلهم، ولجنده بأنهم هم الغالبون، فمن ظنّ بأنه لا ينصرُ رسُولَه ولا يُتِمّ أمرَه، ولا يؤيدُه ويؤيدُ حِزبَه ويُعلِيهم ويُظفِرُهم بأعدائِه، ويُظهِرُهم عليهم؛ فقد ظَنّ باللهِ ظَنَّ السوء»[(٣)].

إذن فنحن مأمورون بحُسْنِ الظنّ بربنا، ومأمورون بالوثوقِ بحكمتِه وقدرتِه التي نجهَلُ بعضَها، ويغيبُ عنا بعضُها لمحدودية عقولنا فلا نستوعبها، وتَظهرُ لنا آثارُ بعضِها في الحياةِ والكونِ والسنن، وحين نَشعُرُ بذلك الشعور؛ فإنه سيقوُدنا إلى الرضى والتسليم -بلا شك-، إضافةً إلى قدرٍ جيّدٍ مِن الراحةِ النفسيةِ؛ التي تُعينُنا على مواجهةِ مصائبِ الحياةِ ومصاعِبِها، وعندها ترتاحُ نفوسُنا، وتسكُنُ قلوبُنا.

(١) آل عمران: ١٥٤.
(٢) رواه البخاري (٧٥٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥) عن أبي هريرة -رضي الله عنه-: بلفظ: (أنا عند ظن عبدي بي).
(٣) «زاد المعاد» ٣/ ٢٠٥.

وحتى نَستَشعِر أهميةَ هذا الأمر، لِنستمعَ إلى حديثِ جابرٍ بنِ عبدِ الله رضي الله عنه، قال: سمعت رسولَ اللهِ ﷺ قبل موتِه بثلاثةِ أيامٍ يقول: «لا يموتنّ أحدُكم إلّا وهو يُحسِنُ الظنَّ باللهِ عز وجلّ»[1].

إنَّ حسْنَ الظنّ باللهِ شأنُ المؤمنِ الموفَّقِ الواثقِ بربِّه، وهو الذي يجعلُه مُتفائلًا في حياتِه، يَسيرُ باتجاه العملِ الفاعلِ المثمرِ البنّاء، مُتخَلِّيًا عن اليأسِ والإِحباط، وهو ما سوف يُساعِدُه على الثبات أَمام العقباتِ التي تَعترضُه في حياتِه وعملِه ودعوتِه.

وبَعدَ أَنْ يُحسِنَ المرءُ الظنَّ بربِّه؛ فإنّه مأمورٌ بإحسانِ الظنِّ بإخوانه المسلمين، ولْنَستمعَ سَويًّا إلى قولَ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾[2]، ولْنستمعَ أيضًا إلى قولَ النبي ﷺ: «إياكم والظنَّ فإن الظنَّ أكذبُ الحديث»[3].

إنَّ حُسنَ الظنّ بالمسلمين يُورِثُ الأُلفةَ والمحبةَ بينهم، وفي المقابل؛ فإنَّ سوءَ الظنِّ يورثُ العداوةَ والبغضاءَ والحسد، الأمرَ الذي يدفعُ المرءَ إلى ارتكابِ جرائمَ وقبائحَ ليس لها حدّ، ولذلك جاءَ في تمام الآية: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾[4]، كما جاء في تمام

(١) رواه مسلم (٢٨٧٧).
(٢) الحجرات: ١٢.
(٣) رواه البخاري (٥١٤٣)، ومسلم (٢٥٦٣).
(٤) الحجرات: ١٢.

الحديث: «ولا تحسسوا ولا تجسسوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانًا»[١].

لقد قَرَّر أهلُ العلم أنّ البُغضَ والحَسَدَ يَنشآنِ أولَ ما يَنشآن عن سوءِ الظنِّ بالآخرين، حيث يَتأول المرءُ أفعالَ إخوانه أيًّا كانت أسوأَ تأويل، وهذا واضحٌ ومُشاهدٌ، فكم يرى المرءُ أقوامًا أساؤوا الظنَّ بإخوانهم؛ فنَشأَ عن ذلك ما لا يخفى من الحقدِ والحسدِ والغِيبةِ والنميمة، ولو أنهم أحسَنوا الظنَّ بهم لكانَ الأمرُ أهونَ من ذلك بكثيرٍ، ولَمَا احتاجوا كلَّ ذلك، بل باتوا في راحةٍ واطمئنان.

كم هُدِمتْ بيوتٌ وأُسَر، بل كَم فُضّت عقودٌ وشراكات، وانهارت أعمالٌ؛ بسببٍ مِن سوءِ الظنّ، والشيطانُ واقفٌ يترصَّدُ ليوسِّعَ الشّرْخَ ويزيدَ في العداوة.

هذا؛ وإنّ حُسنَ الظنّ ليس مطلوبًا مع كل أحدٍ، فربما يأتي مع أُناسٍ يجبُ أن لا نحسنَ الظنَّ بهم، فيغترّ بهم وبأعمالهم المرء، كحالِ بعضِ المنافقين، ففي حديثِ عائشةَ رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «ما أظنّ فلانًا وفلانًا يعرفان من أمرِنا شيئًا»، قال الليث: «كانا رجلين من المنافقين»[٢].

قال ابن حجر رحمه الله: «إنَّ مثلَ هذا الذي وَقَعَ في الحديث ليس من الظنِّ المنهيِّ عنه، لأنه في مَقَامِ التحذيرِ مِن مِثلِ مَن كان حالُه كحالِ الرجلين،

(١) التخريج السابق.
(٢) البخاري (٦٠٦٧).

والنهيُ إنما هو عن الظنِّ السوءِ بالمسلم السالم في دينِهِ وعرضِه، وقد قال ابن عمر: إنّا كنّا إذا فقدْنا الرجلَ في عِشاءِ الآخرةِ أَسأْنا به الظنّ، ومعناه: أنه لا يغيب إلا لأَمْرٍ سيء، إما في بدنِه، وإما في دينِه»[١].

إنّ هذا الأمرَ يقودُنا إلى أنْ لا نَكونَ أَغرارًا تُلبَّس علينا الأمور، فيَستغلّنا البعضُ تحت حجةِ حُسْنِ الظنِّ بالآخَرين، فيُمرِّر علينا -وتحت نظرِنا وسمعِنا- ما يريدُ من أعمالٍ أو قراراتٍ أو أفكارٍ أو أخبار، بل المطلوبُ منا التمحيصُ؛ خاصّةً مع من لا تَظهرُ عدالتُه أو لا يظهرُ عدلُه، والتدقيقُ في الأمور، ومتابعتُها جيدًا، حتى لا نقعَ في شَراكِ هؤلاء.

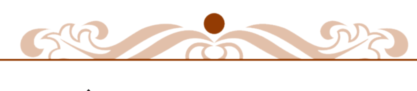
إننا إذ نتحدّثُ عن ذلك؛ نطرحُ الأمرَ من جانبيه، والمسلمُ مطلوبٌ منه ألّا يَفقِدَ حُسْنَ الظنِّ بالمسلمين، كما أنّه مَطلوبٌ منه ألا يحسنَ الظنَّ بكلِّ أحدٍ ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾[٢].

اللهم طهِّر قلوبَنا مِن أمراضِها، وارزقنا القصدَ في الفقرِ والغنى، واغفر اللهم لنا ولوالدينا ولجميعِ المسلمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.



(١) فتح الباري ١٠/ ٤٨٦.
(٢) الفرقان: ٦٧.





المجلس الرابع عشر

من أسرار قراءة بعض السور يوم الجمعة [١]

يَمُرُّ على المؤمنِ يومَ الجمعةِ عددٌ من السُّوَر، إمّا أنْ يقرأَها بنفسِه كسورةِ الكهف، أو يسمَعُها من إمامِ المسجدِ في صلاةِ الفجر أو الجمعة، أو يسمَعُها في خطبةِ الجمعة. وعند حصرِ هذه السُّورِ وَجَدْتُ أنها ثمان سور، منها المكيُّ وهي سورةُ السجدة و (ق) والكهف والأعلى والغاشية، ومنها المدنيُّ كالجمعةِ والمنافقون والإنسان، فهذه ثمان سور من السور التي كان النبي ﷺ يقرأُ بها ويحثُّ على القراءةِ بها يومَ الجمعة [٢].

وإيمانًا مِنّا بأنّ كلَّ عملٍ يأمُرُ بهِ اللهُ أو يأمُرُ به رسولُه ﷺ؛ يشتَمِلُ على حِكَمٍ ومَعَانٍ يَظهرُ بعضُها للمتأمِّلِ المتدبِّرِ لأوّلِ وهلة، ويَحتاجُ بعضُها إلى

(١) للدكتور عبد الرحمن بن معاضة الشهري، عضو مجلس الهيئة العالمية لتدبر القرآن، أستاذ القرآن وعلومه المشارك بجامعة الملك سعود.

(٢) عن ابن عباس أن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يقرأ في صلاة الفجر يوم الجمعة ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ (سورة السجدة) و﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ﴾ (سورة الإنسان)، وأن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يقرأ في صلاة الجمعة سورة الجمعة والمنافقين. أخرجه مسلم (٨٧٩).
وعن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم يَقْرَأُ فِي الْجُمُعَةِ، فِي صَلاَةِ الْفَجْرِ، آلَم تَنْزِيلُ، السَّجْدَةَ، وَ هَلْ أَتى عَلَى الإِنْسَانِ. أخرجه البخاري (٨٩١).

إِعمالِ الفكرِ لاستخراجِها واستنباطِها، فسنحاولُ التدبُّرَ في هذه السورِ الثمان؛ لنرى شيئًا من أسرارِ هذه المزية والفضيلةِ التي اختصت بها.

وهذه السُّورُ تَشتَرِكُ في أنها تُذكِّرُ الإنسانَ بقضايا كبرى في حياتِه يجبُ أنْ تُكَرَّر على سَمعِ المؤمنِ باستمرار، بِحَيثُ تَستَقِرُّ في نفسِه استقرارًا ينفي كلَّ شك، وتُشَكِّلُ بتَكْرارِها وعيَ المؤمنِ الذي يُواظِبُ على حضورِ هذه الصلواتِ مع الجماعة.

أولًا: سورة الكهف.

أَغلبُ المتدبِّرين لهذه السورةِ يرون أنَّ المقصدَ الذي تدورُ حولَه آياتُ هذه السورةِ: هو الإرشادُ إلى كيفيةِ النجاةِ والعصمةِ مِن الفتنِ بأنواعها، وقد وَرَدَ في السورةِ أربعةُ أمثلةٍ للفتنِ؛ تُعتبَرُ مِن أعظمِ الفتنِ التي يُبتلى بها المرءُ في حياته:

- فتنةُ الدينِ في قصةِ أصحابِ الكهف، وكيف اعتصمَ الفتيةُ بالله، وفَرُّوا من كفر قومهم، فعصمَهم اللهُ ونجّاهم.
- فتنةُ المالِ في قصةِ صاحبِ الجنتين، وكيف فَشِلَ الرجلُ في الاختبارِ فمَحَقَ اللهُ مالَه.
- فتنةُ العلمِ في قصةِ الخضرِ مع موسى عليه الصلاة والسلام، وكيف شَكَرَ الخضر هذه النعمة.
- فتنةُ المُلْكِ في قصةِ ذي القرنين، وكيف نجَحَ ذو القرنين في هذا الابتلاء بشكرِ هذه النعمةِ العظيمةِ، واستعملَها في طاعةِ الله.

وهذه المعاني العظيمةُ يَحتاجُ المؤمنُ إلى تذكُّرها باستمرار، فشُرِعَتْ قراءتُها كُلَّ جُمعة. وفي اسمها ما يدلُّ على موضوعِها ومَقصدِها، وهو (الكهف)؛ فهو عصمةٌ ماديّةٌ لمن يلجأُ إليه عادةً، وكذلك معاني وآياتُ هذه السورةِ عصمةٌ لَمن قرأها وتدبَّرَها من هذه الفتن، ومِن أعظمِ الفتنِ فتنةُ الدَّجّال، ولذلك قال النبي ﷺ: «فمن أدركه منكم -أي الدجّال-، فليقرأ عليه فواتِحَ سورةِ الكهف»[١] وفي رواية: «من قرأ العشرَ الأواخِرَ من سورةِ الكهفِ فإنه عصمةٌ له من الدجال»[٢]. وحذَّرَ اللهُ من الشيطانِ في أثناءِ هذهِ السورةِ وأشارَ إلى مخالفتِه للإنسانِ وعداوتِه له في قوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾[٣].

ثانيًا: سورة السجدة.

تَدورُ آياتُها حولَ بيانِ حقيقةِ الخَلقِ وأحوالِ الإنسانِ في الدنيا والآخرة، ببيانٍ شافٍ كافٍ، يُبعِدُ من نفسِ الإنسانِ كلَّ فِكرةٍ إلحاديةٍ تُحاوِلُ التسلُّلَ إلى ذِهنِ المؤمنِ، في زحامِ الأفكارِ وعَولمةِ الثقافات. فهي تُفصِّل كيف خلقَ اللهُ السمواتِ والأرضَ في ستةِ أيام، وكيف خلقَ الإنسانَ الأوّلَ مِن طين، وخلقَ

(١) صحيح مسلم (٢٩٣٦).
(٢) رواه النسائي في عمل اليوم والليلة (٩٤٨).
(٣) الكهف: ٥٠.

سُلالتَه مِن ماءٍ مهين، في تفصيلٍ رائعٍ يَطمئنُّ له القلبُ المؤمن، ويَزدادُ تعلُّقُه بربِّه، ولا يملك إلا أنْ يَخِرَّ ساجدًا بين يديه، ولذلك سُمِّيت سورةُ السجدة، وشُرِعَ سجودُ التلاوةِ عند الآيةِ الخامسةَ عشرَ من آياتها.

ثالثًا: سورة ق.

سورة (ق) كان النبي ﷺ يقرؤها في الخطبةِ يومَ الجمعة في أحيانٍ كثيرة، وقد ذَكَرتْ أمُّ هشامٍ بنتُ حارثة رضي الله عنها حديثًا يدلُّ على كثرةِ تكْرارِ النبي ﷺ لقراءةِ سورة (ق) في خُطبة الجمعة، حيث قالت: وما أَخَذْتُ ﴿قٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾ إلا على لسانِ رسول الله - ﷺ - كان يقرؤها كلَّ يوم جمعةٍ على المنبرِ إذا خَطَبَ الناسَ[1]. وآياتُها تدورُ على بيانِ حقيقةِ البعثِ واليومِ الآخر، مع الاستدلال على اليومِ الآخرِ والبعثِ بعد الموت، والاستدلال على توحيدِ الألوهيةِ بتوحيدِ الربوبية.

رابعًا: سورة الجمعة.

سميت بسورةِ الجمعةِ لمجيءِ ذِكرِ يوم الجمعةِ فيها، وهي تؤكِّدُ على تذكيرِ الأُمةِ في هذا اليوم العظيم؛ بنعمةِ اللهِ عليها بإرسالِه محمدًا عليه الصلاةُ والسلام، وأنّ اللهَ قد جعَلَه هدايةً لها بعد الضلالِ المبينِ الذي كانت فيه، ولا شكّ أنَّ هذا مِن أعظمِ القضايا في حياةِ المؤمن، التي لا ينبغي أنْ تغيبَ عن ذهنِه، ولذلك شُرِعتْ قراءتُها في صلاةِ الجمعة.

(١) رواه مسلم (٣٧٨).

خامسًا: سورة المنافقون.

تؤكِّدُ السورةُ على كشفِ المنافقين، وبيانِ حقيقتِهم، وأبرزِ صفاتهم، لتكونَ بمثابةِ تحذيرٍ أسبوعيٍّ؛ مِن طائفةٍ خطيرةٍ تهدِمُ الإسلامَ مِن الداخل، وتُوضِّحُ للمؤمنين أنَّ حصونَنا مهددةٌ من داخلِها بهؤلاءِ المنافقين! ولعظَمِ خَطَرِهم وعدم انقطاعِهم مِن المجتمع، منذُ عهدِ النبي ﷺ حتى اليوم؛ شُرِعَ التحذيرُ منهم بشكلٍ متكرر، بتلاوةِ هذه السورةِ في صلاةِ الجمعة.

سادسًا: سورة الإنسان.

تؤكِّدُ السورةُ على تذكيرِ الإنسانِ بأصلِ خِلقته، وتُبينُ عاقبتَه ومصيرَه في الآخرة؛ ليكونَ على حذرٍ وعلى بينةٍ من أمره، فقد فصَّلَ اللهُ في السورةِ كيف بَدأَ خلقَ الإنسان، وكيف انقسمَ الناسُ إلى مؤمنٍ شاكر، وكافرٍ جاحد، ومصيرَ كلٍّ من الفريقين. وأطالَ في بيانِ مصيرِ أهلِ الجنةِ تشويقًا وتحفيزًا للمؤمنين. وأشارَ فيها إلى نعمةِ نزولِ القرآن، ووجوبِ الصبرِ على العملِ به.

سابعًا: سورة الأعلى.

المقصدُ من هذه السورةِ: تأكيدُ تعلُّقِ النفوسِ باللهِ العظيمِ الأعلى، والحرص على الآخرةِ ونعيمِها، وعدم التعلُّق بالدنيا وبهرجِها الزائل، وهي تحملُ رسالةً قصيرةً مُركَّزةً، تُؤكِّدُ للمؤمنِ أنَّ العُلوَّ الحقيقيَّ هو في طاعةِ اللهِ وخشيته ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾، وأنّ الشقاءَ والخسرانَ في اجتنابِ هذه النصيحةِ والتعلُّق بالدنيا ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾. لاحظْ هنا كيف وَصَفَ الشقيَّ بقوله: ﴿ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾[1]، وهذه الحقيقةُ الكبرى ينبغي أن

(١) الأعلى: ١٠ – ١٢.

تكون نُصبَ عينيَّ المؤمنِ في حياتِه كلِّها، تُكرَّرُ عليه كلَّ حين، ولذلك فهي تُقرأُ في الركعةِ الأولى من صلاةِ الجمعة، وصلاةِ الاستسقاء، وصلاةِ العيد.

ثامنًا: سورة الغاشية.

تُذكِّرُ هذه السورةُ العظيمةُ بقدرةِ اللهِ العظيمة، وأصنافِ الناسِ يومَ القيامة، ومصيرِهم في الآخرة. وهي هي! المعاني الكبرى المصيريةُ، التي لا ينبغي أنْ تغيبَ عن المؤمن أبدًا، ويحتاجُ إلى تعلُّمِها وتذكُّرِها دومًا. ولذلك شُرِعتْ قراءتُها في الركعةِ الثانيةِ من صلاةِ الجمعةِ والعيدِ والاستسقاء.

ونلاحظُ مِن الأمورِ المشتَركةِ بين هذه السُّورِ الثمان ما يلي:

١- تأكيدُها على القضايا الكبرى في حياةِ البشر.

بدء خَلْقِ السمواتِ والأرض، وبدء خلقِ الإنسان، والمنهج الصحيح في الدنيا، والمصير في الآخرة. وهي قضايا ضَلَّتْ فيها البشريةُ ضلالًا مبينًا، لا يعرفه إلا من قرأ في كُتُبِ الضالين، وعَرَفَ كيف ضَلَّ سعيُهم في الحياةِ الدنيا، وكيف هدانا اللهُ بهذا القرآنِ العظيم.

٢- تَكرارُ آياتِ التذكيرِ والذِّكرِ والذكرى في السور.

في سورةِ الكهفِ في قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدٗا﴾[1]، وقولِه في آيةٍ عظيمةٍ مِحْوَريةٍ في منهجِ المؤمنِ في عبادتِه للهِ وحبسِه نفسَه عليها: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ

(١) الكهف: ٢٤.

رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ﴾[١] وقوله تعالى: ﴿ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعۡرَضَ عَنۡهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ ﴾[٢] وقولِه تعالى في إشارةٍ إلى سببِ نسيانِ غُلام موسى للحوتِ وأنه الشيطان: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ أَنۡ أَذۡكُرَهُۥ﴾، وقولِه في آخرِ السورة وهي من أدلِّ الآياتِ على مقصودِنا: ﴿ وَعَرَضۡنَا جَهَنَّمَ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡكَٰفِرِينَ عَرۡضًا ١٠٠ ٱلَّذِينَ كَانَتۡ أَعۡيُنُهُمۡ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكۡرِي وَكَانُواْ لَا يَسۡتَطِيعُونَ سَمۡعًا ﴾.

وفي سورةِ السجدة: ﴿ إِنَّمَا يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْۤ سُجَّدٗا وَسَبَّحُواْ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴾[٣]، وقولِه أيضًا: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعۡرَضَ عَنۡهَآ ﴾. وقد تقدّم نظيرُها في الكهف.

وفي سورةِ (ق) ورد فيها آياتٌ تدورُ حولَ معنى الذكرى والتذكير. كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٞ ﴾[٤] وفي آخرِها قال: ﴿فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾.

وفي سورةِ الجمعةِ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٩ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ

(١) الكهف: ٢٨.
(٢) الكهف: ٥٧.
(٣) السجدة: ١٥.
(٤) ق: ٣٧.

﴿كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[(١)].

وفي سورةِ المنافقون قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾[(٢)].

وفي سورة الإنسان: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾[(٣)]، في سورة الأعلى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾[(٤)] الآيات.

وفي سورة الغاشية: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝٢١ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾[(٥)]. لاحظْ كيف عَظَّمَ وظيفةَ التذكيرِ؟! فكأنَّ رسالةَ النبيِّ ﷺ مقصورةٌ على التذكير؛ لبيان أهميةِ التذكيرِ وتكرارِهِ على مسامِعِنا.

وتَكْرَارُ التذكيرِ بمشتقاتِهِ وصِيَغِهِ في هذه السورِ له دلالتُه، حيثُ إنّ التذكيرَ يلزمُ منه التَكرارُ مرةً بعدَ مرة، وهذا يتناسبُ مع الأمرِ بقراءتِها كلِّ جمعةٍ في مواضعِها المعروفة.



(١) الجمعة: ٩، ١٠.
(٢) المنافقون: ٩.
(٣) الإنسان: ٢٥.
(٤) الأعلى: ٩، ١٠.
(٥) الغاشية: ٢١، ٢٢.



المجلس الخامس عشر

﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾[(١)]

الحمدُ لله، والصلاةُ والسلامُ على عبدِهِ ورسولِهِ ومصطفاه، أما بعد:

فإنَّ اللهَ تعالى حين ذكَرَ فَلاحَ المؤمنين، ذكَرَ الصلاةَ باعتبارها أوَّل وسام نُوراني -بعد الإيمان- يَشِعُّ مِن قلوبِهِم، وهو أمرٌ يكادُ يكونُ مُطَّرِدًا في كلِّ آيِ القرآن، يقولُ تعالى في أوَّلِ سورةِ البقرة: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾[(٢)]، ومِن أجملِ ما وَرَدَ في ذلك: فاتحةُ سورةِ (المؤمنون)؛ إذ جَعَلَ اللهُ أوَّلَ صفاتِهم الخشوعَ في الصلاة، وآخِرَها المحافظةَ على الصلاة، وكلُّ أعمالِ الصلاحِ مِن فِعلِ الخَيرات وتركِ المنكرات، جَعَلَها فيما بينهما، فاقرأْ وتَدَبَّرْ، واحفَظْها واحدةً واحدة: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦

(١) منتقى من كلام للدكتور فريد الأنصاري -رحمه الله- في كتابه «بلاغ الرسالات القرآنية» (ص: ١١٣-١٢١) بتصرف يسير.
(٢) البقرة: ١ - ٣.



﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾[1]، فالخَيرُ كلُّه فاتِحتُهُ الصلاة، والخيرُ كلُّه خاتِمَتُهُ الصلاة، والخيرُ كلُّه غايتُهُ الصلاة، والخيرُ كله وسيلتُهُ الصلاة.

فإنْ كنتَ تُصلِّي حَقًّا؛ فأنت تاركٌ لكلِّ مُنكَرٍ مِن الكبائرِ والموبِقات! كالشركِ بالله، والسحرِ، وقتلِ النفس التي حَرَّمَ اللهُ إلا بالحق، وأكلِ الربا، وأكلِ مالِ اليتيم، والتولي يومَ الزحف، وقذفِ المحصنات الغافلات، وكذا تناوُلِ المحرماتِ مِن المطعوماتِ والمشروبات، كأكلِ الميتة، والدم، ولحم الخنزير، وما أُهِلَّ به لغيرِ الله، وشُرْبِ الخمرِ أمِّ الفواحش، وسائرِ المُسكِراتِ المخدِّرات، والسُّقُوطِ في المحرماتِ مِن المعاملاتِ والملبوسات، كالكِبْرِ والظُّلم، والغَصْب، وشهادةِ الزُّور، وأكْلِ أموالِ الناسِ بالباطل، والقِمار، وسائرِ المنكرات!

فتَدَبَّرْ كيف أنَّ اللهَ جلَّ جلالُه ذَكَرَ في سِياقِ صفاتِ الفَلَاحِ -مما أوردناه قبلُ مِن فواتح سورةِ (المؤمنون)- عددًا مِن الأفعالِ والتروك، كان جَانِبُ التركِ فيها أَكثَرَ حُضُورًا، باللفظِ أو بالمعنى، كما في (الإعراضِ عن اللغو)، و(حفظِ الفروج) الذي هو في معنى النهي عن الزنى، والنهي عن مَسَالكِهِ وأسبابه، و(رعيِ الأماناتِ والعهود)، الذي هو في معنى النهي عن الخياناتِ بِشتَّى أنواعِها، وهذا شيءٌ مُهِمٌّ جدًا، ذلك أنَّ الصلاةَ كما ذَكَرْنا ترْكٌ مِن التُّروك.

(١) المؤمنون: ١ – ٩.

وجامعُ ذلك كلِّه قولُ اللهِ ذي الأسرار والأنوار: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾[1] هل أَبْصرتَ هذه الآية؟ أَبْصر إذن كيف أَنَّ اللهَ تعالى أَسنَدَ فِعْلَ النهي للصلاةِ نفسِها! كأنها هي ذاتُها شَخصٌ مَعنوي، في هَيئةِ نبيٍّ مُرْسَل يُؤدِّي مُهِمَّتَه التَّبليغية، أو عبدٍ مُصلِحٍ يَقومُ بوَظيفَتِه الإصلاحية! أَعِد التلاوةَ وتَدَبَّر: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ عَجيبٌ! لِأَنَّ معنى (أَنْ تُصلي): هو أَنْ ترحَلَ عن خطاياك إلى الله.. تَخْرُجَ مِن دَرَكاتِ العادةِ إلى دَرَجاتِ العبادة، وهذا كلامٌ يُعبِّرُ عن حقائقَ لا يعلم مَدَى عُمقِها في النفس إلا الله! إذ تَتَحوَّلُ الأذواقُ وتَتَبدَّل، يَتَغَيَّرُ طَعمُ المنكرِ في قلبك فلا تَستَحْليه. ويَتَبَدَّلُ ذوقُ شَهَواتِ الحرام مِن الرَّغْبةِ إلى الغضبة! وتُصبِحُ خَلْقًا آخر! أَبصِرْ ثم أَبصِر فإنَّ الصلاةَ تَصنَعُك! نَعَم إنها ﴿تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾.

هل غَلَبَتْك الفاحشةُ ولم تَستَطِع التَّخَلُّصَ منها؟ هل أنت مُدمِنٌ على خَطيئةٍ ما؟ دواؤك واحد: صَلِّ! تقول لي: إني أُصلي.. لا، لا! صَلِّ فإنك لا تُصلِّي! ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾، صَلِّ؛ تجدْ أَنَّ ما كانَ يَأسِرُكَ مِن المحرماتِ بالأمس، ويَملأُ عليك قلبَكَ نزوةً ورَغبة، فلا تَستَطِيعُ التَّخَلُّصَ منه؛ هو مِن أَبغَضِ الأشياءِ إليك اليوم! إنَّ القرآنَ سيفٌ قاطع، إذا قَطَع القولَ في حقيقةٍ فلا مِراءَ بَعدُ إلى يوم القيامة! ولَقَد قالَ الحقُّ كَلِمتَه، ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾[2].

(١) العنكبوت: ٤٥.
(٢) يونس: ٣٢.



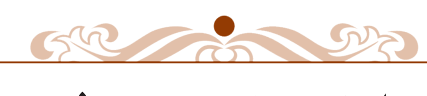
إنَّ الصلاةَ سَفَرٌ مِن الأرضِ إلى السماء؛ فأنى لمنازِلِ السلامِ أَنْ تَصطدِمَ بنوازِلِ الحرام؟ أبدًا، لا شهود للدرجات في نَتانةِ الدَّرَكات!

فيا حَسرةً على العباد! لو يُدرِكون ما هذه الصلوات؟ ويا حسرةً ثم يا حسرةً على نابِتَةٍ مِن أبناءِ الإسلام تَعدَّدتْ بهم السُّبُلُ مِن هُنا وهناك، وتَفرَّقَت بهم الأهواء، وانغمسوا في التِّيْهِ مِن كلِّ صَوْب، وأَضَاعوا هذه الصلوات، خُشوعَها ومَواقيتَها وجَمالَها، فصَدَقَ عليهم قولُه تعالى: ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴾[1].

اللهم اجعلنا وذُرِّياتنا ممَّن يُقيمُ الصلاة، ولا تَحرِمْنا لذَّتَها وبَرَكتَها بسببِ ذنوبِنا، واغفر اللهم لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.



(١) مريم: ٥٩.



المجلس السادس عشر

دلالة الاقتران وأثرها في التدبر [١]

الحمدُ لله، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ وعلى آلِهِ وصحبِهِ ومَن والاه، أما بعد:

فإنَّ مِن أبوابِ التَدَبُّرِ: التأمُّل فيما يُسمِّيهِ العلماءُ بِـ(دَلالةِ الاقترانِ)، أي: دلالةُ عطفِ الكَلِمةِ على كَلِمة، ودلالةُ مجيئِها معها واقترانِها بها، وهو بابٌ لطيفٌ مِن أبوابِ التدبُّر، وفيه فوائدُ كثيرةٌ جَمَّة.

وسنذكُرُ في هذا المجلسِ بعضَ الأمثلة[٢] على هذه القاعدةِ المهمَّة، التي تُبيِّنُ المراد بها:

المثال الأول:

تأمَّلْ كيف قَرَنَ اللهُ بينَ أكلِ الطيباتِ وعَمَلِ الصالحاتِ في قولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا﴾[٣] فأكْلُ الحلالِ الطَّيِّبِ مما

(١) للدكتور عبد المحسن بن زبن المطيري، عضو الهيئة العالمية لتدبر القرآن، وعضو هيئة التدريس بكلية الشريعة في جامعة الكويت.
(٢) وكل هذه الأمثلة مأخوذة من كتاب (ليدبروا آياته) بأجزائه الأربعة الأولى.
(٣) المؤمنون: ٥١.



يُعينُ العبدَ على فِعلِ الصالحات، كما أنَّ أكْلَ الحرامِ أو الوقوعِ في المُشتَبِهات، مما يُثقِلُ العَبدَ عن فِعْلِ الصالحات.

المثال الثاني:

تأمّل في قولِه تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾[1] وقولِه: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾[2] تجِدْ أنَّ اللهَ تعالى يَقرِنُ استواءَه على العرشِ باسمِ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ كثيرًا؛ وذلك لِأنَّ العَرشَ محيطٌ بالمخلوقاتِ قد وَسِعَها. والرحمةُ محيطةٌ بالخلقِ واسعةٌ لهم، كما قال تعالى: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖ﴾[3] فاستوى على أوْسعِ المخلوقاتِ بأَوْسَعِ الصفات.

المثال الثالث:

بُشْرَى لِمَن يَسعى في طَلَبِ الرزقِ الحلالِ بالتجارةِ ونحوِها، ذَكَرَها اللهُ تعالى في قولِه: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَبۡتَغُونَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[4] فقد كان بعضُ الصحابةِ يَتأوَّلُ من هذه الآيةِ فَضيلةَ التجارةِ والسَّفَرِ لأَجلِها، حيثُ قَرَنَ اللهُ بين المجاهدين والمكتسِبين المالَ الحلالَ؛ وذلك أنَّ اللهَ ما ذَكَرَ هذين السَّبَبَين لِنَسْخِ تحديدِ القيامِ إلا تَنويهًا بهما؛ لأَنَّ في غيرِهما مِن الأعذارِ ما هو أَشبَه بالمرض.

(١) طه: ٥.
(٢) الفرقان: ٥٩.
(٣) الأعراف: ١٥٦.
(٤) المزمل: ٢٠.

المثال الرابع:

لما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ قال بعدها: ﴿ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾[1]، فبعدَ أَنْ ذَكَرَ استِحقَاقَه للعبوديةِ ذَكَرَ سَببَ ذلك وهو كمالُهُ في نفسه، وكمالُه لِغيرِه، فلا تَصْلُحُ العبادةُ إلا لمن هذه شأنُهُ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾[2] ومَن كان يَعبُدُ الله، فإنَّ اللهَ حيٌّ لا يموت.

المثال الخامس:

قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[3] هذه الآيةُ مِن أَظْهرِ الأدلةِ على بيانِ منزلةِ العلماءِ الآمرين بالمعروف، حيثُ قَرَنَ اللهُ خُطورَةَ جَريمةِ قَتلِهِم بِقتلِ الأنبياء؛ لأنَّ العلماءَ هم وَرَثةُ الأنبياء.

المثال السادس:

قولُهُ تعالى: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾[4] دَلَّت الآيةُ على أَنَّ العِلْمَ والتعليمَ والدراسةَ تُوجِبُ كونَ الإنسانِ ربانِيًّا؛ فمَن اشتَغَلَ بذلك لا لهذا المقصد ضَاع سعيُهُ، وخَابَ عملُهُ.

(١) البقرة: ٢٥٥.
(٢) الفرقان: ٥٨.
(٣) آل عمران: ٢١.
(٤) آل عمران: ٧٩.



المثال السابع:

قولُه تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ﴾[1] جَمَعَ بين التسبيحِ والاستغفار؛ إذ في الاستغفارِ محوُ الذُّنوب، وفي التسبيحِ طلبُ الكَمال.

المثال الثامن:

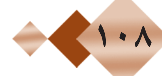
﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ﴾[2] إنَّ قَرْنَ شَهادةِ العلماءِ بِشهادةِ ربِّ العالمين وشهادةِ الملائكةِ؛ تزكيةٌ عظيمةٌ لأهلِ العلم، فإنَّ اللهَ لا يَستَشهِدُ بمجْرُوح.

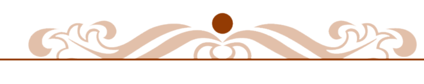
هذه -أيها المؤمنون- بعضُ الأمثلةِ التي تَفتَحُ بابًا للتدَبُّرِ لهذا الكتابِ العظيم، فأقبِلوا عليه، وتدبَّروه تَسعدوا وتُفلِحوا.

اللهم ارزقنا فَهْمَ كتابِك والعملَ به، واغفر اللهم لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.



(١) النصر: ٣.
(٢) آل عمران: ١٨.





المجلس السابع عشر

﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾[1]

الحمدُ للهِ الذي نَصَرَ عبادَه يومَ الفرقان، يومَ التقى الجمعان، والصلاةُ والسلامُ على سيِّدِ ولد عدنان، أما بعد:

فيقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾[2] إشارةٌ مِن اللهِ تعالى -في ثنايا الحديثِ عن غزوة أُحُد- إلى مِنّتِه على الصحابة -رضوان الله عليهم- حين نَصَرهم يومَ بدر، الذي سماه يومَ الفرقان، الذي فرَّق اللهُ فيه بين الحقِّ والباطل، فاستبان أهلُ الإيمان حقًّا، وصارت بدرٌ وَصْفًا عاصِمًا من النفاق، وتاجًا على رؤوس أهلِه، بتزكيةِ اللهِ لهم «افعلوا ما شئتم فقد غفرت لكم»[3].

أيها الصائمون:

إنّ يومَ بدرٍ الذي وَقَع في مثلِ هذا اليومِ العظيم -السابعَ عشرَ مِن رمضان-، اجتمعتْ فيه أنواعٌ مِن المَنِ مِن اللهِ على عباده، فدعونا نَقِفْ متدبِّرين مع بعضِ

(١) للدكتور عمر بن عبد الله المقبل، نائب رئيس مجلس إدارة الهيئة العالمية لتدبر القرآن الكريم، والأستاذ المشارك في جامعة القصيم.
(٢) آل عمران: ١٢٣.
(٣) البخاري (٣٠٠٧)، مسلم (٢٤٩٤).



الآياتِ التي نزلت في هذه الغزوة، ولْننطلقْ من تلك السورة العظيمة، التي سماها ابنُ عباسٍ -رضي الله عنهما- سورةَ بدر؛ إنها سورةُ الأنفال، وسوف نقفُ فيها على إشاراتٍ تُذكِّرُ ببعض الدلالات:

أولًا: ابتدأتْ السورة بـ ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾[1] ثم تأخَّر الجواب بعد أربعين آية في قوله سبحانه: ﴿۞ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾[2] وهنا يَبرُزُ السؤالُ: لماذا تأخَّرَ الجواب؟

فالجوابُ -والله أعلم-: لِتَذكيرِ الأُمّةِ بالأُصول العُظمى التي يجبُ أَنْ تتعلّقَ بها، وهي: التقوى، وإصلاحُ ذات البين، وإقامةُ الصلاة، والخوفُ من اللهِ والتوكلُ عليه، وفي هذا التأخيرُ للجوابِ إشارةٌ إلى التحذيرِ من التعلُّق بالمال، وأَثرِه في إفسادِ ذاتِ البين، إذا غلبَ على مصالحِ الشخصِ ونياتِه، أو كان هذا هو الدافعُ للجهادِ في سبيلِ الله.

ثانيًا: كمْ مِن الأحداثِ التي تكونُ في ظاهرِها مُؤلمة، وفي طَيَّاتِها الخيرُ للأُمّة: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾[3] فقد كان الصحابةُ يتمنَّون السَّلامةَ من الحرب،

(١) الأنفال: ١.
(٢) الأنفال: ٤١.
(٣) الأنفال: ٧.

ويريدون الظَّفَر بالعِيرِ التي جاءتْ من الشام، فكان ما وَقَعَ -رَغمَ أَلَمه- خيرٌ وأحسنُ تأويلًا.

ثالثًا: إذا صَدَقَ المؤمنون في فِعلِ ما أمرَهم اللهُ به -ولو كانت عدتُهم وعتادُهم قليلًا-، أعانهم بجُنْدٍ من عنده، وهو ما وقع في بدر: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾[1] وقال سبحانه: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾[2].

رابعًا: تنبيهُ الصحابةِ وكلِّ مَن يأتي بعدَهم إلى أهميةِ الاستجابةِ لأمرِ اللهِ ورسوله، وخُطورةِ التأخيرِ عن الاستجابة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾﴾[3].

خامسًا: أهميةُ الدعاءِ وصدقِ التضرُّعِ في كشفِ المحن، وكفِّ أذى المعتدين: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾[4]، وتأملوا أيها المؤمنون في كلمة: ﴿تَسْتَغِيثُونَ﴾ ففيها دلالةٌ على الحالةِ الكاملةِ من الدعاء، وأنه ليس مجردَ دعاءٍ بقلبٍ غافلٍ لاهٍ.

(١) الأنفال:١٢.
(٢) الأنفال:١٧.
(٣) الأنفال:٢٤، ٢٥.
(٤) الأنفال: ٩.

سادسًا: ومن الدلالات المهمّةِ التي تضمنتْها سورةُ الأنفال، التذكيرُ بالنِّعم السابقةِ ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(١).

سابعًا: أثرُ الاستغفارِ في دفعِ العذابِ ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾(٢).

ثامنًا: طَمْأنةُ المؤمنين أنَّ ما يُنفِقُه أعداؤهم في الصدِّ عن سبيلِ اللهِ أنه سيكون حسرةً عليهم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾(٣).

تاسعًا: على المؤمنين أنْ يَعُدُّوا العُدَّة، ويفعلوا الأسبابَ في قتالِ أعدائِهم، وأنْ لا يستغرقَهم الفكرُ في: كيف سننتصرُ على الأعداء؟ فإنّ الله أَيَّدَ رسولَه -ﷺ- بأنواعٍ من الكراماتِ في هذه الغزوةِ ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِىَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(٤).

(١) الأنفال: ٢٦.
(٢) الأنفال:٣٣.
(٣) الأنفال:٣٦.
(٤) الأنفال: ١٧.

وكذلك أيضًا: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾﴾[1] ونقرأ متدبرين في نفس السورة: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾[2] وهذا يشملُ الإعدادَ بكلِّ صُورِهِ الحِسيةِ والمعنويةِ، فإذا قَصّرت الأُمةُ في ذلك، فقد عَصَتْ ربَّها؛ ومن عصى ربَّه فكيف ينتظرُ منه الانتصارَ والعونَ والتوفيق؟!..

عاشرًا: اجتماعُ الكلمةِ ووَحْدةِ الصف، مِن أعظم أسبابِ القوة، وإضعافِ أثرِ مكائدِ الأعداء، وعكسُ ذلك التَّفرُّق، وقد تجلَّى هذا المعنى بوضوح في قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[3] ومن تأمّلَ واقعَ الآيةِ وَجد حقيقتَها جليّة.

أحد عشر: دَأْبُ المنافقين التخذيلُ، وبثُّ كلِّ ما يوهنُ الصفوفَ في أحلكِ الظروفِ ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ﴾ ويدفعُ كيدَهم مثلُ التوكلِ على الله؛ ولذا قال سبحانه بعد مقولةِ المنافقين السابقة: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[4].

(١) الأنفال: ٤٤.
(٢) الأنفال: ٦٠.
(٣) الأنفال: ٤٦.
(٤) الأنفال: ٤٩.

اثني عشر: تضمَّنتْ السورةُ قاعدةً من قواعدِ صلاحِ القلب ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾[1] وهي وإنْ نزلتْ في شأنِ الأسرى؛ إلا أنّ المعنى أعمّ، كما هي القاعدة المعروفة عند أهل العلم: العبرةُ بعمومِ اللفظ لا بخصوصِ السبب.

ثلاثة عشر: التنويهُ بشأنِ الصحابةِ -رضوان الله عليهم أجمعين- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖ﴾[2] فاعرفوا لهم قدرَهم وترضَّوا عنهم، فقد بذلوا الغالي والنفيس، وضحَّوا بكلِّ ما استطاعوا، حتى وَصَلَ إلينا هذا الدينُ غَضًّا طريًّا.

أربعة عشر: وفي قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿وَلَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدۡرٖ وَأَنتُمۡ أَذِلَّةٞۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾[3] تذكيرٌ بأصْلٍ عظيمٍ في هذا الباب، وهو: أنّ النصرَ من عندِ الله ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾[4].

(١) الأنفال: ٧٠.
(٢) الأنفال: ٧٢.
(٣) آل عمران: ١٢٣.
(٤) آل عمران: ١٢٦.

فمَن أرادَه فلْينصُرِ اللهَ بنصرِ دينِه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾[١] وهذا يُوجِبُ البُعدَ عن كلِّ ما يُسخطُ الله، ومِن أَخطرِ هذه الذنوبِ أكلُ الربا؛ الذي وصفه الله بأنه حربٌ له ولرسوله -ﷺ-.

وفي قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمۡ أَذِلَّةٞ﴾ تنبيهٌ إلى الحالِ التي كان عليها الصحابةُ -رضوان الله عليهم-، فمع ما كانوا عليه من الضعفِ إلا أنَّ نَصرَ اللهِ إذا نَزَلَ لم تدفعْه أيُّ قُوّةٍ في الدنيا، وإذا خَذَلَ اللهُ الأُمةَ فلن تستطيعَ أنْ تنتصرَ ولو وَقَفتْ معها جميعُ قوى الأرضِ ﴿إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾[٢].

وفي قوله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ إشارةٌ واضحةٌ إلى أنّ شُكرَ النِّعمِ مِن أعظمِ أسبابِ عونِ اللهِ وإمدادِه ونصرِه، وأنّ كُفرَ النِّعمِ ونسيانَ شكرِها، مِن أعظمِ أسبابِ الخذلان.

(١) محمد: ٧.
(٢) آل عمران: ١٦٠.

هذه -يا عبادَ اللهِ- بعضُ الدلالاتِ الإيمانيةِ التي تضمنتْها قصةُ بدرٍ في ضوءِ سورةِ الأنفالِ وآيةٍ من آلِ عمران، فاتقوا اللهَ واشكروا له نعمةَ نصرِهِ لعبادِهِ في ذلك اليومِ العظيم، وتدبَّروا هذه السورة، وتأمّلوا في عِبرِها ودلائِلها.

اللهم أَبرِم لهذه الأُمةِ أمرَ رُشد، يُعزُّ فيه أولياؤك، ويُذلُّ فيه أعداؤك، واغفر اللهم لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.





المجلس الثامن عشر

﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾

الحمدُ لله، والصلاةُ والسلامُ على عبدِه ورسولِه ومصطفاه، أما بعد:

فيقولُ الله تعالى: ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾[(١)].

هذه -أيها المؤمنون- هي الآيةُ الثانيةُ من سورةِ فاطر، وهي تتحدثُ عن معنىً بليغ من معاني قدرةِ اللهِ التي خَتَمَ بها الآيةَ الأولى، وهي قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[(٢)]، وحين تَستقرُّ هذه الصورةُ في قلبِ المؤمنِ فإنه سيَحدُثُ في قلبِه تَغيُّرًا كبيرًا في تصوُّراتِه ومشاعرِه واتجاهاتِه وموازينِه وقِيَمِه في هذه الحياةِ جميعًا.

إنها تَقطعُه عن شبهةِ كلِّ قوةٍ في السماواتِ والأرضِ، وتَصِلُه بقوةِ الله، وتُيَئِّسُه من مَظِنَّةِ كلِّ رحمةٍ في السماوات والأرض، وتصله برحمةِ الله، وتُوصِدُ

(١) فاطر: ٢.
(٢) فاطر: ١.



أمامَه كلَّ بابٍ في السماواتِ والأرض، وتَفتحُ أمامَه بابَ الله، وتُغلِقُ في وجهِه كلَّ طريقٍ في السماواتِ والأرض، وتَشرعُ له طريقَه إلى الله.

ورحمةُ اللهِ -التي نَصَّتْ عليها الآيةُ الكريمة: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ﴾- تَتمثَّل في مظاهرَ لا يُحصيها العدُّ.

ورحمةُ الله تَتمثّلُ في الممنوعِ تَمثُّلَها في الممنوع، ويجدُها مَن يفتحُها اللهُ له في كلِّ شيء، وفي كلِّ وضعٍ وحال، وفي كلِّ مكان، يجدُها في نفسِه، وفي مشاعرِه، ويجدُها فيما حولَه، وحيثما كان، وكيفما كان.

وما مِن نعمةٍ -يُمسِكُ اللهُ معها رحمتَه- حتى تَنقَلبَ هي بذاتها نقمة، وما مِن محنةٍ- تحفُّها رحمةُ الله- حتى تكونَ هي بذاتها نعمة!

ينامُ الإنسانُ على الشوك- مع رحمةِ الله- فإذا هو مهاد، وينامُ على الحرير- وقد أُمسكتْ عنه الرحمة- فإذا هو شوكُ القَتَاد!

ويُعالج أَعسَرَ الأمورِ- برحمةِ الله- فإذا هي هَوادَةٌ ويُسر، ويُعالج أَيسرَ الأمور- وقد تخلَّت رحمة الله- فإذا هي مَشقةٌ وعُسر، ويخوضُ بها المخاوفَ والأخطارَ فإذا هي أمنٌ وسلام، ويعبر بدونها المناهِجَ والمسالِكَ فإذا هي مَهْلكةٌ وبَوَار!

ولا ضيق مع رحمةِ الله! إنما الضيقُ في إمساكِها دون سواه، لا ضيق

ولو كان صاحبُها في غياهِبِ السجن، أو في جحيم العذاب، أو في شِعابِ الهلاك، ولا وسعة مع إمساكِها ولو تَقَلَّبَ الإنسانُ في أعطافِ النعيم، وفي مراتعِ الرخاء، فَمِنْ دَاخِلِ النفسِ -برحمة الله- تتفجَّرُ ينابيعُ السعادةِ والرضا والطمأنينة، ومِنْ دَاخِلِ النفسِ -مع إمساكِها- تَدُبُّ عقاربُ القلقِ والتعبِ والنصبِ والكَدِّ والمعاناة!

يَبسُطُ اللهُ الرزقَ -مع رحمتِه- فإذا هو مَتاعٌ طيِّبٌ ورَخاء، وإذا هو رَغَدٌ في الدنيا وزادٌ إلى الآخرة، ويُمسِكُ رحمتَه، فإذا هو مَثارُ قلقٍ وخوف، وإذا هو مثارُ حسدٍ وبُغض، وقد يكونُ معه الحرمانُ بِبُخلٍ أو مرض، وقد يكونُ معه التَّلفُ بإفراطٍ أو استهتار.

ويَمنحُ اللهُ الذُّرّيةَ -مع رحمتِه- فإذا هي زينةٌ في الحياةِ، ومَصدرُ فرحٍ واستمتاع، ومضاعفةٌ للأجرِ في الآخرةِ بالخَلَفِ الصالحِ الذي يَذكرُ اللهَ. ويُمسكُ رحمتَه فإذا الذُّرّيةُ بلاء، ونكدٌ وعنتٌ وشقاء، وسَهَرٌ بالليل وتعبٌ بالنهار! ويَهَبُ اللهُ الصحةَ والقوةَ -مع رحمتِه- فإذا هي نعمةٌ وحياةٌ طيبة، والتذاذٌ بالحياة.

ويُمسكُ نعمتَه، فإذا الصحةُ والقوةُ بلاءٌ يُسلِّطُه اللهُ على الصحيحِ القوي، فيُنفِقُ الصحةَ والقوةَ فيما يُحطِّمُ الجسمَ ويُفسدُ الروح، ويَدَّخِرُ السوءَ ليوم الحساب!

ومن رحمةِ اللهِ أن تحس برحمة الله! فرحمةُ الله تَضمُّك وتغمُرُك وتَفيضُ عليك، ولكنْ شعورُك بوجودِها هو الرحمة، ورجاؤك فيها وتطلُّعُك إليها هو الرحمة، وثقتُك بها وتوقُّعها في كلِّ أمرٍ هو الرحمة. والعذابُ هو العذابُ في احتجابِك عنها، أو يأسِك منها، أو شكِّكَ فيها. وهو عذابٌ لا يَصبُّه اللهُ على مؤمن أبدا. ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾[1].

ورحمةُ اللهِ لا تَعزُّ على طالبٍ في أيِّ مكان، ولا في أيِّ حال!

وجَدَها إبراهيمُ- عليه السّلام- في النار.

ووجَدَها يوسفُ -عليه السّلام- في الجُبِّ كما وجدها في السجن.

ووجدها يونسُ -عليه السّلام- في بطنِ الحوتِ في ظلماتٍ ثلاث.

ووجدها موسى -عليه السّلام- في اليمِّ وهو طِفلٌ مُجرَّدٌ من كلِّ قوة ومن كل حراسة! كما وجدها في قصرِ فرعونَ وهو عدوٌّ له متربِّصٌ به ويَبحَثُ عنه.

ووجد رحمةَ اللهِ أصحابُ الكهفِ في الكهف، حين افتقدوها في القصورِ والدور، فقال بعضُهم لبعضٍ: ﴿فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ﴾[2].

(١) يوسف: ٨٧.
(٢) الكهف: ١٦.

ووجدها رسولُ اللهِ -صلّى الله عليه وسلّم- وصاحبُه في الغار، والقومُ يتعقبونهما ويقصُّون الآثار.

ووجدها كلُّ مَن آوى إليها؛ يائسًا مِن كلِّ ما سواها، مُنقطِعًا عن كلِّ شُبهةٍ في قوة، وعن كلِّ مَظِنّةٍ في رحمة، قاصدًا بابَ اللهِ وحدَه دونَ الأبواب.

ثم إنه متى فتحَ اللهُ أبوابَ رحمتِه فلا مُمسكَ لها، ومتى أَمسَكَها فلا مُرسلَ لها، ومِن ثَمّ فلا مخافةَ مِن أحد، ولا رجاءَ في أحد، ولا مخافةَ مِن شيء، ولا رجاءَ في شيء، ولا خوفَ مِن فوتِ وسيلة، ولا رجاءَ مع الوسيلة، إنما هي مشيئةُ الله! والأمرُ مباشرةٌ إلى الله، ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾، يقدر بلا مُعقِّب على الإرسالِ والإمساك. ويُرسلُ ويمسكُ وِفقَ حكمةٍ تَكْمُنُ وراءَ الإرسالِ والإمساك.

وما بين الناسِ ورحمةِ اللهِ إلا أنْ يطلبُوها مباشرةً منه، بلا وساطةٍ وبلا وسيلةٍ إلا التوجُّه إليه في طاعة وفي رجاءٍ وفي ثقةٍ وفي استسلام.

﴿وَمَا يُمۡسِكۡ فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾، فلا رجاء في أحدٍ من خلقِه، ولا خوف لأحدٍ من خلقه. فما أحدٌ بمُرسلٍ من رحمةِ اللهِ ما أَمسَكَهُ الله.

أيَّةُ طُمأنينة؟ وأيُّ قرار؟ وأيُّ وضوح في التصوراتِ والمشاعرِ والقيم والموازينِ تُقِرُّه هذه الآيةُ في قلبِ المؤمن؟! آيةٌ واحدةٌ ترسمُ للحياةِ صورةً جديدة، وتُنشِئُ في الشعورِ قِيَمًا لهذه الحياةِ ثابتة، وموازينَ لا تهتزُّ ولا تتأرْجح، ولا تتأثَّرُ بالمؤثراتِ كلِّها، ذهبتْ أم جاءت، كَبُرتْ أم صَغُرت، جَلَّت أم هانت، كان مصدرُها الناس أو الأحداث أو الأشياء!

صورةٌ واحدةٌ لو استقرَّتْ في قلبِ إنسانٍ، لصَمَدَ كالطَّودِ للأحداثِ والأشياءِ والأشخاصِ والقُوَى والقِيَمِ والاعتبارات، ولو تَضافرَ عليها الإنسُ والجن، وهم لا يَفتحون رحمةَ الله حين يُمسِكُها، ولا يمسكونها حين يفتحُها.

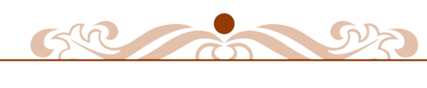
آيةٌ من القرآنِ تفتحُ كُوَّةً من النور، وتَفجُرُ يُنبوعًا من الرحمة، وتَشُقُّ طريقًا ممهودًا إلى الرضا والثقةِ والطُمأنينةِ والراحةِ في ومضةِ عين، وفي نبضةِ قلب، وفي خَفْقةِ جَنان[1].

وها أنتم ـ أيها المؤمنون ـ في شهرِ الرحمة، وشهرِ فتحِ أبوابِ الجِنان، وإغلاقِ أبوابِ النيران، وتصفيدِ الشياطين، فتعرَّضوا لنفحاتِ ربكم، عسى رحمةٌ يُرسلُها عليكم، لا يُمسكها أحدٌ، تَسْعدوا بها دنيا وأخرى.

اللهم واجعلنا من عبادِك المرحومين، وأَدْخلنا برحمتِك في عبادك الصالحين، واغفر اللهم لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.



(١) باختصار وتصرف من «في ظِلال القرآن» (٥/ ٢٩٢١).



المجلس التاسع عشر

﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾[1]

الحمدُ لله، والصلاةُ والسلامُ على عبدِهِ ورسولِهِ ومصطفاه، أما بعد:

حين يقرأُ المؤمنُ هذه الصفاتِ أو تلك، فحَقِيقٌ به أنْ يَبْحثَ عن نَجاتِه مِن خِلالِ التَّأسِّي بالصفاتِ العاليةِ الفاضلة، والهَرَبِ مِن صفاتِ أعداءِ الله، وأولياءِ الشيطان.

ألا وإنَّ مِن تلك الآياتِ العظيمةِ التي تَستوقِفُ المؤمِن، هي ما ذَكَرَه اللهُ تعالى في خُواتِيمِ سورةِ الفرقان، والمعروفةِ بـ(صفاتِ عبادِ الرحمن).

وقد اشتملتْ هذه الصفاتُ على صفاتٍ لهم في العبادة، وأُخرى في المُعاملة، وبعضُها في السُّلُوك، ولا شَكَّ أنها جميعُها داخلةٌ تحت العبادةِ بمفهومِها الواسعِ في الإسلام.

• صفتان ظاهرتان جامعتان: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾[2] كان الابتداءُ بهاتينِ الصفتينِ

(١) للدكتور عبد الله بن منصور الغفيلي، عضو الهيئة العالمية لتدبر القرآن، وعضو هيئة التدريس بالمعهد العالي للقضاء بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.
(٢) الفرقان:٦٣.



الظاهرتين لعبادِ الرحمن؛ لأنهما الدليلان القابلان لِأَنْ يتبينهما المُتبيِّنُ بسببِ ظهورِهما، ولأنَّهما الثمرةُ الطبيعيةُ الظاهرةُ، والنتيجةُ المنطقيةُ الحسنةُ لكثيرٍ مِن أنواعِ المجاهدةِ الروحيةِ والبدنيةِ في العديدِ من المجالات، وهما مِن بابِ الأخلاقِ الذي قُدِّمَ لأهميَّتِه «إنما بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صالحَ الأخلاق»[1].

الصفة الأولى: ﴿يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾

فطريقةُ المشي صفةٌ ظاهرة، تَدُلُّ على تمثيلِ أصحابِها للبساطةِ والفِطرةِ، وابتعادِهم عن التصنُّعِ والفَرَحِ الشديدِ أَشَرًا! والمَرَحِ الشديدِ بطرًا!.

فهم ﴿يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾، أي: بسَكينَةٍ ووَقَارٍ من غيرِ جَبْرِيَّةٍ ولا استكبار»[2]، ولذا -والله أعلم- قال: ﴿عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾ ولَم يَقُل (في الأرض) فهي وَسيلةٌ لِتَحقِيقِ مَقْصَدِهِم لغيرِها لا الإخلاد إليها.

كما في قول سبحانه: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾[3] فالأرضُ ظرفٌ لهم ومَقصدٌ عندهم؛ فلذلك يمرحون فيها ويقضون أوقاتهم باللهو عليها، فأمَّا عبادُ الرحمنِ فإنهم يمشون مِن غيرِ استكبارٍ ولا مَرَحٍ، ولا أَشَرٍ ولا بَطَرٍ، وليس المرادُ أنهم يمشون كالمرضى من التَّصَانُعِ تَصَنُّعًا ورياء، فقد كان سيدُ ولدِ آدمَ -ﷺ- إذا مَشَى كأنما يَنْحَطُّ مِن صَبَبٍ، وكأنما الأرضُ تُطوى له[4].

(١) حديث أخرجه أحمد، ح(٨٩٣٩)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٢٧٣)، وصححه ابن عبدالبر في «التمهيد» (٢٤/ ٣٣٤).
(٢) ينظر: تفسير ابن كثير (٦/ ١٢٢).
(٣) الإسراء: ٣٧.
(٤) ينظر: تفسير ابن كثير (٦/ ١٢٢).

الصفة الثانية: ﴿قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾

فهذا هو المظهرُ الخارجيِّ الثاني لعبادِ الرحمن، وقد صَارَ فيهم سجيةً وطبعًا لا كُلفةَ فيه، وهو لسانُهم الرطبُ ومَنطِقُهم العَذْب.

والخِطابُ موجَّهٌ لعبادِ الرحمنِ مِن الجاهلين مباشرة: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ﴾! فهم في أَعلى درجةِ التبيُّن مِن اتهامِهم لهم، إلاّ أنهم آثروا السلام، وكأنَّهم لا يعلمون شيئًا مما يقولُ الجاهلون.

ومع أنَّ الإسلامَ شَرَعَ للمسلمِ أَخْذَ حَقِّهِ ممَّن ظَلَمَه؛ إلاّ أنَّه يَذْكُرُ هنا الأكملَ لعبادِ الرحمن، خاصَّةً الدعاة، فقد ظُلِموا مِن الجاهلين فكان المُقابلُ السلام، وهو ما أَمَرَ اللهُ بِهِ نبيَّه ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[1].

قال جعفرُ الصادقُ –رحمه الله–: «ما في القرآنِ أَجمَع لمكارمِ الأخلاقِ مِن هذه الآية»[2].

- ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا﴾[3]:

وهو انتقالٌ مِن الأخلاقِ للتعبُّد، فلا قَوَامَ للأخْلاقِ بدونِه! كما أنَّ التعبدَ المفتقرَ للخُلُقِ هو أَجْوفُ الأثر.

(١) الأعراف: ١٩٩.
(٢) تفسير البغوي (٢/ ٢٦٠).
(٣) الفرقان: ٦٤.

وفي هذه الصفة معنيان:

الأول: أنَّ هذه الصفةَ الخفيةَ لِبَيَاتِهم بين يدي ربِّهم سُجَّدًا وقيامًا؛ أَتَتْ في مقابِلِ الصفتينِ الظاهرتينِ للعباد، وهما المشيُ هَونًا والتَّخاطُبِ سَلامًا.

وهذا واضحٌ مِن قولِه ﴿لِرَبِّهِمْ﴾، فلا يكادُ يَعلمُ مخلوقٌ بما يقومون به مِن إِخلاصِهم لله.

والثاني: أنه ذَكَرَهم بواحدةٍ مِن أهمِّ العباداتِ! بل أَهَمُّها وهي الصلاة، فهي عمودُ الدينِ ورُكْنُه الرَّكين.

كما أنهم تأسَّوا في ذلك بِقُدوتِهم ﷺ فقد قال عنه ربه: ﴿ ۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ﴾[1].

وقد ذَكَرَ اللهُ أهمَّ حالتين في الصلاة فذَكَرَهم بهما، وهما السجودُ والقيام.

- **عباد الرحمن مُشفِقون على أنفسِهم خائِفون مِن ربهم:**

﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾[2] ففي هاتينِ الآيتينِ إظهارُ الضَّعفِ والخوفِ مِن ربهم، مع ما في ظاهرِهم من الشفقةِ والخوفِ مِن أَنْ يكونَ مصيرُهمُ العذاب.

(١) المزمل: ٢٠.
(٢) الفرقان:٦٥، ٦٦.



فهم يَتَحَدَّثون عن جَهنمَ بصفتين فيها، أنها كالغريمِ الملازمِ لِغريمِه المدين، وأنها بئسَ المستقرُّ والمُقام.

وحيثُ إنَّ هؤلاءِ العبادَ يَطمَعون أَنْ يَستَجيبَ لهم ربُّهم ويَغفِرَ لهم خَطاياهم، وحيثُ إِنَّه لا يوجدُ يومَ القيامةِ من دارٍ سوى دارِ الجنةِ أو النار، فكان إشفاقُهُم مِن جَهنم وطَمَعُهم أَنْ يَستَجيبَ لهم ربُّهم بِأَنْ يَصرِفَ عنهم عَذابَها بالكليّة، معناه أنهم يدعون الله تعالى ضِمنًا أَنْ يَتَغَمَّدَهم برحمتِهِ فيُدْخِلهم الجنةَ مَنًّا مِنه وفضلًا بعد أَنْ يمتَنَّ عليهم، ويَتفضلَ بغُفرانِ ذنوبِهم، وسَتْرِ عيوبِهم، وقبولِ أعمالِهم الصالحة.

- **التوسط في الإنفاق:**

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾[1]

هنا يُبيِّنُ سُلوكَهم الاقتصادي، وتَعامُلَهم الماليَّ في العطاءِ والإمساك، وهذا هو التَّكامُلُ بين الأخلاقِ والعبادةِ والإنفاق.

فهم وَسَطٌ بين الإِسرافِ والإِقتار، فالإسرافُ هو الإنفاقُ بِكثرةٍ هي غايةُ ما يكونُ مِن النفقة، والإقتارُ هو الإمساكُ بِشدّةٍ هي غايةُ ما يكونُ في النفقة سَلْبًا، والتوسُّطُ بينهما هو الشرعُ والعقلُ والحكمة.

(١) الفرقان:٦٧.



فليسوا بمبَذِّرين في إنفاقِهم فيصرفون فوقَ الحاجة، ولا بخلاء على أهليهم فيُقصِّرون في حقِّهم فلا يَكْفُونهم، بل هم عَدْلٌ خيار، وخَيرُ الأُمورِ أوسطُها، لا هذا ولا ذاك[١].

• ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾[٢]:

وهنا بيانُ اجتنابِهم لعظائِم الذنوبِ، وأَشَدّها الشركُ بالله، فهو أعظمُ الذنوب، والمرادُ هنا: إثباتُ ضِدِّها مِن التوحيدِ والنقاء.

وهم بهذا يَنسَجِمون انسِجامًا كاملًا مع الكونِ حولهم، فما خَلَقَه اللهُ إلاّ لِتوحيدِه وعبادتِه: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[٣].

وهذه الصفةُ مُؤكِّدةٌ للصفاتِ السابقة؛ مِن خوفِهم ودعائِهم له بِأنْ يَصرِفَ عنهم عذابَ جهنم، وصِفتِهم بالبَيَاتِ بين يديهِ سُجّدًا وقيامًا فكان التتويجُ أنَّهم لا يَدْعُون آلهةً أُخرى، وهو التوحيدُ المُنجِّي مِن العذاب، والذي يكونُ معه الغفرانُ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾[٤].

(١) تفسير ابن كثير (٦/ ١٢٤).
(٢) الفرقان:٦٨.
(٣) الذاريات: ٥٦.
(٤) النساء: ١١٦.



• ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾:

هذا هو الذنبُ العظيمُ الثاني، الذي بَرِئ منه عبادُ الرحمن، واتَّصَفُوا بأنهم لا يُقارفوه، وهو قَتْلُ الإنسانِ بدونِ حق، وفي الصحيحين قال ﷺ: «لا يَحِلُّ دَمُ امرئٍ مسلم يشهدُ أن لا إله إلا الله وأني رسولُ الله إلا بإحدى ثلاثٍ: النفسِ بالنفس، والثَّيِّبِ الزاني، والمارقِ مِن الدين التاركِ للجماعة»[1].

فالنفسُ غاليةُ الثمن، فَمَن أَهدَرَها وَقَعَ في الذنبِ العظيم!

وكان مِن عظيم هذا الذنب أَنَّ مَن اقترفَ منه بِحَقِّ واحدٍ مِن الناس كان كَمَن اقتَرفَه بحقِّ الجَميع. إلاّ أنَّ الاستثناءَ في قوله: ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ دلالةٌ على صفةٍ أخرى في عبادِ الرحمن، وهي أَنَّهم أَحرَصُ الناسِ على إقامةِ الحدود، فيُقيمُون القصاصَ مِن القاتِلِ؛ وكلِّ مَن حَلَّ دَمُه بالشرع. فهُم أبعدُ الناسِ عن اقترافِ ذنبِ القتلِ العظيم، وهم أَقربُ الناسِ لإقامتِهِ إنْ كان بالحق.

• ﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾:

هذا هو الذنبُ العظيمُ الثالثُ مِن الذُّنوبِ التي بَرِئ منها عبادُ الرحمن، فنفوسُهم كبيرةٌ، لا تَجُرُّها شهوةٌ تُنْزِلُهم مِن مكانتِهم العالية، بأخلاقهم الكبيرة تلك؛ لِتكونَ هذه الصفةُ ﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾ خاتمةً لصفاتٍ سَلبيةٍ بَرَّأَ الرحمنُ منها عبادَه.

فمِن تمامِ عبوديتِهم لله، ومعرفتِهم بمعاني التوحيد، لا تَنساقُ نفوسُهم إلى شهوةٍ محرّمة، لها تَبِعاتُها في الدنيا والآخرة.

(١) البخاري (٦٨٧٨)، ومسلم (١٦٧٦)، عن ابن مسعود -رضي الله عنه-.

- **عباد الرحمن يرجعون للحق ويتوبون من الذنب:**

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۝٦٨ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ۝٦٩ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٧٠ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾[١] فمَن اقترفَ تلك الكبائرَ استحَقَّ العذابَ يوم القيامة.

لكنَّ هذا ليس آخِرَ المطافِ! فما زالت الروح في البَدَنِ فإنَّ إمكانيةَ التصحيح واردةٌ؛ وهي بالتوبةِ من المنكرات، ويتحقق ذلك بالإيمانُ الصادقُ والعملُ الصالح.

والجزاءُ: هو قَبولُ التوبة، وتَبديلُ السيئاتِ حسنات وليس بعد هذا الكرم الرباني كرم.

- **عباد الرحمن لا يشهدون الزور، ويمرون باللغو - إن مروا - كرامًا:**

﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾[٢] ولعلَّ الأقربَ هنا أَنْ الزُّورَ في الآيةِ: هو شهادةُ الزور، لاقترانِهِ بالذنوبِ العظيمةِ السابقة، وقد ذُكِرَ مَعَها في أحاديثَ عِدّة، كما يمكن تفسيره باجتنابهم شهادة مشاهد الحرام، وكذا مجالس اللغو.

فِإنْ مَرُّوا به -اضطرارًا-، فلا يتلطخون بشيئ من ذلك، كما وُصِفَ قولُهم

(١) الفرقان:٦٨ - ٧١.
(٢) الفرقان:٧٢.

حينَ مخاطبةِ الجاهلين لهم بالسلام.

• عبادُ الرحمن مُبصرون سامعون لآياتِ الله:

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَمۡ يَخِرُّواْ عَلَيۡهَا صُمّٗا وَعُمۡيَانٗا﴾[1] فهم مُقبِلون على التذكيرِ والمُذَكِّر، يَستَمعون القولَ مِن الناصحِ فيَعُوه.

وليسوا ممن يجلسون للنُّصحِ والتذكيرِ والقرآنِ وهم غيرُ مُستحضرين لقلوبهم وأفئدتهم؛ فيكونُ حالُهم كما وصَفَ اللهُ بقولِه: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَۚ أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوۡ كَانُواْ لَا يَعۡقِلُونَ﴾[2].

بل هم إذا ذُكِّروا بآياتِ اللهِ على درجةٍ كبيرةٍ مِن الاستماعِ والبَصيرة.

قال الحسن البصري: كم مِن رجلٍ يقرؤها ويخِرُّ عليها أصمَّ أعمى، وقال قتادة: لم يصموا عن الحق ولم يعموا فيه، فهم -والله- قومٌ عقَلوا عن الله، وانتفعوا بما سَمِعوا مِن كتابه[3].

• عبادُ الرحمن يسألون ربهم قُرَّةَ أعينٍ مِن الأزواجِ والذريةِ والأتباع:

﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾[4] فهم حَرِيصُون على الذُّرِّية بِشرطِ صلاحِها،

(١) الفرقان:٧٣.
(٢) يونس:٤٢.
(٣) ينظر: تفسير ابن كثير (٦/ ١٣١).
(٤) الفرقان:٧٤.

فيُكثِّرون عددَ المؤمنين المتصفينَ بصفاتِ عبادِ الرحمن.

قال عكرمة: لم يُريدوا بذلك صَبَاحَةً ولا جَمالًا؛ ولكنْ أرادوا أَنْ يَكونوا مُطيعين.

وقال الحسنُ البصري: لا واللهِ ما شيءٌ أَقَرَّ لعينِ المسلمِ مِن أَنْ يَرى ولدًا، أو وَلَدَ ولدٍ، أو أخًا، أو حميمًا مُطيعًا لله عز وجل[١].

وإنما طلبوا أنْ يكونوا للمتقين أئمةً؛ لِيُرشِدوهم ويُعينوهم على الطاعةِ والخيرِ، بخلافِ ما لو كانوا أَتباعًا؛ فلن يكونَ لهم مِن التأثيرِ كما لو كانوا متبوعين.

وهم بهذا يَضربون أروعَ الأمثلة، في عُلوِّ الهمةِ وسموِّ الروح؛ ولذلك كان جزاؤهم عاليًا،كما قال تعالى: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَـٰمًا ﴿٧٥﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾[٢]

فالجزاءُ مِن جنسِ العملِ فيُجزَونَ الغُرُفاتِ بما كانوا يبيتون في سجودٍ وقيام، ويُلقَّون التحيةَ والسلامَ بما كانوا يخاطبون الجاهلين بالسلام، ويَخْلُدون في الجنة مُستقرًا ومُقامًا باستعاذتِهم وخوفِهم مِن مُلازمةِ جَهنمَ التي ساءت مُستقرًا ومقامًا[٣].

اللهم اجعلنا ممَّن اتَّصَفَ بهذه الصفاتِ فنالَ هذا الجزاء، واغفر اللهم لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(١) ينظر: تفسير ابن كثير (٦/ ١٣٢).
(٢) الفرقان:٧٥، ٧٦.
(٣) ينظر للاستزادة: تأملات في سورة الفرقان، للدكتور: حسن باجودة.



المجلس العشرون

بصائر تدبرية من سورة القدر [(١)]

الحمدُ لله، والصلاةُ والسلامُ على عبدِهِ ورسولِهِ ومصطفاه، أما بعد:

فإنَّ مِن السُّوَرِ العظيمةِ التي يَنبَغِي لِلمؤمنِ أنْ يَتدبَّرَها -خاصّةً مع إقبالِ العشرِ الأواخرِ- سورةَ القدر، التي يقول الله فيها ربنا:

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ٢ لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ ٣ تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمۡرٖ ٤ سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ﴾[(٢)].

هذه السورةُ العظيمة، سورةٌ مكية، سُميت بالقَدْرِ لِتكرارِ ذِكْرِه فيها، ولِكونِها تُركِّزُ على بيانِ عِظَمِ ليلةِ القدْر، ومَنزِلَتِها وفضلِها.

قال أبو بكر الوراق: سُمِّيت ليلةَ القدرِ؛ لأنه نزَلَ فيها كتابٌ ذو قَدْر، على لِسانِ مَلَكٍ ذي قدر، على أُمّةٍ لها قدر، ولعلَّ اللهَ تعالى ذَكَرَ لَفْظَ القدرِ في هذه

(١) للدكتور محمد بن عبد الله الربيعة، عضو الهيئة العالمية لتدبر القرآن، وعضو هيئة التدريس في جامعة القصيم.
(٢) القدر: ١ - ٥.



السورةِ ثلاثَ مراتٍ لهذا السبب[1].

وقد ابتدأتْ السُّورةُ بالتنويهِ بِفضْلِ القرآنِ وعَظَمَتِهِ؛ بإسنادِ إنزالِهِ إلى اللهِ تعالى، ورَفْعِ شأنِ الوقتِ الذي أُنزلَ فيه، ونُزولِ الملائكةِ في ليلةِ إنزالِه، وتفضيلِ الليلةِ التي تُوافِقُ ليلةَ إنزالِهِ مِن كلِّ عام.

ثم تحدَّثَتْ عن نُزُولِ جِبريلِ والملائكةِ الأبرار، بالأنوارِ والخيراتِ على عبادِ اللهِ المؤمنين، حتى طلوع الفجر.

وهذه بعضُ البصائرِ التدبُّريّة المهمَّة في السورة، فمنها:

ـ أنّ اسمَ السورةِ (القَدر) وهو الشرفُ والفضلُ والمكانةُ العالية، أو التَّدْبِيرِ والتَّقدِير، وهذا مُناسبٌ لما تحدَّثتْ عنه السورةُ مِن بيانِ عِظَمِ ليلةِ القدر، هذه الليلةُ التي تميَّزَتْ بابتداءِ نُزُولِ القرآنِ فيها، ونُزولِ الملائكةِ مع جبريل، وليس مِن شكٍّ أنّ حدوثَ مثلِ هذه الأمور فيه دلائلُ على: عَظَمةِ المُنزِلِ وهو الله، والمُنزَلِ وهو القرآن، والمُنزَلِ إليه وهو النبيُّ ﷺ.

(١) مفاتيح الغيب (٣٢/ ٢٨). ويروى في سبب نزولها عن مجاهد قال: كان في بني إسرائيل رجل يقوم الليل حتى يصبح، ثم يجاهد حتى يمسي فعل ذلك ألف شهر، فتعجب رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون من ذلك، فأنزل الله قوله: ﴿لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ﴾ أي قيام تلك الليلة خير من عمل ذلك الرجل ألف شهر.
ينظر: جامع البيان (٢٤/ ٥٤٦)، الدر المنثور (١٥/ ٥٣٥)

ومِن البصائر: أنّ سورةَ القدرِ جاءتْ في المُصحفِ بَعدَ سورةِ العَلَق، فكأنَّ الضميرَ في قوله ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾؛ إيماءٌ إلى القرآنِ، الذي ابتُدئ نزولُه بسورةِ العلق.

ومِن البصائر: أنّ قولَه تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ اشتَمَلَتْ على تنويهٍ عظيمٍ بالقرآن، فتأمّل كيف افتُتِحَتْ بنونِ العَظَمَة ﴿إِنَّآ﴾، ثم الإخبار عنه بالجُملةِ الفِعليةِ ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾، وكلاهما من أساليبِ التأكيد.

ومِن البصائر: أنّ تَسميةَ ليلةِ القدرِ بـ﴿لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ دون (ليلةِ النُّزُول)! إمّا لِيكونَ ذِكرُها بهذا الوصفِ تشويقًا لمعرفتِها وتعظيمًا لها، أو بيانًا لِعِظَمِ قدرِ ما أُنْزِلَ فيها وهو القرآن، فتَعظِّمه الأمة، ولذلك عَقَّبَ بقولِه: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ﴾.

ومِن البصائر: أنَّ قولَه: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ دالٌّ على أنه أُنزِلَ جملةً واحدةً من اللوحِ المحفوظِ إلى بيتِ العزةِ في السماءِ الدنيا في تِلك الليلة، ثم نَزَلَ مُفرَّقًا حَسَبَ الوقائعِ والأحداث، وكان أوّلَ ما نَزَلَ منه: صَدْرُ سورةِ العَلَقِ، في أوّلِ ليلةٍ نَزَلَ فيها جبريلُ على النبيِّ ﷺ، وهي ليلةُ القدر.

ومِن البصائر: أنَّنا نُدرِكُ عظمةَ هذه الليلةِ حين نَتَصَّورُ نُزولَ القرآنِ الذي شَهِدتْه الأرضُ في هذه الليلة، وحين نَتَدبَّرُ حقيقةَ الأمرِ الذي تمَّ فيها، ونتملى

آثارَه المتطاولةَ في مراحلِ الزمان، وفي تصوراتِ القلوبِ والعقول؛ فإننا نَرَى أمرًا عظيمًا حَقًّا، ونُدرِكُ طَرَفًا من مَغزى هذه الإشارةِ القرآنيةِ إلى تلك الليلة: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ﴾[1].

ومِن البصائر: أنَّ الاستفهامَ في قولِه: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ﴾؟ إشعارٌ بِعِظَمِها وفضلِها. وفيه دلالةٌ على أنَّ علوَّ قَدرِها خارجٌ عن دائرةِ دِرايَةِ الخَلْق، لا يَدريه ولا يَعلمُه إلا علامُ الغيوب[2].

ومِن البصائرِ في قولِه ﴿لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٌ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٍ﴾: أنّ تَفضِيلَ ليلةِ القدرِ بالخيرِ على ألفِ شهر، دَالٌّ على تضعيفِ فضلِ ما يحصُلُ فيها من الأعمال الصالحة.

ومِن البصائر: أنَّ ليلةَ القدرِ هي في حقيقتِها فرصةٌ لإطالةِ العُمْر، فألفُ شَهْرٍ تُعادِلُ تقريبًا اثنين وثمانين عَامًا، فَمَن يُدرِكُ ليلةَ القَدرِ عَشرَ مَرّاتٍ؛ فكَأنَّما عاشَ عِشرين وثمانمائة عامًا، ومَن أدرَكَها عِشرين مَرّة فكأنما عاش ألفًا وستمائةً وأربعين من الأعوام، وهكذا، وأيُّ نِعمةٍ أكبرُ مِن ذلك! وفضلُ اللهِ واسِع.

(١) في ظلال القرآن (٦/ ٣٩٤٥).
(٢) تفسير أبي السعود (٩/ ١٨٢).

ومِن البصائر: أنَّ العِبْرةَ ليست بطولِ الأعمارِ، وإنما بحُسْنِ الأعمال، فليس المُهِمُّ الكم، وإنما الكيف، ورُبَّ لحظةٍ واحدةٍ هي في جَوهرِها خَيرٌ من الحياةِ كلِّها، فَليلةُ القدرِ تُعادِلُ اثنينِ وثمانينَ عامًا، وهذا ما يجعلُنا نَتعرَّضُ لِنَفَحاتِ الله، ونتعرضُ لمواسمِ الخيرِ المضاعَفَة.

ومِن البصائر: أنّ هذه السورةَ تُعظِّمُ في نفوسِنا ليلةَ القدر، وبيانَ مدى شرفِها وجليلِ قدرِها؛ وفي هذا ما يحفِّزُ المؤمنَ لِتَحرِّي تلك الليلةِ واغتنامِها حقَّ الاغتنام. وفيها كذلك بَيَانٌ لِعِظَمِ قَدْرِ القرآنِ، حيثُ جَعَلَ اللهُ نُزولَه في هذه الليلة المباركة العظيمة.

ومِن البصائر: أنّ التَّعبيرَ بالمُضارِعِ في قَوْله: ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ﴾! دليل على أنّ هذا التَّنزُّلَ مُتكرِّرٌ في المستقبلِ في كلِّ عام، وأنَّ هذا من دلائلِ فضلِها وقَدْرِها، ويَظهرُ أنها تَنَزَّلُ جماعاتٍ وبكَثْرَة، ولهذا عَبَّرَ بـ﴿ تَنَزَّلُ ﴾ بالتشديد دون (تَنْزِل) بالتخفيف.

ومِن البصائر: أنَّ كَثرَةَ تنَزُّلِ الملائكةِ في هذه الليلةِ لِكَثرَةِ بَرَكَتِها، والملائكةُ يتنزَّلون مع تَنزُّلِ البركةِ والرحمة، كما يتنزلون عند تلاوةِ القرآنِ، ويحيطون بِحِلَقِ الذِّكْر، ويضعون أَجنحتَهم لِطالبِ العلمِ بِصدقٍ تَعظيمًا له[1].

(١) تفسير ابن كثير (٨/ ٤٤٤).



وفي ذِكرِ تنزُّلِ الملائكةِ في هذه الليلةِ دليلٌ على كَثرةِ خيراتِ هذه الليلة، وما يصاحبُها من رَحَماتٍ تَتنزَّلُ بها الملائكةُ مِن رَبِّ الأرضِ والسموات.

ومِن البصائر: تخصيصُ تَنزُّلِ الروح -وهو جبريل-؛ لِكونِهِ الموكَّلَ بالوحي، وإظهارًا لِشَرَفِهِ وفضلِه، وشَرَفِ ما يَنزِلُ به مع الملائكةِ من السلام والرحمة.

ومن البصائر: أنَّ قولَه ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِم﴾ يَدُلُّ على عِظَمِ أَدَبِ الملائكةِ مع ربِّهم، في استئذانِهم إياه لِنزولِهم؛ لأنهم كانوا يَرغَبون إلى أهلِ الإيمانِ والذكر، ويَتَمنَّون لقاءَهم[1].

ومِن البصائر: أنَّ قولَه ﴿مِّن كُلِّ أَمۡرٍ﴾ يَدلُّ على أنَّ الملائكةَ تَنزلُ لأجلِ كلِّ أَمْرٍ فيه مصلحةُ المكلفين، ولذا فإنَّ لَفظَ الأمرِ يَعُمُّ خَيرَ الدنيا والآخرة.

ومِن البصائر: أنَّ اللهَ وَصَفَ هذه الليلةَ بأنها سَلَام، وفي هذا دليلٌ على أنها سلامٌ في السماءِ والأرض، إلّا ما يكونُ مِن قِبَلِ المُكَلَّفينَ المخيَّرينَ مِن إنسٍ وجِنّ[2].

ومِن البصائرِ: أنَّ وَصْفَها بأنها سلام، تَشبيهٌ لها بالجَنّةِ في نعيمِها وفَضلِها، ولذلك وَرَدَ أنَّ الملائكةَ تُسَلِّمُ فيها على الطائعين، كما رُوِيَ عن الحسنِ قال: إذا كان ليلةُ القدرِ لم تَزَلِ الملائكةُ تخفِقُ بأجنحتِها بالسلامِ من اللهِ والرحمةِ، مِن لَدُن صلاةِ المغربِ إلى طلوعِ الفجر[3].

(١) مفاتيح الغيب (٣٢/ ٣٢).
(٢) معارج التفكر (٢/ ٣٠٠-٣٠١) باختصار.
(٣) الدر المنثور (١٥/ ٥٣٩).



وِمن البصائرِ: أنّ مِن السلامِ الذي حَصَلَ في هذه الليلةِ المباركةِ للبشريةِ نُزُولُ القرآن، الذي يُحَقِّقُ لها في الدنيا السلام، ويَهدي مَن اتَّبعه دارَ السلامِ يوم القيامة.

وِمن البصائر: أنه وَرَدَ عن ابنِ عباسٍ أنَّ ليلةَ القدرِ هي ليلةُ السابعِ والعِشرين، واستدلَّ بأنَّ السورةَ ثلاثون كلمة، وكلمةُ ﴿هِىَ﴾ التي في السورة، هي الكلمة السابعة والعشرون.

وِمن البصائر: أنّ ذِكْرَ نهايتِها في قولِه ﴿حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾ للتعريفِ بمنتهاها؛ لِيحرِصَ الناسُ على كَثرةِ العَمَلِ فيها قَبلَ انتهائِها، فذِكْرُ نهايةِ الشيءِ مُحفِّزٌ لاستثمارِه قَبلَ انتهائِه[1].

وِمن البصائر: أنّ الإتيانَ بحرفِ ﴿حَتَّىٰ﴾ التي هي لانتهاءِ الغاية، وذلك دّالٌّ كما ذَكَرَ بعضُ أهلِ العلمِ على أنَّ ليلةَ القدرِ تمتدُّ بَعدَ مَطلَعِ الفجر، بحيثُ أنّ صلاةَ الفجرِ تُعتَبرُ مِن تلك الليلة، وهذا تَوسِعةٌ مِن اللهِ في امتدادِ الليلةِ إلى ما بَعدَ طلوعِ الفجر. والله أعلم[2].

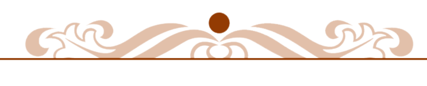
(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٤٦١).
(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٤٦٦).



وختامًا -أيها الإخوة- فإنّ هذه السورةَ عظيمةُ القدرِ في مضمونِها ودلالاتِها، فحَرَيٌّ بالمسلمِ أنْ يُعظِّمَها، ويُعظِّمَ ما عَظَّمَه اللهُ، ويَستَغلَّها بالطاعةِ والإنابةِ والتوبة.

اللهم كما مَنَنتَ على أُمّةِ محمدٍ ﷺ بهذه الليلة، اللهم فاجعل لنا فيها أَوْفَرَ الحظِّ والنَّصيبِ مِن واسعِ مَغفِرتِك ورَحمتِك، واغفر اللهم لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.





المجلس الحادي والعشرون

مناجاة نبي [1]

الحمدُ لله، والصلاةُ والسلامُ على عبدِهِ ورسولِهِ ومصطفاه، أما بعد:

فيقولُ اللهُ تعالى في سورةِ إبراهيم، عن نبيِّه وخليلِه إبراهيمَ عليه الصلاةُ والسلامُ:

﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾[2].

إنها مناجاةُ أبٍ كبيرٍ في السِّن، رزقَهُ اللهُ الولدَ على كِبَر، فحَمِدَ ربَّه، وأثنى عليه، وتَوجَّهَ نحوَ ربِّه مناجيًا في شأنِ ذريتِه مِن بَعدِه، فقد مضى أكثرُ عُمرِه فلم يبقَ له مِن العمرِ إلا القليل، فمَن سيحفظُ أبناءَه مِن بعده إلا الله، ونِعْمَ بالله حافظًا وكفيلًا.

(١) للدكتور عويض العطوي، عميد البحث العلمي في جامعة تبوك.
(٢) إبراهيم: ٣٧.

إنه خليلُ الله إبراهيمُ -عليه السلام-؛ يَشغلُه شأنُ أسرتِه في مكة، فالمكانُ لا زرع فيه ولا أُنس، فكيف سيعيشون؟! فيَعرِضُ ذلك على ربِّه عَرْضًا لطيفًا فيقول: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ﴾، «أي: بوادٍ لا يصلُح للنَّبْتِ لأنه حِجارة، فإنّ كلمةَ (ذُو) تدلُّ على صَاحبِ ما أُضيفت إليه، وتمكّنُه منه، فإذا قيل: ذو مال، فالمالُ ثابتٌ له، وإذا أُريدَ ضد ذلك قيل: غيرُ ذي كذا، كقوله تعالى: ﴿قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا غَيۡرَ ذِي عِوَجٍ﴾[1]، أي: لا يَعتريه شيءٌ من العِوَج، ولأجلِ هذا الاستعمال لم يقل: بوادٍ لا يُزرع أو لا زرع به» [2].

إنه يخافُ عليهم مِن الهلاك، ويأخُذُ بأسبابِ العيشِ والحياة، ويُبيّنُ السببَ في إسكانِهم عند البيتِ المحرمِ فيقول: ﴿لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، إنه مَلمَحٌ مُهِمٌّ؛ أنْ يختارَ الأَبُ مكانَ إقامةِ أسرتِه، فلا يَهتمَّ دائمًا برغباتِ الجَسَدِ وملذاتِ الحياة، مِن الأماكنِ الجميلة، والمواقعِ المميزة؛ ويَنسى شأنَ الرُّوح، بل عليه أنْ يُقدِّم أولًا ما يُغذِّي هذه الروح، وما يُساعِدُ على صلاحِ أبنائه، فالمكانُ له أثرُه في التربية، فمكةُ بلدٌ لا زرعَ فيه، ولا يوجدُ فيها مما تشتهيهِ نفوسُ الناس شيء، لكنْ فيها الإيمانُ والتوحيدُ وعبادةُ رب العالمين، لذا قال: ﴿لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، إنه هَدَفٌ نبيلٌ على كلِّ أب أنْ يَضعَهُ أمامَ عينيهِ وهو يخطِّطُ لحياته وحياةِ أبنائه، فالمكانُ الذي تتهيأُ فيه دُورُ العبادةِ؛ أفضلُ من المكانِ الذي تَقِلُّ فيه، والمكانُ الذي يُذكَرُ فيه اسمُ الله كثيرًا؛ خيرٌ من الذي لا يُذكَرُ فيه إلا قليلًا.

(١) الزمر: ٢٨.
(٢) التحرير والتنوير - (٧/ ٤٤١).

ثم إنّ إبرازَ الصلاةِ هنا على وجه الخصوص؛ يُشير إلى أنَّ مما اهتمَّ به الأنبياءُ الكرامُ -صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين- في تربيتِهم لأولادِهم بعد شأنِ التوحيدِ والخوفِ من الشرك؛ هو شأنُ الصلاة، ولهذا شواهدُ كثيرةٌ في القرآن، يُمكنُ رصدُها في قصصِ الأنبياءِ -عليهم السلام- مع أولادِهم.

ولا يَنسى الأبُ الرحيم، ما تُسبِّبه الوحدةُ للإنسانِ مِن وحشةٍ وضيقٍ في الصدر، فيسألُ ربَّه ويقول: ﴿فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾، وهذا يُشيرُ إلى أنَّ الانقطاعَ عن الناسِ والبُعد عنهم ليس مَرغوبًا، فكثيرٌ من العباداتِ لا تَتحقّقُ إلا بمخالطةِ الناس، والعيشِ معهم.

ثم إنه ذَكر الأفئدةَ فقال: ﴿أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾، ولم يقل: فاجعل بعضَ الناس؛ وذلك لأنَّ الفؤادَ إذا هوى مكانًا تعلَّق به، فهو يُريدُ أُناسًا يَبقون ويألفون هذا المكانَ لِيعمروه، لا أنْ يمرُّوا عليه ويتجاوزوه، وفي التعبيرِ بالأفئدةِ هنا رِقّةٌ ولطف، تصور القلوب رفافة مجنحة، وهي تهوي إلى ذلك البيتِ وأهلِه في ذلك الوادي الجديب. إنه تعبيرٌ نديٌّ يُندّي الجدبَ برقّةِ تلك القلوب [1].

ثم إنّ هذا المكانَ الذي لا زرع فيه ولا سُكّان لن يَؤُمَّه أحد، ولن يَستقرَّ فيه أحد، ولن يكونَ ذلك إلا بِصَرْفِ أفئدةِ بعضِ الناس إليه، ولهذا تبقى مكةُ

(١) انظر: «في ظلال القرآن» (٤ / ٤١١).

خاليةً من أسبابِ الجذبِ المعروفةِ لدى الناسِ؛ مِن لَطافةِ الجو، وكثرةِ الخُضرة، وجَرَيانِ الماء، وكثرةِ الزروع وغيرِها، ومع هذا هي أعظمُ مكانٍ يَؤُمُّهُ الناسُ على مدى التاريخ، وذلك ليبقى المحرِّكُ الوحيدُ لهم في ذلك هو طاعةُ الله، ورجاءُ أجرِه سبحانه.

وقد قال إبراهيمُ -عليه السلام-: ﴿أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾، وربما لو قال: (أفئدةَ الناس) لجاءَ كلُّ البشر، ولما استوعبَهم المكان، وللهِ في خَلقِهِ شأنٌ وحكمةٌ.

كما لا ينسى الأبُ الرحيمُ أهلَ بيتِه في معيشتِهم؛ بل يدعو اللهَ لهم فيقول: ﴿وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾، وفي هذا المقطعِ مجموعةٌ من الدلالاتِ واللطائف:

فيه أنّ عِنايةَ المربي برزقِ أهلِ بيتِه أمرٌ مهم، وهو شأنٌ لا يُلامُ عليه، بل هو مسؤولٌ عن ذلك، ولا يصحُّ ما نراه من تضييعِ بعضِهم لمسؤوليةِ أهليهم ومعيشتِهم، فهو مَشغولٌ عنهم دائمًا، يذهبُ وهم نائمون، ويعودُ وهم نائمون، حتى إنَّ بعضَ الأُسَرِ لَتعيشُ على الصدقاتِ ومساعداتِ الآخرين؛ والأبُ موسِرٌ وعلى قيدِ الحياة.

وفيه أيضًا أنّ ذِكْرَ ﴿ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ يُشيرُ أنها مِن أعظمِ أنواعِ الأمنِ الغِذائي، وقد يكون في ذلك إشارةٌ إلى الزراعةِ فيما يصلح لها قرب مكة، أو

إلى جَلبِ الثمراتِ إليهم من أقطارِ الأرضِ البعيدة، وهو ما يؤيدُه قوله تعالى: ﴿يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾[1]. يقول أبو السعود: «وقد حَصَلَ كلاهما حتى إنّه يجتمعُ فيه الفواكهُ الربيعيةُ والصيفيةُ والخريفيةُ في يوم واحد»[2].

وفيه أيضًا إشارةٌ إلى تربيةِ الأُسرةِ على شكرِ النعمة، حيث قال: ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ فلا يكفي حصولُ النِّعم؛ بل لا بُدَّ مِن فِعلِ أسبابِ بقائِها، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾[3].

ومما يُستفادُ مِن هذه المناجاة: معرفةُ آدابِ السؤالِ والتضرع، وقد كان «في دعائِهِ عليه السلام مِن مراعاةِ حسنِ الأدبِ، والمحافظةِ على قوانين الضَّراعةِ، وعَرْضِ الحاجة، واستنزالِ الرحمةِ، واستجلابِ الرأفةِ ما لا يخفى، فإنه عليه السلام بِذِكْرِ كونِ الوادي غيرَ ذي زرعٍ بيّن كمالَ افتقارِهم إلى المسؤول، وبِذِكْرِ كونِ إسكانِهم عند البيت المحرَّمِ أشار إلى أنّ جِوارَ الكريم يستوجبُ إفاضةَ النعيم، وبِعرْضِ كونِ ذلك الإسكانِ مع كمالِ إعوازِ مرافقِ المعاشِ لمحضِ إقامةِ الصلاةِ وأداءِ حقوقِ البيتِ مَهّدَ جميعَ مبادئ إجابةِ السؤال، ولذلك قُرِنَتْ دعوتُه عليه السلام بحُسنِ القبول»[4].

(١) القصص: ٥٧.
(٢) تفسير أبي السعود - (٤/ ٤٢).
(٣) إبراهيم: ٧.
(٤) تفسير أبي السعود - (٤/ ٤٢).

إنها معالمُ تربويةٌ مهمةٌ نَستَلْهِمُها من قصصِ الأنبياءِ الكرام مع أبنائهم، ولن نجدَ نموذجًا أرقى ولا أعظمَ منهم.

هذه ـ أيها المؤمنون ـ بعضُ دلائلِ هذه المناجاة النبوية، فما أجملَ التأسي به، ومراعاةَ الأدبِ وعلوِّ الهمةِ في دعواتِنا.

اللهم ارزقنا الأدبَ معك، وصدقَ اللجأِ إليك، واغفر اللهم لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.





المجلس الثاني والعشرون

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾[1]

الحمدُ لله، والصلاةُ والسلامُ على عبدِهِ ورسولِهِ ومصطفاه، أما بعد:

فيقولُ اللهُ تعالى في سورة البقرة: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾[2].

هذه آيةٌ قرآنيةٌ إيمانية، لها صلةٌ عظيمةٌ بعبادةٍ من أعظمِ العبادات، ألا وهي عبادةُ الدعاء.

وهذه الآيةُ المُتَعَلِّقةُ بالدعاءِ جاءت مُتوسِّطةً بين عددٍ من آياتِ الصيام، وكأنها -والله أعلم- تُشيرُ إلى أهميةِ الدعاءِ في رمضان، والدعاءُ عمومًا -في رمضانَ وفي غيرِه- له شأنٌ عظيم، بل هو صفةُ عبادِ اللهِ الصالحين ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾[3].

يا أمةَ القرآن! لقد انطوتْ هذه الآيةُ الكريمة - ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾ - على جملةٍ من الهدايات، منها:

(١) للدكتور عمر بن عبدالله المقبل، نائب رئيس مجلس إدارة الهيئة العالمية لتدبر القرآن، والأستاذ المشارك في جامعة القصيم.
(٢) البقرة: ١٨٦.
(٣) الأنبياء: ٩٠.



أولًا: أنّ القرآنَ قد اشتملَ على أربعةَ عشر سؤالًا، وكلُّها تبدأ بـ(يسألونك)، ثم يأتي الجواب بـ:(قل) أو(فقل)، إلا هذا الموضع الوحيد، فإنه بدأَ بهذه الجملة الشرطية: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى ﴾، وجاء جوابُ الشرطِ من دون الفِعل: قل، بل قال: ﴿ فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾، فكأنّ هذا الفاصل -(قل)- مع قِصَرِه، كأنه يُطيلُ القُرْبَ بين الداعي وربِّه، فجاء الجوابُ بدون واسطةٍ؛ بل قال: ﴿ فَإِنِّى قَرِيبٌ ﴾ تَنبيهًا على شِدَّةِ قُرْبِ العبدِ مِن ربِّه في مقامِ الدعاء!.

ولو تأمَّلتَ -أيها المبارك- في قولِه: ﴿ عِبَادِى ﴾ فكمْ في هذا اللفظِ مِن الرَّأْفةِ بالعباد؛ حيثُ أضافَهم إلى نفسِهِ العَليّةِ سبحانه وبحمده! فأين الدَّاعون؟ وأين الطارقون لأبوابِ فضلِه؟! وهو قد حَثَّهم سبحانه على الدعاءِ فقال: ﴿ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾[(١)] وقال جل وعلا: ﴿ فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾[(٢)].

وأما قولُه سبحانه: ﴿ فَإِنِّى قَرِيبٌ ﴾ ففيها إثباتُ قُربِهِ مِن عبادِه جل وعلا، وهو قُربٌ خاصٌّ بِمَن يَعبدُه ويدعوه، وهو- واللهِ - مِن أعظمِ ما يَدفعُ المؤمنَ للنشاطِ في دعاءِ مولاه.

ولْتنظر -أيها المؤمن- في نتيجةِ ذلك التضرُّع، ألا وهي في قوله:

(١) الأعراف: ٥٥.
(٢) غافر: ١٤.



﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ﴾ ففي هذا ما يدُلُّ على قدرةِ اللهِ وكمالِ سمعِهِ سبحانه، وهذا ما لا يَقدِرُ عليه أيُّ أحدٍ إلا هو سبحانه! وقد قال جل وعلا: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[1] فقد وعد سبحانه بالاستجابةِ لمن دعاه وهو موقِنٌ بالإجابة.

إنّ أيَّ مَلِكٍ مِن مُلُوكِ الدنيا -ولله المثلُ الأعلى- مهما أُوتي مِن القوةِ والسلطانِ لا يمكنُه أنْ يُنفّذَ كلَّ ما يُطلَبُ منه؛ لأنه مخلوقٌ عاجز، لا يستطيع أنْ يدفَعَ عن نفسه المرضَ والموتَ، فضلًا عن غيره، فتباركَ اللهُ القويُّ العزيز، الرحيم الرحمن.

لكنْ تأمَّل -أيها المؤمن- في قولِه تعالى: ﴿إِذَا دَعَانِ﴾، ففيها إشارةٌ إلى أنّ مِن شَرطِ إجابةِ الدعاءِ أن يكونَ الداعي حاضِرَ القلبِ حينما يدعو ربه، وصادقًا في دعوةِ مولاه، بحيثُ يكونُ مخلِصًا مُشعرًا نفسَه بالافتقارِ إلى ربِه، ومُشعِرًا نفسَه بكرمِ الله، وجُودِه[2].

ثانيًا: ومن هداياتِ هذه الآيةِ ودلالتِها:

أنّ اللهَ تعالى يجيبُ دعوةَ الداع إذا دَعاه؛ ولا يَلزَمُ مِن ذلك أنْ يجيبَ مَسألتَه؛ لأنه تعالى قد يؤخِّرُ إجابةَ المسألةِ ليزدادَ الداعي تَضرُّعًا إلى الله، وإلحاحًا في الدعاء؛ فيَقْوَى بذلك إيمانُه، ويزداد ثوابُه؛ أو يدّخره له يومَ القيامة؛ أو يدفع

(١) غافر: ٦٠.
(٢) ينظر فيما سبق: مفاتيح الغيب: (٥/ ٨٤)، وتفسير القرآن الكريم للعثيمين: (١/ ٣٤٥).

عنه من السوءِ ما هو أعظمُ فائدةً للداعي؛ وهذا هو السِّرُّ - والله أعلم - في قوله تعالى: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ﴾[١].

ثالثًا: ومن هداياتِ هذه الآيةِ ودلالتِها وتاجِها -﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾-:

أنّك تَلحظُ فيها سِرًّا من أسرارِ عظمةِ هذا الدين، وهو التوحيد، فهذا ربُّك -أيها المؤمن- وهو مَلِكُ الملوك، القهارُ الجبار، الذي لا يُشبه مُلْكَه مُلكٌ، ولا سُلْطَانَه سلطانٌ - لا تحتاجُ إذا أردتَ دعاءَه إلى مَواعِيد، ولا إلى أُذُونات، ولا شيءٍ من ذلك، إنما هو رَفْعُ اليدين، مع قلبٍ صادق، وتَسألُ حاجتَك، كما قال بَكرُ بنُ عبدِ اللهِ المُزَني - أحدُ ساداتِ التابعين -: «مَن مِثلُك يا ابنَ آدم! خُلِّي بينك وبين المحراب، تَدخلُ منه إذا شئتَ على ربك، وليس بينك وبينه حجابٌ ولا ترجمان»؟![٢]، فيا لها مِن نعمةٍ لا يعرفُ قدرَها إلا الموفَّق.

وإذا تَبيَّنَ وقعُ هذه العبادةِ الجليلة، فإنك ستُدْرِكُ أنّ الحرمانَ الحقيقيَّ للعبدِ حينما يُحرَمُ طَرْقَ الباب، وأن تُنسيَه نفسُه هذا السبيلَ العظيم! كما قال أبو حازم: لَأَنا مِن أَنْ أُمنع الدعاء، أَخْوَفُ مني مِن أَنْ أُمنع الإجابة[٣].

«وقد أَجمَعَ العارفون أنّ التوفيقَ أنْ لا يَكلِكَ اللهُ إلى نفسِك، وأَنَّ الخذلانَ

(١) تفسير القرآن الكريم للعثيمين: (١/ ٣٤٥).
(٢) حلية الأولياء: (٢/ ٢٢٩).
(٣) حلية الأولياء: (٣/ ٢٤١، ٧/ ٢٨٨).

هو أنْ يُخَلِّيَ بينك وبين نفسِك، فإذا كانَ كلُّ خيرٍ فأصلُه التوفيق، وهو بيدِ الله لا بيدِ العبد، فمفتاحه الدعاءُ والافتقارُ وصدقُ اللجأ والرَّغبة والرهبة إليه، فمتى أَعطى العبدَ هذا المفتاحَ فقد أرادَ أَنْ يفتحَ له، ومتى أَضلَّه عن المفتاحِ بقي بابُ الخيرِ مُرتجًا دونه، قال أميرُ المؤمنين عمرُ بنُ الخطاب -رضي الله عنه-: (إني لا أَحملُ همَّ الإجابة، ولكني أَحملُ همَّ الدعاء، فإذا أُلهمتُ الدعاءَ فإنَّ الإجابةَ معه).

وعلى قَدْرِ نيةِ العبدِ وهمته ومُرادِه ورغبتِه في ذلك يكونُ توفيقُه سبحانه وإعانتُه، فالمعونةُ من الله تنزِلُ على العبادِ على قَدْرِ هِمَمِهم وثَباتِهم ورَغبتِهم ورَهبتِهم، والخذلانُ ينزلُ عليهم على حسب ذلك،... وما أُتيَ مَن أُتيَ إلا مِن قِبَل إضاعةِ الشكر، وإهمالِ الافتقارِ والدعاء، ولا ظَفَرَ مَن ظَفَر -بمشيئةِ اللهِ وعونِه- إلا بقيامِه بالشُّكر، وصِدْقِ الافتقارِ والدعاء»[(١)].

ومِن المعاني المهمةِ التي ينبغي أنْ يَستحضرَها العبدُ -وهو في مقام الدعاء- ما أَشَارَ إليه الإمامُ أبو سليمان الخطابي رحمه الله- وهو يَتحدَّثُ عن الحكمةِ مِن مشروعيةِ الدعاءِ - فيقول: «وقد قَضَى اللهُ سبحانَه أنْ يكونَ العبدُ ممتَحَنًا ومُستعمَلًا، ومُعلَّقًا بين الرجاء والخوف -اللذين هما مَدرجتا العبودية- لِيَستخرجَ منه بذلك الوظائفَ المضروبةَ عليه، التي هي سِمَةُ كلِّ عبد، ونِصْبةُ كلِّ مَربوبٍ مُدَبَّرٍ»[(٢)].

(١) ابن القيم في الفوائد: (١٨١).
(٢) شأن الدعاء: (٩-١٠).

رابعًا: ومِن هداياتِ هذه الآيةِ ودلالتِها:

استحبابُ الدعاءِ عند الفِطرِ في رمضانَ وغيرِه، وهذا ما يدلُّ عليه ظاهرُ القرآن، وفعلُ السلف، وفي السُّنةِ المرفوعةِ أحاديثُ لا تخلو مِن مَقال، ولكنْ ها أنت ترى ظاهرَ القرآنِ يَعضُدُها، ووَجْهُ الدلالةِ مِن الآياتِ على هذا المعنى: أنّ اللهَ تعالى ذَكَرَ هذه الآيةَ -آية الدعاء- بُعَيْدَ آياتِ الصيام وقُبيلَ آيةِ إباحةِ الرَّفَثِ في ليلِ الصيام، «وفي ذِكرِه تعالى هذه الآيةَ الباعثةَ على الدعاءِ مُتخلِّلَةً بين أحكام الصيام، إرشادٌ إلى اجتهادٍ في الدعاءِ عند إكمالِ العِدَّةِ، بل وعند كلِّ فِطر»[1].

فما أَجمَلَ العبدَ وهو يُظهِرُ فَقرَه وعبوديتَه بِدعاءِ مولاه، والانكسارِ بين يدي خالقِه ورازِقه، ومَنْ ناصيتُه بيدِه!

وما أسعدَه حينما يَهتَبِلُ أوقاتَ الإجابةِ ليناجيَ ربَّه، ويسألَه مِن واسِعِ فضلِه في خَيرَي الدنيا والآخرة!

نسألُ اللهَ تعالى أن يرزُقَنا صدقَ اللجأِ إليه، والانطراحَ بين يديه، وكمالَ التضرُّعِ له، وقوةَ التوكلِّ عليه، وأن لا يُخيِّبَ رجاءَنا فيه، ولا يردَّنا خائبين بسببِ ذنوبِنا وتقصيرِنا.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.



(١) تفسير ابن كثير: (١/ ٢٧٣).



المجلس الثالث والعشرون

﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾[1]

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فإنّ الحديثَ هاهنا سيدورُ حولَ هدايةِ قولِ الله -تعالى-: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾[2]. فهذه آيةٌ عظيمةٌ في أول سورةٍ نزلتْ في القرآن، وهي سورة العلق.

آيةٌ تَهُزُّ الوجدان، وتفعلُ في النفس ما لا تفعلُهُ سُلُطاتُ الدنيا، ولا أحدثُ التقنيات في عالم المخابرات. آيةٌ تضبِطُ النوازع، وتقوِّي الوازع، وتكْبَحُ الجماح، وتدعو إلى إحسانِ العمل، وكمالِ المراقبة. وقد جاءت بهذا البيانِ المعجزِ الذي لا تصل إليه قوةُ بَشَر. جاءت بهذا التعبيرِ الواضح مُبِيْنَةً عمّا تحتها من معنى، جاءت بصيغة الاستفهام: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾؟

وتحت هذه الآيةِ من اللطائفِ والأسرارِ الشيءُ الكثير؛ ففيها إشارةٌ إلى وجوبِ المراقبة لله -عز وجل-، وفيها تهديدٌ لمن يتمادى في الغَيّ، وفيها تلويحٌ

(١) للدكتور محمد بن إبراهيم الحمد، عضو هيئة التدريس في جامعة القصيم.
(٢) العلق: ١٤.

إلى وجوبِ الإقصارِ عن الشر، وفيها تلميحٌ إلى أنَّ العلمَ باطِّلاع اللهِ -عز وجل- على الخلائقِ أمرٌ فِطْريٌّ لا يحتاج إلى دليل، وفيها تعريضٌ بغباوةِ مَنْ يجهلُ هذه الحقيقة، أو يكابِرُ في شأنها.

فيا لله ما أجملَ أن يَستحضرَ كلُّ أحدٍ هذه الآيةَ إذا امتدت عينُه إلى خيانة، أو يَدُه إلى حرام، أو سارتْ قدمُه إلى سوء، أو تحرَّك لسانُه بقبيح. وما أروعَ أن تكونَ هذه الآية نُصْبَ أعيُنِنا إذا أردْنا القيامَ بما أُنيط بنا من عمل.

وفي هذا سرٌّ بديعٌ، ودرسٌ عظيمٌ تُفِيد منه الأمةُ بعامَّة، ويفيد منه الأفرادُ بخاصَّة؛ فواجبٌ على المصلحين وقادةِ الأُمم أن يتنبَّهوا لهذا المعنى، وأن يَحرِصوا على إشاعتِه في الناس؛ ذلكم أنّ وازعَ الدينِ والمراقبةِ لربِّ العالمين يفعل في النفوس ما لا يفعله وازعُ القوَّةِ والسلطان؛ فإذا أَلِفَ المرءُ أنْ يراقِبَ ربَّه، ويستحضرَ شهودَه واطّلاعَه عليه: فإن المجتمعَ يأمنُ بوائقَه، ويستريحُ من كثيرٍ من شروره. أما إذا كان الاعتمادُ على وازع القوة، وحارسِ القانون: فإنّ القوةَ قد تضعُف، وإنّ الحارسَ قد يغفَل، وإن القانونَ قد يُؤَوَّل، وقد يُتَحايلُ؛ للتخلُّصِ من سلطانِه.

لذلك تَكثُرُ الجرائمُ والمفاسدُ إذا قَلّت التربيةُ الدينيةُ في مجتمعٍ ما، فإذا أَشَعْنَا هذا المعنى في الناس، وعَمَدْنا إلى تربيتِهم بأسلوب الدينِ والفضيلة أَرَحْنا واسترحنا، ووفَّرْنا جهودًا كبيرة، وقد تكونُ ضائعةً في غيرِ ما فائدة؛ فالمراقبةُ حارسٌ قويٌّ يمنعُ الإنسانَ من التفكيرِ في الجرائمِ والشرور، والتقصيرِ في أداءِ الحقوق.

فلا عَجَبَ -إذًا- أن تكونَ هذه الآية في أوّل سورةٍ نزلتْ من القرآن الكريم؛ لكي يكونَ المؤمنُ على ذِكْرٍ من هذا المقامِ العالي، الذي إذا تَمَثَّلَه كان في قبيل المحسنين، الذين يعبدون اللهَ كأنهم يرونه، فإن لم يكونوا يرونه فإنه يراهم.

وتلك هي مرتبةُ الإحسانِ التي هي أعلى مراتب الدين، والتي إذا استشعرها المؤمنُ حالَ قيامِه بعبودية ربه كان عملُه مُتْقَنًا مُضاعَفًا؛ فإذا صلى مُستشعرًا ذلك المعنى تضاعفَ أجرُ صلاتِهِ، وهكذا بقيةُ الأعمالِ الصالحة.

ولعلّ الصيامَ من أعظمِ العباداتِ التي تتجلى بها عبوديةُ المراقبة؛ فالصيامُ مدرسةٌ لقيام تلك العبوديةِ العظمى؛ ذلكم أنّ الصائمَ يُمسكُ عن المفطّراتِ طيلةَ النهار، فتراه أمينًا على نفسه، رقيبًا عليها في الصغيرةِ والكبيرة، متمثِّلًا هيبةَ مولاه، واطلاعَه، وشهودَه كَأتمِّ ما يكون، فلا تحدِّثُه نفسُه بتناول مُفطِّرٍ ولو قلّ، ولا يَخْطُرُ ببالِهِ أن يَنْقُضَ صيامَه ولو توارى عن الأعين؛ فَيَصِلُ بذلك إلى مرتبةِ الإحسان؛ حيث يعبُدُ اللهَ كأنه يراه. ولهذا خصّ اللهُ -عز وجل- الصيامَ من بين سائرِ الأعمالِ بأنه له، وهو يجزي به.

فقد ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة -رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال: «كلُّ عملِ ابنِ آدم له، الحسنةُ بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف» قال الله -عز وجل- في الحديث: «إلا الصيام؛ فإنه لي وأنا أجزي به؛ إنه ترك شهوته وطعامه وشرابه من أجلي»[1]. وفي رواية: «كلُّ عملِ ابنِ آدم له إلا الصيام فإنه لي».

(١) البخاري: (١٨٩٤)، ومسلم: (١١٥١).

فالصيامُ سِرٌّ بين العبد وبين ربه لا يَطّلع عليه غيرُه؛ فإنه مُركَّبٌ من نيَّةٍ باطنةٍ لا يطَّلعُ عليها إلا الله، وتركٍ لتناولِ الشهواتِ التي يُستَخفى في تناولها في العادة؛ فإذا تَرَكَ ما تدعوه إليه نفسُه لله -عز وجل- حيث لا يَطَّلعُ عليه غيرُ مَنْ أمَرَهُ ونهاه، دلَّ ذلك على صحةِ إيمانِه، واللهُ -عز وجل- يحبُّ من عباده أن يعاملوه سِرًا بينهم وبينه، وأهلُ محبتِهِ يحبُّون أن يعاملوه هكذا؛ فإذا استشعر الصائمُ هذا المعنى العظيم انبعث إلى مراقبةِ الله -عز وجل- في شتى شؤونِه؛ فالذي يطَّلعُ عليه في صيامِهِ مُطَّلعٌ عليه في جميعِ أحوالِه.

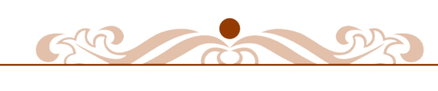
وإذا راقب الإنسانُ ربَّه، واحترمَهُ في خلواتِه أظهرَ اللهُ فضلَه، ورَفَعَ ذِكْرَه؛ فالجزاء من جنس العمل، ومن يعملْ سوءًا يُجزَ به.

قال أبو حازم -رحمه الله-: «لا يُحْسِنُ عبدٌ فيما بينه وبين الله -عز وجل- إلا أحسنَ اللهُ فيما بينه وبين الناس، ولا يُعَوِّر -أي: يُفسد- فيما بينه وبين الله -عز وجل- إلا عَوَّر اللهُ فيما بينه وبين العباد، ولَمُصَانعةُ وجهٍ واحدٍ أيْسرُ من مصانعةِ الوجوهِ كلِّها؛ إنك إذا صانَعْتَ اللهَ مالت الوجوهُ كلُّها إليك، وإذا أفسدتَ ما بينك وبين اللهِ شنأتْك الوجوهُ كلُّها»[1].

اللهم ارزقنا خشيتك في الغيب والشهادة، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه.



(١) حلية الأولياء ٣/ ٢٣٩.



المجلس الرابع والعشرون

﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾[1]

الحمد لله، والصلاة والسلام على عبده ورسوله ومصطفاه، أما بعد:

فمِن السُّورِ العظيمةِ التي يحفظُها عامةُ المسلمين، سورةُ التكاثر، وقد تضمّنتْ معانيَ عظيمةً، يَحْسُنُ بنا أن نتوقَّفَ عندها، خاصةً ونحن في عَصْرٍ عَظُمَ فيه التكاثُر، فما أحوجَنا إلى معرفةِ مَنْهجِ القرآنِ في الحديثِ عن التكاثر في ضوءِ سورةِ «التكاثر»:

فهذه السورةُ أُخْلِصَت للوعدِ والوعيدِ والتهديد، وكفى بها موعظةً لمن عَقَلَها، فقوله تعالى: ﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾[2] أي: شَغَلَكم على وَجْهٍ لا تُعْذَرون فيه، فإنّ الإلهاءَ عن الشيءِ هو الاشتغالُ عنه.

وتأمّلْ في قوله: ﴿أَلۡهَىٰكُمُ﴾ فهو أبلغُ في الذمِّ مما لو قال: شَغَلَكم، فإنّ العاملَ قد يَستعملُ جوارحَه بما يعملُ وقلبُه غيرُ لاهٍ به، فاللهوُ هو ذهولٌ وإعراض، والتكاثر تفاعُل؛ من الكَثْرة، أي: مُكاثَرَةُ بعضِكم لبعض.

(١) ملخصٌ من مجموع كلام العلّامتين: ابن القيم وابن عثيمين -رحمهما الله- على هذه الآية وعلى هذه السورة الكريمة، بتصرف واختصار.
(٢) التكاثر: ١.

واللهُ تعالى لم يذُمَّ الكثرة، ففي الصحابة أغنياء، وفي الأنبياء ـ قبل ذلك ـ مُلوكٌ لا يُداني مُلكَهم أحدٌ، وإنما ذمّ اللهُ التكاثرَ الذي سببُه الفخرُ والكِبْرُ، وأَثَرُهُ: الإلهاءُ والإشغالُ، ويَحْمِلُ على الأَشَرِ والبَطَرِ، ونسيانِ الشُّكر.

ولم يَذْكُرِ اللهُ تعالى ما الشيءُ الذي يَتَكاثَرُ به العباد؟ ليشْمَلَ كلَّ شيءٍ يتَكاثَرُ به العباد! وأنَّ كلَّ ما يُكَاثِرُ به العبدُ غَيْرَه ـ سوى طاعةِ اللهِ ورسولِه، وما يعودُ عليه بنفعِ معادِه ـ فهو داخلٌ في هذا التكاثر. فالتكاثرُ في كلِّ شيء: من مالٍ، أو جاهٍ، أو رياسةٍ، أو نِسوةٍ، أو حديثٍ، أو علم ـ ولا سيما إذا لم يُحْتَجْ إليه ـ والتكاثرُ في الكتب، والتصانيف، وكثرةِ المسائل، وتفريعِها وتوليدِها، وقُلْ مثلَ ذلك في التكاثر في عصرِنا بكثرةِ المراكب، والأَسْهُم، والعقارات!

والتكاثر أنْ يطلُبَ الرجلُ أن يكونَ أكثرَ من غيره، وهذا مذمومٌ إلا فيما يُقرِّبُ إلى الله، فالتكاثر فيه منافسةٌ في الخيرات، ومسابقةٌ إليها.

وإنما ذمَّ اللهُ التكاثرَ بالأموالِ والأولادِ على الوَجهِ المذموم؛ لأنه من أعظم ما يُلهي النفوسَ عن الله والدار الآخرة، كما قال تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾[1] فكُلُّ مَنْ شغلَهُ وألهاهُ التكاثرُ بأمرٍ من الأمورِ عن اللهِ والدارِ الآخرةِ فهو داخلٌ في حكم هذه الآية.

(١) التكاثر: ١ – ٤.

ثم تأمّلْ ـ أيها المؤمن ـ في قوله: ﴿حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ ۝٢﴾ فجَعَلَ الغايةَ زيارةَ المقابرِ دون الموت.

ولفظ ﴿زُرۡتُمُ﴾ مُشعرٌ بأنهم غيرُ مُستوطنين ولا مُستقرِّين في القبور، وأنهم فيها بمنزلةِ الزائرين، يحضرونها مُدّةً ثم يظعنون عنها، وينتقلون إلى دار القرار ـ كما كانوا في الدنيا زائرين لها غيرَ مستقرين فيها، ودار القرار هي الجنة أو النار.

ثم قال سبحانه: ﴿كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ وهذا من الله توعُّدٌ لمن ألهاه التكاثرُ، وعيدًا مؤكدًا إذا عاين تكاثرَه هباءً منثورًا، وعَلِم أن دنياه التي كاثر بها، إنما كانت خدعًا وغرورًا، فوجد عاقبةَ تكاثُرِه عليه، لا لَهُ، وخَسِرَ هنالك تكاثرَه، كما خَسِر أمثالُه، وبدا له من اللهِ ما لم يكنْ في حِسابِه، وصار تكاثرُه الذي شَغَله عن اللهِ والدارِ الآخرةِ من أعظمِ أسبابِ عذابِه، فعُذِّبَ بتكاثرِه في دنياه، ثم عُذِّبَ به في البرزخ، ثم يُعذَّبُ به يوم القيامة، فكان أشقى بتكاثره إذْ أفادَ منه العَطَب، دون الغنيمةِ والسلامةِ، فلم يَفُزْ مِنْ تكاثُرِه إلا بأنْ صارَ من الأَقَلِّين! فيا له تَكاثُرًا ما أقلّه! ورُزْءًا ما أجلّه! ويا له من غِنىً جالبًا لكلِّ فَقْرٍ! ومالًا تُوصِّلَ به إلى كلِّ شر! يقولُ صاحبُه -إذا انكشف عنه غطاؤه-: ﴿يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي﴾[1]، وعَملتُ فيه بطاعةِ الله قبل وفاتي: ﴿رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ۝٩٩ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾[2] تلك كلمةٌ يقولها، فلا يُعوَّلُ عليها، ورجعةٌ يَسألُها فلا يُجابُ إليها.

(١) الفجر: ٢٤.
(٢) المؤمنون: ٩٩، ١٠٠.

وتأمّلْ حُسْنَ موقعِ ﴿كَلَّآ﴾ في هذا الموضع، فإنها تَضمَّنتْ رَدْعًا لهم، وزَجرًا عن التكاثر، ونفيًا وإبطالًا لما يؤمِّلونه من نفعِ التكاثرِ لهم، وعزتهم وكمالهم به، فتضمنت اللفظة: نهيًا، ونفيًا، وأخبرهم سبحانه أنهم لا بُدَّ أن يعلموا عاقبةَ تكاثرِهم عِلْمًا بعد عِلْم، وأنهم لا بد أن يروا دارَ المكاثرين بالدنيا التي ألهتهم عن الآخرة، رؤيةً بعد رؤية، وأنه سبحانه لا بُدَّ أن يسألَهم عن أسبابِ تكاثرِهم من أين استخرجوها وفيما صرفوها؟[١].

ثم قال تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾ يعني: حقًّا؛ لو تعلمون علمَ اليقين لعرفتم أنكم في ضلال، ولكنكم لا تعلمون علمَ اليقين، لأنكم غافلون لاهون في هذه الدنيا، ولو علمتم علمَ اليقين لعرفتم أنكم في ضلالٍ وفي خطأٍ عظيم.

ثم قال تعالى: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾[٢]، جُملةُ ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ﴾ جملةٌ مُستأنفَة، لا صلةَ لها بما قبلها، وهي جملةٌ قَسَمّية، فيها قَسَمٌ مقدَّر؛ والتقدير: واللهِ لتُرون الجحيم.

و﴿ٱلْجَحِيمَ﴾ اسمٌ من أسماءِ النار ـ أعاذنا الله منها.

﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ تأكيدٌ لرؤيتِها، وسيكون هذا يومَ القيامة، حين يُؤتى بها تُجَرُّ بسبعين ألف زِمام، كلُّ زِمام يجرُّه سبعون ألفَ ملك، فما ظَنُّك بهذه النار ـ والعياذ بالله ـ! إنها نارٌ كبيرةٌ عظيمةٌ؛ لأنّ فيها سبعين ألف

(١) ملخصًا من كلام ابن القيم.
(٢) التكاثر: ٦، ٧.



زمام، كلُّ زِمام يجرُّه سبعون ألف ملك، والملائكة عِظَامٌ شِدادٌ فهي نارٌ عظيمة ـ أعاذنا الله منها ـ.

﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾[1] يعني: ثمّ في ذلك الوقت، وفي ذلك الموقف العظيم، تُسألُنَّ عن النعيم.

وهذا السؤال ـ على الصحيح من أقوال العلماء ـ يَشمَلُ المؤمنَ والكافر، فكُلٌّ سيُسْألُ عن النعيم، لكنَّ الكافرَ يُسألُ سؤالَ توبيخٍ وتقريعٍ، والمؤمنَ يُسألُ سؤالَ تذكيرٍ.

والدليلُ على أنّ السؤالَ عامٌّ: ما جرى للنبيِّ ﷺ وأبي بكر وعمر -رضي الله عنهما-، حين خَرجَ الرسولُ ﷺ ذاتَ يوم - أو ليلة - فإذا هو بأبي بكر وعمر، فقال: «ما أخرجَكما من بيوتِكما هذه الساعة؟» قالا: الجوعُ يا رسولَ الله، قال: «وأنا، والذي نفسي بيده، لأَخْرجَني الذي أخرجَكما، قوموا»، فقاموا معه، فأتى رجلًا من الأنصار فإذا هو ليس في بيته، فلما رأته المرأة، قالت: مرحبًا وأهلًا، فقال لها رسول الله ﷺ: «أين فلان؟» قالت: ذهب يَستعذِبُ لنا من الماء، إذ جاء الأنصاريُّ، فنظَرَ إلى رسولِ الله ﷺ وصاحبيه، ثم قال: الحمدُ لله ما أحدٌ اليومَ أكرمَ أضيافًا مني، قال: فانطَلَقَ، فجاءهم بعِذْق فيه بُسرٌ وتمرٌ ورُطَبٌ، فقال: كلوا من هذه، وأخذ المُدْية، فقال له رسول الله ﷺ: «إياك، والحلوب»، فذبَحَ لهم، فأكلوا من الشاةِ ومن ذلك العِذْق وشربوا، فلما

(١) التكاثر: ٨.

أن شبعوا ورووا، قال رسول الله ﷺ لأبي بكر، وعمر: «والذي نفسي بيده، لتُسألُنَّ عن هذا النعيم يومَ القيامة، أخرجَكم من بيوتِكم الجوع، ثم لم ترجعوا حتى أصابَكم هذا النعيمُ»[١].

ولكنْ يختلفُ السؤال، سؤالُ المؤمنِ سؤالُ تذكيرٍ بنعمةِ اللهِ عز وجل عليه حتى يَفْرَحَ، ويَعْلَمَ أنّ الذي أنعمَ عليه في الدنيا يُنعِمُ عليه في الآخرة، بمعنى أنه إذا تكرَّمَ بنعمتِهِ عليه في الدنيا تكرَّم عليه بنعمته في الآخرة، أما الكافرُ فإنه سؤالُ توبيخٍ وتنديمٍ.

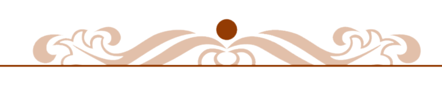
قال ابن القيم -رحمه الله- في خاتمة تفسيره لهذه السورة:

«فلله ما أعظمَها من سورةٍ وأَجَلَّها، وأعظمَها فائدة، وأبلَغَها موعظةً وتحذيرًا، وأشدَّها ترغيبًا في الآخرة، وتزهيدًا في الدنيا، على غايةِ اختصارِها، وجَزالةِ ألفاظِها، وحُسْنِ نظمِها، فتبارك من تَكَلَّم بها حقًّا، وبلَّغَها رسولُه عنه وحْيًا»[٢].

اللهم استعمِلْنا في طاعتِك، واجعلنا لنعَمِك من الشاكرين، وآلائِك من الذاكرين، واجعل ما رزقتنا عونًا لنا على طاعتك، واغفر اللهم لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.



(١) رواه مسلم (٢٠٣٨).
(٢) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين (ص: ١٩٤).



المجلس الخامس والعشرون

﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾

الحمد لله، والصلاة والسلام على عبدِهِ ورسولِهِ ومصطفاه، أما بعد:

فمِن القَصصِ العظيمةِ التي قصَّها اللهُ تعالى في كتابه، قصةُ سبأ، وبها سُمِّيتْ تلك السورةُ المكيةُ العظيمة، يقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾[١].

(١) سبأ: ١٥ – ٢١.



قال بعضُ العلماءِ عن سياقِ القرآنِ لهذه القصة: «لقد استوعَبَتْ تاريخَ أُمَّةٍ في سطور، وصوّرتْ لنا أطوارًا اجتماعيةً كاملةً في جُمَلٍ قليلةٍ أَبْدعَ تصوير، ووصفتْ لنا بعضَ خصائصِ الحضارةِ والبداوة في جُمَلٍ جامعة، لا أظنُّ غيرَ اللسانِ العربيِّ يتَّسعُ لحملِها: كقوله ﴿قُرًى ظَٰهِرَةً﴾، وكقوله: ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ﴾، وكقوله: ﴿بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾. حتى إذا وَصَلَ القارئُ إلى مصيرِ الأمةِ التي سمع ما هالَهُ مِن وصفِها، واجَهَهُ قولُه تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾! وأَدْرَكه الغَرَقُ في لُجَجِ البلاغةِ الزاخرة»[١].

أيها المؤمنون!

إنّ مملكةَ سبأٍ نموذجٌ يحكي كلَّ بلدٍ يُنعمُ اللهُ عليها، وتُجبى إليهِ ثمراتُ كلِّ شيء، بل بَلَغَ بهم الحالُ أنَّ أحدَهم لا يحتاجُ إذا أراد السفرَ أنْ يتزوّد، فالخيراتُ في طريقِه، وعن يمينِه وشمالِه، يقطِفُ منها ما يشاء، وامتنّ اللهُ عليهم بذلك فقال: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ﴾ والآيةُ هنا: ما أَدَرَّ اللهُ عليهم من النِّعم، وصَرَفَ عنهم من النِّقم، الذي يقتضي ذلك منهم أن يعبدوا الله ويشكروه. ثم فسّر اللهُ الآيةَ بقوله: ﴿جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ وكان لهم وادٍ عظيم، تأتيهِ سيولٌ كثيرة، وكانوا بَنَوا سَدًّا مُحْكمًا، يكونُ مَجْمعًا للماء، فكانت السيولُ تأتيه، فيجتمع هناك ماءٌ عظيم، فيُفَرِّقونه على بساتينهم، التي عن يمينِ

(١) تفسير ابن باديس (ص: ٣٩٨).

ذلك الوادي وشمالِه. وتغل لهم تلك الجنتان العظيمتان من الثمار ما يكفيهم، ويحصل لهم به الغِبطةُ والسرور، فأمرهم اللهُ بشُكْرِ نِعمِهِ التي أَدَرَّها عليهم من وجوهٍ كثيرة:

منها: هاتان الجنتان اللتان غالِبُ أقواتِهم منهما.

ومنها: أنَّ اللهَ جعلَ بلدَهم، بلدةً طيبة، لحُسْنِ هوائها، وقِلَّةِ وَخَمِها، وحصولِ الرزقِ الرَّغدِ فيها.

ومنها: أنّ اللهَ تعالى وعدَهم - إنْ شكروه - أنْ يَغْفِرَ لهم ويرحَمَهم، ولهذا قال: ﴿بَلۡدَةٞ طَيِّبَةٞ وَرَبٌّ غَفُورٞ﴾.

ومنها: أنّ اللهَ لما عَلِمَ احتياجَهم في تجارتِهم ومكاسبِهم إلى الأرضِ المباركة، هيّأ لهم من الأسبابِ ما به يتيسَّرُ وصولُهم إليها، بِغايةِ السهولة، من الأمن، وعدمِ الخوف، وتواصُلِ القرى بينهم وبينها، بحيث لا يكونُ عليهم مشقة، بحمْلِ الزادِ والمزاد، ولهذا قال: ﴿وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ ٱلۡقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا قُرٗى ظَٰهِرَةٗ وَقَدَّرۡنَا فِيهَا ٱلسَّيۡرَ﴾أي: سيرًا مقدَّرًا يعرفونه، ويحكُمون عليه، بحيث لا يتيهون عنه: ﴿لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾ أي: مطمئنين في السير، في تلك الليالي والأيام، غيرَ خائفين، وهذا من تمامِ نعمةِ اللهِ عليهم، أنْ أَمَّنَهم من الخوف.

فأعرضوا عن المُنعِم، وعن عبادتِه، وبطروا النعمة، ومَلُّوها، حتى إنهم طلبوا وتمنَّوا أنْ تتباعَدَ أسفارُهم بين تلك القرى، التي كان السير فيها متيسِّرًا،

﴿وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ بكفرِهم باللهِ وبنعمتِه، فعاقبَهم اللهُ تعالى بهذه النعمة، التي أطغتْهم، فأبادَها عليهم، فأرسَل عليها سيلَ العَرِم، أي: السيل المتوعِّر، الذي خَرَّبَ سَدَّهم، وأَتْلَف جَنّاتِهم، وخَرَّبَ بساتينَهم، فتبدَّلتْ تلك الجناتُ ذاتُ الحدائق المُعجِبة، والأشجار المثمِرة، وصار بَدَلها أشجارٌ لا نَفَعَ فيها، ولهذا قال: ﴿وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ﴾ أي: شيءٍ قليلٍ من الأكل الذي لا يقع منهم موقِعًا ﴿خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ وهذا كلُّه شجرٌ معروف، وهذا من جِنس عملِهم.

فلمّا أصابهم ما أصابهم، تفرَّقوا وتمزَّقوا، بعدما كانوا مجتمعين، وجعلَهم اللهُ أحاديثَ يُتحدَّث بهم، وأسمارًا للناس، وكان يُضرب بهم المثلُ فيقال: «تفرَّقوا أيدي سبأ»، ولكن لا ينتفعُ بالعِبرةِ فيهم إلا مَن قال الله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ صبّارٍ على المكارهِ والشدائد، يتحمَّلُها لوجهِ الله، ولا يتسخَّطها بل يصبِرُ عليها، شَكورٍ لنعمةِ اللهِ تعالى يُقِرُّ بها، ويعترف، ويُثني على مَن أولاها، ويصرفُها في طاعتِه. فهذا إذا سَمِع بقصتِهم، وما جَرَى منهم وعليهم، عَرَف بذلك أنَّ تلك العقوبة جزاءٌ لكفرِهم نعمةَ الله، وأنّ مَن فَعلَ مثلَهم، فُعِلَ به كما فُعِل بهم، وأنَّ شكرَ الله تعالى، حافظٌ للنعمة، دافعٌ للنقمة، وأنّ رُسُلَ الله صادقون فيما أَخْبروا به، وأن الجزاءَ حقٌّ، كما رأى أنموذجَه في دار الدنيا[1].

(١) انتهى ملخصًا من تفسير السعدي: ص (٦٧٧) وما بعدها.

أيها المؤمنون!

إنّ آفةَ الأكثرين مِن الناسِ أنهم يَحسَبون الغِنى دليلَ الرضوانِ الأعلى، ويحسبون أنّ المالَ إذا قَلّ عند آخرين فلأنهم ليسوا موضعَ القبول! ونَسُوا أنَّ الله يختبرُ بالعطاءِ والحرمان: بالبأساءِ والضراءِ حينًا، وبالنَّعْماءِ والسراءِ حينًا آخر، وأنّ النجاحَ في هذا الاختبارِ يجيءُ من موقِفِ المرءِ نفسه بإزاءِ ما يَلقى مِن أقدارِ الله: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾[1].

وقد سَقَطتْ مملكةُ «سبأ» في الامتحانِ عندما استهانت بنعمةِ الله وكفَرَتها: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾؟ ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾[2]؟

وعندما تزولُ النعمةُ تَذهبُ الوحدةُ والصحةُ والأَمَنَةُ، وتجيءُ أضدادُ هذه الأحوال، وأصحابُها لها أهل، وما نَزل بهم عدل؛ لأنهم: ﴿وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾، وأَبْرَزَتْ سورةُ سبأ أنَّ الساقطين في امتحانِ النعماءِ كثيرون، وأنَّ أُممًا بَطِرت معيشتَها، فكان أولُ ما فعلت: مخاصمةَ الوحي، ومعاداةَ الرسل، والزَّعمَ بأنَّ ما لديهم يكفي ويشفي! ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾[3]،

(١) الأنبياء: ٣٥.
(٢) إبراهيم: ٢٨.
(٣) سبأ: ٣٤ - ٣٥.

وإذا كان المالُ فتنةَ الأمم الأولى، فقد بقي فتنةَ الأممِ المعاصرة، وبَدَلَ أن يُحْسِنَ الواجدون التصرُّفَ فيما أُوتوا، طَغَوا على الفقراءِ والضعفاء، فنشأت مذاهبُ اجتماعيةٌ تَسْتأصلُ حقَّ التملك، ونَشِبت الحروبُ بين شتى الطبقات.

وعند التأمُّل، نجِدُ العراكَ على الحُطامِ الفاني، ونرى أنّ معالمَ الدينِ قد اخْتَفَت، وزادت الآفاقُ ظلمة، ونشأتْ فلسفاتٌ تَعبُدُ الحياةَ وتنسى الآخرة، ولا نجاةَ إلا بالعودةِ إلى الدينِ الحق: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾[1].

اللهم اجعلنا لنعمِك من الشاكرين، وأَعِذْنا يا ربَّنا من حالِ الكافرين لنعمِك، واغفر اللهم لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.



(١) ينظر: «نحو تفسير موضوعي» للغزالي: (٣٢٧) بتصرف يسير.





المجلس السادس والعشرون

الحياء كما تصوره قصّة موسى والمرأتين[١]

الحمد لله، والصلاة والسلام على عبده ورسوله ومصطفاه، أما بعد:

فثَمَّة خُلُقٌ عظيم، حثَّتْ عليه الشريعة الإسلامية، بل وصفه رسولنا ﷺ بأنه: «خير كله»، وكذلك وصفه بأنه: «لا يأتي إلا بخير»[٢] بل إنه من الإيمان[٣]، كما صح ذلك عنه ﷺ.. إنه خُلُق الحياء.

وسنقف اليوم متدبرين لما جاء عن هذا الخُلُقِ في قصة موسى عليه السلام مع المرأتين، قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾[٤].

هذه الآية واحدةٌ من مشاهد قصة موسى عليه السلام التي وردت في سورة القصص، وهو خبره عليه السلام مع فتاتين، هما ابنتا صاحب مدين،

(١) لفضيلة أ.د.ناصر بن سليمان العمر، رئيس مجلس إدارة الهيئة العالمية لتدبر القرآن.
(٢) صحيح مسلم عن عمران بن الحصين رضي الله عنه، رقم (٣٧) (١/ ٦٤).
(٣) متفق عليه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، البخاري (٢٤) (١/ ١٤)، ومسلم (٥٩) (١/ ٦٣).
(٤) القصص: ٢٣.

والقصةُ مجرياتها معروفة، لكنَّ فيها دروسًا وعِبَرًا قد يغفل كثير من الناس عنها، وجَديرٌ بنا أن نقف معها متدبِّرين، ناظرين في بعض دلالاتها.

وابتداءً: تأمّلْ ذلك الأدبَ الرَّفيع، والخُلُقَ الكريم من موسى عليه السلام ومن هاتين الفتاتين.

أمّا الفعلُ الذي صدر من موسى عليه السلام فإنه يكشف عن شخصية إيجابية، تتسم بالنُّبل والخلق الكريم، وأما الفتاتان فلا يخفى ما في موقفهما من الحياء والحشمة، والبُعْد عن مخالطة الرِّجال وإن كان ثمنُه عملًا شاقًا، يكلفهما وقوفًا طويلًا، مع جهد في ذود الأنعام حتى لا تختلط بغيرها، فكان هذا مثار السؤال: ﴿مَا خَطْبُكُمَا﴾؟

إنّ الشخصية الإيجابية تَكْترث لِمَا يدور في واقعها من الأحداث، ولمّا كان موسى عليه السلام كذلك، ولاحظَ مِن دون أُمَّةِ الناسِ ما لاحظ، ﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾، أي: تدفعانِ «غنمَهما عن حياض النَّاس، لعجزِهما عن مزاحمة الرِّجال وبخلهم، وعدمِ مروءتهم عن السَّقي لهما»[1]. فقال لهما عليه السلام: ﴿مَا خَطْبُكُمَا﴾؟ وفي كلِّ هذه القصة لم يخاطبهما موسى عليه السلام إلا هذه الكلمة فقط.

(١) تفسير السَّعدي: ص ٦١٤.

﴿قَالَتَا لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُ﴾ والأشبه أنَّ الناطقة واحدة، ولكن لمّا كانت الثانية مُقِرَّةٌ راضيةٌ نَسَبَ القولَ لهما فقال: ﴿قَالَتَا﴾، وقولها: ﴿لَا نَسۡقِي﴾ تعبير بالمضارع لا وصف للماضي، يُشعر بأنّ هذا ديدنهما، فلم نَسقِ كما رأيتَ، وهذا حالنا دائمًا وأبدًا هكذا: ﴿حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُ﴾، وهذه هي علّة البُعد والانزواء: وجودُ الرعاء، وهذا شأن العفيفة الطيبة، تصبر على الجهد واللأواء، ولا تختلط بالرجال.

فحَرِيٌّ بالأخوات والبنات أن ينظُرْنَ في هذا الأدب، ويتأمَّلْنَ بَعْده ما يحدث الآن في الأسواق، بل ماذا يحدث في العُمرة، وعند المطاف من المزاحمة!

وقد رُوي عن عطاء رضي الله عنه قوله عن نساء النبيّ -ﷺ-: «لَمْ يَكُنَّ يُخَالِطْنَ، كَانَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها تَطُوفُ حَجْرَةً مِنْ الرِّجَالِ، لَا تُخَالِطُهُمْ فَقَالَتْ امْرَأَةٌ: انْطَلِقِي نَسْتَلِمْ يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ، قَالَتْ: عَنْكِ، وَأَبَتْ»[1].

فكانت النساء في عهد النبي -ﷺ- يطُفْنَ بعيدًا عن الرِّجال، ودون اختلاط كما في واقعنا اليوم.

وبعضُ الناس اليومَ يجادل، فيحتجّ بواقع الناس على جواز اختلاط النساء بالرجال، وكأنَّ واقع النَّاس مِنهاجٌ شرعيٌّ!

(١) صحيح البخاري (١٦١٨).



ولْنَعُدْ إلى قول الفتاتين: ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ ففيه بيانُ ما قد يُستغرب من خروج مثلهما، فكأنهما قالتا: لا تستغربْ خروجَنا، فسببُه أنه ليس عندنا أحدٌ يخرج بالغنم سوانا، فأبونا شيخ كبير.

وقد اختصرتا الجواب الذي يشعر بما وراءه، فذِكْرُ الأبِ وحده يُبيِّن أنه ليس لهما إخوانٌ ذكور، وإلا فلمْ يكن لائقًا أن تخرُج البنات، ولذلك لمّا توسّموا في موسى عليه السلام القوّة والأمانة استأجرَهُ والدُ الفتاتين.

فلْتَعتبرْ بهذا بعضُ من يُكْثِرْن الخروج إلى الأسواق اليوم، مع وجود من يَكفيهنّ مؤونة ذلك.

أيها المؤمنون!

إنّ الاقتضابَ في هذا الحوار، سواءٌ أكان من موسى أم من المرأتين، عجيبٌ وله دلالاتٌ مهمة، تصبُّ في نأي الأفاضل عن فضول الكلام بين الجنسين، ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ﴾(١) فهل سمعتم أنَّ الفتاتين قالتا له: شكرًا؟ أو جزاكَ الله خيرًا؟

إنَّ الكلماتِ الرَّقيقة ربما تُحدِث في النفوس شيئًا، والله عزّ وجلّ يقول في سورة الأحزاب: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ﴾(٢).

(١) القصص: ٢٤.
(٢) الأحزاب: ٣٢.



لقد قام موسى عليه السلام بالعمل الذي رآه ضروريًا، ثمّ ابتعد، لم يدفعه الفضول إلى أكثر من ذلك!

﴿فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ﴾[1] وفي هذا الشأن لم تخرج المرأتان كما خرجتا أول مرّة للسقي، بل قال الله تعالى: ﴿فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا﴾، وذلك لأنّ رعيَ الغنم كان يحتاجُ إليهما معًا، أمّا هنا فالأمر لا يستلزم حضورهما معًا، إنّما هو دعوة.

ولْنتدبَّرْ قوله تعالى: ﴿تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ﴾ لم يقل: على حياء؛ ذلك أنّ إضافة (الهمزة والسين والتاء) يدلُّ على قوة الحياء.

وكانت النساء في عصر النّبيِّ ﷺ إذا خرجت المرأة من المسجد تلصق بالجدار إذا مرَّ الرِّجال، كما صحَّ في سنن أبي داود عن أسيد الأنصاري « أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ -ﷺ- يَقُولُ وَهُوَ خَارِجٌ مِنَ الْمَسْجِدِ فَاخْتَلَطَ الرِّجَالُ مَعَ النِّسَاءِ فِي الطَّرِيقِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِلنِّسَاءِ: «اسْتَأْخِرْنَ، فَإِنَّهُ لَيْسَ لَكُنَّ أَنْ تَحْقُقْنَ الطَّرِيقَ، عَلَيْكُنَّ بِحَافَاتِ الطَّرِيقِ»، فَكَانَتِ الْمَرْأَةُ تَلْتَصِقُ بِالْجِدَارِ حَتَّى إِنَّ ثَوْبَهَا لَيَتَعَلَّقُ بِالْجِدَارِ مِنْ لُصُوقِهَا بِهِ[2]، أمّا اليوم فقد أصبح بعض الرجال هو الذي يلتصق بالجدار.

(١) القصص: ٢٥.
(٢) سنن أبي داود (٥٢٧٤)، وحسنه الألباني، انظر: الصحيحة (٨٥٦).

﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ لم تدْعُه أصالةً عن نفسها، وإنما نسبت الأمر إلى أبيها.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وتأمَّلوا: مع الفتاتين قال موسى عليه السلام عبارةً واحدةً مقتضبة: ﴿مَا خَطْبُكُمَا﴾، أمّا مع الأب فقد قصّ عليه القصص وتوسَّع في الحديث.

نعم، لك أن تتبسّط في الحديث مع الرجال، أما مع النساء، فمنهج القرآن هو الاقتصاد، مع مراعاة طريقة الكلام التي تبتعد عن الخضوع، والتكسُّر! وعلى الأخوات كذلك أن يقتصدْنَ ويقتصِرْنَ على ما هو ضروريٌّ.

ثم قال تعالى: ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ﴾[1]، ويبدو أنّها استندتْ في ذلك على أنّ خروجَهما للسَّقي والرَّعي، لا يليق بهما كفتاتين، فاستجاب والدُها؛ لأنه يُريد أن يُحصِّن ابنته، ثمّ خاطب موسى عليه السلام: ﴿قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ﴾[2].

(١) القصص: ٢٦.
(٢) القصص: ٢٧.



ولا يبعد أن يكون من مقصد والدهما من هذه الأُجرة بالزواج أن يكون الراعي للغنم من أهل البيت، لأنّه عند زواجه بالبنت ستصير أمُّها محرمًا له؛ وسيكون من أهل البيت بالجملة.

أما قوله: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ﴾ فهذه هي شروط الولاية: القوة والأمانة، وكما في سورة يوسف: ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾[1].

وهذا متكرر ومطَّرد في القرآن، فلا يُولَّى إلا القويُّ الأمين.

وأخيرًا، وقفةٌ لابد منها تتعلق بتيسير المهر، يقول الشيخ الكبير: ﴿إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَـٰتَيْنِ﴾ على ماذا؟ ﴿عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَـٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ﴾[2].

عجبًا! هل رأيتم من يُزوِّج ابنتَه بالأقساط الميسَّرة، وبدون دفعة أولى؟ هذا ما لا نعرفه في يومنا هذا إلاّ على طريقة من يؤخِّرون الصداق كلَّه تحسُّبًا للإلزام بالإبقاء على العقد كُرْهًا، فهنيئًا لهذا الشيخ الكبير، وهنيئًا لهذه البنت، فقد ظفرت بتوفيق الله ثم حكمة أبيها وعقله بنبيِّ الله موسى عليه السلام.

(١) يوسف: ٥٥.
(٢) القصص: ٢٧.

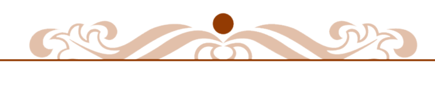
إنها قصةٌ فيها دررٌ عجيبة، ووقفاتٌ تدبّرية في محراب الفضيلة والعفاف، بعيدًا عن سَعَار الاختلاط الذي تورّط فيه بعض الناس مع كل أسف، فارجعوا إلى القصَّة وتدبَّروها، فإنها حافلةٌ بالمعاني والدِّلالات[1].

اللهم اهدنا لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عنا سيئها، لا يصرف عنا سيئها إلا أنت، واغفر اللهم لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.



(١) أفدت في هذه المعاني والدّلالات ممّا كتبه واستنبطه بعضُ طلاب العلم، كالشيخ عقيل الشّمري، والشيخ ناصر الحمين، وغيرهما، جزاهم ربّي خيرًا.





المجلس السابع والعشرون

﴿هَٰرُونَ أَخِي﴾[1]

الحمدُ لله، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ؛ نبيِّنا محمدٍ وعلى آلِهِ وصحبِهِ ومَن والاه، أما بعد:

فقد قال الله -عز وجل- في سورةِ (طه) عن موسى -عليه السلام-: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا﴾[2].

والحديثُ ههنا حولَ قولِه -تعالى-: ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي﴾.

أي: مُعِينًا يُعاونني، ويؤازِرُني، وسَألَ موسى ربَّه أنْ يكونَ ذلك الوزيرُ مِن أهلِه؛ لأنه مِن بابِ البرِّ، وأَحقُّ الناسِ ببرِّ الإنسانِ قرابتُه، ثم عَيَّنه بسؤالِه، فقال: ﴿هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي﴾ أي: قَوِّني وشُدَّ ظَهرِي به.

(١) للدكتور محمد بن إبراهيم الحمد، عضو هيئة التدريس في جامعة القصيم.
(٢) طه: ٢٥ - ٣٥.



﴿وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى﴾ أي: في النبوة، بأنْ تجعلَه نبيًا رسولًا كما جعلتني، فأجابَ اللهُ دعاءَه، وقال: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾[1]، وقال في آية أخرى: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾[2].

ففي هذه الآيةِ إحسانٌ مِن موسى لأَخيهِ هارون -عليهما السلام-، ورغبةٌ منه أنْ يَشترِكَ معه أَخوه في تبليغِ الدعوة، والتعاونِ على البر والتقوى.

ولا ريبَ أنَّ الاشتراكَ بالخيرِ مِن أعظمِ أسبابِ مُضاعفةِ الثواب، ونيلِ المراد؛ لما في ذلك من القوة، وشَدِّ الأَزْر.

وهذا ما حصل لموسى -عليه السلام-؛ ولهذا قيل: إنّ هذه أَعظمُ شفاعةٍ في تاريخِ البشر؛ فهذا هو معنى الآية.

وكما أنَّ هذا هو معنى الآية؛ فهي -كذلك- تُشيرُ إلى ما ينبغي أنْ تكونَ عليه العلاقةُ بين الإخوةِ؛ من المحبة، والتآزر، والتعاون.

ولهذا سُئِلَ حكيمٌ: أيُّهما أحبُّ إليك: أخوك أو صديقُك؟ فقال: «أخي إذا كان صديقي».

فهذه الإجابةُ الحكيمةُ تُشيرُ إلى أنه ينبغي أنْ يكونَ الأخُ صديقًا لأَخيه، دونَ أنْ يكتفيَ بِرابطةِ الأُخوّة؛ وإنْ كانت مِن أعظمِ الروابط.

(١) طه: ٣٦.
(٢) القصص: ٣٥.



والمتأملُ في أحوالِ الناس، وما يُكتبُ في العلاقات عمومًا؛ يَلحظُ فتورًا في علاقاتِ الإِخْوَةِ فيما بينهم، وقِلّةً في الكتابات التي تتعرضُ لهذا النوعِ من العلاقات.

فالإِخْوَة -في كثيرٍ مِن الأحيان- يَميلونَ إلى طابَعِ الرَّسميةِ في علاقاتِهم، ورُبما مالوا إلى جانبِ النِّدِّية، وربما كان بعضُهم يَحْقِرُ بعضًا، ولا يقضيه حقَّ الاحترام والتقدير؛ فيَخسَرُ الإِخْوَةُ خسارةً فادحة؛ إذ يَفُوْتهم الأجرُ والتآزُرُ، والتعاونُ على مَرافِقِ الحياة.

ويَفوتهم -أيضًا- جوانبُ كثيرةٌ من السعادةِ والصداقةِ؛ المؤسسةِ على الثقةِ والرابطةِ القوية.

ويُعرِّضون أُسَرَهُمْ، ووالديهم، وأولادَهم؛ لِنكساتٍ وعداواتٍ؛ ربما أَكَلَت الأخضرَ واليابس.

والذي ينبغي في العلاقاتِ بين الإِخوَةِ: أنْ تقومَ على الإيثار، والمحبة، والصفاء، وتَدبُّرِ العواقِب، و تَقديرِ الصغيرِ للكبير، ورحمةِ الكبيرِ بالصغير، وإنزالِ ذي المنزلةِ مكانَهُ اللائق به، وتشجيعِ المتباطئ والمتكاسل؛ حتى ينهضَ بنفسه، وأنْ يُكَمِّلَ بعضُهم بعضًا؛ حتى يُسعدوا أنفسَهم، وأُسرَهم، وألّا يجعلوا لِقائلٍ فيهم مقالًا.

وإذا قُدِّرَ للإنسانِ أنْ يكونَ ذا شُهْرةٍ، أو علمٍ، أو جاه، أو مال، أو نحو ذلك؛ فيَحْسُنُ به ألا يَنسى نصيبَ إخوانِه منه، وألا يَتطاولَ عليهم.

كما ينبغي لمن كان لهم أخٌ قد نَالَ ما نَالَ مما ذُكِر: أن يُعينوه على نفسه، وألا يَقفِوا أمامَ طموحاتِه، وأنْ يحمِلوا عنه ما يجبُ عليه من نحوِ برِّ الوالدين، وما جرى مجرى ذلك، فيكونوا بذلك شركاءَ له في الأجرِ والنجاح.

ومما يُعين على شيوعِ روحِ الصفاء بين الإِخوة: أن يُبادِروا إلى قسمةِ الميراث؛ لكي يظفرَ كلُّ طرفٍ بنصيبِه، ولِيقطعوا دابرَ الفتنةِ، وسوءَ الظن.

ومما يُصفِّي الودَّ بين الإخوة: أن يَحرِصوا على الوِئامِ والاتفاقِ حالَ الشراكة؛ فإذا كان بينهم شراكةٌ في نحوِ تجارةٍ أو غيرِها، فلْيَحرِصوا على ذلك، وعلى أنْ تَسودَ بينهم روحُ الإِيثارِ والمودَّة، والشورى، والرحمة، والصدق، والأمانة، وحسن الظن.

وأنْ يُحِبَّ كلُّ واحدٍ منهم لأخيه ما يحبُّه لنفسِه، وأنْ يَعرِفَ كلُّ طَرَفٍ ما له وما عليه.

كما يحسُنُ بهم أنْ يناقشوا المشكلاتِ بمُنتهى الصراحةِ، والوُضوح، وأنْ يحرِصوا على التفاني والإخلاصِ في العمل.

كما يجمُلُ بهم أنْ يَكتُبُوا ما يتَّفِقون عليه إذا كان الأمرُ يَستدعي ذلك.

فإذا ساروا على تلك الطريقةِ حَلَّتْ فيهم الرحمة، وسَادَتْ بينهم المودة، ونزلتْ عليهم بركاتُ الشركة.

ومن الأمورِ التي تُبقِي على المودةِ بين الإِخوة: لزومُ التواضعِ، ولينُ الجانِب، والتغاضي، والتغافُلُ، والصفحُ، ونسيانُ المعايبِ، وتركُ المِنَّة على الإِخوة، والبُعدُ عن مطالبتِهم بالمِثْل، وتَوطِينُ النفسِ على الرضا بالقليلِ مما يأتي منهم، ومراعاةُ أحوالهم، وطبائعِهم، وتجنبُ الشدَّةِ في العتابِ حالَ وقوعِ الخطأ، وتجنُّبُ الخصام، والجِدالُ العقيم، والمبادرةُ بالهديةِ والزيارةِ إن حَصَلَ خِلاف.

ومن ذلك أنْ يَستحضِرَ المرءُ أنّ إِخوانَه لُحْمَةٌ منه؛ فلا بُدَّ له منهم، ولا فِكاكَ له عنهم.

ومن ذلك أنْ يَستحضِرَ المرءُ أنّ معاداةَ الإِخوةِ شرٌّ وبلاءٌ؛ فالرابحُ فيها خاسرٌ، والمنتصرُ مهزومٌ.

ومن ذلك أن يُربيَ الإِخوةُ أولادَهم على احترامِ أعمامِهم، وتوقيرِهم.

هذا وقد أرانا العَيانُ نماذجَ رائعةً، ومُثُلًا عُلْيا من صداقاتِ الإِخوة، وقيامِهم بالحقوقِ ما جَعلَهم مَضرِبَ مَثَل، ومَوضِعَ أُسْوة.

وبعد، فهذه إلماحاتٌ وإشاراتٌ مِن قوله -تعالى-: ﴿هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى﴾.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد.





المجلس الثامن والعشرون

﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾[1]

الحمد لله، والصلاة والسلام على عبدِهِ ورسولِهِ ومصطفاه، أما بعد:

فلا يكادُ يَمُرُّ على المسلمِ يومٌ أو أقل، إلا ويأتيهِ خبرٌ أنّ فلانًا قال وقال، أو أنّ شيئًا حَدَث، أو أنّ أمرًا حصل؛ وذلك لكثرةِ وسائلِ الاتصالِ في هذا العصر، ولتعدُّدِ وسائلِ الأخبارِ ونقلِ المعلومات.

والمسلمُ مُطالَبٌ أنْ يلتزمَ بحدودِ الشرعِ في هذا الموضوعِ وغيرِه، والذي رسمَهُ القرآنُ بذلك التوجيهِ الربانيِّ العظيم، فقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَـٰلَةٖ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ﴾[2].

هذه الآيةُ القرآنيةُ الكريمةُ جاءتْ ضِمنَ سياقِ الآدابِ العظيمةِ التي أدَّبَ اللهُ بها عبادَه في سورةِ الحجرات.

(١) للدكتور عمر بن عبدالله المقبل، نائب رئيس مجلس إدارة الهيئة العالمية لتدبر القرآن، والأستاذ المشارك في جامعة القصيم.
(٢) الحجرات: ٦.



وهذه الآيةُ ـ أيها المؤمنون ـ نَزَلتْ لأنّ رسولَ الله ﷺ اتفق مع سيّدِ بني المصطلِق -الحارث بن أبي ضرار- بأنْ يُرسِلَ له من يأخذُ زكاةَ بني المصطلق، ولمّا حانَ وقتُ الزكاةِ أرسلَ رسولُ اللهِ ﷺ الوليدَ بنَ عقبة إلى بني المصطلق ليأتي بزكواتهم، فلما وصل الوليدُ إلى مُنتصفِ الطريق خافَ على نفسه القتل، فرجعَ إلى رسولِ اللهِ ﷺ فقال يا رسول الله: إنّ الحارثَ منعني الزكاةَ وأرادَ قتلي!

فغضِبَ رسولُ الله ﷺ وبَعَثَ بَعْثًا إلى الحارثِ سيدِ بني المصطلق، والحارثُ لا يعلمُ بشيءٍ مما حَدَثَ، ولكنه لمّا شَعر أنّ رسولَ اللهِ لم يُرسِلْ له أحدًا تَحَرّكَ إلى رسولِ الله، فالتقى الحارثُ بالبعثِ الذي بعثَه الرسولُ ﷺ إليه! فقالوا له: أتاك الوليدُ فمنعتَه الزكاةَ وأردتَ قتلَه! فقال الحارث: لا والذي بعثَ محمدًا بالحقِّ ما رأيتُه ولا أَتَاني!! ثم انطلق الحارثُ إلى رسولِ الله ﷺ فقال له رسولُ الله: منعْتَ الزكاةَ وأردتَ قتْلَ رسولي؟ فقال الحارث: لا والذي بعثك بالحق ما رأيتُه ولا أتاني! وما جئتُك إلا حينما تأخَّرَ رسولُك إليّ، فخشيتُ أنْ تكونَ سخطة من اللهِ ورسولِه علينا، فنزلتْ آيةُ الحجرات: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾[1].

(١) رواه الإمام أحمد (١٨٤٥٩) بسند لا بأس به، وقال ابن عبد البر (الاستيعاب) عند ترجمة الوليد بن عقبة: ولا خلاف بين أهل العلم بتأويل القرآن -فيما علمت- أن قوله عز وجل: ﴿إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ﴾ نزلت في الوليد بن عقبة وذلك أنه بعثه رسول الله.

ولْنَعُد إلى شيءٍ من دلالاتِ هذه الآيةِ القرآنيةِ، والتي يجدُرُ بنا أنْ نقفَ معها:

الدلالة الأولى: أنّ خَبَرَ العدلِ مقبولٌ غيرُ مردود، اللهمّ إلا إنْ لاحتْ قرائنُ تدلُّ على وهمِهِ وعدمِ ضبطِه فإنه يُرَدّ.

الدلالة الثانية: «أنه سبحانه لم يأمُرْ بردِّ خبرِ الفاسقِ وتكذيبِه وردِّ شهادتِه جملةً، وإنما أمر بالتبيُّن، فإنْ قامتْ قرائنُ وأدلةٌ من خارجٍ تدلُّ على صدقه عَمِلَ بدليلِ الصدق، ولو أَخْبَرَ به من أخبر»[١].

الدلالة الثالثة: أنها تضمّنتْ ذمَّ التَّسرُّعِ في إذاعةِ الأخبارِ التي يُخشى من إذاعتِها، ولقد عابَ ربُّنا تبارك وتعالى هذا الصنفَ من الناس، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ﴾[٣].[٤].

الدلالة الرابعة: أنّ في تعليلِ هذا الأدبِ بقوله: ﴿أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾ ما يُوحي بخُطُورةِ التعجُّلِ في تلقّي الأخبارِ عن كلِّ أحدٍ، خصوصًا إذا ترتَّبَ على تصديقِ الخبرِ طعنٌ في أحد، أو بهتٌ له.

(١) مدارج السالكين: (١/ ٣٦٠).
(٢) النساء: ٨٣.
(٣) يونس: ٣٩.
(٤) ينظر: القواعد الحسان في تفسير القرآن(٩٨).

وهنا مثالٌ قد يواجِهُنا يوميًا: فقد يرى أحدُنا شخصًا دخلَ بيتَه والناسُ متجهون إلى المساجِدِ لأداءِ صلاتهم، فلو قيل: إنّ فلانًا دخلَ بيتَه والصلاةُ قد أُقيمت، لكان ذلك القولُ صوابًا، لكن هل تَبيَّن سببُ ذلك؟ وما يدريه؟! فقد يكونُ الرجلُ لتوِّه قدِمَ من سَفَرٍ، فهو قد جَمَعَ الصلاتين جَمْعَ تقديم، فلمْ تجبْ عليه الصلاةُ أصلًا، أو لغيرِ ذلك من الأعذار!

وهذا مثالٌ آخرُ قد يواجِهُنا في شهرِ رمضانَ مثلًا: قد يرى أحدُنا شخصًا يشربُ في نهارِ رمضانَ ماءً أو عصيرًا، أو يأكلُ طعامًا في النهار، فلو نَقَلَ ناقلٌ أنه رأى فلانًا من الناسِ يأكلُ أو يشربُ لكان صادقًا، ولكن هل تبيَّن حقيقةَ الأمر؟ قد يكونُ الرجلُ مسافرًا وأفطرَ أوَّلَ النهارِ فاستمرّ في فِطرِهِ – على قولِ طائفةٍ من أهلِ العلمِ في إباحةِ ذلك – وقد يكونُ مريضًا، وقد يكونُ ناسيًا،... إلى آخرِ تلك الأعذار.

إذا تبيّنَ هذا المعنى، فإنّ من المؤسفِ أن يَجِدَ المسلمُ خَرْقًا واضحًا من قِبَل كثيرٍ من المسلمين لهذه الآيةِ القرآنيةِ المحكمة: ﴿إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾، وازدادَ الأمرُ واتّسَع مع وسائلِ الاتصالِ المعاصرةِ؛ كأجهزةِ الجوالِ والإنترنت، ووسائلِ التواصلِ الاجتماعي، وغيرِها من الوسائل!

وأعظمُ مَن يُكذَبُ عليه من الناسِ في هذه الوسائلِ هو رسولُ الله ﷺ، فكم نُسِبتْ إليه أحاديثُ وقصصٌ لا تصحُّ عنه! بل بعضُها كَذِبٌ عليه، لا يَصِحُّ أن يُنسبَ لآحادِ الناسِ؛ فضلًا عن شخصِهِ الشريفِ ﷺ!

ويلي هذا الأمرَ في الخطورةِ: التّسرُّعُ في النَّقلِ عن العلماء، خصوصًا العلماء الذين يَنتظرُ الناسُ كلمتَهم، ويتتبَّعون أقوالهم، وكلُّ هذا محرّم لا يجوز، وإذا كنّا أُمرْنا في هذه الآية القرآنية: ﴿إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ أن نتحرَّى ونتثبَّتْ من الأخبارِ عمومًا؛ فإنها في حقِّ النبي ﷺ وحقِّ ورثتِه أشدُّ وأشد.

ومثل ذلك يقال: في النَّقل عمّا يصدُرُ عن خواصِّ المسلمين، ممن يكونُ نقلُ الكلامِ عنهم له أثرُه، فالواجبُ التثبُّتُ والتبيُّن، قبل أنْ يندمَ الإنسانُ حين لا ينفعُ الندم.

ولا يَقتصِرُ تطبيقُ هذه الآية القرآنية: ﴿إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ على ما سبق ذكرُه، بل هي قاعدةٌ يحتاجُها الزوجان، والآباءُ مع أبنائهم، والأبناءُ مع آبائهم.

ولله كمْ مِن بيتٍ تَقوّضتْ أركانُهُ بسببِ الإخلالِ بهذِهِ الآيةِ القرآنية!

قد تَصِلُ رسالةٌ إلى جوّالِ أحدِ الزوجين، فإنْ كانتْ مِن نصيبِ جوالِ الزوجة، واطّلع الزوجُ عليها، سارَعَ إلى الطلاقِ قبلَ أنْ يتثبَّتَ مِن حقيقةِ هذهِ الرسالة، التي قد تكونُ رسالةً طائشةً، جاءتْ من مُغرِض أو مِن سفيهٍ، أو قد تكونُ جاءتْ على سبيلِ الخطأ!

وقُلْ مِثلَ ذلك: في حقِّ رسالةٍ طائشةٍ -جادة أو هازلة- تَصِلُ إلى جوالِ الزوج، فتكتشِفُها الزوجة، فتتّهِم زوجَها بخيانةٍ أو غيرِها، فتُبادِر إلى طَلَبِ الطلاقِ قَبلَ أنْ تتثبَّتَ مِن حقيقةِ الحال!

ولو أنّ الزوجين أَعْملا هذه الآيةَ القرآنية: ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ لما حَصَل هذا كلُّه.

وإذا انتقلْتَ إلى مَيدانِ الصحافةِ أو غيرِها من المنابرِ الإعلامية؛ وجدتَ عجبًا من خَرْقِ سياجِ هذا الأدب.. فكمْ مِن تحقيقاتٍ صحفيةٍ بُنيتْ على خبرٍ إما أصلُه كذبٌ، أو ضُخّمَ وفُخّمَ حتى صُوّرَ للقراء على أنّ الأمرَ بتلك الضخامةِ والهول، وليس الأمرُ كما قيل!

والواجبُ على كلِّ مؤمنٍ مُعظّمٍ لكلامِ ربِّه أنْ يتقيَ ربَّه، وأن يتمثل هذا الأدبَ القرآنيَّ الذي أرشدت إليه هذه الآيةُ القرآنيةُ الكريمة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾.

جعلنا الله وإياكم من المتأدِّبين بأَدَبِ القرآنِ، العاملين به.

اللهم اغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين، وصلى الله وسلم على رسولنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.





المجلس التاسع والعشرون

﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾[1]

الحمدُ لله، والصلاةُ والسلامُ على عبدِه ورسولِهِ ومصطفاه، أما بعد:

فيقولُ اللهُ تبارك وتعالى: ﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾.

هذه الآيةُ العظيمةُ تُعدُّ بَلْسَمًا لكثيرٍ مِن الأَدواءِ التي يُبتلى بها كثيرٌ مِن العُقلاء؛ حيثُ يُبتلَون بِمَن لا خلاقَ لهم مِن السفهاءِ الذين يُثيرونَ حولهم الغُبار، ويُسيؤون إليهم بالكلامِ البذيءِ المؤذي.

ويَكثرُ ذلك في بعضِ الدوائرِ التي تَضُمُّ خليطًا مِن الناس، كما يَشيعُ في مجتمعاتِ الطلابِ والمعلِّمين.

وخَيرُ علاجٍ لتلك الإساءاتِ هو الإعراضُ عن الجاهلين؛ فمَن أَعْرَضَ عنهم حَمَى عِرْضَه، وأَرَاحَ نفسَه، وسَلِم مِن سَماعِ ما يؤذيه.

قال -عز وجل-: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾[2]

(١) للدكتور محمد بن إبراهيم الحمد، عضو هيئة التدريس في جامعة القصيم.
(٢) الأعراف: ١٩٩.



فبالإعراضِ عن الجاهلين يَحفَظُ الرَّجُلُ على نفسِه عِزَّتَها، إذ يَرفَعُها عن الطائِفةِ التي تَلذُّ المهاترةَ والإقذاع، قال بعض الشعراء:

إني لأُعرِضُ عن أشياءَ أسمَعُها ... حتى يقولَ رجالٌ إنَّ بي حَمَقا

أَخشى جَوابَ سفيهٍ لا حياءَ له ... فَسْلٍ وظَنَّ أُناسٌ أنه صَدَقا

وقال أبو العتاهية:

والصَّمْتُ للمرءِ الحليمِ وِقايةٌ ... يَنفي بها عن عِرْضِه ما يَكْرَهُ

فَكِلِ السفيهَ إلى السفاهةِ وانتصِفْ ... بالحلمِ أو بالصمتِ ممن يَسْفَهُ

والعَرَبُ تقول: «إنَّ مِن ابتغاءِ الخيرِ اتقاءَ الشر».

ورُوي أنَّ رجلًا نَالَ مِن عمرَ بنِ عبدِ العزيز -رضي الله عنه- فلم يُجِبْه، فقِيل له: ما يَمنعُك منه؟.... قال: التَّقيُّ مُلْجَمٌ.

هذا وإنَّ مِن أعظمِ ما يُعِينُ على الإعراضِ عن الجاهلين -زيادة على ما مضى- ما يلي:

أولًا: التَّرَفُّعُ عن السِّباب؛ فذلك مِن شَرَفِ النَّفْس، وعلوِّ الهمة، كما قالت الحكماء: «شَرَفُ النَّفسِ أنْ تَحْمِلَ المكارِهَ كما تحمِلُ المكارِم».

قال الأصمعي: «بَلَغَني أنّ رَجُلًا قال لآخَرَ: واللهِ لَئِن قُلتَ واحدةً لَتَسْمَعَنَّ عشرًا. فقال الآخرُ: لكنَّك إنْ قلتَ عشرًا لم تَسمعْ واحدة».

وشَتَمَ رجُلٌ الحسنَ، وأَربى عليه، فقال له الحسنُ: «أَمّا أنت فما أَبقَيتَ شيئًا، وما يَعلمُ اللهُ أكثر».

ثانيًا: استحضارُ كونِ الإساءة دليلًا على رفعةِ شأنِ المُساءِ إليه، وشَرَفِه؛ فذلك مما يُهوِّنُ ما يَلقى من سبٍّ وتجريحٍ.

.... وما زالت الأشرافُ تُهجَى وتُمدَحُ

قال الإمام الشافعي -رحمه الله-:

إذا سَبَّني نذلٌ تزايدتُ رفعةً وما العيبُ إلا أنْ أكونَ مُسابِبُه
ولو لم تكنْ نفسي عَليَّ عزيزةً لَمَكَّنْتُها مِن كلِّ نذلٍ تحاربُه

ثالثًا: الاستهانةُ بالمسيء؛ فذلك من ضُروبِ العِزَّةِ والأَنَفَة، ومِن مُستحسَنِ الكِبْرِ والإعجاب، ومِن ذلك قولُ بعضِ الزعماءِ في شِعرِه:

أَوَ كلما طَنَّ الذبابُ طَرَدْتُه إنَّ الذبابَ إذًا عَلّي كريمُ

وأَكْثَرَ رجلٌ مِنْ سَبِّ الأحنفِ وهو لا يجيبه، فقال السَّابُّ: واللهِ ما مَنَعَ الأحنفَ من جوابي إلا هواني عليه.

وفي مثله يقولُ الشاعر:

نَجا بِكَ لُؤْمُكَ مَنْجَى الذبابِ حَمَتْهُ مقاذِيرُه أنْ يُنالا

وشَتَمَ رَجلٌ الأحنفَ، وجَعَلَ يَتبعُه حتى بَلَغَ حَيَّه، فقال الأحنفُ: يا هذا إنْ كان بَقِيَ في نفسِك شيءٌ؛ فهاتِه وانْصَرِفْ؛ لا يَسْمَعْكَ بعضُ سفهائِنا، فَتَلْقَى ما تكرَه.

وأَسمَعَ رَجلٌ ابنَ هُبَيرةَ فأَعرَضَ عنه، فقال: إياكَ أَعْني، فقال له: وعَنك أُعْرِض.

رابعًا: أنْ يَستحضرَ أنّ مجاراةَ السفهاءِ شرٌّ وبلاء، فهناك مَن إذا ابتُلي بسفيهٍ ساقط -لا خلاقَ له، ولا مروءة فيه- أَخذَ يُجاريهِ في سَفهِهِ وقيلِه وقالِه، مما يجعلُه عُرضةً لِسماعِ ما لا يُرضيه؛ مِن ساقطِ القولِ ومرذولِه، فيُصبِحُ بذلك مُساويًا للسفيه؛ إذ نَزَلَ إليه، وانحطَّ إلى رتبتِه.

إذا جَـارَيـتَ في خُـلُـقٍ دنيئًا فـأنـت ومَـن تُجـاريـهِ سـواءُ

قال الأحنفُ بن قيس: «مَن لم يَصبِرْ على كلمةٍ سَمِعَ كلمات، وَرُبَّ غيظٍ تَجَرَّعتُهُ مَخافةَ ما هو أشدُّ منه».

خامسًا: أن يَستحضِرَ الإنسانُ أنه بالإعراضِ عن الجاهلين يُكرِمُ نفسَه بذلك، ويُكرِمُ قرابةَ السفيهِ الأبرياءِ الأعزاء؛ لأنهم لا ذنبَ لهم، ولهذا قيل: «لِأَجْلِ عينٍ تُكْرَمُ أَلْفُ عين».

وقد يَظُنُّ ظانٌّ أنَّ الإعراضَ عن الجاهلِ والإغضاءَ عن إساءتِهِ -مع القدرةِ عليه- مُوجِبٌ للذِّلَّةِ والمهانة، وأنه قد يَجُرُّ إلى تَطَاوُلِ السفهاء! وهذا خطأ؛ ذلك أنَّ العفوَ والحلمَ لا يَشتبِهُ أيٌّ منهما بالذّلّةِ بحال؛ فإنَّ الذِّلّةَ احتمالُ الأذى على وجهٍ يُذْهِبُ الكرامة.

أمّا الحلمُ فهو إغضاءُ الرَّجُلِ عن المكروه، حيثُ يَزيدُه الإغضاءُ في أَعيُنِ الناسِ رفعةً ومَكانة.

سياسةُ الحِلْمِ لا بَطْشٌ يُكدِّرُها فهو المَهيبُ ولا تُخشى بوادِرُه

فالعفوُ إسقاطُ حَقِّك جُوْدًا، وكَرَمًا وإحسانًا؛ مع قُدرتِك على الانتقام، فتُؤثرُ الترك؛ رغبةً في الإحسانِ ومكارمِ الأخلاق.

بخلافِ الذُّل؛ فإنّ صاحبَه يَترُكُ الانتقامَ عَجْزًا، وخوفًا ومهانةَ نفس؛ فهذا غيرُ محمود، بل لعلَّ المُنتَقِمَ بالحقِّ أَحسَنُ حالًا منه؛ لأنَّ مِن الناسِ مَن بَلَغت به الرقاعةُ واللؤمُ أنْ يُفسِّرَ الإكرامَ والإغضاءَ بالضعف، وعليه يُحمل قولُ أبي الطيب المتنبي:

إذا أنت أكرمتَ الكريمَ ملكتَه وإنْ أنت أكرمتَ اللئيمَ تمرَّدا

وقولُ الشَّريفِ الرَّضي:

في الناسِ إنْ فتَّشتَهم مَنْ لا يُعِزُّك أو تُذِلَّه
فاتركْ مجاملةَ اللئيـ ـمِ فإنَّ فيها العجزَ كُلَّه

ومعنى قولِه: «أو تذله»: إلا أنْ تُذِلَّه، كما في الشاهدِ النحوي:

وكنتُ إذا غَمَزْتُ قناةَ قوم كسرتُ كعوبَها أو تَستقيما

أي: إلا أنْ تَستقيما.

وهذا راجعٌ إلى حكمةِ الإنسان، وتقديرِه الأمورَ، وتدبُّرِه للعواقب؛ فيَعرِف متى يأخُذُ بالحزم، ومتى يأخذُ بالحلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد.



المجلس الثلاثون

﴿ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ﴾

الحمدُ لله، والصلاةُ والسلامُ على عبدِهِ ورسولِهِ ومصطفاه، أما بعد:

فيقولُ اللهُ تباركَ وتعالى في صَدرِ سورةِ الروم: ﴿الٓمٓ ١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ٥ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٦ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ﴾[1].

يقولُ العلّامةُ الشنقيطيُّ: -في تعليقِهِ على هذه الآيةِ الأخيرة: ﴿يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ﴾-: «اعلمْ أنه يجبُ على كلِّ مسلم في هذا الزمانِ أنْ يتدبَّرَ آيةَ «الروم» هذه تدبُّرًا كثيرًا، ويُبيِّنَ ما دَلَّتْ عليه لكلِّ مَن استطاع بيانه له من الناس.

(١) الروم: ١ - ٧.

وإيضاحُ ذلك: أنَّ مِن أعظمِ فتنِ آخرِ الزمانِ التي ابتلى اللهُ بها ضعافَ العقولِ من المسلمين، شِدّةَ إتقانِ الإفرنجِ لأعمالِ الحياةِ الدنيا، ومهارتَهم فيها على كثرتِها، واختلافِ أنواعِها، مع عجزِ المسلمين عن ذلك، فظنوا أنَّ مَن قَدَر على تلك الأعمالِ أنه على الحق، وأنَّ مَن عَجَز عنها مُتخلِّف وليس على الحق، وهذا جهلٌ فاحش، وغلطٌ فادح.

وفي هذه الآيةِ الكريمةِ إيضاحٌ لهذه الفتنة، وتخفيفٌ لشأنها، أَنزَلَه اللهُ في كتابِه قَبلَ وقوعِها بأزمانٍ كثيرة، فسبحانَ الحكيمِ الخبيرِ ما أعلَمَه، وما أعظَمَه، وما أحسنَ تعليمه!

فقد أوضح -جل وعلا- في هذه الآيةِ الكريمة: أنَّ أكثرَ الناسِ لا يعلمون، ويدخُلُ فيهم أصحابُ هذه العلومِ الدنيويةِ دخولًا أوّليًا، فقد نفى عنهم -جل وعلا- اسمَ العلمِ بمعناه الصحيحِ الكامل؛ لأنهم لا يعلمون شيئًا عَمّن خلقَهم، فأبرزَهم مِن العَدَمِ إلى الوجود، ورزَقهم، وسوف يميتُهم، ثم يحييهم، ثم يجازيهم على أعمالِهم، ولم يعلَموا شيئًا عن مصيرِهم الأخيرِ الذي يُقيمون فيه إقامةً أبديةً في عذابٍ فظيعٍ دائم، ومن غَفَل عن جميعِ هذا فليس معدودًا من جِنس مَن يَعْلم؛ كما دلّت عليه الآياتُ القرآنيةُ المذكورة، ثم لمّا نفى عنهم -جل وعلا- اسمَ العلمِ بمعناه الصحيحِ الكامل، أَثبَتَ لهم نوعًا من العلمِ في غايةِ الحقارةِ بالنسبة إلى غيرِه.

وعابَ ذلك النوعَ المذكورَ من العلم، بعيبين عظيمين:

أحدهما: قِلته وضِيق مجالِه، لأنه لا يُجاوِزُ ظاهرًا من الحياةِ الدنيا، والعلمُ المقصورُ على ظاهرٍ من الحياةِ الدنيا في غايةِ الحقارة، وضيق المجالِ بالنسبةِ إلى العلم بخالقِ السماوات والأرض -جل وعلا-، والعلم بأوامرِه ونواهيه، وبما يُقرِّبُ عبدَه منه، وما يُبعِدُه عنه، وما يُخلِّدُ في النعيمِ الأَبديِّ والعذابِ الأبديِّ من أعمالِ الخيرِ والشر.

والثاني -مما عابَ اللهُ به علْمَهم ذلك-: هو دناءةُ هدفِ ذلك العلم، وعدم نُبْلِ غايتِه، لأنه لا يتجاوزُ الحياةَ الدنيا، وهي سريعةُ الانقطاعِ والزوال، ويكفيك من تحقيرِ هذا العلم الدنيويّ أنَّ أَجْودَ أوْجُهِ الإعرابِ في قوله: ﴿يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا﴾ أنه بدلٌ من قوله -قبله-: ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾ فهذا العلم كـ(لا علم) لحقارتِه.

وقوله: ﴿ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ يُفيدُ أنَّ للدنيا ظاهرًا وباطنًا، فظاهِرُها ما يعرفُه الجُهّال مِن التمتعِ بزخارِفِها، والتنعُّم بملاذِّها وباطِنها، وحقيقتُها أنها مجازٌ إلى الآخرة، يتزوَّدُ منها إليها بالطاعةِ والأعمالِ الصالحة.

وفي مجيءِ قولِه: ﴿ظَٰهِرٗا﴾ -بصيغةِ التنكير- دليلٌ على أنهم لا يعلمون إلا ظاهرًا واحدًا من ظواهرِها.

والضمير ﴿وَهُمۡ﴾ الثانية في الآية ﴿هُمۡ غَٰفِلُونَ﴾ أيًّا كان إعرابُها على اختلافِ النحاة، فإنّ ذِكْرَها منادٍ على أنهم معدِنُ الغفلةِ عن الآخرة، ومَقرُّها، ومحلُّها، وأنها -أي الغفلة- منهم تَنبَع، وإليهم ترجِع.

وقال بعضُ العلماء: وفي تنكيرِ قولِه: ﴿ظَٰهِرًا﴾ تقليلٌ لمعلومِهم، وتقليلُه يُقرِّبُه من النفي، حتى يُطابقَ المُبدَلَ منه، ووجهُهُ ظاهر.

واعلم أنّ المسلمين يجبُ عليهم تَعلُّمُ هذه العلوم الدنيوية، كما أوضحْنا ذلك غايةَ الإيضاحِ في سورة «مريم»، في الكلام على قوله تعالى: ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ۝٧٨﴾[1]، وهذه العلومُ الدنيويةُ التي بيَّنّا حقارتَها بالنسبةِ إلى ما غَفَلَ عنه أصحابُها الكفار، إذا تعلَّمها المسلمون، وكان كلٌّ من تعليمِها واستعمالِها مُطابِقًا لما أمرَ اللهُ به على لسانِ نبيه ﷺ، كانت مِن أشرفِ العلوم وأنفعِها؛ لأنها يُستعانُ بها على إعلاءِ كلمةِ الله ومرضاتِه -جل وعلا-، وإصلاحِ الدنيا والآخرة، فلا عيبَ فيها إذن؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾[2]، فالعملُ في إعدادِ المستطاعِ من القوةِ امتثالًا لأمرِ الله تعالى، وسعيًا في مرضاتِه، وإعلاءِ كلمتِه ليس مِن جِنسِ عِلمِ الكفارِ الغافلين عن الآخرةِ كما ترى، والآياتُ بمثل ذلك كثيرة، والعلم عند الله تعالى» انتهى كلامُ الشنقيطي.

نسألُ اللهَ تعالى أنْ يُعيدَ للأُمّة مجدَها وعِزّتَها، وأنْ تأخذَ بأسبابِ القوةِ الدينيةِ والدنيوية، وأنْ يَخذُلَ أعداءَهم.

اللهم واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.



(١) مريم: ٧٨.
(٢) الأنفال: ٦٠.

فهرس المحتويات



ثلاثون مجلسًا في التدبر

مجالس علمية وإيمانية

المجموعة الثانية

إعداد اللجنة العلمية في مركز تدبر



مركز تدبر للدراسات والاستشارات

ثلاثون مجلسًا في التدبر

مجالس علمية وإيمانية

المجموعة الثانية

الطبعة الأولى

١٤٣٤هـ - ٢٠١٣

الرياض ـ الدائري الشرقي ـ مخرج ١٥

هاتف ٢٥٤٩٩٩٣ ـ تحويلة ٣٣٣

ناسوخ ٢٥٤٩٩٩٦

ص.ب.٩٣٤٠٤ الرمز: ١١٦٨٤

البريد الحاسوبي: tadabbor@tadabbor.com

www.tadabbor.com

. . . .

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

مركز تدبر للاستشارات التربوية والتعليمة

ثلاثون مجلسا في التدبر (مجالس علمية وإيمانية).

/ مركز تدبر للاستشارات التربوية والتعليمية - الرياض، ١٤٣٤هـ

١٣٠ ص؛ ١٧ × ٢٢سم

ردمك: ٢-٣-٩٠٣٦٤-٦٠٣-٩٧٨

١- القرآن - مباحث عامة ٢- القرآن - أحكام أ. العنوان

ديوي ٢٢٩ ١٤٣٤/ ٧١٦٩

رقم الإيداع: ٧١٦٩/ ١٤٣٤

ردمك: ٢-٣-٩٠٣٦٤-٦٠٣-٩٧٨


بسم الله الرحمن الرحيم


ثلاثون مجلسًا في التدبر
مجالس علمية وإيمانية



تقــديم

الحمد لله الذي أكرمنا بنزول القرآن، ومنّ علينا ببعثة سيد ولد عدنان، وصلى الله على مَنْ كان خلقُه القرآن، فزكاه ورباه ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ فربّى أصحابه بمدارسة آياته في مجالس الذكر والقرآن، وقد فتح الله به قلوبًا غلفًا، وأعينًا عميًا، وآذنًا صُمًا، وسلم تسليمًا كثيرًا ما ترددت على الألسن آيات الرحمن، وتليت في المحاريب هدايات الفرقان، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

ففي صحيح مسلم من طريق الأغر أبي مسلم، أنه قال: أشهد على أبي هريرة وأبي سعيد الخدري -رضي الله عنهما- أنهما شهدا على النبي ﷺ أنه قال: «لا يقعد قوم يذكرون الله عز وجل إلا حفتهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة، ونزلت عليهم السكينة، وذكرهم الله فيمن عنده»(١).

فهذه بشارة نبوية، تستحق من أتباعه ﷺ أن يتنادوا لنيل هذه الثمرات الأربع العظيمة، التي تعادل الواحدة منها الدنيا وما فيها، فكيف بها مجتمعة لمن حقق هذا المعنى: تلاوة كتاب الله وتدارس معانيه، وقد كان جبريل عليه السلام يلقى النبي ﷺ في رمضان (فيدارسه القرآن).

ورغبةً في التعاون مع إخواننا المسلمين في إحياء هذه المجالس في المساجد والبيوت، جاءت فكرة «مجالس تدبر القرآن»، وستكون ضمن سلسة متتابعة -بمشيئة الله تعالى-؛ لتكون امتدادًا لبقية الإصدارات العلمية والتربوية التي سبق نشرها، وتهدف إلى تحقيق رؤيتنا -أن يتدبر القرآن كل من يقرؤه- في هذا المشروع العظيم.

(١) صحيح مسلم (٢٧٠٠).

وإذ نقدم هذه المجالس الثلاثين في «مجموعتها الثانية» -والتي حرر كثيرًا منها عدد من الأعضاء المؤسسين لمشروع تدبر- فإننا نرجو الله تبارك وتعالى أن تحقق أهدافًا منها:

- أن تكون معينةً للإمام في مسجده -وخاصة في شهر رمضان- وللخطيب في منبر الجمعة، في تناول بعض القضايا المهمة -التي يحتاجها الناس- من منظور تدبري، وفق أصول علمية للتدبر.

- أن تكون مادةً مناسبة للمجالس التي يعقدها عدد كبير من الآباء مع أزواجهم وأولادهم في بيوتهم، سواء في رمضان أو غيره، تأسيًا بهدي القرآن الذي ربّى عليه أمهات المؤمنين: ﴿ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ﴾الأحزاب: ٣٤.

ـ أن تكون عونًا لمن أحب أن يقرأ مادة مختصرةً في المنتديات أو المجالس أو الاجتماعات العائلية.

وفي الختام أشكرُ إخواني في اللجنة العلمية في مركز تدبر، الذين قاموا بالعمل على إعداد هذه المجالس؛ لتخرج بهذه الحلة المناسبة.

وغني عن القول أن هذا العمل لا يستغني عن التقويم من قبل إخواننا وأخواتنا من أهل القرآن، فهذه المجالس منهم وإليهم، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلّم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وكتب/ ناصر بن سليمان العمر

naser@tadabbor.com

رئيس الهيئة العالمية لتدبر القرآن الكريم

١٧/ ٧/ ١٤٣٤هـ



مقـــدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وأصحابه ومن والاه، أما بعد:

فهذه هي المجموعة الثانية من «سلسة مجالس تدبر القرآن» تضم إلى سابقتها ومع ما سيأتي من مجموعات بمشيئة الله تعالى؛ لتتمم ما ابتدأناه في مركز تدبر من إصدارات علمية وتربوية ابتدأ نشرها من عام ١٤٢٩هـ، ولله الحمد والمنة، وبلغت حتى الآن (اثنين وعشرين إصدارًا)، نسأل الله أن ينفع بها، ويبارك فيها.

وفي هذا السياق، أصدر مركز تدبر مجموعة من «مجالس التدبر» في هذا العام ١٤٣٤هـ، لفضيلة د.عويض بن حمود العطوي، بعنوان: (مجالس قرآنية.. وقفات بيانية ودلالات تربوية)، والتي اعتنى فيها فضيلته بإبراز المعاني البيانية في تلك الوقفات التي وقفها مع عدد من الآيات الكريمة.

إن من أهم أهدافنا من إطلاق هذه السلسلة العلمية في تدبر القرآن:

أولًا: ربط الأمة بمصدر هدايتها وعزّها، وإبراز هذه الهدايات بمختلف الطرق الممكنة، وأهمها الإصدارات العلمية.

ثانيًا: طبيعة هذه المجالس لا ترتبط بموسم معيّن، ولا موضوع محدد، بل هي منوّعة بتنوّع موضوعات القرآن الكريم، وسيكون التركيز على ما يمسّ بشكل مباشر عموم المسلمين من جهة مناسباتهم الشرعية، أو مشاكلهم الاجتماعية والاقتصادية، ومحاولة علاجها في ضوء القرآن الكريم، وفق منهج علمي سليم.

ثالثًا: سيلحظُ القارئ الكريم أن هذه المجالس مختصرة في مادتها، مع مراعاة تناسبها في طول مادتها. وهذا التنوع يعود إلى منهج القرآن في تنوع موضوعاته، واختلافِ أساليبه في بناء القِيَم، وتصحيح الأخطاء.

رابعًا: اجتهدنا في ترتيب هذه المجالس على النحو الذي يراه القارئ الكريم، مع يقيننا بأن غيرنا قد يرى ترتيبًا آخر أجود منه.

ختامًا: ندعو إخواننا وأخواتنا الكرام -الذين شرفونا باقتناء هذا الكتاب أو غيره من إصدارات «تدبر»- ألا يبخلوا علينا بآرائهم واقتراحاتهم، ولهم منا وافر الدعاء، ومن الله جزيل الأجر والثواب.

وصلى الله وسلّم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وكتب/ عمر بن عبدالله المقبل
omar@tadabbor.com
المستشار العلمي في مركز تدبر
وعضو هيئة التدريس بجامعة القصيم
٧/ ٧/ ١٤٣٤هـ



المجلس الأول

الفاتحة تجتث شجرة التشبه[١]

الحمد لله الذي أعزنا بدينه، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، الذي أخرجنا الله به من دركات الكفر إلى منازل الإيمان العالية، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فإن الإسلام ربّى في أتباعه الاعتزاز بدينهم، ورَفْعَ الرأس به في كل محفل: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ آل عمران:١٣٩، ونهاهم عن التشبه بأعدائهم كما في الحديث الصحيح: «لتتبعن سنن من كان قبلكم، شبرا شبرا وذراعا بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم»، قلنا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: «فمن»؟ [٢]، وفي السنن عن ابن عمر: «من تشبّه بقوم فهو منهم»[٣].

(١) للدكتور عمر بن عبدالله المقبل، الأستاذ المشارك في كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة القصيم، نائب رئيس الهيئة العالمية لتدبر القرآن.
(٢) البخاري (٣٤٥٦)، مسلم (٢٦٦٩).
(٣) أبو داود (٤٠٣١).

ومع اتساع دائرة التواصل مع غير المسلمين في هذا العصر، فخليق بالمؤمن أن يتدبر المعاني التي تنفخ في روحه العزّة والفخر بهذا الدين، لا أن ينحني ويرضى بالدون حين يتشبه بمن نهاه الله ورسوله عن التشبه بهم، كما هو مشاهد من كثير من المسلمين اليوم، الذين بدت عليهم مظاهر التشبه بالكفار في اللباس، وبعض العادات ذات الأبعاد الدينية.

والمتأمل في كتاب الله تعالى يجد العلاج الرباني لهذه الظاهرة، في آيات شتى، من أعظمها: تدبرُ سورة الفاتحة، السبع المثاني، والقرآنُ العظيمُ الذي أوتيه نبينا ﷺ.

ذلك أن نصف هذه السورة ذهب في تقرير مسألة الاستقلال، والعزة بهذا الدين، والحذر من التشبه باليهود والنصارى -الذين ذكرهم ﷺ في الحديث الآنف الذكر- فكيف بغيرهما من الأمم التي لا كتاب لها، وليس لها من الأحكام التي تميزت بها الأمم الكتابية! وذلك في قوله تعالى: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ الفاتحة: ٦ - ٧.

فأنت ترى كيف أمرنا في اليوم والليلة سبع عشرة مرة على الأقل بهذا الدعاء العظيم: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ الذي سار عليه مَنْ: ﴿أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾ النساء:٦٩، وتأكد بالبراءة من طريق الأمة اليهودية التي غضب عليها لتركها العمل بالعلم، وبالبراءة من طريق الأمة النصرانية التي عبدت الله تعالى على غير هدى ولا كتاب منير.

إن تدبر هذه السورة ليجتث شجرة التشبه من أصلها، لكن هل الذين يتشبهون بالكفار يدركون ويتدبرون ما يقرؤون؟!

ومن بدائع هذه الآية العظيمة: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ أنها تضمنت سؤال العبد أن يهديه ربه إلى طريق الأنبياء جملةً وتفصيلًا، فهذا الدعاء يشمل الهداية إلى الصراط، وهو لزوم دين الإسلام، وترك ما سواه من الأديان، والهداية في نفس الصراط إذا وفق العبد لسلوكه، أي أن يُهدى لجميع التفاصيل الدينية علمًا وعملًا، ولهذا قال بعض العلماء: فهذا الدعاء من أجمع الأدعية وأنفعها للعبد، ولهذا وجب على الإنسان أن يدعو الله به في كل ركعة من صلاته، لضرورته إلى ذلك[١].

---

(١) ينظر: تفسير السعدي (٣٩).

وبما تقدم، ينفتح للمتدبر سرٌّ من أسرار هذه السورة العظيمة، التي أمرنا بقراءتها في كل ركعة، فهل نرى أثرها على حياتنا جميعًا، وعلى إخواننا وأخواتنا من الذين رضوا لأنفسهم بالدون حين تشبهوا بالكفار؟!

اللهم ارزقنا الاعتزاز بديننا، وأعذنا من التشبه بأعدائك..

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.





المجلس الثاني

من هدايات قوله تعالى

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا وَٱسۡمَعُواْۗ﴾[1]

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد: فيقول الله تعالى في سورة البقرة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا وَٱسۡمَعُواْۗ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ البقرة:١٠٤.

هذا أول نداء في القرآن لأهل الإيمان -حسب ترتيب المصحف-، وحريٌ بمن كان حريصًا على الخير، راغبًا في الاهتداء بالقرآن أن يقف مع هذا النداء الكريم، ليفهم معناه، ويعرف مقاصده من خلال تدبر هذه الآية الكريمة. والقارئ لهذا النداء الرباني الكريم من غير تدبر له وتأمل في ألفاظه وتفكر في مقاصده؛ قد لا يفهم منه إلا أنه نهي للمؤمنين عن قول ﴿رَٰعِنَا﴾،

(١) للدكتور محمد بن عبدالله بن جابر القحطاني، الأستاذ المشارك في جامعة الملك خالد بأبها.

وأمر لهم بأن يقولوا بدلا عنه ﴿أَنظُرۡنَا﴾، وأن يسمعوا ويستجيبوا، حتى لا يكونوا كالكافرين الذين أعد الله لهم العذاب الأليم.

وأما عند تدبر هذه الآية والتفكر فيها فسيجد أن هذا النداء المبارك قد اشتمل على أصل من أصول العقيدة، وعلى قاعدة من قواعد الشريعة، وأدب من الآداب الشريفة، وطريقة مهمة من طرائق التربية الرشيدة، وبيان ذلك فيما يلي:

أما الأصل العظيم من أصول العقيدة فهو النهي عن التشبه بالكفار في أقوالهم وأفعالهم؛ وذلك أن اليهود -عليهم لعائن الله- كانوا يتخيرون من الكلام ما فيه تورية لما يقصدونه من التنقيص والسباب، فإذا أرادوا أن يقولوا: (اسمع لنا) يقولون: ﴿رَٰعِنَا﴾ يورّوُن بالرعونة، وهي في لغتهم سب وشتيمة، فنهى الله تعالى عباده المؤمنين عن التشبه باليهود في هذا القول.

ومعلوم أن من أصول عقيدتنا -أهل الإسلام- أن «من تشبه بقوم فهو منهم» كما أخبر الصادق المصدوق ﷺ. وفي هذا الخبر «دلالة على النهي الشديد والتهديد والوعيد، على التشبه بالكفار في أقوالهم وأفعالهم، ولباسهم وأعيادهم، وعباداتهم وغير ذلك من أمورهم التي لم تشرع لنا» كما قال الحافظ ابن كثير.

وأما القاعدة الكبيرة من قواعد الشريعة فهي قاعدة سد الذرائع، وذلك أن أهل الإيمان كانوا لا يقصدون بقولهم ﴿رَٰعِنَا﴾ إلا معناه المعروف عندهم وهو: أمهلنا، أو اسمع لنا، فنهوا عنه لما قد يترتب على استعمالهم له من مفسدة، وهي أن اليهود والمنافقين يقولونه على وجه الاستهزاء والمسبة. (والذريعة عبارة عن أمر غير ممنوع لنفسه يخاف من ارتكابه الوقوع في ممنوع) كما قال القرطبي.

وبناء على هذه القاعدة يُحكم على كل ذريعة إلى محرم ووسيلة إليه بالتحريم، ولهذا أمثلة كثيرة جدًا يصعب حصرها، ذكر الإمام ابن القيم منها تسعة وتسعين مثالًا في كتابه القيم «إعلام الموقعين»، وقرر أن سد الذرائع المفضية إلى الحرام أحد أرباع الدين.

وأما الأدب الشريف الذي يستفاد من هذا النداء فهو:

أدب انتقاء أنسب الألفاظ واختيار أحسن الأقوال؛ فلا يليق بأهل الفضل الحريصين على معالي الأمور أن يقولوا كلمة تحتمل معنى غير مناسب. وقد قال ربنا جل وعلا: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٗا مُّبِينٗا﴾ الإسراء:٥٣،

واللسان ميزان عقل الإنسان، وما يلفظه من الأقوال معيار لما يتصف به من الخصال، والقولُ السديد مع التقوى يصلح الله بهما الأعمال.

وأما الطريقة التربوية الرشيدة فهي إيجاد البدائل لما ننهى عنه قدر الإمكان، وهي طريقة ربانية نبوية مهمة.

فما من شيء محذور للناس به حاجة إلا وفي المباح عنه غنية وكفاية، والموفق من سلك سبيل الهدى، واختار من الأمور ما سلم من المحذور، وأرشد الناس إلى ما لا شبهة فيه ولا نزاع.

هذا باختصار بيان لبعض ما اشتمل عليه هذا النداء الرباني من المعاني الشريفة والمقاصد الرفيعة.

وربنا المسؤول أن يرفعنا وينفعنا ويهدينا بكتابه الكريم.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.





المجلس الثالث

﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فلقد وعظ الله تعالى عباده في كتابه فقال: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾ البقرة:١٩٧ وفي هذا المعنى يقول ابن الجوزي[١]:

«ما أبله من لا يعلم متى يأتيه الموت، وهو لا يستعد للقائه! وأشد الناس بَلَهًا وتَغْفِيْلًا من قد عبر الستين، وقارب السبعين -فإن ما بينهما هو معترك المنايا، ومن نازل المعترك، استعد- وهو مع ذلك غافل عن الاستعداد.

قال الشباب: لعلنا في شيبنا ندع الذنوب، فما يقول الأشيب؟

(١) صيد الخاطر (٤٣٩).

والله إن الضحك الكثير من الشيخ ما له معنى، وإن المزاح منه بارد المعنى، وإن تعرضه بالدنيا -وقد دفعته عنها- يضعف القوى، ويضعف الرأي. وهل بقي لابن ستين منزل؟!

فإن طمع في السبعين؛ فإنما يرتقي إليها بعناء شديد: إن قام، دفع الأرض، وإن مشى، لهث، وإن قعد، تنفس، ويرى شهوات الدنيا، ولا يقدر على تناولها، فإن أكل، كد المعدة، وصعب الهضم، فهو يعيش عيش الأسير.

فإن طمع في الثمانين، فهو يزحف إليها زحف الصغير!

وعَشْرُ الثمانين مَنْ خاضها ... فإن المُلِّمَاتِ فيها فنونُ

فالعاقل من فهم مقادير الزمان؛ فإنه فيما قبل البلوغ صبي، ليس على عمره عيار[1]، إلا أن يرزق فطنة، ففي بعض الصبيان فطنة تحثهم من الصغر على اكتساب المكارم والعلوم.

(١) أي: وزن وكيل، والمعنى: ليس على عمره محاسبة ولا مؤاخذة، بل زمان الصبا والطفولة.

فإذا بلغ، فليعلم أنه زمان المجاهدة للهوى، وتعلم العلم، فإذا رزق الأولاد، فهو زمان الكسب للمعاملة، فإذا بلغ الأربعين، انتهى تمامه، وقضى مناسك الأجل، ولم يبق إلا الانحدار إلى الوطن.

كأنّ الفتى يَرْقى مِن العُمْر سُلّما   إلى أن يجوز الأربعين ويَنْحَطُّ

فينبغي له عند تمام الأربعين أن يجعل جل همته التزود للآخرة، ويكون كل تلمحه لما بين يديه، ويأخذ في الاستعداد للرحيل، وإن كان الخطاب بهذا لابن عشرين، إلا أن رجاء التدارك في حق الصغير لا في حق الكبير.

فإذا بلغ الستين؛ فقد أعذر الله إليه في الأجل، وجاز من الزمن[1]، فليقبل بكلّيّته على جَمْعِ زاده، وتهيئة آلات السفر، وليعتقد أن كل يوم يحيا فيه غنيمة ما هي في الحساب، خصوصًا إذا قوي عليه الضعف وزاد، فإنه لا محرك كهوى، وكلما علت سنّه، فينبغي أن يزيد اجتهاده.

---

(١) أي: قطع أكثره.

فإذا دخل في عشر الثمانين، ليس إلا الوداع، وما بقي من العمر إلا أسف على تفريط، أو تعبد على ضعف.

نسأل الله عز وجل يقظةً تامةً، تصرف عنا رقاد الغفلات، وعملا صالحا نأمن معه من الندم يوم الانتقال.. والله الموفق.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.





المجلس الرابع

من أسرار قوله تعالى

﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ﴾[1]

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فيقول الله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ البقرة: ٢١٦.

قال العلامة ابن القيم رحمه الله: «في هذه الآية عدة حكم وأسرار، ومصالح للعبد، فإن العبد إذا علم أن المكروه قد يأتي بالمحبوب، والمحبوبَ قد يأتي بالمكروه، لم يأمن أن توافيه المضرة من جانب المسرة، ولم ييأس أن تأتيه المسرة من جانب المضرة؛ لعدم علمه بالعواقب، فإن الله يعلم منها ما لا يعلمه العبد، وأوجب له ذلك أمورًا منها:

(١) الفوائد لابن القيم: (١٣٦)

أنه لا أنفع له من امتثال الأمر، وإن شقَّ عليه في الابتداء؛ لأن عواقبه كلها خيرات ومسرات، ولذات وأفراح، وإن كرهته نفسه فهو خيرٌ لها وأنفع، وكذلك لا شيء أضر عليه من ارتكاب النهي، وإن هويته نفسه ومالت إليه، وإنّ عواقبه كلَّها آلام وأحزان، وشرور ومصائب، وخاصيةُ العقلِ تَحَمُّلُ الألمِ اليسير؛ لما يعقبه من اللذة العظيمة والخير الكثير، واجتنابُ اللذة اليسيرة لما يعقبه من الألم العظيم، والشر الطويل.

فنظر الجاهل لا يجاوز المبادئ إلى غاياتها، والعاقلُ الكيّس دائمًا ينظر إلى الغايات من وراء ستور مبادئها، فيرى ما وراء تلك الستور من الغايات المحمودة والمذمومة، فيرى المناهي كطعامٍ لذيذ قد خلط فيه سم قاتل، فكلما دعته لذته إلى تناوله، نهاه ما فيه من السُّم، ويرى الأوامر كدواء كريهِ المذاق، مُفْضٍ إلى العافية والشفاء. وكلما نهاه كراهةُ مذاقه عن تناوله، أَمَرَه نفعه بالتناول، ولكن هذا يحتاج إلى فضلِ علم تدرك به الغايات من مبادئها، وقوةُ صبر يوطّن به نفسه على تحمل مشقة الطريق؛ لما يؤمّل عند الغاية، فإذا فقد اليقين والصبر، تعذر عليه ذلك، وإذا قوي يقينه وصبره هان عليه كل مشقة يتحملها في طلب الخير الدائم، واللذة الدائمة.

ومن أسرار هذه الآية: أنها تقتضي من العبد التفويض إلى من يعلم عواقب الأمور سبحانه، والرضا بما يختاره له، ويقضيه له، لما يرجو فيه من حسن العاقبة.

ومنها: أنه لا يقترح على ربه ولا يختار عليه، ولا يسأله ما ليس له به علم، فلعل مضرته وهلاكه فيه -وهو لا يعلم-، فلا يختار على ربه شيئًا، بل يسأله حسن الاختيار له، وأن يرضيه بما يختاره، فلا أنفع له من ذلك.

ومنها: أنه إذا فوّض إلى ربه، ورضي بما يختاره له، أمدّه فيما يختاره له بالقوة عليه، والعزيمة والصبر، وصرف عنه الآفات التي هي عرضة اختيار العبد لنفسه، وأراه من حسنِ عواقب اختياره له ما لم يكن ليصل إلى بعضه بما يختاره هو لنفسه.

ومنها: أنه يريحه من الأفكار المتعبة في أنواع الاختيارات، ويفرغ قلبه من التقديرات والتدبيرات التي يصعد منها في عقبة، وينزل في أخرى، ومع هذا فلا خروج له عما قدر عليه، فلو رضي باختيار الله أصابه القدر وهو محمود مشكور، ملطوف به فيه، وإلا جرى عليه القدر وهو مذموم غير ملطوف به فيه؛ لأنه مع اختياره لنفسه.

ومتى صح تفويضه ورضاه، اكتنفه في المقدورِ العطفُ عليه، واللطف به، فيصير بين عطفه ولطفه، فعطفه يقيه ما يحذره، ولطفه يهوّن عليه ما قدره.

اللهم إنا نسألك العافية، ونسألك الرضا بعد القضا، وبرد العيش بعد الموت.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.





المجلس الخامس

من أسرار آية الكرسي[1]

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فمن المعلوم أن أفضل آية في كتاب الله تعالى هي آية الكرسي، كما أخبر بذلك النبي ﷺ في الحديث الصحيح[2]: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ البقرة:٢٥٥، وخليق بالمؤمن أن يتأمل في أسرار هذه الآية التي فُضّلتْ على سائر آي القرآن، ومن قرأها في ليلة لم يزل عليه من الله حافظ، ولا يقربه شيطان حتى يصبح[3].

(١) للعلامة العثيمين رحمه الله، ملخصًا من تفسيره للآية في كتابه: "تفسير سورتي الفاتحة والبقرة": (٣/ ٢٥٠).
(٢) مسلم ح (١٨٨٥).
(٣) البخاري ح (٢٣١١).

وهذه الآية مشتملة على عشر جمل؛ كل جملة لها معنى عظيم جدًا:

ـ ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ الإله بمعنى المألوه، أي: المعبود حبًا وتعظيمًا؛ ولا أحد يستحق هذا الوصف إلا الله تعالى؛ وهو يدل على نفي الألوهية الحقة نفيًا عامًا قاطعًا إلا لله وحده.

ـ ﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ وهذان اسمان من أسمائه تعالى؛ جامعان لكمال الأوصاف والأفعال؛ فكمال الأوصاف في ﴿ٱلْحَىُّ﴾؛ وكمال الأفعال في ﴿ٱلْقَيُّومُ﴾؛ فـ﴿ٱلْحَىُّ﴾ ذو الحياة الكاملة؛ التي لم تسبق بعدم، ولا يلحقها فناء، فهو سبحانه لم يزل، ولا يزال حيًا كاملًا في جميع أوصاف الكمال.

و﴿ٱلْقَيُّومُ﴾ أي: القائم على نفسه فلا يحتاج إلى أحد من خلقه؛ والقائم على غيره فكلُّ أحدٍ محتاجٌ إليه. قال جمعٌ من السلف: هما الاسم الأعظمُ الذي إذا دعا به العبد أجيب؛ لأنهما تضمنا جميع الأسماء الحسنى؛ فصفة الكمال في ﴿ٱلْحَىُّ﴾؛ وصفة الإحسان والسلطان في ﴿ٱلْقَيُّومُ﴾.

ـ ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ أي لا يعتريه نعاس، ولا نوم؛ لكمال حياته وقيوميته.

ـ ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي له وحده؛ ففي الجملة حصر، ففيها إثبات عموم ملكه سبحانه، وأنه لا يتصرف أحدٌ في ملكه بغير رضاه.

ـ ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾؛ أي لا يملك أحدٌ يوم القيامة أن يجلب نفعًا أو يدفع ضرًا، ولو كان النبي ﷺ -وهو أعظم الناس جاهًا عند الله- إلا بإذنه سبحانه؛ لكمال سلطانه سبحانه وهيبته.

ـ ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾؛ فهي تدل على سعة علمه سبحانه وتعالى، فهو يعلم الأشياء علمًا شاملًا لها جملة وتفصيلًا؛ ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ أي المستقبل؛ ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي الماضي.

ـ ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ لها معنيان:

المعنى الأول: لا يحيطون بشيء من علم نفسه؛ أي: لا يعلمون عن من أسماء الله، وصفاته، وأفعاله، إلا بما شاء أن يعلمهم إياه، فيعلمونه.

المعنى الثاني: ولا يحيطون بشيء مما يعلمه في السموات والأرض إلا بما شاء أن يعلمهم إياه، فيعلمونه.

ـ ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾؛ أي شمل، وأحاط، و«الكرسي» هو موضع قدمي الله سبحانه وتعالى؛ وهو بين يدي العرش كالمقدمة له؛ صح ذلك عن ابن عباس رضي الله عنه.

ـ ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ﴾؛ أي لا يثقله، ويشق عليه ﴿حِفْظُهُمَا﴾؛ أي حفظ السموات، والأرض، ففي هذه الجملة التنبيه على صفات العلم، والقدرة، والحياة، والرحمة، والحكمة، والقوة، لله تعالى.

ـ ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾، ﴿ٱلْعَلِيُّ﴾ أي: ذو العلو المطلق، وهو الارتفاع فوق كل شيء؛ و﴿ٱلْعَظِيمُ﴾ أي ذو العظمة في ذاته، وسلطانه، وصفاته.

هذه عشر جملٍ اشتملت عليها هذه الآية العظيمة، فتدبروها -أيها المؤمنون- يزدد إيمانكم، ويعظم وقعها في قلوبكم.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.





من هدايات خواتيم سورة البقرة(١)

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فمن الآيات العظيمة، التي ورد في فضلها بعض الأحاديث، خواتيم سورة البقرة، يقول الله ﷻ: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ البقرة: ٢٨٥ - ٢٨٦.

وهاتان الآيتان جاءتا كالنتيجة لما ورد في السورة من الأحكام والتشريع، فكأنهما مشعرتان بحال المؤمنين مع ما جاء في السورة من

(١) د.محمد بن عبدالله الربيعة، عضو هيئة التدريس بجامعة القصيم، وعضو الهيئة العالمية لتدبر القرآن.

تكليفات وتشريعات، شهادة من الله تعالى لهم بقولهم واستجابتهم، ولهذا جاءت الآثار بفضلهما، ومنها:

ما أخرجه مسلم عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «لما أسْريَ برسول الله صلى الله عليه وسلم انْتُهِيَ به إلى سدرة المنتهى...» -وفيه- قال: «وأعطي رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثًا: أعْطِيَ الصلوات الخمس، وأعْطِيَ خواتيم سورة البقرة، وغفر لمن لم يشرك بالله...»[(١)].

وأخرج الإمام أحمد عن أبي ذر، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أعطيت خواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش، لم يعطهن نبي قبلي».

وفي الصحيحين عن أبي مسعود رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه»[(٢)].

ولما نزلت الآية التي قبلهما وهي قوله تعالى: ﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ البقرة:٢٨٤، اشتد ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فشكوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال صلى الله عليه وسلم: «أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم سمعنا وعصينا؟ بل قولوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير» فقالوا ذلك.

فأنزل الله هاتين الآيتين[(٣)].

---

(١) أخرجه مسلم (١/ ١٥٧) رقم (١٧٣).
(٢) أخرجه البخاري(٤/ ٤٧٢) رقم (٣٧٨٦) ومسلم (١/ ٥٥٤) رقم (٨٠٧)..
(٣) أخرجه مسلم ١/ ١١٥ برقم ١٢٥ وأحمد ٢/ ٤١٢

أيها الإخوة:

هاتان الآيتان العظيمتان فيهما من المعاني ما يستحق إفرادهما بالبيان والتأمل؛ إذ هما كالنتيجة لما تضمنته السورة، فلا شك أنهما متضمنتان قواعد وأصولًا عظيمة، قال ابن القيم: «ختم السورة بهذه الخاتمة العظيمة التي هي من كنز تحت العرش، وفيها من العلوم والمعارف وقواعد الإسلام، وأصول الإيمان، ومقامات الإحسان ما يستدعي كتابًا مفردًا»(١).

ومما تضمنته الآيتان من القواعد والأصول ما يلي:

بيان أصول الإيمان المتعلقة بالوحي الدالة على كمال الإيمان بالتشريع والعمل به.

بيان ركني الإيمان الصحيح الكامل، وهما السمع والطاعة، المستلزمان للقبول التام والانقياد الكامل.

بيان القاعدة العظيمة المتضمنة رفع الحرج عن الأمة في التشريع، وهي قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ إظهارًا لكمال رحمة الله للأمة، وتكريمًا لها بعد كمال استجابتها، وإبرازًا لكمال دين الإسلام، بعثًا للنفوس على إكماله وتحذيرًا من تركه وإهماله. وقد بسط الله تعالى هذه القاعدة بأربعة أمور إظهارًا للكمال والرحمة، وهي تمثل قواعد في التشريع:

(١) طريق الهجرتين، (١/ ٥٥٩).

- العفو عن النسيان والخطأ.

- عدم التشديد عليهم بتحميلهم الإصر الذي حَمَّله من قبلهم.

- عدم تحميلهم مالا طاقة لهم به، وهذا كمال التخفيف.

- كمال العفو والمغفرة والرحمة، وهذا من كمال الرحمة بالأمة.

ختم الآية بما يدل على حيازة المؤمنين لولاية الله تعالى واستحقاقهم لنصره. وقد جاء ذلك على وجه الدعاء من المؤمنين تأكيدًا على قيامهم بالدين الذي أكرمهم الله به، ورغبة في نشره والدفاع عنه.

نسأل الله تعالى أن يجعلنا من أوليائه المفلحين.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.





المجلس السابع

من هدايات قوله تعالى

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ﴾[1]

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فيقول الله تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ آل عمران:١٥٩.

وردت الآيات السابقة لهذه الآية في حالِ مَنْ انهزموا يوم أُحُدٍ، وتضمنت تلك الآيات الكريمة استحقاقهم للوم والعتاب؛ حيث تولوا منهزمين، وتركوا رسول الله ﷺ تجاه العدو، ولو جرى معهم رسول الله ﷺ على ما يستحقون، لقابلهم بالعتاب والتوبيخ، ولكنه لاقاهم برفق،

(١) للشيخ العلامة محمد الخضر حسين، ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفاته (١/ ٣٨٩)، بتصرف واختصار.

ولم يواجههم باللوم، وذلك معنى قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ والفظاظة: الخشونة. وغلظ القلب: قسوته. والانفضاض: الانصراف.

والمعنى: لو كنت خشنًا في قولك أو فعلك، قاسي القلب، لانصرفوا من مجلسك، ولَمَا استضاؤوا بنور هديك، وكأن الآية تقول: هو ليّن في قوله وفعله، ولينه هذا لم يصدر عن أمرٍ عارض من نحو رغبةٍ أو رهبة، بل كان عن طبيعةٍ كريمة النفس.

فلِيعتبر في هذه الآية من يتولى أمرًا يستدعي أن يكون بجانبه أصحابٌ يظاهرونه عليه، حتى يعلم يقينًا أن قوةَ الذكاء وغزارة العلم وسعة الحياة وعظم الثروة، لا تكسبه أنصارًا مخلصين، ولا تجمع عليه من فضلاء الناس من يثق بصحبتهم إلا أن يكون صاحب خلقٍ كريم من اللين والصفحِ والاحتمال.

ثم قال سبحانه: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ﴾ والعفو: عدم المؤاخذة على الإساءة مع القدرة على المؤاخذةِ عليها، فأُمر ﷺ بالعفو، وإنما كان يعفو عما يختص به من الحقوق؛ كأن يؤذيه شخصٌ في مال، أو يسيء إليه بكلمة جافية لا تبلغ حد الكفر، وأما الإساءة فيما هو حقٌّ لله؛ كترك صلاةٍ أو صيامٍ أو شرب خمر، فلا يملك العفو عنه إلا الله.

﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾: أي: اطلب لهم من الله المغفرة للذنوب المتعلقة بحقوقه ﷻ، وأما الجنايات المتعلقة بحقوق العباد فأمرُ العفوِ عنها متعلق بالمجني عليهم.

﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾: أي: راجعهم في الأمر؛ لترى رأيهم فيه. والمراد من الأمر: ما يعرض من أمور الدنيا؛ من نحو تدبير الحروب، وأما أمور الدين، فقد أغناه الله عن الشورى فيها بما ينزل عليه من الوحي، أو بالاجتهاد الذي ينظر فيه بنور الله.

وهذه الآية قررت أصلًا عظيمًا من أصول السياسة الرشيدة، وهو: أن لا يستبد ولي الأمر في تصريف الأمور دون أن يأخذ رأي أولي العلم، وقد قررت هذا الأصل بأبلغ وجه؛ إذ وجهت الأمر فيه إلى أكبر الناس عقلًا، وأعرفهم بطرق المصالح، وأقلهم حاجة إلى الاستعانة برأي غيره، وهو أكمل الخليقة -صلوات الله وسلامه عليه- فليس لأحد بعد هذا أن يتخيل أنه في غنى عن المشاورة بما أوتيه من كمال العقل، وسداد الرأي.

وفي الشورى فوائد، منها:

- استبانة الرأي الحق من بين آراء متعددة.

- وفيها تطييب خواطر مَنْ يهمهم أن يُدَبَّرَ الأمرُ على بصيرة.

- وفيها تأليف قلوبهم بما في مراجعة ولي الأمر لهم من التنبيه على رفعة أقدارهم في نظره.

ثم قال تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾:

والآية ظاهرة في أن التوكل يكون عند تعاطي الأسباب، فقد أمرتْ بالتوكل عند العزمِ على العمل، فهنالك عزمٌ وعمل يقارنهما التوكل، وفي هذا ردٌّ على أن التوكل نفضُ اليدِ من الأسباب جملة.

رزقنا الله وإياكم التأدب بهدي كتابه، ووفقنا لأرشد أمرنا، والحمد لله رب العالمين.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.





المجلس الثامن

من فوائد قصة آدم وإبليس[1]

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فإن الله تعالى حين أتم نعمته على آدم بأن خلق منه زوجته حواء؛ ليسكن إليها، حذّره وزوجَه من الشيطان غاية التحذير، حتى لا يخرجهما من الجنة التي أسكنهما الله إياها، وأباح أن يأكلا من جميع ثمارها، إلا شجرة معينة حرمها عليهما، فقال: ﴿فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الأعراف:١٩.

وقال الله لآدم: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾ طه:١١٨ – ١١٩، فمكثا في الجنة ما شاء الله أن يمكثا، وعدوهما يراقبهما ويرصدهما، وينظر الفرصة فيهما، فلما رأى سرور آدم بهذه الجنة، ورغبته العظيمة في دوامها، جاءه بصورة الصديق الناصح، فقال: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ طه:١٢٠.

---

(١) للعلامة السعدي، تيسير اللطيف المنان، (ص: ٢٦٣ – ٢٦٩) بتصرف.

فلم يزل يوسوس ويزين، ويُمَنّي ويلقي عليهما من النصائح الظاهرة -وهي أكبر الغش- حتى غرهما فأكلا من الشجرة التي نهاهما الله عنها، فلما أكلا منها بدت لهما سوآتهما بعدما كانا مستورين، وبدءَا يلزقان على أبدانهما العارية من ورق الجنة؛ ليكون بدل اللباس، وسُقِطَ في أيديهما، وظهرت في الحال عقوبة معصيتهما، وناداهما ربهما: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ الأعراف:٢٢، فأوقع الله في قلبيهما التوبة التامة، والإنابة الصادقة: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ البقرة:٣٧، وقالا: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ الأعراف:٢٣.

فتاب الله عليهما، ولكن الأمر الذي حذرهما الله منه -وهو الخروج من هذه الجنة إن تناولا منها- تحتّم ومضى، فخرجا منها إلى الأرض التي حشي خيرها بشرها، وسرورها بكدرها، وأخبرهما الله أنه لا بد أن يبتليهما وذريتهما، وأن من آمن وعمل صالحًا كانت عاقبته خيرًا من حالته الأولى، ومن كذّب وتولّى فآخر أمره الشقاء الأبدي والعذاب السرمدي، وحذّر الله الذرية منه، وأبدلهم الله بذلك اللباس ـ الذي نزعه الشيطان من الأبوين ـ بلباسين:

لباسٍ يواري السوآت، ويحصل به الجمال الظاهر في الحياة.

ولباسٍ أعلى من ذلك: وهو لباس التقوى، الذي هو لباس القلب والروح بالإيمان والإخلاص والإنابة، والتحلي بكل خلق جميل، والتخلّي عن كل خلق رذيل.

هذه القصة العظيمة ـ أيها المؤمنون ـ ذكرت في مواضع كثيرة من القرآن، وقد اشتملت على فوائد كثيرة منها:

فضيلة العلم، وأن الملائكة لما تبين لهم فضل آدم بعلمه عرفوا بذلك كماله، وأنه يستحق الإجلال والتوقير.

ومنها: أن مَنْ مَنّ الله عليه بالعلم، فعليه أن يعترف بنعمة الله عليه، وأن يقول كما قالت الملائكة والرسل: ﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ البقرة:٣٢، وأن يتوقى التكلم بما لا يعلم، فإن العلمَ أعظمُ المنن، وشكرُ هذه النعمةِ الاعترافُ لله بها، والثناءُ عليه بتعليمها، وتعليمُ الجهال، والوقوفُ على ما علمه العبد، والسكوت عما لم يعلمه.

ومنها: أن الله جعل هذه القصة لنا معتبرًا، وأن الحسدَ والكبرَ والحرصَ من أخطر الأخلاق على العبد، فَكِبْرُ إبليسَ وحسدُه لآدم صيّره إلى ما ترى، وحِرْصُ آدم وزوجُه حملهما على تناول الشجرة، ولولا تدارك رحمة الله لهما لأَوْدَت بهما إلى الهلاك، ولكن رحمة الله تكمل الناقص، وتجبر الكسير، وتنجي الهالك، وترفع الساقط.

ومنها: أنه ينبغي للعبد إذا وقع في ذنب أن يبادر إلى التوبة والاعتراف، ويقول ما قاله الأبوان من قلب خالص، وإنابة صادقة؛ فما قص الله علينا صفة توبتهما إلا لنقتدي بهما، فنفوز بالسعادة، وننجو من الهلكة؛ وكذلك ما أخبرنا بما قاله الشيطانُ من تَوَعّدِنا، وعزمه الأكيد على إغوائنا بكل طريق، إلا لنستعد لهذا العدو الذي تظاهر بهذه العداوة البليغة المتأصلة.

والله يحبّ منا أن نقاومه بكل ما نقدر عليه من تجنب طرقه وخطواته، وفعل الأسباب التي يخشى منها الوقوع في شباكه، ومن عمل الحصون من الأوراد الصحيحة، والأذكار القلبية، والتعوذات المتنوعة، ومن السلاح المهلك له من صدق الإيمان، وقوةِ التوكل على الله، ومراغمته في أعمال الخير، ومقاومة وساوسه والأفكار الرديئة التي يدفع بها إلى القلب كل وقت بما يضادها، ويبطلها من العلوم النافعة والحقائق الصادقة.

اللهم ارزقنا الاعتبار والادكّار، وأعدنا إلى جنة الخلد، مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقا.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.





المجلس التاسع

﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ﴾[1]

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد.

فإن الحديث ههنا سيكون حول قول الله تعالى: ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ﴾ الأنفال:٦٣ فهذه آية عظيمة تذكر بنعمةٍ جسيمةٍ يُسْتَوجَب شُكْرُها، ويُسْتَنْكَرُ كُنُودُها.

تلك هي نعمة الألفة، وتقاربِ القلوب، ومحبةِ الناس بعضهم بعضًا. والعجيب أن كثيرًا من النعم التي نتقلب فيها صباحًا ومساءً لا نعرف قدرها إلا عند فقدها.

ومن تلك النِعم نعمةُ تآلف القلوب، وعَطْفِ بعضها على بعض، ومودة بعضها بعضًا.

ولو وقفت مع نفسك، وسألتها: ما الذي ألَّف بين قلبك وقلوبِ كثيرين ممن تعرفهم من أقارب لك، وأباعد منك؛ لأدركت أن ذلك محض فضل الله عز وجل.

(١) للدكتور محمد بن إبراهيم الحمد، الأستاذ المشارك في جامعة القصيم.

ثم تأمل في السعادة التي تغمرك، والأجور والمصالح التي تجنيها من جَرَّاء تلك المحبة والألفة.

وإذا أردت أن تتصور عِظَمَ تلك النعمة فاسأل نفسك: ما مصيرُك لو زالت تلك النعمةُ أو بعضُها؟

وما موقفك لو زالت تلك الألفة بينك وبين أصدقائك، أو أقربائك، من وَالِدَيْنِ، أو أولادٍ، أو إخوانٍ، أو معارف؟

وماذا سيكون طعم الحياة إذا خَلَتْ من معاني الألفة؟

إنها ستكون كالملح الأجاج، وكالماء الزُّعَاق.

وإنك لترى في حياة الناس نماذجَ لذلك؛ حيث زالت المودة بين أناس أشد ما يكونون قرابة كالآباءمع بعض أبنائهم، وكالإخوة والجيران والأصدقاء فيما بينهم. وربما بُذِلَت في سبيل إعادة المياه إلى مجاريها جهود، وأموال، وشفاعات في غير طائل.

ومن هنا ندرك نعمة الألفة، وأنها محض فضل الله عز وجل.

وهذا بدوره يدعونا إلى أن نرعى تلك النعمة حق رعايتها، وذلك بالحرص على تحقيق التقوى، والبعد عن المعاصي.

ولهذا امتن الله عز وجل على نبيِّه بهذه النعمة الكبرى؛ فَقَرَنَها بكونه _تبارك وتعالى_ كافِيَه، ومؤيدَه بنصره، ونصرِ المؤمنين.

والتأليف بين قلوب المؤمنين منةٌ أخرى على الرسول ﷺ إذ جعل أتباعه متحابين؛ وذلك أعون له على سياستهم، وأرجى لاجتناء النفع بهم؛ بحيث يكونون على قلب رجل واحد.

وكما أن ذلك مِنَّةٌ من الله على رسوله ﷺ، فهو كذلك مِنَّةٌ على المؤمنين؛ إذ نَزَعَ من قلوبهم الأحقاد والإِحَنَ التي كانت دأب الناس في الجاهلية؛ فكانت سببَ التقاتل بين القبائل بعضها مع بعض، وبين بطون القبيلةِ الواحدةِ. فلما آمنوا بمحمد انقلبت البغضاء بينهم مودة، كما قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا﴾ آل عمران:١٠٣.

وما كان ذلك التآلف والتحاب -كما يقول ابن عاشور- إلا بتقدير الله تعالى فإنه لم يحصل من قبل بوشائج الأنساب، ولا بِدَعوات ذوي الألباب، ولا ببذل الطائل من الأموال ولو كان جميع ما في الأرض.

ولكن الله أَلَّف بينهم بعزته وقدرته؛ فهو عز وجل قويُّ القدرة؛ فلا يعجزه شيء، مُحْكِمُ التكوين؛ فيجعل المتعذر كالأمر المسنون المألوف؛ فكان ذلك التأليف بينهم آيةً من آيات هذا الدين.

فهذا سر من أسرار تلك الآية العظيمة يتبين من خلاله عِظَمُ شأنِ تآلف القلوب، وأَثَرُه في ترابط المسلمين وسعادتهم، وعِزَّتهم، وهيبتهم، وتقويةِ آصرتهم.

اللهم ألف بين قلوبنا، وأصلح ذات بيننا.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.





المجلس العاشر

﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾[1]

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فمن جوامع الكلم القرآنية، ما خُتِمَتْ به سورة الأعراف، في وصية من الله لنبيه ﷺ حيث يقول: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ الأعراف:١٩٩.

قال القرطبي: «هذه الآية من ثلاث كلمات، تضمنت قواعد الشريعة في المأمورات والمنهيات.

فقوله: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ﴾ دخل فيه صلةُ القاطعين، والعفو عن المذنبين، والرفق بالمؤمنين، وغيرُ ذلك من أخلاق المطيعين.

ودخل في قوله: ﴿وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ﴾ صلةُ الأرحام، وتقوى الله في الحلال والحرام، وغض الأبصار، والاستعداد لدار القرار.

---

(١) للقرطبي في تفسيره (٧/ ٣٧٥) باختصار.

وفي قوله: ﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ الحضُ على التعلق بالعلم، والإعراض عن أهل الظلم، والتنزه عن منازعة السفهاء، ومساواة الجهلة الأغبياء، وغير ذلك من الأخلاق الحميدة والأفعال الرشيدة.

وهذه الخصال تحتاج إلى بسط، وقد جمعها رسول الله ﷺ لجابر بن سليم رضي الله عنه.

قال جابر بن سليم، أبو جُرَيٍّ رضي الله عنه: ركبت قعودي ثم أتيت إلى مكة، فطلبت رسول الله ﷺ، فأنخت قعودي بباب المسجد، فدلوني على رسول الله ﷺ، فإذا هو جالس، عليه بُرْدٌ من صوف، فيه طرائقُ حُمْر، فقلت: السلام عليك يا رسول الله. فقال: «وعليك السلام». فقلت: إنا معشر أهل البادية، قوم فينا الجفاء، فعلمني كلمات ينفعني الله بها. قال: «ادن» ثلاثًا، فدنوت فقال: «أعد علي»، فأعدت عليه فقال: «اتق الله! ولا تحقرن من المعروف شيئًا، ولو أن تلقى أخاك بوجه منبسط، وأن تفرغ من دلوك في إناء المستسقي، وإنْ امرؤٌ سبّك بما لا يعلم منك فلا تسبه بما تعلم فيه، فإن الله جاعل لك أجرًا، وعليه وزرًا، ولا تسبنّ شيئًا مما خولك الله تعالى» قال أبو جري: فو الذي نفسي بيده، ما سببتُ بعده شاةً ولا بعيرًا [1].

---

(١) البزار ح (١٩٧٧)، وأحمد ح (٢٠٦٣٢)، وصححه ابن حبان (٥٢٢)، والحاكم (١/ ١٢٤).

وروى البخاري من حديث عبد الله بن الزبير في قوله: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ قال: ما أنزل الله هذه الآية إلا في أخلاق الناس.

وقال جعفر الصادق: أمر الله نبيه بمكارم الأخلاق في هذه الآية، وليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق من هذه الآية.

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ أي بالمعروف، وهو كل خصلة حسنة ترتضيها العقول، وتطمئن إليها النفوس. قال الشاعر:

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه... لا يذهب العرف بين الله والناس

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ أي: إذا أقمت عليهم الحجة، وأمرتهم بالمعروف، فجهلوا عليك فأعرض عنهم، صيانةً له عليهم ورفعا لقدره عن مجاوبتهم.

وهذا وإن كان خطابًا لنبيه عليه الصلاة والسلام، فهو تأديبٌ لجميع خلقه.

روى البخاري عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: قَدِمَ عيينة بن حصن، فنزل على ابن أخيه الحُرِّ بن قيس بن حصن -وكان من النفر الذين يدنيهم عمر رضي الله عنه- وكان القُرّاء أصحاب مجالس عمر ومشاورته، كهولًا كانوا أو شبانا، فقال عيينة لابن أخيه: يا بن أخي، هل

لك وجه عند هذا الأمير، فتستأذن لي عليه؟ قال: سأستأذن لك عليه، فاستأذن لعيينة، فلما دخل قال: يا بن الخطاب، والله ما تعطينا الجزل، ولا تحكم بيننا بالعدل! قال: فغضب عمر حتى هم بأن يقع به! فقال الحُرُّ: يا أمير المؤمنين، إن الله قال لنبيه ﷺ: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ وإن هذا من الجاهلين، فوالله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه، وكان وقّافًا عند كتاب الله سبحانه وتعالى.

وهكذا شأن المؤمن، يهتدي بالقرآن في غضبه ورضاه، فاللهم اجعلنا من الوقّافين عند حدودك، الحافظين لعهودك، العاملين بكتابك.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.





المجلس الحادي عشر

من فضائل الصديق رضي الله عنه في ضوء قوله تعالى ﴿ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ﴾(١)

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فيقول الله تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ التوبة: ٤٠.

لما بايع الرسول صلى الله عليه وسلم أهل العقبة أمر أصحابه بالهجرة إلى المدينة، علمت قريش أن أصحابه قد كثروا، وأنهم سيمنعونه فأعملت آراءها في استخراج الحيل، فمنهم من رأى الحبس، ومنهم من رأى النفي، ثم اجتمع رأيهم على القتل، فجاء الخبر من السماء، وأمره أن يفارق المضجع، فبات عليٌّ رضي الله عنه مكانه، ونهض الصديق لرفقة السفر، فكانت الوجهة للغار، فبدأ الصديق بدخوله؛ ليكون وقايةً له إنْ كان ثَمّ مُؤذٍ، فلما وقف القوم على رؤوسهم،

(١) الفوائد لابن القيم: (٧٤)، باختصار وتصرف يسير.

وصار كلامهم بِسَمْعِ الرسول ﷺ والصديق، قال الصديق -وقد اشتد به القلق-: يا رسول الله! لو أن أحدهم نظر إلى ما تحت قدميه لأبصرنا! فقال رسول الله ﷺ: «يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما»[1]!.

لما رأى الرسول حزنه قد اشتد -لكن ليس على نفسه- قوّى قلبه ببشارة: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ فظهر سر هذا الاقتران في المعية لفظًا، كما ظهر حُكمًا ومعنى، إذْ يقال: رسولُ الله، وصاحبُ رسولِ الله، فلما مات، قيل: خليفةُ رسول الله، ثم انقطعت إضافة الخلافة بموته، فقيل: أمير المؤمنين.

فأقاما في الغار ثلاثًا، ثم خرجا منه، فلما استقلا على البيداء لحقهما سراقة بن مالك، فلما شارف الظفر، أرسل عليه الرسول ﷺ سهمًا من سهام الدعاء، فساخت قوائم فرسه في الأرض إلى بطنها، فلما علم أنه لا سبيل له عليهما، أخذ يعرض المال على من قد ردّ مفاتيح الكنوز ﷺ، ويُقدم الزاد إلى من أشبعه الله.

كانت تُحفة ﴿ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ﴾ مُدّخرةً للصديق رضي الله عنه دون الجميع:

فهو الثاني في الإسلام، وفي بذل النفس، وفي الزهد، وفي الصحبة، وفي الخلافة، وفي العمر، وفي سبب الموت؛ لأن الرسول ﷺ مات عن أثر السم، وأبو بكر سُمَّ فمات، أسلم على يديه من العشرة: عثمانُ، وطلحةُ، والزبيرُ،

(١) البخاري (٤٦٦٣)، مسلم (٢٣٨١).

وعبدُالرحمنِ بن عوف، وسعدُ بن أبي وقاص، وكان عنده يوم أسلم أربعون ألف درهم، فأنفقها أحوج ما كان الإسلام إليها، فلهذا قال ﷺ: «ما نفعني مال ما نفعني مال أبي بكر»[1]، فهو خيرٌ من مؤمن آل فرعون؛ لأن ذلك كان يكتم إيمانه، والصديقُ أعلن به، وهو خيرٌ من مؤمن آل ياسين؛ لأن ذلك جاهد ساعة، والصديقُ جاهد سنين.

نطقت بفضله الآيات والأخبار، واجتمع على بيعته المهاجرون والأنصار، فيا مبغضيه في قلوبكم من ذكره نار، كلما تليت فضائله علا عليهم الصغار! أترى لم يسمعِ الروافضُ: ﴿ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ﴾؟

دعي إلى الإسلام فما تلعثم ولا أبى، وسار على المحجة فما زل ولا كبا، وصبر في مدته من مدى العدى على وقع الشبا، وأكثرَ في الإنفاق فما قلل حتى تخلل بالعبا!

تالله لقد زاد على السبك في كل دينار دينار: ﴿ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ﴾.

من كان قرين النبي في شبابه؟ من ذا الذي سبق إلى الإيمان من أصحابه؟ من الذي أفتى بحضرته سريعا في جوابه؟ من أول من صلى معه؟ من آخر من صلى به؟ من الذي ضاجعه بعد الموت في ترابه؟ فاعرفوا حق الجار.

---

(١) الترمذي (٣٦٦١) وصححه ابن حبان (٦٨٥٨).

نهض يوم الردة بفهم واستيقاظ، وأبان من نص الكتاب معنىً دق عن حديد الألحاظ، فالمحب يفرح بفضائله، والمبغض يغتاظ.

كم وقى الرسول بالمال والنفس؟ وكان أخص به في حياته، وهو ضجيعه في الرمس. فضائلُه جليّة، وهي عن اللبس خَلِيّة!

لقد دخلا غارًا لا يسكنه لابث، فاستوحش الصديق من خوف الحوادث، فقال الرسول ﷺ: «ما ظنك باثنين، والله الثالث؟»[1]، فنزلت السكينة، فارتفع خوف الحادث، فزال القلق وطاب عيش الماكث، فقام مؤذن النصر ينادي على رؤوس منائر الأمصار: ﴿ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ﴾.

والله ما أحببناه لهوانا، ولا نعتقد في غيره هوانا، ولكن أخذنا بقول علي وكفانا: «رضيك رسول الله لديننا، أفلا نرضاك لدنيانا»[2].

اللهم ارض عن الصديق، واجمعنا به في دار كرامته.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.



(١) البخاري (٤٦٦٣)، مسلم (٢٣٨١).
(٢) أخرجه الخلال في "السنة" (١ / ٢٧٣)، والآجري في الشريعة (٤ / ١٧١٢).



المجلس الثاني عشر

الواعظ العظيم في أول سورة هود [1]

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فيقول العلامة الشنقيطي رحمه الله في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٦ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۗ وَلَئِن قُلۡتَ إِنَّكُم مَّبۡعُوثُونَ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡمَوۡتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ هود: ٦ - ٧.

اعلم أن الله تبارك وتعالى ما أنزل من السماء إلى الأرض واعظًا أكبر، ولا زاجرًا أعظم مما تضمنته هذه الآيات الكريمة وأمثالها في القرآن، من أنه تعالى عالم بكل ما يعمله خلقه، رقيب عليهم، ليس بغائب عما يفعلون.

(١) أضواء البيان ٣/ ٩ للعلامة الشنقيطي.

وضرب العلماء لهذا الواعظ الأكبر، والزاجر الأعظم مثلًا؛ ليصير به كالمحسوس، فقالوا: لو فرضنا أن ملكًا قتّالًا للرجال، سفّاكًا للدماء شديد البطش والنكال على من انتهك حرمته ظلمًا، وسيافه قائم على رأسه، والنطع مبسوط للقتل، والسيف يقطر دمًا، وحول هذا الملك الذي هذه صفته جواريه وأزواجه وبناته، فهل ترى أن أحدًا من الحاضرين يهتم بريبة أو بحرام يناله من بنات ذلك الملك وأزواجه، وهو ينظر إليه، عالم بأنه مطلع عليه؟! لا، وكلا! بل جميع الحاضرين يكونون خائفين، وجلة قلوبهم، خاشعة عيونهم، ساكنة جوارحهم خوفًا من بطش ذلك الملك.

ولا شك -ولله المثل الأعلى- أن رب السموات والأرض جل وعلا أشد علمًا، وأعظم مراقبة، وأشد بطشًا، وأعظم نكالا وعقوبة من ذلك الملك، وحماه في أرضه محارمه. فإذا لاحظ الإنسان الضعيف أن ربه جل وعلا ليس بغائب عنه، وأنه مطلع على كل ما يقول وما يفعل وما ينوي، لان قلبه؛ فخشي الله تعالى، وأحسن عمله لله جل وعلا.

ومن أسرار هذه الموعظة الكبرى، أن الله تبارك وتعالى صرح بأن الحكمة التي خلق الخلق من أجلها هي أن يبتليهم أيهم أحسن عملًا، ولم يقل: أيهم أكثر عملًا، فالابتلاء في إحسان العمل، كما قال تعالى في هذه السورة الكريمة: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ هود:٧ الآية.

وقال في الملك: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴾ الملك:٢.

ولا شك أن العاقل إذا علم أن الحكمة التي خلق من أجلها هي أن يبتلى -أي يختبر: بإحسان العمل- فإنه يهتم كل الاهتمام بالطريق الموصلة لنجاحه في هذا الاختبار، ولهذه الحكمة الكبرى سأل جبريل النَّبي ﷺ عن هذا ليعلمه لأصحاب النَّبي ﷺ فقال: «أخبرني عن الإحسان»، أي وهو الذي خلق لأجل الاختيار فيه، فبين النَّبي ﷺ أن الطريق إلى ذلك هي هذا الواعظ، والزاجر الأكبر

الذي هو مراقبة الله تعالى، والعلم بأنه لا يخفى عليه شيء مما يفعل خلقه، فقال له: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[1] انتهى كلامه.:.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.



(١) رواه مسلم ح (٨).



المجلس الثالث عشر

من أسرار قوله تعالى

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[1]

الحمد لله الذي أنزل القرآن، وتكفل بحفظه، والسعادة لمن اتبعه، والصلاة والسلام على خيرته من خلقه ورسله، أما بعد:

فإن من أعظم نعم الله تعالى على العباد -بعد إنزال القرآن- أنه تكفّل بحفظه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ الحجر:٩، وهذه الآية الكريمة تضمنت جملةً من الفوائد، منها:

الأولى، والثانية: أن القرآن كلام الله غير مخلوق، وأن الله تعالى عليٌّ على خلقه، وهذا مأخوذ من قوله: ﴿نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾ فإنه نزل به جبريل من الله العزيز العليم؛ فكونه نازلًا من عند الله يدل على علو الله، وكونه أيضًا من عنده يدل على أنه كلام الله؛ فإن الكلام صفة للمتكلم ونعت من نعوته.

(١) ينظر: "المواهب الربانية" (ص: ٥٢) للعلامة السعدي، بتصرف يسير.

الثالثة: عظمةُ القرآن ورفعةُ قدره وعلوُّ شأنه؛ حيث أخبر تعالى في هذه الآية بما أخبر، أنه الذي تولى إنزاله وحفظه، ولم يَكِل ذلك إلى أحد من خلقه.

الرابعة: أن القرآن مشتمل على كل ما يحتاج العباد إليه من أمور الدنيا وأمور الدين، ومن الأحوال الظاهرة والباطنة، فإن معنى الذكر أنه متضمن لتذكير العباد وتنبيههم لكل ما يحتاجون إليه، وتتعلق به منافعهم ومصالحهم، والأمر كذلك؛ فإنه مشتمل على أمور الدين والدنيا ومصالحهما، على أكملِ وجه وأشملِه، بحيث لو تذكرَ الخلقُ بتذكيره، ومشوا على إرشاده؛ لاستقامت لهم جميع الأمور، ولاندفعت عنهم الشرور؛ ولهذا أكثرَ اللهُ في القرآن من حث العباد على الاهتداء به في كل شيء، والتفكر والتدبر لمعانيه النافعة ويترتب على هذا المعنى:

الفائدة الخامسة: وهي أن من قام بالقرآن وتذكر به كان رفعة له، وشرفًا وفخرًا، وحسنَ ذِكر وثناء، وبهذا أول قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ الزخرف:٤٤ أي: شرفٌ ورفعةٌ لمن تذَكَّر به واستقام عليه.

السادسة: أن التذكر بغيره غيرُ مفيدٍ ولا مجدٍ على صاحبه نفعًا؛ لأنه إذا ثبت وتقرر أنه مادة التذكير لجميع المنافع؛ عُلم أن ما ناقضه وخالفه فهو بضد هذا الوصف؛ ولهذا أتى بالألف واللام المفيدة للاستغراق والعموم.

السابعة والثامنة: أن الله تكفل بحفظه حال إنزاله، فلا يمكن أن يقربه شيطان فيغيره ويزيد فيه وينقص، أو يختلط بغيره، بل نزل به القويُ الأمينُ جبريلُ على قلب الرسولِ محمد ﷺ القلبِ الزكي الذكي، الذي هو أكمل قلوب الخلق على الإطلاق، وضَمِن اللهُ لرسوله قرآنه وبيانه: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ القيامة:١٨، ١٩ وتكفّل اللهُ أيضًا بحفظه بعدما نزل وتقرر، فأكمله الله تعالى، وأكمل به على عباده النعمة، واستحفظه لهذه الأمة على اختلاف طبقات علمائها وأئمتها، ووكلهم به، وائتمنهم عليه؛ فكل قرنٍ حمل عدولُه وأزكياؤه - الذين ضمن الله لهم العصمة عند اتفاقهم - ألفاظَه ومعانيه غضةً طرية، لا تغيير فيها ولا تبديل، وكل من أراد إدخال شيء فيه أو إخراج شيء منه؛ قيّض الله من يذب عنه ويحفظه، وهذا من حفظه، ويؤيد هذا:

الفائدة التاسعة: أن هذا من أدلة صدقه وصدق ما اشتمل عليه، وصدق مَنْ جاء به - وهو محمد ﷺ - فإنه تعالى خبّر بأنه أنزله، وأنه حافظ له؛ فوقع كما أخبر الله تعالى، فصار هذا آية وبرهانًا على صدقه، وصحة ما جاء به، كما يشهد بذلك الواقع.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.





تلطف ولا تدهن[1]

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فإن التلطف بالقول والفعل أمرٌ مشروع إذا لم يكن على حساب الحق، وقد اتخذه الفتية أصحاب الكهف منهجًا في عزلتهم التي أثبتها الله في سورة (الكهف) في مقام الثناء عليهم وعلى صنيعهم؛ ولكن بعض الناس -ومنهم دعاة وطلاب العلم- قد يخرجهم التلطف من حيز المدارة المشروعة إلى حيز المداهنة المحرمة، فبدل أن يكون ناصحا أمينًا، يسعى لمدارة الناس ليكسب ودهم على حساب دين الله، وفرق بين الملاطفة والمدارة وبين المداهنة.

قال ابن القيم: «المداراة صفة مدح والمداهنة صفة ذم، والفرق بينهما أن المداري يتلطف بصاحبه حتى يستخرج منه الحق أو يرده عن الباطل، والمداهن يتلطف به ليقره على باطله، ويتركه على هواه، فالمداراة لأهل الإيمان، والمداهنة لأهل النفاق.

(١) أ.د. ناصر بن سليمان العمر، رئيس الهيئة العالمية لتدبر القرآن الكريم، أمين عام رابطة علماء المسلمين، المشرف العام على مؤسسة ديوان المسلم.

وقد ضُرب لذلك مثل مطابق: وهو حال رجل به قرحة قد آلمته، فجاءه الطبيب المداوي الرفيق، فتعرف على حال قرحته، ثم أخذ في تليينها، حتى إذا نضجت، أخذ في بطّها برفق وسهولة، حتى أخرج ما فيها، ثم وضع على مكانها من الدواء ما يمنع فساده، ويقطع مادة المرض، ثم تابع عليها بالمراهم التي تنبت اللحم، ثم يذر عليها بعد نبات اللحم ما ينشف رطوبتها، ثم يشد عليها الرباط، ولم يزل يتابع ذلك حتى صلحت وشفي من قرحته.

والمداهن قال لصاحبها: لا بأس عليك منها، وهذه يسيرة لا شيء فيها، فاسترها عن العيوب بخرقة، ثم اله عنها، فلا تزال مدتها تقوى وتستحكم حتى عظم فسادها»[1].

وقد أصاب ابن القيم رحمه الله كبد الحقيقة، وأنت واجد عند بعض المداهنين العزوف عن دعوة الحق مداهنة وذلك باسم التلطف، فكم من المهمات يُتغافل عنها رغبة في عدم تعكير الأجواء، وقد دأب أرباب الضلال إلى السعي للظفر بمداهنة أهل الحق، ولم ينقطع طمعهم في ذلك حتى من النبي ﷺ قال الله تعالى: ﴿وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ القلم:٩، وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾ يونس: ١٥، والله سبحانه يوجه خطابه الحاسم لنبيه ﷺ فيقول: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ الكهف: ٢٩.

(١) الروح، ١/ ٢٣١.

فعلى الداعية ألا يتنازل عن الدين، ثم يخادع نفسه بأنه يسلك مسلك التلطف والحكمة، بل تلك هي المداهنة المذمومة والركون المذموم للباطل.

إن على الداعية أن يحمل الدين وينشره في قالب لطيف حسن، ولا يصح الخلط بين اللطف في الدعوة وبين التنازل عن ثوابت الدين أو التنازل عن دعوة الناس تلطيفًا لأجواء الحياة.

ولابد أن نعي في مثل هذا المقام أنه كما يوجد من يداهن السلطان فهناك من يداهن الجمهور، ويسعى لإرضائهم ولا يتكلم إلا بما يرغبون، حفاظًا على التفافهم حوله، وسعيا في زيادة حبهم له، وهذا شأنه كشأن الأول فالمداهنة محرمة أيًا كان المداهَن، وليس التلطف حينها من التلطف الممدوح، وقد قال النبي ﷺ: «من التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس، ومن التمس رضا الناس بسخط الله، وكله الله إلى الناس»[(١)].

وهناك بعض العاملين في حقل الدعوة، قد دخل عليهم الشيطان وبلغ منهم مبلغًا أعظم، وذلك من باب التلطف بالناس وتحسين صورة الإسلام في نظر غير المسلمين، فبدؤوا يؤولون أخباره ويبدلون أحكامه تلطفًا بالآخرين، وتحبيبًا لهم في الدين -زعموا- وهذا الذي ضل به السابقون.

---

(١) الترمذي، ٤/ ٦٠٩، (٢٤١٤)، وصححه الألباني.

وأما الذين يداهنون من أجل المكاسب الدنيوية فما أكثرهم في سائر الأزمان فكيف الشأن الآن؟!

والمقصود، لاطف الناس ودارهم، ولكن لإيصالهم إلى ما يحبه الله ويرضاه، وإلاّ فلا تدهن فتغش! وأرض الله ولو سخط الناس، يكتب لك اللهُ رضاه، واحذر سخطه فيحل عليك غضبه، ومن يحلل عليه غضب الله فقد هوى.

اللهم أعذنا من ذلك، ومن اتباع الهوى المردي، وصلى الله وسلم على من تلطف وصدع بالحق لا بالهوى، وآله وصحبه أجمعين، ومن تأسى به واقتفى سنته إلى يوم الدين.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.





المجلس الخامس عشر

من صور التضرع النبوي: (دعاء زكريا بالولد) [(١)]

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فإن سورة مريم هي سورة رحمة الله بعباده وأنبيائه، فقد تكررت فيها مفردة (الرحمة) عشرين مرة، ولذا افتتحت السورة بقصة زكريا وابنه يحيى، وكان تقديمها لبيان ما يتجلى فيها من مشاهد عظيمة للرحمة بأولياء الله وأنبيائه.

فكان مطلعها: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾ مريم: ٢ فأضيفت الرحمة للرب؛ لأنه المنعم المتصرف: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ آل عمران: ٧٤، وفي قوله: ﴿عَبْدَهُۥ﴾ إشارة إلى أنها رحمة خاصة بعباده تقتضي الإجابة والإسعاد في الدارين.

وتفيد أن التعبد لله من أعظم أسباب الرحمة والإجابة،كما أن في ذكر رحمته بأوليائه عونا على محبته وذكره ومعرفته.

(١) د.عبدالله بن منصور الغفيلي، عضو هيئة التدريس بجامعة الإمام، وعضو الهيئة العالمية لتدبر القرآن.

ثم يبين السياق القرآني صورة التضرع النبوي لزكريا في قوله: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾ فالنداء استكانة في الدعاء لاسيما إذا كان الدعاء خفيا، كما قال تعالى: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ الأعراف:٥٥ وهكذا فعل زكريا،وذلك أعظم إيمانا وإخلاصا وتضرعا،ويستمر السياق مجليا تضرع نبي الله وانكساره بين يدي مولاه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ فجمع بين ضعفه وافتقاره وبين حسن ظنه ويقينه بربه، ثم يكشف عن باعث عظيم لدعائه بالولد وهو قوله: ﴿وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى﴾ فقد خاف أن يتولى من بعده من لا يدعو الناس إلى عبادة الله، فقد كان الدين مسيطرًا على همه، فلم يسأل الولد ليشبع رغبة الأبوة، أو يستعين به على نوائب الدهر، وإلا لم يكن بعد تقدم عمره واشتعال الشيب في رأسه، وهذا يؤكد صدق ضراعته وصلاح مقصده.

ثم بعد هذه المقدمة المتضمنة كمال الادب والافتقار، والإخلاص، وحسن الظن، والثناء، يأتي الطلب الذي يدل على علوّ همته، وشريف قصده، وحسن اختياره: ﴿فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾، فهو تعلق بالكرم الإلهي، وتأكيد على الاختصاص بالموهوب

من الواهب؛ لتكون هِبةً إلهية معجزة، متميزة من مصدرها، مُؤكَّدَةً بتميز نوعها، ولذا طلب أن يكون الموهوب: ﴿وَلِيًّا﴾ ولاية الدين وميراث النبوة، ولذا قال: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ فالأنبياء لا يورثون، وإنما يورث علمهم ودينهم وهو لم يخلف مالًا، كما أن آل يعقوب قد انقطعوا من زمن بعيد.

ثم يزيدُ زكريا طمعًا في فضل ربه، بأن يكون الموهوب صالحا فيقول: ﴿وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾: أي مرضيا عندك وعند خلقك.

وهذا أفضل ما يكون من الأولاد، فاستجاب الله دعوته فقال: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾، فما أجمل إجابة الله لضراعة عبده حينما يناديه في الملأ الأعلى باسمه، ويقول نبشرك بغلام، بل ويسميه بنفسه سبحانه!

إنها رحمة عظيمة تعجب منها زكريا فقال: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ مع وجود المانع لديه وزوجته، فأجيب: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ﴾ أي: يسير ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ مريم:٢-٩، فخَلْقُكَ من عدم أعظم، فسبحان الله القدير، المستحق للعبادة والضراعة.

فيا أيها المؤمن.. ما الذي يحول بينك وبين أن تنطرح بين يديه؟ وتقبل عليه؟ وتسأله من واسع رحمته، وسابغ فضله؟ فهو قريب من عباده ﴿وَٱدۡعُوهُ خَوۡفًا وَطَمَعًاۚ إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ الأعراف: ٥٦.

اللهم ارزقنا صدق الضراعة بين يديك، ولا تحرمنا لذة مناجاتك بذنوبنا.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.





المجلس السادس عشر

﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰ﴾(١)

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فيشعر بعض الناس بثقل حين يتلو القرآن أو يستمع إليه، فتجده يسعى إلى ختم السورة بأسرع ما يمكن، وإذا كان مستمعًا؛ فلربما غيّر المحطة، وربما استرق النظر إلى ساعته مرارًا إذا كان في صلاة التراويح.

وإذا كان الإسراع في القراءة يحرم المرء من التلذذ بالقرآن، فإن النصوص جاءت في النهي عن ذلك، من ذلك مارواه أحمد عن نهيك بن سنان، أنه أتى عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، فقال: قرأت المفصّل الليلة في ركعة، فقال: هذًّا مثل هذِّ الشعر، أو نثرا مثل نثر الدقل؟ إنما فُصّل لتفصلوا»(٢).

---

(١) د.محمد بن مصطفى السيد، عضو الهيئة العالمية لتدبر القرآن.
(٢) المسند ٧/ ٦٩ ح (٣٩٥٨).

لكن تعالوا لنتأمل معًا موقع القرآن الكريم منّا، وموقعنا من القرآن الكريم، فالله ـ يخاطب نبيّه ﷺ وكلَّ قارئ للقرآن الكريم قائلًا: ﴿ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ﴾ طه:٢، «فليس المقصود بالوحي وإنزال القرآن عليك وشرع الشريعة لتشقى بذلك، ويكون في الشريعة تكليف يشق على المكلفين، وتعجز عنه قوى العاملين، وإنما الوحي والقرآن والشرع شرعة الرحيم الرحمن، وجعله موصلًا للسعاة والفلاح والفوز، وسهّله غاية التسهيل، ويسّر كل طرقه وأبوابه، وجعله غذاءً للقلوب والأرواح، وراحة للأبدان»(١).

جاءت الآية مطلع سورة «طه»، لكن خاتمتها جاءت لتؤكد نتيجة الإعراض عن القرآن الكريم: ﴿ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ﴾ طه:١٢٤، ففي الأولى سعادة الإنسان بالقرآن، وفي الثانية شقاوته بالإعراض عنه، بأن تصبح معيشته ضنكًا، أي: ضيقة، وهذا يعني أن تكون المعيشة عذابًا على صاحبها، فيمتلئ قلبه بالهموم والأحزان من حيث رام أن يسعد نفسه وقلبه.

---

(١) تفسير السعدي (٥٠١).

تصنف بعض دول العالم بأنها الأفضل في دخل الفرد والتنمية البشرية، لكنها الأعلى في الانتحار، ألا يدعونا ذلك للتساؤل عن سرّ الانتحار هذا على الرغم من وجود الحياة المرفهة، مع حرية مطلقة في معاقرة الشهوات؟!

لقد خسر هؤلاء الروح وغذائها، فلم يجدوا بغيتهم في كون ملذات الدنيا كلها بين أيديهم، بل عاد عليهم ذلك باليأس والبؤس والإحباط والشقاء فانتحروا.

ألسنا نقرأ قول الله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ الأنعام: ١٢٥، ألم نسمع قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ الأنفال: ٢٤.

إن حياة القلب لا تكون إلا بعبودية الله، ولنتأمل التعبير بقوله: ﴿إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾، فحياتنا الهانئة السعيدة ، لا تكون إلا بطاعتنا لله تعالى واستجابتنا لرسوله ﷺ .

وإذا ربطنا الآيات بقوله: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ الإسراء: ٨٢، سنجد أنها خصت المؤمنين دون غيرهم بالإفادة من شفاء القرآن ورحمته، نتيجة لتصديقهم بآياته وعملهم بها، والشفاء عام من أمراض القلوب المعنوية من الضلال والفساد والجهل، وشفاء للأبدان من أمراضها الحسية.

اللهم اجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا، ونور صدورنا.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.





المجلس السابع عشر

أكلُ الحلال في ضوء قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾[1]

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

ففي عصر تنوعت فيه مصادر الأموال، وكثر الدخن فيها، فحريّ بالعبد أن يجتهد في طيب مصدر رزقه، الذي له أثر على بدنه، وقلبه، وإجابة دعوته. والمؤمن حين يجتهد في هذا، فإنما يتأسى بصفوة الخلق الذين قيل لهم: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ المؤمنون:٥١.

و«الطيب» في النصوص الشرعية يأتي كثيرًا بمعنى الحلال، وضده الخبيث بمعنى الحرام، ومنه: ﴿كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أي المُحَلّلات.

(١) للعلامة عبدالحميد بن باديس، ينظر: تفسير ابن باديس (ص:٣٥٣).(بتصرف)

وقد يأتي «الطيب» بمعنى الجيد، والخبيثُ بمعنى الرديء، كما في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ ﴾ البقرة:٢٦٧.

و»الصالح» في قوله: ﴿وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا﴾ يكون بفعل المأمورات وترك المنهيات، وتناول المباحات.

ونلحظ في هذه الآية الكريمة اهتمامًا بلقمة الحلال حين خوطب بذلك الرسل عليهم الصلاة والسلام؛ ليطبقوا هذا، وليبلغوه للناس.

ولما كان المقصود من الأكلِ -وهو الغذاءُ واللذةُ-، يحصل ببعض قال سبحانه: ﴿مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ فقال ﴿مِنَ﴾ التي تدل على التبعيض.

ولما كان المخاطب بأكل الحلال والعمل الصالح شأنه أن تستشرف نفسه لتعيين ثمرة ذلك، جاء الخبر مؤكدًا بـ» إنّ» في ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾.وحين يخبر الله عن علمه، فإنما يقصد به العلم المستلزم للجزاء، فكان كنايةً عن الجزاء، وفي هذا تفخيم لهذا الجزاء وتعظيم له، فهو جزاء الله العليم وكفى به.

واللهُ تعالى حين أمر بالأكل، فمن أجل بقاء البدن، واشترط أن يكون من الطيبات، لأنها هي التي تغذي ولا تؤذي، أما الخبائث ففيها الأذى ويتفه أو يعدم منها الغذاء.

وأمر بالعمل الصالح الذي فيه ذكاء للنفس وتزكية لها، ونفع لها في العاجل والآجل وخير للعباد والبلاد.

وأخبر بعلمه بعمل العاملين؛ ليجتهدوا في العمل ويخلصوا له فيه، وينتظروا جزاءهم من عنده.

والدين كله عمل صالح وتوحيد خالص، وقد انتظمتهما الآية تصريحًا في العمل واستلزامًا في التوحيد، وبيّن تعالى بهذه الآية أن هذا الذي اشتملت عليه هو دين الله لجميع الأمم، أوصى به رسله- صلوات الله وسلامه عليهم- ليبلغوه لخلقه، فهو حقيق أن يؤخذ به ويعمل عليه.

وههنا نكتة بلاغية في ترتيب هذه المذكورات في الآية:

فإن الأعمال تتوقف على سلامة الأبدان، فكانت المحافظة على الأبدان من الواجبات، ولهذا قدم الأمر بالأكل على الأمر بالعمل.

فليس من الإسلام تحريم الطيبات التي أحلها الله، ولا تضعيف الأبدان كما يفعله بعض الجهال، الذين يظنون هذا دينًا. والميزان العدل في ذلك هو ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه -رضوان الله عليهم-.

وفي تقديم الأكل من الطيبات على العمل الصالح تنبيه على أنه هو الذي يثمرها؛ لأن الغذاء الطيب يصلح عليه القلب والبدن، فتصلح الأعمال، كما أن الغذاء الخبيث يفسد به القلب والبدن، فتفسد الأعمال.

فعلى المؤمن أن يتحرى في مأكله ومشربه- وكل ما به قوام ذاته- الحلالَ الطيبَ، يمتثل بذلك أمر الله، ويقصد التوصل به إلى العمل الصالح. وعليه أن يتحرى في فعله وتركه أمر الله ونهيه، حتى يكون عمله عملًا صالحًا طيبًا متقبلًا، يمتثل بذلك أمر الله، ويقصد قبول عبادته ودعائه لديه.

والمتحري للحق والخير جدير بالتوفيق إليه وكثرة إصابته.

رزقنا الله التحري لطاعته، والتوفيق لمرضاته، والتأدب بكتابه آمين.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.





المجلس الثامن عشر

تلقي الشائعات في ضوء قصة الإفك[1]

الحمدُ لله رَبِّ العالمينِ، والصلاةُ والسلامُ على المبعُوثِ رحمةً للعالمينِ، نبيّنا محمدٍ وعلى آلهِ وصحبه أجمعين، أمَّا بَعد:

فيقول الله تعالى عن شائعة الإفك: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾(النور: ١٥).

في هذه الآية العظيمة تصويرٌ عجيب لدقائق شأن الشائعات، وكيفية تلقّي الناس لها، وإذاعتهم لها بعد ذلك، ولعل هذا الأمر يتضّح من خلال هذا التحليل لمضمون هذه الآية الكريمة:

أولًا: مجيء كلمة ﴿إِذْ﴾ في مطلع هذه الآية؛ يشعر بلحظة تلقّي الخبر، وأنها لحظةٌ حاسمة، يختلف الناس في التعامل مع الخبر بحسب هذه اللحظة، ولذلك جاء ذكرُ توقيت تلقّي الإنسانِ للخبر في بداية هذه الآية.

ثانيًا: التعبير عن سماع الخبر بالتلقي، فقال سبحانه وتعالى: ﴿تَلَقَّوْنَهُۥ﴾؛ بدلًا من تسمعونه، مع أنَّ جُلَّ الشائعات يكون تلقيها عن طريق السمع، وأداة ذلك هي الأُذن كما لا يخفى، ولكن في ذكر التلقّي هنا دلالة لطيفة؛ إذ فيه إيماءٌ إلى شوق

(١) للدكتور عويض بن حمود العطوي، وكيل الدراسات العليا في جامعة تبوك.

المتلقي لما يتلقّى، فكأنَّ هناك أناسًا متعطشين لمثل هذه الشائعات، يبحثون عنها، ويتلقفونها، فإذا حصل لهم ما يريدون تلقوها تلقي الأهل لغائبهم، ففي التعبير بالتلقي دلالة على استعداد المتلقي وترحيبه بما سيأتي، وهذا يُنْبِئ عن مرضٍ في بعض القلوب، وخصوصًا ما كانت من الفئة الحاقدة على الدين وأهله، ولعلنا نلحظ هذا التلقي أحيانًا في تلقف أخبار الأخيار، وتصيُّد أخطائهم، ونشرها وتكبيرها؛ على ما يرى الناس ويسمعون.

ثالثًا: صيغة ﴿تَلَقَّوْنَهُۥ﴾ مصوّرةٌ للجهد المبذول من متلقّي الخبر، فهو (تَفعّل) مثل التصبُّر، فهو عن قصدٍ من جهة، وهو يُجْهِدُ من جهةٍ أخرى، وهذا من أعجب ما يكون في الإنسان؛ حيث إنَّه يصرفُ همته، ويشغلُ نفسه، ويبذلُ جهده في ملاحقة شؤون الناس، وتلقف أخبارهم، وقد يكون في هذه الصيغة دلالة على تَنقُّل الأخبار بين الناس، بل بين هذه الفئة خصوصًا.

رابعًا: جاءت كلمة ﴿تَلَقَّوْنَهُۥ﴾ محذوفة (التاء)، والأصل (تتلقونه)، وفي هذا تصويرٌ لسرعة التلقيّ؛ بسبب تلهّف السامع لسماع الخبر والشائعة، وإذاعته لها.

خامسًا: قوله تعالى: ﴿بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾، نلحظ فيه كيف كان تلقي الخبر باللسان، مع أنَّ اللسان ليس هو الأداة لتلقي الأخبار، بل الأداة المعنيّة بذلك هي الأذن، ومع هذا لم يكن النظم الجليل: إذ تلقونه بآذانكم، بل بألسنتكم، لما في ذلك من تصوير اختلال موازين التلقي عند هذه الفئة الراغبة في الشر، ونشر الشائعات المغرضة بين الناس، فكان في ذكر التلقي باللسان بيانٌ أن هذا الخبر الذي تتلهفون

له، وتتلقونه تلقي الغائب؛ لم يمر من قنواته التي تضمن سلامته، أو سلامة التعامل معه؛ وهي: الأذن، ثم العقل، ثم بعد ذلك اللسان، بل إن الذي حصل هو تلقي من اللسان إلى اللسان، فما أدق هذا التصوير لحال كثير من محبّي نشر السوء.

سادسًا: مجيء هذه الكلمة مجموعة ﴿بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾، وكذلك قوله تعالى: ﴿بِأَفْوَاهِكُم﴾، فيه ملمحٌ لكثرة الفاعلين لهذا الأمر، ولانتشار ذلك بين الناس، وإلا لقيل: إذ تلقونه باللسان، وتقولون بالفم، ويؤيد هذا إضافة ذلك إلى مخاطبين، ليكون ذلك أكثرَ حضورًا وواقعية.

سابعًا: في وقوع قوله تعالى: ﴿وَتَقُولُونَ﴾ مباشرة بعد قوله تعالى: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ﴾ دليلٌ على سرعة السعي في نشر الخبر، وعدم عرضه على محك الدين والعقل، وفي التعبير بالمضارع ﴿وَتَقُولُونَ﴾ دليلٌ على تجدد ذلك منهم في غير مرّة.

ثامنًا: في مجيء مادة القول ﴿وَتَقُولُونَ﴾، دون تنشرون، أو تذيعون مثلًا؛ للدلالة على تفوههم بهذا الخبر المنقول، وإجرائهم ذلك الخبر السيئ على ألسنتهم، وهذه خطيئة أخرى زيادة على خطيئة التلقي التي ذكرت سابقًا.

تاسعًا: قوله تعالى: ﴿بِأَفْوَاهِكُم﴾ تأكيدٌ لحصول القولِ منهم، وذلك لأنَّ ذِكرَ القول يغني عن ذكر هذا القيد ﴿بِأَفْوَاهِكُم﴾؛ لأنَّه من البَدَهي أنَّ القول سيكون بالفم، وفي النص على ذلك زيادة على التأكيد المذكور لطيفة أخرى؛ وهي أنَّ المذكورَ-هنا-هو الفم، لا اللسان، فعلمنا من ذلك أن التلقي كان باللسان؛ والإخراج كان بالفم، وهذا يعني أنَّ وسيلة التلقي لم تكن هي الوسيلة المناسبة؛ ولا الصحيحة، وكذلك طريقة الإخراج، لم تكن هي الطريقة الصحيحة؛ ولا السليمة.

وقد دلّ ذكر الفم في الإخراج على أنَّ حجم الشائعة قد تضخم في نفس هذا المتلقي، حتى ما قدر اللسان الذي تلقاها على إخراجها؛ لأنه زاد فيها من مروياته، أو تحليلاته، أو كذبه، أو زوره، حتى أصبح اللسان عاجزًا عن حملها، فكان لابد أن يتآزر الفم بجميع مكوناته؛ بما فيها اللسان لحمل هذا العبء الثقيل ليخرجه مرة أخرى.

ولك أن تتأمل -أيها المؤمن بربه- حجم هذه الشائعة التي هذا وصفها، وكم سيكون تأثيرها في الناس، وهذا الأمر من التلقّي إلى الإخراج بهذا التصوير العجيب هو تجسيد دقيق لواقع محبي الشر، ومتلقّي السوء، وناقليه، فاحذر أن تكون منهم.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.





المجلس التاسع عشر

الحوار في القرآن الكريم[1]

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فإن من محاسن الدين الإسلامي أنه يقوم على الحق والعدل، ويحرر القضايا، وينصفُ الخصوم، ويقيم الحجة، وقد أرسل الله لعباده رُسُلًا مبشرين ومنذرين، ودعاةً إليه بالحكمةِ والموعظةِ الحسنةِ، والمجادلة بالأحسن، ولم يطلب إكراه أحدٍ على الإيمان به: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ﴾ البقرة:٢٥٦، وطلب من كل مُحاورٍ حجته: ﴿قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ النمل:٦٤.

ومن أهم ما يميز المسلم دعوته إلى الله بقوله وفعله، وسمته، فحياته كلها دعوة، قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ الأنعام:١٦٢، لذا كان على المسلم معرفة منهج الحوار وطرقه

---

(١) د.أسماء بنت راشد الرويشد، المشرفة العامة على مركز آسية، وعضو الهيئة العالمية لتدبر القرآن.

وآدابهِ الشرعية؛ لقوله: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ النحل:١٢٥، وقوله: ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ يوسف:١٠٨.

وقد أولى الله تعالى الحوار اهتمامًا في كتابه العزيز، فذكر حوار الأنبياء -عليهم السلام- مع أقوامهم، وبيّن لنبيه ﷺ كيف يحاور أثناء تبليغه دعوة ربه، كما حفلت السُنَّة بنماذج من حواره ﷺ مع الآخرين على تنوعهم.

وقد ورد في القرآن ذكر المحاورة، وهي المفاعلة من الحوار، قال تعالى: ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٞ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا﴾ الكهف:٣٤، ﴿وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾: أي يخاطبه ويجاوبه.

وقال الله عز وجل: ﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا وَتَشۡتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾ المجادلة:١، قوله ﴿تَحَاوُرَكُمَآ﴾ أي: مراجعتكما الكلام.

وفي القرآن آياتٌ تحكي طُرُق الأنبياء والمرسلين -عليهم السلام- في دعوة أقوامهم بالمحاورة، قال تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۭ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُۖ وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ فَأَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ﴾ غافر:٥، ثم يبين الله كيف رد عليهم

الرسل -عليهم السلام- وحاوروهم وجادلوهم بالحسنى، وذكر الله حوارَ نوحٍ وهودٍ وصالحٍ وإبراهيمَ ولوطٍ وشعيبٍ وموسى وسليمان وعيسى -عليهم السلام- ورسلٍ آخرين مع أقوامهم، وذكر تعالى حوار أتباع الرسل من المؤمنين مع من لم يؤمن من قومهم، وذكر حوار الملائكة معه سبحانه، وكلامه مع بعض رسله -عليهم السلام-، وذكر حوار الأنبياء مع الملائكة -عليهم السلام-، وحوار الملائكة مع مريم -عليها السلام-، وذكر حوار عيسى عليه السلام معه، وحوار الملائكة -عليهم السلام- مع الكفار يوم القيامة، وحوار المؤمنين مع الكافرين، وحوار الكافرين فيما بينهم في النار، وحوار الأعراف مع أهل الجنة وأهل النار.

ومن الحوارات الدعوية التي وردت في القرآن الكريم حوار يوسف عليه السلام مع السجينين عندما سألاه عن تعبير رؤياهما، فابتدأهما بالدعوة إلى الله، ثم عبر لهما رؤياهما.

كما تكرر في القرآن نقل حوارات دارت بين موسى عليه السلام وبين فرعون، ومنها حوار موسى عليه السلام وهو يعرض حججه الدامغة عندما سأله فرعون: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، فبين له عليه السلام بقوله: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ فعارضه فرعون و﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾، فلم يعبأ به موسى عليه السلام، واستمر ﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، وهنا

بلغت المعارضة غايتها من فرعون حينما قال: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾، فتجاهله عليه السلام ولم يشغله الرد عن مقصوده في الحوار، واستمر بقوله: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾، وعرض عليه حينها المعجزات الدالة على صدقه ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ﴾ الشعراء: ٢٣ – ٣٣.

كما أن أسلوب الحوار من أنفع الأساليب التعليمية وفي القرآن نماذج من استعماله في هذا المجال، كما في قصة موسى مع الخضر عليه السلام وفيها: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾ الكهف: ٦٦ – ٦٩.

وهناك حوارات دعوية كثيرة جدًا منقولة في كتاب الله تعالى، فليجتهد المسلم في تأملها وتدبرها؛ ليستمد منها منهجًا دعويًا متينًا مؤثرًا بإذن الله، نسأل الله تعالى أن يهدينا سبل الرشاد وأن يسددنا في الأقوال والأفعال.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.





المجلس العشرون

﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ﴾[1]

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله أما بعد:

فيقول الله تعالى في سورة القصص، مخبرًا عن أم موسى التي فجعت بالتقاط آل فرعون لولدها: ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ القصص:١١! فلم خَصّت أمُ موسى أختَه بتتبع مسيرهِ في اليم حتى وصل إلى قصر فرعون!

لم الأخت هي المؤهلة لحمل الرسالة في ذلك الجو المرعب القاتل!

ما السر الذي ألهمه الله في قصة موسى حتى يبرز خبر الأخت؟ أليس له أقارب غيرها؟ أين جيرانهم؟ أين الصالحون من بني إسرائيل؟

قصتنا اليوم قصة الأخت التي أعلى الله شأنها في كتابه بذكرها في هذه اللحظات الرهيبة من حياة رسول من أعظم الرسل عليهم الصلاة والسلام.

﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ﴾ فمضت أخت موسى في عالم من الخوف والقتل والجبروت، تسير خلف أخيها الرضيع، وفي قلبها بحار من الحب

(١) د.عبدالله بن بلقاسم.

والحنان والرحمة، لا يمكن لقلب على الأرض -بعد أمه- أن يقوم بهذا الدور الشجاع إلا قلب الأخت!

مضت أخت موسى تتبع التابوت حتى ألقاه الموج في داخل القصر.

كان بإمكانها أن تعود وقد أدت مهمتها، وأعذرت من أمها وأخيها، وبذلت جهدها، لكن هيهات للحب أن تنتهي قصته! وهيهات للأخوة أن تسدل ستارها!

مضت الفتاة ووجه أخيها موسى في عينها، وصوته يدوي في أذنيها، مضت تقتحم أهوال القصر، ودخلت إلى لجة الموت تنظر ما ذا حل بأخيها، ماذا جرى له؟ أي يد حملته؟ وماذا فعلوا به؟

ويبدو من الآيات أنها تخطت حواجز هائلة، حتى اقتربت من دوائر القرار الحاسم، وهي ضعيفة مسكينة، وتحسست أنباء حيرة القصر في البحث عن مرضعةٍ للصبي الذي امتنع عن الرضاع من كل المرضعات.

ورغم احتمالات انكشاف الأمر أمام مخابرات فرعون، تحركت الأخت المحبة من جديد وصدعت باقتراحها المحفوف بالمخاطر: ﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ القصص: ١١ - ١٣.

قصة أخت موسى قصة حب مكررة في كل بيت مؤمن في بيوتنا قلوب تحمل هذا الحب لنا!

في بيوتنا أخواتنا الذي سطر القرآن ما يحملنه من الحب لنا!

لم يقل ربنا: (وقالت فلانة)؛ لأن القضية ليست قضية فلانة بل قال سبحانه: ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ ﴾؛ لأن المعنى في الأخوة الكامنة هنا الأخوة التي تبعث على الرحمة والعطاء والصلة والإحسان والقرب.

الأخت هذا الاسم الجميل الذي يحرك مشاعر المحبة في قلوب المؤمنين، وألطاف الأخوة في أفئدة الصالحين.

الأخت هذه الكلمة التي تذرف لها الدموع، وتتحرك لها القلوب.

الأخت هي النسخة المؤهلة لحمل رسالة الأم..

إنها شريكة الرحم والصلب والمهاد والثدي، والبدايات الأولى، والبراءات الصغيرة.

بعد كل هذا التاريخ من القربى -ومع شديد الأسف- تشاهد صورا تنكرت لكل الماضي، وقطعت أواصر القربى، فسقطت الأخت إلى قاع الاهتمامات، وأصبحت قريبة من الدرجة والرابعة الخامسة!

أصبحتْ تدخل بيتَ أخيها كأنها غريبة، تحضر حزينة، وتذهب باكية!

انقرضت البسمة لها من وجوه إخوانها، ورحلت الرحمة عنها من قلوبهم!

لم يعد من الأخوة إلا مسميات جافة، وكلمات فاترة، وتكلفات ثقيلة.

أخوات في الستين والسبعين، قد انحت ظهورهن، وشحبت وجوههن، ورقت عظامهن، وساء أزواجهن، لا يجدون ذرة من الاحترام، ولا لفتة من التكريم، عند إخوانهم الذين ربما ربَّت بعضهم، وأطعمته في حجرتها، وسهرت ليلها معه في طفولته.

أين أخت موسى؟ وجيلُ جديدٌ من الشباب ينظر إلى أخواته كأنهن خادمات في بيته، يأمرهن وينهاهن، ويشتمهن، وربما بلغت به الوقاحة والظلم أن يضربهن، في بيوت جاهلة، لا تقدر قيمة الأخت ولا منزلتها، ولا ترفع رأسا بحقوقها.

وهناك رجال أدو حقوق أخواتهم، شابت رؤوسهم، يسافر أحدهم مئات الأميال ليسأل عن حال أخته، ويتفقد أمرها مع زوجها، كيف حالها؟ وكيف معاملته لها؟ يشعرها بأنه سندها بعد الله، وعونها بعد أبيها، يمدها بماله، ويعينها بكلماته، ويخفف أحزانها، ويؤنسها إذا حزنت، ويفرح بها إذ قدمت، ويكرم زوجها من أجل أن يكرمها، ويتواضع له من أجل أن يتواضع لها، يعطيها حقها قبل أن تسأله، يعلم أنها ضعيفة تحتاج إلى مال أبيها وأمها فيبادر إليها.

الشابُ الشهم هو الذي يعامل أخته الكبيرة كأنها أمه، فهو يرى فيها مشهد أمه الحبيبة فيكرمها ويزروها ويتذكر وجه أمها فيها، ويحسن إلى أمه وأبيه بالإحسان إليها، وينظر إلى أخته الصغيرة أنها ابنته فيرحمها ويحسن إليها ويتلطف بها، ويسعى في خدمتها، والله الموفق.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.





المجلس الحادي والعشرون

من أسرار قوله تعالى



﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ ﴾(١)

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فدعونا نرتحل بقلوبنا وعقولنا إلى أعماق هذا الحوار العظيم، بين إبراهيم الخليل وابنه إسماعيل عليهما الصلاة والسلام: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ الصافات:١٠٢.

أولًا: تأملوا الخطاب وكيف أن إبراهيم عليه السلام عرض الأمر الفادح بطريقة هادئة واضحة.

إن العظماء يبدون أكثر هدوءا في الأزمات الطاحنة، والفتن المدلهمة، والأحداث الكبرى.

والكبارُ وحدهم قادرون على السيطرة على مشاعرهم وأنفسهم في الأوقات العصيبة، إنهم يلتزمون أخلاقيات الحوار مهما كان الموضوع صعبا.

---

(١) د.عبدالله بن بلقاسم.

﴿يَٰبُنَيَّ﴾ القرآن العظيم يؤكد بنقل هذه الكلمة أن اللحظة الحرجة لا تمنح إذنا بالقفز عن الاتزان والهدوء والأخلاق.

ثانيًا: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ﴾ الوضوح والصدق والدقة.

إن وضع الأفراد والأمم أمام مشكلاتها الحقيقية يتطلب قدرا عاليا من المسؤولية في الصراحة والشفافية، ففي عبارة موجزة دقيقة وضع الخليل عليه السلام ابنه مباشرة في الموضوع، دون تضليل أو خداع.

إننا نعاني في مجتمعاتنا المسلمة من فقدان الوضوح والمباشرة في تعاملاتنا الفردية والجماعية.

إننا نمارس تضليلا فرديا وجماعيا، ونستخدم اللغة -التي هي وسيلة البيان والوضوح- للتعمية والتشويش وتشويه الحقيقة، وبمرور الزمن وترسخ العادة، أصبح من الصعب أن تواجه الناس بالحقيقة دون أن تخسرهم، وتجذرت فينا ثقافة الخداع، والقدرة على التمويه.

لا يمكن لبيت ولا لأمة أن تنهض نهضة حقيقة دون أن تصطدم بكل صدق مع أزماتها، وأن تعترف بكل شجاعة بحجم الآلام التي تعانيها، والأخطار التي تحدق بها، وأن تتخلى على الفور عن المجاملة الخادعة التي تخدر إحساسها بمشكلاتها.

ثالثًا: النبوة والأبوة أعلى مرتبتين بشريتين تستحق التوقير في الوعي الإنساني، لكنها مع ذلك لا تعنى القهر واستلاب الخيارات الفردية، لقد كان الأمر واضحًا للخليل، وكان بإمكانه أن يمارس حقه في تنفيذ الأمر دون

عرض على الغلام الذي بلغ معه السعي، لكن إبراهيم عليه السلام أدرك أنه أمام إنسان مستقل له حق في أن يختار قراره هو بمعزل عن خيار الأب.

إن إبراهيم لم يكن ليتخلى قط عن تنفيذ أمر الله ﷻ، لكنه أراد أن تكون مشاركة ابنه طوعية حتى يحظى بأجر التسليم والاتباع، فقبل إسماعيل بالعرض مختارًا، طائعًا محتسبًا، سائرًا إلى أمر الله بكل مشاعر الاحتساب والرغبة في التنفيذ. لقد تحول الابن من مجرد القبول وترك الممانعة أو الفرار إلى مرتبة أعلى.

إن الغلام يتولى حفز أبيه المحب التنفيذ: ﴿ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ﴾ رسالة مهمة للخليل في الوقت الصعب، ومساندة غالية في لحظة الابتلاء المريرة.

إنها ثمرة الحوار الأمين، والعرض المسؤول الذي تقدم به لابنه، ينال ثمنها هذا الموقف المؤمن الشجاع الصارم.

رابعًا: التسليم، لقد كان بالإمكان أن يأتي جبريل في أوضح صور الوحي إلى إبراهيم؛ لينقل إليه الأمر بالذبح، لكن الابتلاء ـ ولأمرٍ ما ـ جاء في صورة منام، ورؤيا الأنبياء حق؛ لتعظم البلية به.

إنّ النفوسَ المراوغةَ تبحث عن أي منفذ للفرار من تنفيذ أمر الله، وتفرح بكل حيلة تسهل عليها ترك أوامره، لكن الخليل لم يفعل، لقد كان في أسمى حالات التسليم، ولم يكن لديه تفكير البتة في التراجع أو التغيير.

إننا اليوم أمام مشكلة ضخمة تتعلق باهتزاز ركن التسليم في قلوبنا، إن إبراهيم لم يتساءل عن أسباب هذه الأمر، ولم يراجع ربه في توضيح أسبابه، ولم يبحث عن مبررات هنا أو هناك، ليتنصل منه!

لقد بدا واضحًا أن التسليم معناه شيء واحد: هو القبول بأمر الله دون تردد أو شك.

ماذا يحدث اليوم في مجتمعاتنا من المناكفة والمصادمة المستمرة للوحي بمسوغات سخيفة؟ واعتراضات سامجة، وحِيَلٍ بلهاء!

لقد نصب بعض الناس نفسه حاكمًا على النصوص، يمرر منها ما يشاء، ويرد ما يشاء، بحسب ظنونه وأوهامه التافهة.

إن النص -بعد فهمه على منهج الأنبياء والصحابة- ليس لأحد خيار فيه إلا التسليم.

لقد فهم إسماعيل مبررات أبيه للقيام بهذا الأمر الجلل: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ﴾ سأذبحك يا بني لأن الله أمر بذلك، ليس هناك مذكرة تفصيلية، ولا فذلكة قضائية، ولم يطالب إسماعيل أباه بشيء آخر!

لقد انتهى كل شيء! فحين يأمر الله، يموت شيطان الاعتراض في قلب المؤمن، ويتخلى عن كل وساوس المشاغبة والتشكيك: ﴿ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُ﴾! كل قضية أخرى تقبل النقاش والمراجعة إلا ما تؤمر به من الله، أما أي شيء آخر، فلا بأس بالحوار والبحث والسؤال.

اللهم ارزقنا الانقياد لشرعك، والتسليم لأمرك ونهيك.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.





المجلس الثاني والعشرون

وقفات مع قوله تعالى

﴿ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴾[1]

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

ففي سورة الطور تتجلى بعض مشاهد المتقين، بعد دخولهم جنّة النعيم، ومن أكثر ما يلفت النظر في هذه السورة، حديثهم عن أسباب دخولهم كما في قوله تعالى: ﴿ وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ٢٥ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ ٢٦ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ٢٧ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴾ الطور: ٢٥-٢٨.

إن إقبال الإنسان على صاحبه، وإقباله عليه بكليته، لا يكون غالبًا إلا عند إلقاء البشارات، والأخبار السارة، وكذلك يفعلُ أهل الجنة حين يقبل بعضهم على بعض، ويتساءلون: ماذا كنتم تعملون في الدنيا؟ كيف نلتم

(١) د.فريد الأنصاري: من مجالس التدبر (٢/ ١٦٦) بتصرف يسير.

هذا العطاء الرباني؟ كلٌّ يسأل صاحبه ويحكي قصته، وكلهم ـ على اختلاف أشكال تعبيرهم ـ يدورون في الجواب على حقيقة واحدة: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ﴾.

إن معنى الإشفاق هو الخوف المصحوب برحمة، والحذر المصحوب بعناية، كما قال تعالى عن المتقين في سورة الأنبياء: ﴿ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشۡفِقُونَ﴾ الأنبياء:٤٩ أي: مشفقون على أنفسهم منها؛ فيحذرون الوقوع فيما يهوي بهم في عذابها.

ومن ثَمَّ فالإشفاق هو وازع التقوى ومورِدُها ومُغَذّيها.

فمعنى أنهم كانوا في أهلهم مشفقين بيان لما كانوا عليه من قبل في حياتهم الدنيا، من حال الحذر والرهب، والخوف من لقاء الله، والاحتياط في الأعمال ليوم الحساب، والتصرف على ذلك الميزان، وبذلك الشعور الإيماني العميق.

وعبّروا بأنهم كذلك كانوا في أهليهم؛ لأن الإنسان وسط أهله وأبنائه أكثر تعرضا للغفلة والفتنة؛ بسبب ما يصحب العيش بين الأزواج والولدان، من الميل إلى الكسل والراحة والدعة، ومن الانشغال بمتع الحياة الدنيا وشهواتها، والانغماس في همومها، والتفكير في الكسب والمال، لكن أهل التقوى لم يشغلهم ذلك كله، رغم عدم تقصيرهم في طلب ما كتب الله لهم منه، ولم يفتنهم عن عبادة الله ورعاية حقوقه، والسير إليه تعالى بقلوب وجلة،

وأعمال خالصة، وسط ذلك المحيط الدنيوي المغري بالتنعم العاجل الفاني، بل إنهم أناروا بيوتهم بمصابيح التقوى، ولقّنَوا أهليهم حقيقة الإشفاق من رب العالمين، فصار الأبناء في ذلك لآبائهم تابعين.

فكانت النتيجة أن تفضل عليهم اللهُ بمنّه، فسلّمَهُم من عذابه، ونجاهم من عقابه، وأدخلهم جنته، فذلك قوله تعالى حكاية عنهم: ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾ والسموم: ريح جهنم الحارقة، التي تدخل في مسام الجلد من شدة حرارتها.

وفي الأخير اكتمل جواب المتسائلين عما به كان نجاتهم بقولهم: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ وسياق الكلام دالٌّ على أن مدار الدعاء، كان حول طلب النجاة من النار، والفوز برضا الرحمن.

وقد يتسع معنى الدعاء هنا، ليشمل كل معاني العبادة وعلى رأسها التوحيد والإخلاص، وأما الابتهال إلى الله بالدعاء رغبًا ورهبًا، فهو حُداء العبد السائر إلى ربه بأقدام الخوف والرجاء، وهذا إنما هو من آثار الإشفاق الذي كانوا عليه من قبل، وهو علامة التقوى، والصفة الأساس التي وصفهم الرحمن بها في صدر السياق، ومن ثَمّ خُتم المشهد كله بهذا التذييل: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾.

واستعمال ضمر الفصل ﴿هُوَ﴾ مقرونًا بـ(أل) الاستغراقية في اسميه تعالى ﴿ٱلْبَرُّ﴾، ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ يفيد تخصيص ذلك به وحده، والمعنى: لا بَرَّ على الحقيقة سواه، ولا رحيم على الكمال غيره.

و﴿ٱلْبَرُّ﴾ معناه الكثير العطاء والإحسان، الوفي الذي لا يُخيّبُ ظن عبده به، و﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ معناه: الكثير الرحمة، الذي تسع رحمته كلّ من تاب إليه من عباده ورجع.

فاللهم إن مغفرتك أوسع من ذنوبنا، ورحمتَك أرجى عندنا من أعمالنا، فاغفر لنا وارحمنا، وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.





المجلس الثالث والعشرون

من أسرار قوله تعالى

﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾[1]

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فيقول الله تعالى في سورة المجادلة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُوا۟ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟ فَٱنشُزُوا۟ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ المجادلة: ١١.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية مبيناً بعض أسرار هذه الآية العظيمة:

«خص سبحانه رفعه بالأقدار والدرجات الذين أوتوا العلم والإيمان، وهم الذين استشهد بهم في قوله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ آل عمران: ١٨ وأخبر أنهم هم الذين يرون ما أنزل

(١) لشيخ الإسلام ابن تيمية، مجموع الفتاوى ١٦/ ٥١-٤٨، بتصرف يسير.

إلى الرسول هو الحق بقوله تعالى: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ سبأ:٦، فدل على أن تعلم الحجة والقيام بها يرفع درجات من يرفعها، كما قال تعالى: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ الأنعام: ٨٣، قال زيد بن أسلم: بالعلم.

فرَفْعُ الدرجاتِ والأقدارِ على قَدْرِ معاملة القلوب بالعلم والإيمان، فكم ممن يختم القرآن في اليوم مرة، أو مرتين، وآخر لا ينام الليل، وآخر لا يفطر، وغيرهم أقل عبادة منهم وأرفع قدرًا في قلوب الأمة!

وكذلك ترى كثيرًا ممن لبس الصوف، ويهجر الشهوات، ويتقشف، وغيره -ممن لا يدانيه في ذلك- من أهل العلم والإيمان أعظم في القلوب، وأحلى عند النفوس، وما ذاك إلا لقوة المعاملة الباطنة، وصفائها، وخلوصها من شهوات النفوس، وأكدار البشرية، وطهارتها من القلوب التي تكدر معاملة أولئك.

وإنما نالوا ذلك بقوة يقينهم بما جاء به الرسول ﷺ، وكمال تصديقه في قلوبهم، ووده، ومحبته، وأن يكون الدين كله لله، فإن أرفع درجات القلوب فرحها التام بما جاء به الرسول ﷺ، وإبتهاجها وسرورها، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾الرعد:٣٦، وقال

تعالى: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ يونس: ٥٨، ففضل الله ورحمته: القرآن، والإيمان، من فرح به فقد فرح بأعظم مفروح به، ومن فرح بغيره فقد ظلم نفسه، ووضع الفرح في غير موضعه، فإذا استقر في القلب، وتمكن فيه العلم بكفايته لعبده ورحمته له، وحلمه عنده، وبره به، وإحسانه إليه على الدوام، أوجب له الفرح والسرور أعظم من فرح كل محب بكل محبوب سواه، فلا يزال مترقيًا في درجات العلو والارتفاع بحسب رقيه في هذه المعارف، هذا في باب معرفة الأسماء والصفات.

وأما في باب فهم القرآن، فهو دائم التفكر في معانيه، والتدبر لألفاظه، واستغنائه بمعاني القرآن وحكمه عن غيره من كلام الناس، وإذا سمع شيئًا من كلام الناس وعلومهم عرضه على القرآن، فإن شهد له بالتزكية قبله، وإلا رده، وإن لم يشهد له بقبول ولا رد وقفه، وهمته عاكفة على مراد ربه من كلامه، ولا يجعل همته فيما حجب به أكثر الناس من العلوم عن حقائق القرآن: إما بالوسوسة في خروج حروفه، وترقيقها، وتفخيمها، وإمالتها، والنطق بالمد الطويل والقصير والمتوسط، وغير ذلك، فإن هذا حائل للقلوب، قاطعٌ لها عن فهم مراد الرب من كلامه.

وكذلك مراعاة النغم، وتحسين الصوت، وكذلك تتبع وجوه الإعراب، واستخراج التأويلات المستكرهة التي هي بالألغاز والأحاجي أشبه منها بالبيان.

وكذلك صرف الذهن إلى حكاية أقوال الناس، ونتائج أفكارهم، وكذلك تأويل القرآن على قول من قلد دينه، أو مذهبه، فهو يتعسف بكل طريق حتى يجعل القرآن تبعًا لمذهبه، وتقويةً لقول إمامه، وكلٌّ محجوبون بما لديهم عن فهم مراد الله من كلامه في كثير من ذلك، أو أكثره، والله سبحانه وتعالى أعلم» انتهى كلامه.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.





المجلس الرابع والعشرون

﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾[1]

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فيقول الله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ ففي هذه الآية العظيمة يذكِّر الله عباده بشأن القلوب، وأعمالها، وسرائرها، مما لا يعلمه الناس وهو بها عالم.

كما ينبه الله ﷻ إلى أن هذه السرائر ستبلى وتُختبر يوم القيامة، ويظهر ما فيها من الإخلاص والمحبة والصدق أو ما يضادها من النفاق والكذب والرياء؛ وذلك في يوم القيامة يوم الجزاء والحساب، وهذا واضح من الآية وما قبلها وبعدها؛ حيث يقول الله: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ۝٨ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ الطارق: ٨ - ١٠.

والقلب هو محط نظر الله وعليه يدور القبول والرد كما قال ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»[2].

والسريرة إذا صلحت صلح شأن العبد كله وصلحت أعماله الظاهرة ولو كانت قليلة.

(١) الشيخ عبدالعزيز بن ناصر الجليّل.
(٢) البخاري (٥٢)، مسلم (١٥٩٩).

والعكس من ذلك عندما تفسد السريرة، فإنه يفسد بفسادها أقوال العبد وأعماله، وتكون أقرب إلى النفاق والرياء عياذًا بالله تعالى، ويوضح هذا الأمر قوله: «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب».

يقول ابن القيم: في تفسير هذه الآية ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾: «وفي التعبير عن الأعمال بالسر لطيفة، وهو أن الأعمال نتائج السرائر الباطنة؛ فمن كانت سريرته صالحة كان عمله صالحًا، فتبدو سريرته على وجهه نورًا وإشراقًا وحياء، ومن كانت سريرته فاسدة كان عمله تابعًا لسريرته، لا اعتبار بصورته، فتبدو سريرته على وجهه سوادًا وظلمة وشينًا، وإن كان الذي يبدو عليه في الدنيا إنما هو عمله لا سريرته، فيوم القيامة تبدو عليه سريرته، ويكون الحكم والظهور لها»[(١)].

ومما سبق يتبين لنا عِظَمُ شأن القلب، وخطورة السريرة، حيث إنها محط نظر الله سبحانه وتعالى وعليها مدار القبول عنده سبحانه، وحسب صلاحها وفسادها يكون حسن الخاتمة وسوؤها.

وكلما صلحت السريرة تمت الأعمال الصالحة وزكت ولو كانت قليلة، والعكس من ذلك في قلة بركة الأعمال حينما تفسد السريرة ويصيبها من الآفات ما يصيبها.

(١) التبيان في أقسام القرآن (ص:١٠٥).

وهذا هو الذي يفسر لنا تفوُّق أصحاب محمد ﷺ على غيرهم ممن جاء بعدهم، ممن قد يكون أكثر من بعض الصحابة عبادة وقربات؛ حيث إن أساس التفاضل بين العباد عند الله سبحانه وتعالى هو ما وقر في القلب من سريرة صالحة مطابقة لما ظهر في العلانية من أعمال وأقوال.

يقول ابن مسعود رضي الله عنه: «أنتم أطول صلاة وأكثر اجتهادًا من أصحاب رسول الله ﷺ، وهم كانوا أفضل منكم، قيل له: بأي شيء؟ قال: إنهم كانوا أزهد في الدنيا وأرغب في الآخرة منكم».

وأخبار السلف في حرصهم على أعمال القلوب وإصلاح السرائر كثيرة ومتنوعة، وبخاصة فيما يتعلق بمحبة الله سبحانه وتعالى والخوف منه وإخلاص العمل له سبحانه؛ ومن ذلك: ما ذكره خالد بن صفوان قال: «لقيتُ مَسْلَمَة بن عبد الملك فقال: يا خالد! أخبرني عن حَسَن أهل البصرة. قلت: أصلحك الله أخبرك عنه بعلم: أنا جاره إلى جنبه وجليسه في مجلسه وأعلم من قِبَلي به: أشبه الناس سريرة بعلانية، وأشبهه قولًا بفعل، إن قعد على أمر قام به، وإن قام على أمر قعد عليه، وإن أمر بأمر كان أعمل الناس به، وإن نهى عن شيء كان أترك الناس له، رأيته مستغنيًا عن الناس، ورأيت الناس محتاجين إليه، قال: حسبك! كيف يضل قوم هذا فيهم؟».

فإن سألتَ: ما العلامات التي تعرف بها السريرة الصالحة من الفاسدة؟ فيقال: إن لذلك علامات، منها:

العناية بأعمال القلوب؛ ومنها: إخلاص الأعمال والأقوال لله سبحانه وتعالى ومحاولة إخفائها عن الناس وكراهة الشهرة والظهور، والزهد في ثناء الناس. ويضاد ذلك: الرياء، وإرادة الدنيا بعمل الآخرة وحب الظهور.

الإنابة إلى الدار الآخرة والتجافي عن الدنيا والاستعداد للرحيل وحفظ الوقت وتدارك العمر، ويضاد ذلك: الركون إلى الدنيا وامتلاء القلب بهمومها ومتاعها الزائل، ونسيان الآخرة وقلة ذكر الله سبحانه وتعالى وتضييع الأوقات.

سلامة القلب من الحقد والغل والحسد، ويضاد ذلك: امتلاؤه بهذه الأمراض.

التسليم لأمر الله سبحانه وتعالى وأمر رسوله دون لماذا؟ وكيف؟ ويضاد ذلك: الولوع بالمتشابهات والخواطر الرديئة.

فكل هذه الخصال -وغيرها- تدل على صلاح في السريرة؛ وأضدادها إنما هي من خصال المنافقين الذين فسدت سرائرهم كما صحت بذلك السنة عن النبي صلى الله عليه وسلم.

فلنجتهد -أيها الإخوة- في إصلاح السرائر، حتى إذا ابتليت يوم القيامة نجت من الفضيحة والخزي. والله المستعان.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.





المجلس الخامس والعشرون

﴿يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي﴾[1]

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فمن المواقف المهولة التي لا بد أن يقفها الإنسان يوم القيامة، ما ذكره الله تعالى في خواتيم سورة الفجر: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلۡأَرۡضُ دَكّٗا دَكّٗا ٢١ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا ٢٢ وَجِاْيٓءَ يَوۡمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَۚ يَوۡمَئِذٖ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكۡرَىٰ ٢٣ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي﴾ الفجر: ٢١ - ٢٤.

يقول العلامة العثيمين رحمه الله: معلقًا على هذا المشهد:

«يُذكّر الله سبحانه وتعالى الناس بيوم القيامة ﴿إِذَا دُكَّتِ ٱلۡأَرۡضُ دَكّٗا دَكّٗا﴾ حتى لا ترى فيها عوجًا ولا أمتا، تدك الجبال، فلا بناء، ولا أشجار، تمد الأرض كمد الأديم، ويكون الناس عليها في مكان واحد، يسمعهم الداعي، وينفذهم البصر.

(١) تفسير جزء عم (٢٠١-٢٠٥) باختصار.

في هذا اليوم ﴿يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى﴾ ولكن قد فات الأوان؛ لأننا في الدنيا في مجال العمل، وفي زمن المهلة، فيمكن للإنسان أن يكتسب لمستقره، كما قال مؤمن آل فرعون ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾ غافر:٣٩، فهي متاع يتمتع به الإنسان كما يتمتع المسافر بمتاع السفر حتى ينتهي سفره، فهكذا الدنيا، واعتبر ما يستقبل بما مضى.

كل ما مضى كأنه ساعة من نهار، كأننا الآن مخلوقون، فكذلك ما يستقبل سوف يمر بنا سريعًا ويمضي بنا سريعًا، وينتهي السفر إلى مكان آخر ليس مستقرًا، إلى الأجداث والقبور، ومع هذا فإنها ليست محل استقرار؛ لقول الله تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ التكاثر:١ - ٢، وقد سمع أعرابيٌّ رجلًا يقرأ هذه الآية، فقال: (والله ما الزائر بمقيم! ولا بد من مفارقة لهذا المكان) وهذا استنباط قويٌّ، وفهم جيد، يؤيده الآيات الكثيرة الصريحة في ذلك...

﴿وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ لم يذكر الجائي، لكن قد دلّت السنة أنه يؤتى بالنار تقاد بسبعين ألف زمام، كل زمام منها يقوده سبعون ألف ملك! وما أدراك ما قوة الملائكة، قوة ليست كقوة البشر، ولا كقوة الجن، بل هي أعظم وأعظم بكثير... وقيادة النار بهذا العدد الكثير دليل على أنها عظيمة.

وهذه النار إذا رأت أهلها من مكان بعيد سمعوا لها تغظيًا وزفيرًا، وليس زفيرها كزفير المعدات والطائرات، بل هو زفير تنخلع منه القلوب...؛ فلهذا أنذرنا الله تعالى منها.

فهذه ثلاثة أمور، كلها إنذار: مجيء الرب جلّ جلاله، صفوف الملائكة، الإتيان بجهنم.

﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ والمعنى: إذا جاء الله تعالى في يوم القيامة، وجاءت الملائكة صفوفًا صفوفا، وأحاطوا بالخلق، وحصلت الأهوال والأفزاع، يتذكر الإنسان أنه وعد بهذا اليوم، وأنه أعلم به من قبل الرسل -عليهم الصلاة والسلام- وأنذروا وخوّفوا؛ ولكن من حقّت عليه كلمة العذاب فإنه لا يؤمن ولو جاءته كل آية، حينئذٍ يتذكر، لكن يقول الله ﷻ: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾..

﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى﴾ يتمنى أنه قدم لحياته! وماهي حياته؟ أهي حياة الدنيا؟ لا والله! فالحياة الدنيا انتهت وانقضت، وليست الحياة الدنيا حياة في الواقع، فهي هموم وأكدار، كل صفو يعقبه كدر، كل عافية يتبعها مرض، كل اجتماع يعقبه تفرق! أين الآباء؟ أين الإخوان؟ أين الأبناء؟ أين الأزواج؟ هل هذه حياة؟!...

كل إنسان يتذكر أن مآله أحد أمرين: إما الموت، وإما الهرم!

نحن نعرف أناسًا كانوا شبابًا في عنفوان الشباب، فعُمّروا لكن رجعوا إلى أرذل العمر، يرق لهم الإنسان إذا رآهم في حالة بؤس، حتى وإن كان عندهم من الأموال ما عندهم،وعندهم من الأهل ما عندهم؛ لكنهم في حالة بؤس...

الحياة هي ما بينها الله تعالى في قوله: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ أي: لهي الحياة التامة ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ العنكبوت:٦٤.. إذًا على الإنسان أن يستعد قبل أن يقول: ﴿يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى﴾.

اللهم ارزقنا الاستعداد لذلك اليوم العظيم، وارحمنا برحمتك ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين، يا رب العالمين.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.





المجلس السادس والعشرون

﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾[1]

الحمدُ لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده؛ أما بعد:

فقد ذكر الماوردي في (أدب الدنيا والدين)[2] أنه مَرَّ بعضُ الزُّهَّادِ برجُلٍ قد اجتمعَ عليه النَّاسُ، فقال: ما هذا؟ قالوا: مِسكينٌ، سَرَقَ منه رَجُلٌ جُبَّةً..

وَمَرَّ به آخَرُ فَأَعْطَاهُ جُبَّةً، فقال: صَدَقَ اللهُ: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾.

لو نظرتَ -على سبيل المثال- في أحوال الناس في المطار؛ لرأيتَ من الناسِ (سعيًا شتّى)، فكلٌّ يحملُ حقيبةَ سفر؛ لكنَّ المقاصدَ متفرِّقةٌ، فهذا مسافرٌ لأداء العمرةِ، وهذا في رحلةِ علاجٍ طبي، وذاك لتجارةٍ يخشى كسادَها، ورابعٌ للنزهة، وخامسٌ للدراسة، وسادسٌ للتقديم على وظيفة، وسابعٌ لزيارة أقاربه، وثامنٌ لحضور بطولةٍ رياضيَّة، وتاسعٌ بلا هدفٍ فاضل، وعاشرٌ لهدفٍ سافلٍ!

(١) للشيخ مهند بن حسين المعتبي، إمام وخطيب جامع عبدالله بن عباس بجازان.
(٢) (ص ١٥١)

تعدَّدَت الأغراض، وتنوَّعت المقاصد، واختلفت الغاياتِ، وكلُّهم مسافرٌ! وصَدَقَ اللهُ: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾.

لو تأمَّلتَ هذهِ الآيةَ الفذَّةَ التي بلغت الغايةَ إيجازًا وصِدْقًا؛ لرأيتَ كيفَ أنَّها في غايةِ المناسبةِ حينما وقعت جوابًا لأقسامٍ ثلاثةٍ أقسمَ بها ربُّ العِزَّةِ في مطلع سورةِ الليل.

﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۝٣ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ الليل: ١ - ٤.

فقدَ أقسمَ بالليلِ والنهارِ وهما في غايةِ التضادِّ، فالأوَّل أسودُ معتمٌ، والثاني أبيضُ مضيءٌ، وليسُ الليلُ كالنهار!

ثُمَّ أقسمِ بنفسهِ خالقِ الذَّكرِ والأنثى، وهما كذلك متضادَّان، ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ آل عمران: ٣٦!

ثمَّ جاءَ جوابُ القسمِ مجلِّيًا لهذهِ الحقيقةِ، وهي الاختلافُ الكثيرُ، والتضادُّ الكبير في أعمال النَّاس وسعيهم ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ فمِنْ عاملٍ خيرًا، ومِن عاملٍ شَرًّا! و(شَتَّى) جمعُ شتيتٍ، كـ(مرضى) جمعُ مريضٍ.

والسعيُ هنا مطلق العمل لا سعي الأقدام، وما زالَ النَّاسُ مذ خلقهم ربُّهم وهم على غيرِ قلبِ رجلٍ واحدٍ، فابنا آدمَ - عليه السلام - يقولُ قابيلُ لهابيلَ: ﴿لَأَقۡتُلَنَّكَ﴾، ويرُدُّ هابيلُ: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾المائدة:٢٧ - ٢٨، وكان سعيُهما شتَّى!

وما اختلافُ سعي الأعمالِ إلا لاختلافِ ما تنطوي عليه القلوبُ، فالقلبُ يأمرُ، والجوارحُ تُنَفِّذُ، فاختلفت أعمالُ الناس لاختلافِ قلوبهم وما انطوت عليه، و﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٖ مِّن قَلۡبَيۡنِ فِي جَوۡفِهِۦۚ﴾ الأحزاب:٤ وما جعلَ لرجلين قلبًا واحدًا!

ومِنَ العجيبِ أنَّ اختلافَ السعْيِ ليسَ محصورًا في اختلاف مساعي الناس فيما بينهم، بل منه اختلافُ حالِ المرء في نفسهِ وتشتُّتِ سعيه مع مرورِ الأيَّامِ، وتصرُّمِ الأعوام!

وفي هذه الآية من الإشاراتِ: أنَّ الإنسانَ عندَ الله بسعيهِ، وأنَّ من سعى في الصَّالحاتِ يُسِّرَ لليُسرَى، ومن سعى في السَّيِّئات يُسِّرَ للعُسرى، ﴿وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ النجم:٣٩!

وفيها؛ أنَّ أصلَ الفلاحِ وأساسَه صلاحُ القلبِ وإعمارُه، فما سَعْيُ الإنسانِ إلاَّ بأمرِ قلبِه النافذِ.

وفيها؛ أنَّ أحوالَ النَّاسِ في الخلوةِ مختلفةٌ كأحوالهم في الجلوة، وهي في الخلَواتِ أكثرُ اختلافًا، وأعظمُ تباينًا، فقد يتفقُ في ساعةٍ رجلانِ، وبينهما حجابٌ، وكلاهما في عُزلةٍ من الناسِ، ولا يدري أحدٌ عن صاحبِه، فهذا فرحٌ بخلوته، مستلِذٌّ بمناجاة الله، مسرورٌ بما يقيمُ عليه، قد نالَ رضى الله، وذاك فرحٌ بخلوتِه، مستلِذٌّ بمعصيةِ الله، مسرورٌ بما يُقيم عليه، قد باء بسخطٍ من الله!

وصدقَ اللهُ: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾!

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.





المجلس السابع والعشرون

شكر النعم في سورتي (الضحى) و(الشرح)[1]

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فإن شُكر المُنْعِم على نِعَمِهِ مِنْ أَجَلِّ العُبُوديَّات وَأفضَلِ القُرُبَاتِ، وهو أبرزُ هِداياتِ سورتي (الضحى) و(الشرح)، فقد ذَكرَ اللهُ فيهما عددًا مِنَ النِعم التي أكرم الله بها رسوله ﷺ وبيَّن لهُ فيهما وجوبَ شكرِ النِّعمِ تفصيلًا وإجمالًا على النِّعم الحِسّية والمعنوية.

أمَّا النِّعم المذكورة في سورة الضحى فهي ست:

الأولى: أنَّ اللهَ جلَّ في عُلاه مَا تَرَكَ محمدًا ﷺ ومَا قلاه، أي: ما أبغضه، وَحاشاه عليه الصلاة والسلام، وَقد أقسمَ الله على ذلكَ بقسمين؛ أولهما الضحى، والثاني الليل إذا سجى، أي غطى الكون بظلامه وسكن.

والثانية: أنَّ الآخرة خير له من الأولى.

(١) للدكتور محمد بن عبد العزيز الخضيري، عضو الهيئة العالمية لتدبر القرآن، وعضو هيئة التدريس بجامعة الملك سعود.

والثالثة: أنَّ الله سوفَ يعطيه مِنْ واسع فضلهِ حتى يرضى، وقدْ أكدَّ الله هذين الوعدين الكريمين بالقسم.

والرابعة: أنَّ الله تعالى آواه حينَ كانَ يتيمًا بأنْ سخَّرَ لهُ جَدهُ عبدالمطلب وعمَّهُ أبا طالب فأحباه وقرباه وأكرماه.

والخامسة: أنَّ الله تعالى أنزلَ عليه هذا الوحيَ ونوَّرَ قلبهُ بهِ ولمْ يكنْ بهِ عالمًا فقال ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾.

والسادسة: أنَّ الله تعالى أغناهُ من فقره فملأ نفسه غنى، وجعل الدنيا بين يديه فلم يأخُذ منها عليه الصلاة والسلام إلا قدرَ الكفاف.

وأمَّا النِّعم المذكورة في سورة الشرح فهي أربع:

الأولى: نعمةُ شرحِ الصدرِ واتِّساعه لكل خير وتحمُّله لكلِ مقدورٍ ورضاهُ بالمصائبِ وحبُّه للمؤمنين وسلامَةُ صدرِه مع الخلقِ أجمعين.

الثانية: نعمةُ غفرانِ ذُنُوبِهِ وَوَضعِ أوزارِهِ حتى لمْ يُبقِ الله مِنْ ذنوبه شيئًا متقدِّمًا ولا متأخِّرًا إلاَّ عفى عنه.

والثالثة: نعمةُ رفعِ الذكرِ وعُلوِّ الشأنِ ولسانِ الصدقِ بينَ العالمين حتى صارَ ذكرُ اسمه ﷺ مقرونًا باسم الله في كثيرٍ مِنَ الأحيان وصارَ اسمه يجلجل في الآفاق لا ينقطع على مدى الأزمان.

والرابعة: نعمة اليسر بعد العسر، فما يقعُ في كربة ولا مشقة إلاَّ جعلَ الله بعدهَا اليسْرَ والرحمة واللطفَ والفضْلَ كرَمًا منهُ سبحانَه على عبده ﷺ بل وعلى سائر عباده.

هذه هي جملة منَ النِّعم المذكورة في السورتين الكريمتين وقدْ فصَّل فيهما وعدَّدَهُما سبحانَهُ ليُبيِّنَ وجوبَ شُكرهِ في كلِّ نعمة تفصيلًا وعلى عموم النِّعم إجمالًا.

وقدْ جاءَتْ السورتان ببيانِ ذلكَ على سبيلِ التفصيل في النِّعم المَحسوسَة، فأرشدَهُ اللهُ إلى إكرام الأيتام فقال: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ جزاءً على نعمةِ إيوائِه عندما كانَ يتيمًا، وأرشدَهُ إلى تعليم الجاهلين وإجابةِ السائلينَ برفقٍ ولينٍ فقال: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ جزاءً على النِّعمة المذكورة في قوله: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾، وأرشدَهُ إلى إطعام الفقراء والمساكين وإكرام السائلين بلا أذى ولا نهر فقال: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ جزاء على النعمة المذكورة في قوله ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ هذا كلُّه على وجهِ التفصيل.

وأما الإجمال فقال: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ أي حدِّثْ نفسَكَ بهذا لتزدادَ تعلقًا بربِّك، واعترافًا بفضلِه وحدِّث الناسَ بِمَا صَنَعَ الله بِكَ ليكونَ ذلك عنوانَ شُكرك لربِّك فإنَّ الشُكرَ كما يكون بالقلب يكون باللسانِ والجوارحِ.

ولمَّا ذكرَ النعم في سورة الشرح قال: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾ أي: إذا فرغتَ منْ شُغلكَ ومَا بيدكَ فانْصَبْ في عبادة ربِّك وارغبْ إليه، واجعلْ طمعكَ فيما عندهُ؛ فإنَّ الخيرَ كلَّه بيدِه، شاكرًا للهِ على ما أولاك من النعم وما غمرك به من الفضائل؛ فإنَّ شكرَ النِّعم هو الذي يُقِرُّهَا بيدك ويزيدها كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾ إبراهيم: ٧.

وبهذا يتبيَّنُ أنَّ لكلِّ نعمةٍ شكرًا عامًا بالحديثِ عنها والاعترافِ بها وتسخيرها في طاعةِ الله، وشكرًا خاصًّا يكونُ مِنْ جنسها إذا أمكنَ ذلك، فإذا أطعَمَكَ اللهُ فأطعِمْ، وإذا علَّمَكَ فعَلِّمْ، ولا تَبْخَلْ، والله الموفِّقُ والهادي إلى سواءِ السبيل.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.





المجلس الثامن والعشرون

أركان تربية القرآن[1]

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

أنزل الله عز وجل في كتابه المجيد أربع سور من تأملها وقف على أركان تربية القرآن لأهل الإيمان، وجميع هذه السور من أوائل ما نزل باتفاق المفسرين وهي: (اقرأ) فـ(المدثر) ثم (المزمل) ثم (القلم)، كما دلّ على ذلك الترتيب المشهور للسور عن جابر بن زيد تلميذ ابن عباس رضوان الله عليهم.

وهذه الأركان الأربعة هي:

١ - العلم في سورة (اقرأ).

٢ - الدعوة في سورة (المدثر).

٣ - العبادة الخفية في (المزمل).

٤ - الخُلق الجميل في (القلم).

(١) د.عصام بن صالح العويد، عضو هيئة التدريس بجامعة الإمام، وعضو الهيئة العالمية لتدبر القرآن.

وجه كون العلم هو الركن الأول أن من عادة القرآن ألا يُقدِّم عليه غيره، فأول أمرٍ في القرآن إنما هو بالعلم (اقرأ)، وأول قسم في القرآن جاء بأداة العلم (والقلم)، وحين أُمر بالعلم والعمل معًا قُدم العلم ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ محمد:١٩.

- ورأس هذا العلم هو العلم بالله ثم بموعوده ثم بأحكامه، ولله درُّ ابن القيم حين قال:

والعلم أقسام ثلاث ما لها	من رابع والحق ذو تبيان
علم بأوصاف الإله وفعله	وكذلك الأسماء للرحمن
والأمر والنهي الذي هو دينه	وجزاؤه يوم المعاد الثاني

وقد بدأت السورة بالعلم بقدرة الله: ﴿بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾، ثم ثنّت بالعلم بموعوده: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾، ثم ثلَّثت بأمره ونهيه: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ العلق:١٩، وهذا كله مما ينبه على عظيم العلاقة بين العلم والصلاة.

فإن قلتَ: ما الوسيلة إلى تحقيق هذا العلم في النفوس؟

فالجواب: أن السورة نبهت إلى الوسيلة العظمى لمعرفة العبد الصغير بربه العظيم سبحانه وهي (القراءة)، وكررت الأمر ﴿ٱقْرَأْ﴾ مرتين، منبهة إلى نوعين من القراءة:

أما الأول: فهو قراءة وحيه الذي خصه به. وهذه القراءة لن تنفع صاحبها نفعًا تامًا حتى تكون ملتصقةً بـ (اسم الله) مستمدة العون منه، ومستحضرةً نعمة (الربِّ الأكرم) الذي علمها هذا العِلم الأعظم.

وأما الثاني: فهو قراءة كونه الذي دلَّ عليه. وهذا نبهت السورة عليه من مطلعها وكررت التذكير به ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾ وأيضا ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾. فمن أراد معرفة الله فلا غنى له عن الولوج من هذين البابين العظيمين.

- وأما العوائق والعوالق التي تحول دون بلوغه: فقد نبهت السورة على أشدها نكالا، وهما جنسان من الجهل:

أحدهما: جهل الإنسان بحقيقة نفسه، فلا يعرف قدرها ويجهل فقرها، مع وضوح دلائله ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ العلق:٦-٧. وهذا الجهل بالنفس لا يكون عادة في طرفي الحياة وإنما في حال الفتوة والقوة، فذكره الله بحال البدء وهو الخلق من ﴿عَلَقٍ﴾، والانتهاء الذي تصير إليه ﴿ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾.

ثانيهما: جاهل يريد أن يصد الإنسان عن العلم الذي فيه نجاته ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾، والصلاة رأس العمل الذي يُورثه أزكى العلم. وكل إعراض من هذا الإنسان إنما سببه نقص العلم بالله وصفاته.

- وأما قياس هل حققنا هذا الركن في حياتنا أم لا؟

فقد قال الله عز وجل في ختامها ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ﴾ أي لا تطع هذا الجاهل، ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ فمن أراد أمارة العلم النافع فهي في زيادة المعرفة بالله التي تورث التذلل بين يديه بالسجود ﴿وَٱسْجُدْ﴾، ومحبة القرب منه ﴿وَٱقْتَرِب﴾. فمن لم يورثه العلم ذلك فليس بعالم، ولذا روى أبو نعيم في «الحلية» عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «ليس العلم بكثرة الرواية، ولكن العلم الخشية»[1] فأخذها منه مجاهد والنخعي والحسن والثوري والفضيل وأحمد وغيرهم فقالوا: «إنما العلم الخشية»، بل عقد الدارمي في سننه بابًا أسماه «بابٌ من قال: العلم الخشية»[2].

رزقنا الله جميعا العلم الحق باطنًا وظاهرًا، وجعل هذه السور العظام حجة لنا لا علينا.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.



(١) حلية الأولياء (١ / ١٣١).
(٢) سنن الدارمي (١ / ٣٣٣).



المجلس التاسع والعشرون

من هدايات قوله تعالى

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾[1]

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فيقول الله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ الزلزلة:٧ - ٨، هكذا تأتي هاتان الآيتان لتقرران قاعدة قرآنية، وكلمةً جامعة، تمثل أصلًا من أصول العدل، والجزاء والحساب[2].

وهاتان الآيتان ختمت بهما سورة الزلزلة -التي تتحدث عن شيء من أهوال ذلك اليوم الذي تشيب لهوله الولدان، فقال-: ﴿لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ ثم فرّع على ذلك فقال: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ ليتيقن المحسنون بكمال رحمته، والمسيئون

(١) د.عمر بن عبدالله المقبل، عضو هيئة التدريس بجامعة القصيم، نائب رئيس الهيئة العالمية لتدبر القرآن.

(٢) ينظر: القواعد الحسان للسعدي(١٤١)، والتحرير والتنوير(٣٠/ ٤٣٦) حيث قال: "وهذه الآية معدودة من جوامع الكلم".

بكمال عدله سبحانه وتعالى!

وعلى هذا الفهم سار الصحابة رضي الله عنهم في فهمهم الذي تعلموه من النبي صلى الله عليه وسلم، ومن ذلك:

أن عائشة جاءها سائل فسأل! فأمرت له بتمرة، فقال لها قائل: يا أم المؤمنين إنكم لتصدّقون بالتمرة؟! قالت: نعم والله! إن الخلق كثير ولا يشبعه إلا الله، أوليس فيها مثاقيل ذر كثيرة؟!

وروي أن عمرَ رضي الله عنه أتاه مسكين -وفي يده عنقود من عنب- فناوله منه حبة وقال: فيه مثاقيل ذر كثيرة![1].

وإذا كان هذا المعنى في باب احتساب النفقة، فثمة معنى آخر يتفطن له أرباب القلوب الحيّة، وهو: الخوف من تبعة السيئات، كما قال الحارث بن سويد -لما قرأ ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾ حتى بلغ ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾ قال-: إن هذا الإحصاء شديد[2].

وفي السنة الصحيحة ما يبين بجلاء معنى هذه القاعدة العظيمة: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ ومن ذلك:

---

(١) ينظر في هذه الآثار: الدر المنثور: (١٥/ ٥٩٣).
(٢) الدر المنثور: (١٥/ ٥٩١).

قوله ﷺ: بينما كلب يطيف بركية -بئر- قد كاد يقتله العطش، إذ رأته بغي من بغايا بني إسرائيل، فنزعت مُوقَها -خفها- فاستقت له به، فسقته إياه فغُفر لها به»[١]، وأخبر ﷺ -في الحديث المتفق عليه- عن امرأة دخلت النار في هرة، ربطتها فلا هي أطعمتها ولا هي أرسلتها تأكل من خشاش الأرض، حتى ماتت هزلًا[٢].

علّق الإمام الزهري -بعد روايته لحديث الهرة- فقال: «ذلك لئلا يتكل رجل، ولا ييأس رجل»[٣]، فتلك المرأة التي لم يذكرها النبي ﷺ بأنها عابدة! أو صائمة! بل لم يذكرها إلا بالبغاء! ومع هذا فقد نفعها هذا العمل! وأي عملٍ هو؟ إنه سقي حيوان من أنجس الحيوانات (الكلب)! ولكن الرب الرحيم الكريم لا تضيع عنده حسنة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ النساء: ٤٠.

وفي الحديث الثاني: لم يذكر النبي ﷺ سببًا أدخلها النار غير حبسها لحيوان صغير لا يؤبه له!

كل هذا ليتحقق المؤمن معنى هذه القاعدة المحكمة: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾.

---

(١) مسلم(٢٢٤٥).
(٢) البخاري(٣١٤٠)، ومسلم(٢٦١٩) واللفظ له.
(٣) شرح النووي على مسلم(١٧/ ٧٢).

ومن توفيق الله لعبده أن لا يحقرن صغيرةً من الذنوب مهما كانت صغيرة في عينه؛ لأن الذي عُصِيَ هو الله ﷻ، قال بلال بن سعد:: «لا تنظر إلى صغر الخطيئة، ولكن انظر مَنْ عصيت»[1]. فمن كان قلبه حيًا تأثر بأي معصية، كالثوب الأبيض الذي يؤثر فيه أي دنس، وإلا فإن العبد إذا لم يجد للذنوب أثرًا ـ وإن كانت من الصغائر ـ فليتفقد قلبه، فإنه على شفا خطر!

وأما عدم زهد المؤمن في أي عمل صالح -وإن ظنّه صغيرًا - فلأنه لا يدري ما العمل الذي يدخله الجنة؟! ولهذا لما سأل أبو برزة رضي الله عنه نبينا ﷺ فقال: يا نبي الله! علمني شيئا أنتفع به! قال: «اعزل الأذى عن طريق المسلمين»[2]، وفي الصحيح أن «رجلًا مرّ بغصن شجرة على ظهر طريق فقال: والله لأنحين هذا عن المسلمين لا يؤذيهم، فأدخل الجنة»[3].

فتأمل كم يحتقر كثير من الناس أمثال هذه الأعمال اليسيرة!

كم نمر في يومنا بغصن؟ أو بحجر؟ أو زجاجة منكسرة؟ فربما تكاسلنا عن إزالتها كسلًا في أمثال هذه الأعمال التي هي من أسباب دخول الجنة، وأرشد إليها بعض أصحابه! اللهم ضاعف حسناتنا، وتجاوز عن سيئاتنا.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.



(١) الزهد للإمام أحمد: (٣٨٤).
(٢) مسلم ح(٢٦١٨).
(٣) مسلم ح(١٩١٤).



المجلس الثلاثون

موعظة من سورة التكاثر [1]

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فيقول الله تعالى: ﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ﴾ التكاثر: ١ - ٨، الآيات.

أيها الإخوة: كم مرةٍ قرأنا سورة التكاثر، بل منذ متى ونحن نحفظها؟ هذه السورة التي تحكي حالنا مع أنفسنا ودنيانا.. نتكاثر في كل شيء: في الأولاد.. في الزوجات.. في الأرصدة.. في العقارات.. في المتابعين في مواقع التواصل الاجتماعي.. إلى غير ذلك من صور التكاثر.

والتكاثر في ذاته لا يذم من حيث هو، إلا إذا أدّى إلى ما حذّرت منه سورة التكاثر.. فهل وقعنا في المحذور؟ الجواب لا يحتاج إلى كلفة في البحث عنه! فأدنى تأمل في واقع الناس يكشف عن الجواب.

لكن ماذا عن أثر نسيان المصير الذي سنقدم عليه؟

يجيب عن هذا الإمام القرطبي: فيقول:

«قال العلماء: ينبغي لمن أراد علاج قلبه وانقياده بسلاسل القهر إلى طاعة ربه، أن يكثر من ذكر هاذم اللذات، ومفرق الجماعات، وموتم البنين

(١) تفسير القرطبي - سورة التكاثر (٢٠/ ١١٧).

والبنات، ويواظب على مشاهدة المحتضرين، وزيارة قبور أموات المسلمين.

فهذه ثلاثة أمور، ينبغي لمن قسا قلبُه، ولزمه ذنبُه، أن يستعين بها على دواء دائه، ويستصرخ بها على فتن الشيطان وأعوانه، فإن انتفع بالإكثار من ذكر الموت، وانجلت به قساوة قلبه فذاك، وإن عظم عليه ران قلبه، واستحكمت فيه دواعي الذنب، فإن مشاهدة المحتضرين، وزيارة قبور أموات المسلمين، تبلغ في دفع ذلك ما لا يبلغه الأول؛ لأن ذكر الموت إخبار للقلب بما إليه المصير، وقائم له مقام التخويف والتحذير.

وفي مشاهدة من احتضر، وزيارة قبر من مات من المسلمين معاينة ومشاهدة، فلذلك كان أبلغ من الأول...

فأما الاعتبار بحال المحتضرين، فغير ممكن في كل الأوقات، وقد لا يتفق لمن أراد علاج قلبه في ساعة من الساعات.

وأما زيارة القبور فوجودها أسرع، والانتفاع بها أليق وأجدر.

فينبغي لمن عزم على الزيارة، أن يتأدب بآدابها، ويحضر قلبه في إتيانها، ولا يكون حظه منها التطواف على الأجداث فقط، فإن هذه حاله تشاركه فيها بهيمة -ونعوذ بالله من ذلك- بل يقصد بزيارته وجه الله تعالى، وإصلاح فساد قلبه، أو نفع الميت...

ثم يعتبر بمن صار تحت التراب، وانقطع عن الأهل والأحباب، بعد أن قاد الجيوش والعساكر، ونافس الأصحاب والعشائر، وجمع الأموال والذخائر، فجاءه الموت في وقت لم يحتسبه، وهول لم يرتقبه.

فليتأمل الزائر حال من مضى من إخوانه، ودرج من أقرانه الذين بلغوا الآمال، وجمعوا الأموال، كيف انقطعت آمالهم، ولم تغن عنهم أموالهم، ومحا التراب محاسن وجوههم، وافترقت في القبور أجزاؤهم، وترمل من بعدهم نساؤهم، وشمل ذل اليتم أولادهم، وأقتسم غيرهم طريفهم وتِلادهم.

وليتذكر ترددهم في المآرب، وحرصهم على نيل المطالب، وانخداعهم لمواتاة الأسباب، وركونهم إلى الصحة والشباب.

وليعلم أن ميله إلى اللهو واللعب كميلهم، وغفلته عما بين يديه من الموت الفظيع، والهلاك السريع، كغفلتهم، وأنه لا بد صائر إلى مصيرهم، وليحضر بقلبه ذكر من كان مترددا في أغراضه، وكيف تهدمت رجلاه.

وكان يتلذذ بالنظر إلى ما خوله وقد سالت عيناه، ويصول ببلاغة نطقه وقد أكل الدود لسانه، ويضحك لمواتاة دهره وقد أبلى التراب أسنانه، وليتحقق أن حاله كحاله، ومآله كمآله.

وعند هذا التذكر والاعتبار تزول عنه جميع الأغيار الدنيوية، ويقبل على الأعمال الأخروية، فيزهد في دنياه، ويقبل على طاعة مولاه، ويلين قلبه، وتخشع جوارحه» انتهى كلامه رحمه الله.

نسأل الله تعالى أن يرزقنا الاستعداد للقائه، وأن يجعل خير أعمارنا خواتمها، وخير أيامنا يوم نلقاه فيه.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.



م	فهرس المحتويات	الصفحة
	تقديم رئيس الهيئة	٥
	مقدمة المستشار العلمي	٧
١	الفاتحة تجتث شجرة التشبه	٩
٢	﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا ﴾	١٣
٣	﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾	١٧
٤	﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ ﴾	٢١
٥	من أسرار آية الكرسي	٢٥
٦	من هدايات خواتيم سورة البقرة	٢٩
٧	﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ﴾	٣٣
٨	من فوائد قصة آدم وإبليس	٣٧
٩	﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ﴾	٤١
١٠	﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾	٤٥
١١	﴿ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ ﴾	٤٩
١٢	الواعظ العظيم في أول سورة هود	٥٣
١٣	﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾	٥٧
١٤	تلطف ولا تدهن	٦١
١٥	من صور التضرع النبوي: (دعاء زكريا بالولد)	٦٥
١٦	﴿ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴾	٦٩
١٧	﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا ﴾	٧٣
١٨	تلقي الشائعات في ضوء قصة الإفك	٧٧
١٩	الحوار في القرآن الكريم	٨١
٢٠	﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ﴾	٨٥
٢١	﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ ﴾	٨٩
٢٢	﴿ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴾	٩٣
٢٣	﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾	٩٧
٢٤	﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴾	١٠١
٢٥	﴿يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴾	١٠٥
٢٦	﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴾	١٠٩
٢٧	شكر النعم في سورتي (الضحى) و (الشرح)	١١٣
٢٨	أركان تربية القرآن	١١٧
٢٩	﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴾	١٢١
٣٠	موعظة من سورة التكاثر	١٢٥
	فهرس المحتويات	١٢٨

ثلاثون مجلساً في التدبر

مجالس علمية وإيمانية

المجموعة الثالثة

إعداد اللجنة العلمية في مركز تدبر



مركز تدبر للدراسات والاستشارات

ثلاثون مجلساً في التدبر

مجالس علمية وإيمانية

المجموعة الثالثة

الطبعة الأولى

١٤٣٥هـ - ٢٠١٤

الرياض ـ الدائري الشرقي ـ مخرج ١٥

هاتف ٠١١٢٥٤٩٩٩٣ ـ تحويلة ٣٣٣

ناسوخ ٠١١٢٥٤٩٩٩٦

ص.ب.٩٣٤٠٤ الرمز: ١١٦٨٤

البريد الحاسوبي: tadabbor@tadabbor.com

www.tadabbor.com

....

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

مركز تدبر للاستشارات التربوية والتعليمة

ثلاثون مجلسا في التدبر (المجموعة الثالثة).

مركز تدبر للاستشارات التربوية والتعليمية - الرياض، ١٤٣٥هـ

١٢٨ ص؛ ١٧ × ٢٢سم

ردمك: ٩-٤-٩٠٣٦٤-٦٠٣-٩٧٨

١- القرآن - مباحث عامة ٢- القرآن - التفسير الحديث أ. العنوان

ديوي ٢٢٧،٦ ٥٤٥٥/ ١٤٣٥

رقم الإبداع: ١٤٣٥/ ٥٤٥٥

ردمك: ٩-٤-٩٠٣٦٤-٦٠٣-٩٧٨


بسم الله الرحمن الرحيم


ثلاثون مجلسًا في التدبر
مجالس علمية وإيمانية



مقدمة النشر

الحمد لله الذي أكرم من شاء من عباده بذكره، وجعل تلاوة كتابه ومدارسته من أسباب رحمته وتنـزّل سكينته وملائكته المسبحة بقدسه، وصلى الله وسلّم وبارك على إمام المتدارسين لمعاني كلام رب العالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فهذا هو الجزء الثالث من هذه السلسلة «**ثلاثون مجلساً في التدبر**» نقدّمه لأهل القرآن، لينضم إلى ما سبقه من أجزاء؛ عسى أن يكون معيناً على تحقيق رؤيتنا ورسالتنا في هذا المشروع «**تدبر**».

وإن مما لا يخفى على القارئ اللبيب أن تنوّع مشارب العلماء والباحثين الذي ساهموا في بناء هذا الكتاب، وتفاوتهم في العلم -وفي كلٍّ خير-، سيسهم بالضرورة في وجود تفاوت في الأسلوب، والطريقة التي يوصلون

بها المعاني، لكنها في الجملة تحقق الحدّ الأدنى مما نرجوه من إصدار هذه السلسلة، وفوق كل ذي علم عليم.

وصلى الله وسلّم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

نسعد بملحوظاتكم وتسديداتكم على: tadabbor@tadabbor.com

وكتب/ عمر بن عبدالله المقبل

رئيس مجلس إدارة الهيئة العالمية لتدبر القرآن الكريم

وعضو هيئة التدريس بجامعة القصيم

١٥/ ٦/ ١٤٣٥هـ



المجلس الأول

آية الكمال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[1]

في هذا المجلس المبارك نتدارس آية عظيمة في كتاب الله جمعت معاني ومقاصد القرآن كله، وهي قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (الفاتحة:٥)؛ ولذلك تسمى آية الكمال، وفي ذلك يقول الشاعر:

فاسجُدْ لهيبةِ الجَلالِ عنْد التَّدَانِي

وَلْتَقْرَأ آيةَ الكَمالِ سَبْعَ المَثَانِي

ومن تأمل هذه الآية، وجدها عماد السورة، وإليها يرجع مضمونها كلها؛ إذ أنها واردة لغرض عظيم وهو تقرير استحقاقه تعالى واختصاصه بالعبودية والاستعانة، وقد تواترت أقوال العلماء في فضلها، من ذلك:

قول شيخ الإسلام ابن تيمية: «﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ هاتان الكلمتان تجمعان معاني الكتب المنزلة من السماء»[2].

---

(١) كتبه: د. محمد بن عبدالله الربيعة، عضو هيئة التدريس بجامعة القصيم، وعضو الهيئة العالمية لتدبر القرآن.

(٢) دقائق التفسير (١/ ٢١٢).



وقال ابن كثير: «قال بعض السلف: الفاتحة سر القرآن، وسرها هذه الكلمة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾»[1].

وقال ابن القيم: «وسر الخلق والأمر والكتب والشرائع والثواب والعقاب انتهى إلى هاتين الكلمتين، وعليهما مدار العبودية والتوحيد»[2].

وهذه الآية هي موضوع الرُّقيَة وسرها في الفاتحة كما قال ابن القيم: «وقد قيل: إن موضع الرُّقيَة منها: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، ولا ريب أن هاتين الكلمتين من أقوى أجزاء هذا الدواء؛ فإن فيهما من عموم التفويض والتوكل والالتجاء والاستعانة والافتقار والطلب والجمع بين أعلى الغايات وهي عبادة الرب وحده، وأشرف الوسائل وهي الاستعانة به على عبادته ما ليس في غيرها، ولقد مر بي وقت بمكة سقمت فيه وفقدت الطبيب والدواء، فكنت أتعالج بها آخذ شربة من ماء زمزم وأقرؤها عليها مرارا، ثم أشربه فوجدت بذلك البرء التام، ثم صرت أعتمد ذلك عند كثير من الأوجاع، فأنتفع بها غاية الإنتفاع»[3].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (١/ ١٣٤).

(٢) مدارج الساكين (١/ ٩٥).

(٣) زاد المعاد (٤/ ١٦٤).

ومن هدايات هذه الآية العظيمة:

أنها جاءت بعد ذكر اتصافه تعالى بصفات الجلال والكمال في الآيات الثلاث الأولى؛ فكان ذلك موجبًا لاستحقاقه واختصاصه بالعبادة والاستعانة، وفي ذلك إشارة إلى أن طريق تحقيق كمال عبوديته هو تحقيق معرفته تعالى ومعرفة وجوه كماله؛ وذلك لأنه من كان بالله أعرف كان له أخوف وأتقى.

وقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ولم يقل (نعبدك)؛ «للدلالة على الحصر والاختصاص، وهو أن العبادة لا تكون إلا لله فكأنه قال: لا نعبد إلا إياك، ولا نستعين إلا بك»[1].

تخصيص العبادة دون غيرها في السورة في غاية المناسبة؛ وذلك أن السورة جامعة لمعاني ومقاصد القرآن كله فجاء بلفظ العبودية الجامعة لأنواع العبادة كلها، فتضمنت هذه الكلمة جماع الدين كله.

ذكر الاستعانة مع أنها نوع من أنواع العبادة للدلالة على أنه لاسبيل للعبد لتحقيق عبودية الله إلا بعونه، كما في الحديث «**اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك**»[2]، وأيضًا فإن تحقيق العبادة سبب لكمال المعونة، قال ابن القيم: «كلما كان العبد أتم عبودية، كانت الإعانة من الله له أعظم»[3].

(١) بدائع التفسير (١/ ١٧٩).
(٢) أبو داود ح(١٥٢٢)، أحمد (٢٢١١٩)، النسائي (٩٨٥٧)، الحاكم (٥١٩٤).
(٣) بدائع التفسير (١/ ١٧٨).

جاء ذكر العبادة والاستعانة بلفظ الجماعة ﴿نَعۡبُدُ﴾ و﴿نَسۡتَعِينُ﴾ ليكون أكمل في الاعتراف وأبلغ في الثناء وأرجى للقبول والبركة والإجابة.

هذا فيض من غيض من معاني وهدايات هذه الآية العظيمة، نسأل الله تعالى أن يجعلنا ممن تمثلها وحقق معانيها وكمل حقوقها.



المجلس الثاني

علوم سورة البقرة [1]

إن سورة البقرة من أعظم سور القرآن، وقد ورد في فضلها أحاديث صحيحة، فهلا تأملنا في شيء من أسرار تفضيلها؟

لنستمع لكلام إمامٍ تدبرها، ولخّص أبرز موضوعاتها، وهو شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله إذ يقول: قد اشتملت سورة البقرة على تقرير أصول العلم وقواعد الدين؛ فقد افتتحها الله تعالى بذكر كتابه الهادي للمتقين، فوصف حال أهل الهدى، ثم الكافرين ثم المنافقين، فهذه «جمل خبرية».

ثم ذكر «الجمل الطلبية» فدعا الناس إلى عبادته وحده.

ثم ذكر الدلائل على ذلك من فرش الأرض، وبناء السماء، وإنزال الماء، وإخراج الثمار رزقا للعباد، ثم قرر «الرسالة»، وذكر «الوعد والوعيد».

ثم ذكر مبدأ «النبوة والهدى» وما بثه في العالم من الخلق والأمر، ثم ذكر تعليم آدم الأسماء، وإسجاد الملائكة له؛ لما شرفه من العلم، ثم انتقل إلى

---

(١) ملخصًا من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، ينظر: مجموع الفتاوى (١٤/ ٤١- ٥٠).

خطاب بني إسرائيل وقصة موسى معهم وضمن ذلك تقرير نبوته -إذ هو قرين محمد - فذكر آدم الذي هو أول، وموسى الذي هو نظيره.

وكان في قصة موسى رد على أهل الكتاب؛ بما تضمنه ذلك من الأمر بالإيمان بما جاء به محمد ﷺ وتقرير نبوته، وذكر حال من عدل عن النبوة إلى السحر، وذِكْرِ النسخ، والنصارى، وأن الأمتين -اليهودية والنصرانية- لن يرضوا عنه حتى يتبع ملتهم.

كل هذا في تقرير أصول الدين من الوحدانية والرسالة.

ثم أخذ سبحانه في بيان شرائع الإسلام التي على ملة إبراهيم:

فذكر إبراهيم -الذي هو إمام- وبناءَ البيت -الذي بتعظيمه يتميز أهل الإسلام عما سواهم- وذكر استقباله وقرّر ذلك؛ فإنه شعار الملة بين أهلها وغيرهم.

وذكر من «المناسك» ما يختص بالمكان؛ وذلك أن الحج له مكان وزمان و«العمرة» لها مكان فقط، والعكوفَ والركوعَ والسجودَ شُرِعَ في المسجد الحرام، ولا يتقيد به ولا بمكان ولا بزمان؛ لكن الصلاة تتقيد باستقباله فذكر سبحانه هذه الأنواع الخمسة: من العكوف والصلاة والطواف والعمرة والحج، والطوافُ يختص بالمكان فقط.

وذكر الصبرَ على المشروع والمقدور، وبيّن ما أنعم به على هذه الأمة من البشرى للصابرين، فإنها أعطيت ما لم تعط الأمم قبلها فكان ذلك من خصائصها وشعائرها.

ثم ذكر الحلال والحرام وأطلق الأمر في المطاعم؛ لأن الرسول بعث بالحنيفية وشعارها وهو البيت، وذكر سماحتها في الأحوال المباحة، وفي الدماء بما شرعه من القصاص، ومن أخذ الدية.

ثم ذكر العبادات المتعلقة بالزمان: فذكر الوصية المتعلقة بالموت، ثم الصيام المتعلق برمضان، وما يتصلُ به من الاعتكافِ ذكرَه في عبادات المكان وعبادات الزمان، ووسّطَهُ أولًا بين الطواف والصلاة؛ لأن الطواف يختص بالمسجد الحرام، والصلاةُ تشرع في جميع الأرض والعكوف بينهما.

ثم أتبع ذلك بالنهي عن أكل الأموال بالباطل وأخبر أن المحرم «نوعان»: نوعٌ لعينه: كالميتة، ونوع لكسبه:كالربا والمغصوب.

ثم ذكر في أثناء عبادات الزمان المنتقلِ الحرامَ المنتقلَ؛ ولهذا أتبعه بقوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ﴾ الآية (البقرة:١٨٩) وهي أعلام العبادات الزمنية، وأخبر أنه جعلها مواقيت للناس في أمر دينهم ودنياهم وللحج.

فتدبر تناسبَ القرآن وارتباطَ بعضِه ببعض، وكيف ذكر أحكام الحج فيها في موضعين: مع ذكر بيته وما يتعلق بمكانه، وموضع ذكر فيه الأهلة فذكر ما يتعلق بزمانه وذكر أيضا القتال في المسجد الحرام والمقاصة في الشهر الحرام؛ لأن ذلك مما يتعلق بالزمان المتعلق بالمكان؛ ولهذا قرن سبحانه ذكر كون الأهلة مواقيت للناس والحج.

ثم ذكر بعد ذلك ما يتعلق بأحكام النكاح والوالدات وما يتعلق بالأموال والصدقات والربا والديون وغير ذلك، ثم ختمها بالدعاء العظيم المتضمن وضع الآصار والأغلال والعفو والمغفرة والرحمة، وطلبَ النصرِ على القوم الكافرين -الذين هم أعداء ما شرعه من الدين في كتابه المبين-.



المجلس الثالث

﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَـٰشِعِينَ﴾[1]

الصلاة فريضة عظيمة كبيرة كما وصفها الله في قوله: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَـٰشِعِينَ﴾(البقرة: ٤٥)، ولما كانت الصلاة أعظم أركان الإسلام بعد الشهادتين، وجب على المسلم أن يعيد حساباته كلها مع هذه الفريضة من الآن، وأن يعيد لها اعتبارها، وأولويتها في حياته كلها.

ونحن اليوم نشهد تهاونًا في أداء الصلاة مع الجماعة؛ مما يستدعي من المربين والدعاة الصادقين تكثيف الدعوة والتحذير من التهاون في فريضة الصلاة.

إن الصلاة هي أوجب الواجبات بعد الإيمان وهي أفضل الأعمال وآكدها، وهي أكثر العبادات تكررًا في حياة المسلم، وملازمة له في اليوم

---

(١) كتبه: د. عبدالرحمن بن معاضة الشهري، أستاذ القرآن وعلومه المشارك بجامعة الملك سعود، عضو الهيئة العالمية لتدبر القرآن الكريم، ومدير عام مركز تفسير للدراسات القرآنية.

خمس مرات؛ ولذلك جعلت مقياسًا للإيمان، وهي أساس أركان الإسلام؛ ولذلك يمكننا القول إن من لا صلاة له فلا دين له.

ومما يؤكد مكانة الصلاة في الإسلام أن الكفار وهم يعذبون في نار جهنم -والعياذ بالله- عندما سألوا عن سبب دخولهم النار أجابوا بأنهم لم يكونوا من المصلين، مع كونهم لم يكونوا مسلمين في أصلهم. قال تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾(المدثر:٤٢-٤٣) وفي هذا إشارة منهم إلى أنه وإن كان الشرك بالله والكفر به هو أعظم الكبائر فقد تأخر ذكره في الآيات، وقُدِّم تضييع الأعمال الصالحة في الدنيا وعلى رأسها الصلاة، ولذلك قال هؤلاء الكفار المعذبون قولتهم هذه؛ وكأنهم وجدوا أن الذين نجاهم الله من العذاب إنما نجوا بسبب صبرهم على الصلاة وبما تتطلبه من الأعمال، ثم وجدوا أن طائفة من عصاة المسلمين وفجارهم قد ألقي بهم معهم في قعر جهنم وعذابها بسبب تهاونهم وتركهم للصلاة، فلم ينجهم إيمانٌ بلا عمل من عذاب الله.

ومما يؤكد أهمية المحافظة على الصلاة: أن الله لما ذم الإنسان وتوعده بما فيه من هلعٍ استثنى طائفة من الناس جعلهم بمنجاة من عذاب الله. وأوضح

العلة التي تسببت في نجاتهم وهي أنهم كانوا من المصلين المحافظين على صلاتهم والخاشعين فيها، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ (المعارج:١٩-٣٤).

إن هذه الأوصاف كلها إنما هي نابعةٌ من كونهم مؤمنين مصلين، فتأمل هذا أيها المسلمُ، وتفكر في هذه الصفات التي وصف الله بها عباده المؤمنين؛ حيث إن الصلاة هي التي تصنع فيهم كل هذه الصفات الحميدة ثم تحفظها وتنميها، والعجيب أن أول وصفٍ وصفوا به هو أنهم ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾، وآخر وصفٍ وصفوا به هو ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾؛ وذلك -والله أعلم- لجعل الأعمال الصالحة كلها مراقبة بميزان الصلاة، وذلك هو الذي يضمن لها البقاء والثبات، فلا صلاح للإنسان بغير صلاة ابتداءً وانتهاءً.

وقد قرر الله أن إقامة الدين في الأرض، وما تتطلبه من دعوة وجهاد إنما غايته الأساسية هي إقامة الصلاة، وما يلحقها من أعمال الإسلام. قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ (الحج:٤١) ووصف أمة محمد ﷺ بكونها صاحبة الشهادة على الناس، وجعل مناط تلك الشهاد إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة فقال تعالى: ﴿وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾(الحج:٧٨).

ولو شئت أن أتلو الآيات التي تحدثت عن الصلاة في القرآن الكريم لأتيت لكم بالقرآن كله، فماذا بقي للإنسان من دينه إذا هو ضيَّع الصلاة؟



المجلس الرابع

﴿قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾[1]

إنها كلمة عظيمة ومن أجَلّ الأذكار التي تقال عند المصائب، ويبشر الله أهلها بالثناء عليهم منه سبحانه وبالرحمة، وحصول الهداية لهم، وذلك بعد ذكره سبحانه لحتمية البلاء في قوله تعالى: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾. (البقرة:١٥٥-١٥٧)

فالإنسان حين تقع المصيبة ويشعر بلظى البلاء قي قلبه، ربما تساءل: لماذا أصابني البلاء دون غيري؟

فيأتي هذا الذكر القرآني العظيم مبتدأ بهذا الكلمة ﴿إِنَّا﴾، يردده المؤمن فيتقين أنه مملوك لله ﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾، كما يفيد هذا التقديم حصر الملك له سبحانه؛ بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى الملكية المطلقة.

(١) كتبه: سلمان بن عمر السنيدي، مؤلف كتاب: تدبر القرآن.

والإنسان بفطرته لا يلوم صاحب الملك إذا تصرف في ملكه؛ لأنه أولى به وأعلم بشأنه وأحكم في تدبير شؤونه، وهكذا المسلم الصابر حين يردد ﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾، يقع في نفسه تفويض أمره إلى ربه ومالكه وخالقه؛ فيستحي أن ينازع الله في ملكه، فيصبر بل ويرضى فيترقى في أعلى مقامات أعمال القلوب (الرضا بالقضاء).

وكذلك يستشعر المسلم أن سلطانه وجاهه وكل ما يفتخر به، تحت قهر الله وسلطانه وتدبيره، فهو حين يقول: ﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾ بحق تسكن نفسه ببرد الرضا بالقضاء، ويحول بينها وبين التسخط عند نزول المصائب، ويمنع عنها الجزع عند زوال النعم.

فإذا كنا لله ملكا وتدبيرا، فليس لنا اعتراض على قدر الله وتدبيره، فهو سبحانه ﴿مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾ (آل عمران: ٢٦) ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ (البقرة: ٢٥٥).

ومن ثمرات تذكر المسلم كونه ملكاً لله: أن يكون طائعًا له سبحانه ملتزمًا بأمره، في الشدة والرخاء، والأمن والخوف، متوجهًا لما يحب الله معرضًا عما يكرهه؛ رجاء ما عنده، وخوف عقابه يوم لقائه، ومما يؤكد هذا المعنى: ما جاء في آخر هذا الذكر المبارك في قوله: ﴿وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾.

وعند وقوع المصيبة وحلول البلاء يردد المؤمن أنه راجع إلى الله، فيزداد تعلقه بالله وانقياده له ويتيقن أنه عائدٌ إلى ربه؛ فيخاف من تقصيره ومعاصيه، ويطمع فيما عند الله من ثوابه وعفوه وإحسانه وما أعده الله للصابرين، ويرجو من الله أن ما فقده، سيعود عليه أجرًا وثوابًا وتكفيرًا وطهورًا -إن صبرَ واحتسب-، فتنقلب المحنة في حقه منحة.

إن رجوع المؤمن إلى الله في الدار الآخرة فوزٌ وراحةٌ من عناء الدنيا ونكدها، كما ورد أن رسول الله ﷺ مر عليه بجنازة، فقال: «**مستريح ومستراح منه**»، قالوا: يا رسول الله، ما المستريح والمستراح منه؟ فقال: «**العبد المؤمن يستريح من نصب الدنيا...**»[(١)]؛ وذلك لما يرى من الروح والريحان والنعيم في الجنان ولقاء الرحمن.

ولما يحمله هذا الذكر من المعاني العظيمة؛ كان له فضلٌ عظيمٌ جاء ذكره فيما الأحاديث التالية:

عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول ﷺ يقول: «**ما من مسلم تصيبه مصيبة، فيقول ما أمره الله: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾، اللهم أجرني في مصيبتي، وأخلف لي خيرا منها، إلا أخلف الله له خيرا منها**»، قالت: فلما مات أبو سلمة، قلت: أي المسلمين خير من أبي سلمة؟ أول بيت هاجر إلى رسول الله ﷺ، ثم إني قلتها، فأخلف الله لي رسول الله ﷺ.[(٢)]

---

(١) رواه مسلم (٩٥٠).

(٢) رواه مسلم (٩١٨).

وعن أبي موسى أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا مات ولد العبد، قال الله تعالى لملائكته: قبضتم ولد عبدي؟ فيقولون: نعم. فيقول: قبضتم ثمرة فؤاده؟ فيقولون: نعم. فيقول: ماذا قال عبدي؟ فيقولون: حمدك، واسترجع. فيقول: ابنوا لعبدي بيتا في الجنة، وسموه بيت الحمد**».[1]

(١) رواه الترمذي (١٠٢١).



من فقه الأمثال القرآنية(١)

دعا الله تعالى عباده لتدبر الأمثال القرآنية، وأخبر أن من فقهها فهو من أهل العلم، فقال: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ﴾(العنكبوت: ٤٣).

من الأمثال القرآنية العجيبة التي توقف عندها العلماء كثيرًا: قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَـٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾(البقرة: ٢٦١).

يقول ابن القيّم: مبينًا معنى هذا المثل:

فشبّه سبحانه نفقة المنفق في سبيله، سواء كان المراد به الجهاد، أو جميعُ سبل الخير من كل بِر، بمن بذر بذرًا فأنبتتْ كل حبة سبعَ سنابل، اشتملت كل سنبلة على مائة حبة، والله يضاعف -بحسب حال المنفق، وإيمانه وإخلاصه، وإحسانه ونفع نفقته، وقدرها ووقوعها موقعها-.

(١) ملخصًا من كلام ابن القيم رحمه الله: في إعلام الموقعين (١/ ١٤١).

فإن ثواب الإنفاق يتفاوت بحسب ما يقوم بالقلب من الإيمان والإخلاص، والتثبّتِ عند النفقة، وهو إخراج المال بقلب ثابت، قد انشرح صدره بإخراجه، وسمحت به نفسه، وخرج من قلبه قبل خروجه من يده، فهو ثابت القلب عند إخراجه غير جزع ولا هلع، ولا متبعه نفسه ترجف يده وفؤاده.

ويتفاوت بحسب نفع الإنفاق ومصارفه بمواقعه.

ويتفاوت بحسب طيب الْمُنْفَقِ وزكائه.

وتحت هذا المثل من الفقه: أنه سبحانه شبّه الإنفاق بالبذر، فالمنفِقُ مالُه الطيب لله لا لغيره، باذر مالَه في أرضٍ زكية، فمَغَلُّه بحسب بذره، وطيبِ أرضه، وتعاهد البذر بالسقي، ونفي الدغل والنبات الغريب عنه.

فإذا اجتمعت هذه الأمور، ولم تحرق الزرع نارٌ ولا لحقته جائحة؛ جاء أمثال الجبال، وكان مثله كمثل حبة بربوة (وهي المكان المرتفع الذي تكون الجنة فيه نصب الشمس والرياح) فتتربى الأشجار هناك أتمّ تربية، فنزل عليها من السماء مطر عظيم القطر، متتابع، فرواها ونمّاها، فآتت أكلها ضعفي ما يؤتيه غيرها؛ بسبب ذلك الوابل، فإن لم يصبها وابل فطل (وهو مطرٌ صغير القطر) يكفيها لكرم منبتها، يزكو على الظل وينمي عليه، مع أن في ذكر نوعي الوابل والطل إشارة إلى نوعي الإنفاق الكثير والقليل.

فمن الناس من يكون إنفاقه وابلًا، ومنهم من يكون إنفاقه طلًّا، والله لا يضيع مثقال ذرة.

فإن عرض لهذا العامل ما يغرق أعماله، ويبطل حسناته، كان بمنزلة رجل له جنة من نخيل وأعناب، تجري من تحتها الأنهار، له فيها من كل الثمرات، وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء، فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت، فإذا كان يوم استيفاء الأعمال، وإحراز الأجور، وجد هذا العامل عمله قد أصابه ما أصاب صاحب هذه الجنة، فحسرته حينئذ أشد من حسرة هذا على جنته!

فهذا مثل ضربه الله سبحانه في الحسرة لسلب النعمة عند شدة الحاجة إليها، مع عظم قدرها ومنفعتها، والذي ذهبت عنه قد أصابه الكبر والضعف فهو أحوج ما كان إلى نعمته، ومع هذا فله ذرية ضعفاء لا يقدرون على نفعه والقيام بمصالحه، بل هم في عياله فحاجته إلى نعمته حينئذ أشد ما كانت لضعفه وضعف ذريته، فكيف يكون حال هذا إذا كان له بستان عظيم، فيه من جميع الفواكه والثمر، وسلطان ثمره أجلّ الفواكه وأنفعها، وهو ثمر النخيل والأعناب، فمغله يقوم بكفايته وكفاية ذريته، فأصبح يومًا وقد وجده محترقًا كله كالصريم! فأي حسرة أعظم من حسرته؟ قال ابن عباس: «هذا مثل الذي يختم له بالفساد في آخر عمره».

وقال مجاهد: «هذا مثل المفرط في طاعة الله حتى يموت»، وقال السدي: «هذا مثل المرائي في نفقته الذي ينفق لغير الله، ينقطع عنه نفعها أحوج ما يكون إليه».

وسأل عمر بن الخطاب الصحابة يوما عن هذه الآية، فقالوا: «الله أعلم» فغضب عمر، وقال: «قولوا نعلم أو لا نعلم» فقال ابن عباس: «في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين» قال: «قل يا ابن أخي ولا تحقر نفسك» قال: «ضرب مثلا لعمل» قال: «لأي عمل؟ لرجل غني يعمل بالحسنات ثم بعث الله له الشيطان فعمل بالمعاصي حتى أغرق أعماله كلها».

قال الحسن: «هذا مثل قل والله من يعقله من الناس، شيخ كبير ضعف جسمه وكثر صبيانه أفقر ما كان إلى جنته، وإن أحدكم والله أفقر ما يكون إلى عمله إذا انقطعت عنه الدنيا».





المجلس السادس

﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ (١)

من بدائع النظم القرآني ورود بعض الجُمل القصيرة، والتي يدخل تحتها معانٍ كثيرة جدًا.

ومن تلكم الجمل، والقواعد القرآنية العظيمة: قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ (آل عمران: ٣٦).

وهذه الآية جاءت في سياق قصة امرأة عمران التي قالت: ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ (آل عمران: ٣٥، ٣٦).

في هذه الآية الكريمة بيان لحكمِ اللهِ القدري، والذي تفرّع عنه أحكام شرعية، هي عين الحكمة والرحمة.

---

(١) كتبه: د. عمر بن عبدالله المقبل، رئيس مجلس إدارة الهيئة العالمية لتدبر القرآن الكريم، الأستاذ المشارك بجامعة القصيم.

فقد راعت الشريعة في هذا الاختلاف طبيعة المرأة من حيث خلقتها، وتركيبها العقلي والنفسي، وغير ذلك من صور الاختلاف التي لا ينكرها العقلاء والمنصفون من أي دين.

والمتأمل يجد شيئًا من حِكَمِ الله تعالى في التفريق بين الذكر والأنثى في بعض الأحكام الشرعية، ومن ذلك:

١) التفريق في الميراث: فقد اقتضت سنة الله أن الرجل هو الذي يكدح ويتعب في تحصيل الرزق، ويطلب منه دفع الميراث، والمشاركة في دفع الدية؛ لذا كان من الحكمة أن يكون ميراثه أكثر، لأن الذكر مترقب دومًا للنقص من ماله، بعكس الأنثى فهي دومًا تترقب الزيادة في مالها: فهي التي يدفع لها المهر، وينفق عليها من قبل وليها.

٢) التفريق في الشهادة: كما نصت عليه آية الدين؛ لأن المرأة ليس من شأنها الاشتغال بالمعاملات المالية ونحوها، فلذلك تكون ذاكرتها فيها ضعيفة، بخلاف الأمور المنزلية -التي هي شغلها- فإنها فيها أقوى ذاكرة من الرجل.

ولا ينافي ذلك اشتغال بعض النساء الأجانب في هذا العصر بالأعمال المالية فإنه قليل لا يعول عليه، والأحكام العامة إنما تناط بالأكثر في الأشياء وبالأصل فيها[1].

---

(١) ينظر: تفسير المنار (٣/ ١٠٤).

وليس في هذا انتقاصٌ لقدرها، بل هو تنزيهٌ لها عن ترك مهمتها الأساسية في التربية والقرار في البيت، إلى مهمة أقل شأنًا وسموًا بالنسبة لها، وهي ممارسة التجارة والمعاملات المالية!

كما أن هذا التفريق بين الذكر والأنثى ليس كله للرجل، بل جاءت أحكام تفرق بينهما تفريقًا لصالح المرأة، ومن ذلك: أن الجهاد لا يجب على النساء لطبيعة أجسادهن، فسبحان العليم الحكيم الخبير، الذي حكم بأن الذكر ليس كالأنثى.

وبالجملة، فعلى المؤمن أن يحذر من كلمة راجت على كثير من الكتاب والمثقفين في حديثهم عن قضايا المرأة، فيطلقون كلمة «المساواة» التي لم ترد في القرآن بهذا المعنى الذي يورده أولئك الكتاب، والصواب أن يعبر عن ذلك بالعدل؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ﴾ (النحل:٩٠)، ولم يقل: يأمر بالمساواة! لأن في كلمة المساواة إجمالًا ولبسًا بخلاف العدل، فإنها كلمة واضحة بينه صريحة في أن المراد أن يعطى كل ذي حق حقه.

فكلمة (العدل) تقتضي أن يتولى الرجل ما يناسبه من أعمال، وأن تتولى المرأة ما يناسبها من أعمال، بينما كلمة مساواة: تعني أن يعمل كلٌّ من الجنسين في أعمال الآخر!

ومدلول كلمة العدل: أن تعمل المرأة عددًا من الساعات يناسب بدنها وتكوينها الجسمي والنفسي، بينما مقتضى المساواة: أن تعمل المرأة نفس ساعات الرجل، مهما اختلفت طبيعتهما! وهذا كلّه عين المضادة للفطرة التي فطر الله عليها كلًا من الرجل والمرأة!

ولهذا لما أصرت بعض المجتمعات الغربية على هذه المصادمة للفطرة، وبدأت تساوي المرأة بالرجل في كل شيء ذاقت ويلاتها ونتائجها المرة، فصرخ عقلاؤهم محذرين مجتمعاتهم من الاستمرار في هذه المصادمة، التي يرددها -وللأسف- بعض المنتسبين للإسلام من غير وعي بخطورتها.



﴿ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ﴾[1]

من الآيات الكريمة التي كانت سببًا في إسلام بعض النصارى المعاصرين، قوله تعالى: ﴿ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ (آل عمران: ١٦٣).

وليتضح وقْع هذه الآية ومعناها؛ فيَحْسُنُ ذكر الآية التي قبلها، وهي قوله تعالى: ﴿ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ (آل عمران: ١٦٢، ١٦٣)، والمعنى: أنهم «مختلفو المنازل عند الله، فلمن اتبع رضوان الله، الكرامة والثواب الجزيل، ولمن باء بسخط من الله، المهانة والعقاب الأليم»[2].

حدّثت أختٌ أمريكية أن سبب إسلامها؛ هو قراءتها لترجمة معنى هذه الآية، فتقول: عرضتُ نفسي وواقعي على هذه الآية، فوجدت أن حالي

(١) كتبه: د. عمر بن عبدالله المقبل، رئيس مجلس إدارة الهيئة العالمية لتدبر القرآن الكريم، الأستاذ المشارك بجامعة القصيم.

(٢) تفسير الطبري (٧/ ٣٦٧).

وأعمالي لا تستحق إلا سخط الله! فقادني فهم هذا المعنى إلى الإسلام، الذي اطّلَعَتُ في كتابه المقدس -القرآن- كيف حثّ على كل فضيلة، ونهى عن كل رذيلة.

إن في هذه الآية من المعاني التي إذا تدبرها القارئ؛ كانت سببًا لتحفيزه إلى المعالي، ومن ذلك:

أولًا: تمّ عَرْضُ هذه القضية الكبرى -نيل الرضوان، والتعرض لسخط الله- بصيغة الاستفهام، وما ذاك إلا لغرض بلاغي، يراد منّا أن نعيه جيدًا؛ وهو أن الاستفهام يستنطقُ أهل القرآن بالجواب القاطع، وهو وإن لم يذكر صراحة، لكنه أشار إليه بقوله: ﴿ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ﴾.

ثانيًا: دلّ قوله تعالى: ﴿ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ﴾ على أن رضوانه تعالى لا ينال بالتشهّي، بل لا بد من الاجتهاد في تلمس أسبابه؛ فإنه تعالى قال: ﴿ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ ﴾، وإلا لو كانت المطالب العالية تنال بالأماني، لوصلها كل الخلق، ولكن هيهات هيهات.

«فالمتبعون لرضوان الله يسعون في نيل الدرجات العاليات، فيعطيهم الله من فضله وجوده على قدر أعمالهم، والمتبعون لمساخط الله يسعون في النزول في الدركات إلى أسفل سافلين، كلٌّ على حسب عمله»[١].

---

(١) تفسير السعدي (١٥٥).

ثالثًا: جاء التعبير بالفعل ﴿بَآءَ﴾ في قوله تعالى: ﴿كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ لتمثيل حال صاحب المعاصي بالذي خرج يطلب ما ينفعه فرجع بما يضره، أو رجع بالخيبة والخسران[1]، والعياذ بالله!

ومن تأمل القرآن أدركَ أسبابَ نيل الرضوان، وأسبابَ التعرض لسخطِ الجبّار، فحري بالمؤمن أن يتتبعها، وينظر أين موقعه من تلك الأعمال؟ ومنزلته من منازل الرضوان؟

رابعًا: جرت عادة القرآن على أن ما كان من الثواب والرحمة، فإن الله يضيفه إلى نفسه، وما كان من العقاب لا يضيفه إلى نفسه، وهو هنا كذلك، فقد قال تعالى: ﴿رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِ﴾، بينما في السخط قال: ﴿بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾[2].

خامسًا: ما أعظم الإغراء في قوله تعالى: ﴿هُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾، فقال: ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ تنويهًا بشرف منازلهم، فيكفي أنها عند الله.

فابحث -يا عبد الله- عن منزلتك عند الله، وابْكِ على ما يقطعك عن هذه الدرجات، أو يؤخرك عن صعودها من المعاصي والبدع.

أما الخلق، فهم كما قال مالك بن دينار: «منذ عرفت الناس لم أفرح بمدحتهم ولم أكره مذمتهم» قيل: ولِمَ ذاك؟ قال: «لأن حامدهم مفرط وذامهم مفرط»[3].

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير (٤/ ١٥٧).

(٢) ينظر: مفاتيح الغيب (٩/ ٤١٦).

(٣) ينظر: الزهد الكبير للبيهقي (ص: ١٠١).

وسبحان من أرى عباده اجتماع هذا المعنى الذي دلّت عليه الآية في أسرة واحدة، الزوج عدو لله، باء بسخط من الله وغضب، وأما الزوجة فقد اتبعت رضوان الله، فارتفعت عند الله درجات.

سادسًا: ما أجمل ختم الآية الثانية بقوله: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾! فكم تسكب هذه الآية الطمأنينة في قلوب الخلق! لعلمهم بكمال اطلاعه تعالى، فلا تضيع عنده حسنة، ولا تهدر عنده سيئة بدرت منهم.

وفي اختيار الفعل (يعمل) دون (يفعل)، أو (يقول) سرٌّ بديع؛ لأنه يشمل القول والفعل، فالقلب عمله النية، واللسان عمله القول، والأذن عملها الاستماع، والعين عملها النظر، ولا يمكن أن يأتي فعلٌ أنسب -في هذا السياق- من كلمة (يعملون).



المجلس الثامن

﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْـمًا﴾[1]

يقول الله -تبارك وتعالى- في تعقيبه على قصة غزوة أحد وما تلاها من أحداث بين المسلمين وأعدائهم من الكفار: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ﴾ أي: الكفار ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْـمًا﴾(آل عمران: ١٧٨).

وفي هذه الآية الكريمة دليل على أن من أعظم ما يصد عن الهدى، ويقود إلى مهاوي الردى الاغترارَ بإمهال الله للمسيئين، فمن الناس من يسرف على نفسه بالمعاصي، فإذا نصح عنها، وحُذِّر من عاقبتها، قال: ما بالنا نرى أقوامًا قد امتلأت فجاجُ الأرض بمفاسدهم، ومباذلهم، وظلمهم، وقتلهم الأنفس بغير الحق، وأكلهم أموال الناس بالباطل، وأكلهم الربا وقد نهوا عنه، ومع ذلك نراهم وقد درت عليهم الأرزاق، وأنسئت لهم الآجال، وهم يعيشون في رغد ونعيم بعيد المنال؟

(١) كتبه: د. محمد بن إبراهيم الحمد، عضو هيئة التدريس بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة القصيم، والمشرف العام على موقع دعوة الإسلام.

ولا ريب أن هذا القول لا يصدر إلا من جاهل بالله، وبسننه سبحانه وتعالى.

ويقال لهذا وأمثاله: رويدك رويدك؛ فالله سبحانه وتعالى يعطي الدنيا من يحب، ومن لا يحب، وهؤلاء المذكورون مُتَبَّرٌ ما هم فيه، وباطل ما كانوا يعملون، فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم؛ فما الذي هم فيه من النعيم إلا استدراج، وإمهال، وإملاء من الله سبحانه وتعالى حتى إذا أخذهم أخذهم أخذ عزيز مقتدر[1].

قال النبي صلى الله عليه وسلم: «**إن الله ليملي للظالم، حتى إذا أخذه لم يفلته، ثم قرأ قوله تعالى:** ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ (هود: ١٠٢)»[2].

وقال صلى الله عليه وسلم: «**إذا رأيت الله سبحانه وتعالى يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب، فإنما هو استدراج، ثم تلا قوله سبحانه وتعالى:** ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (الأنعام: ٤٤-٤٥)»[3].

---

(١) ينظر: أثر الذنوب في هدم الأمم والشعوب للصواف (ص ٤٥_٤٧).
(٢) أخرجه البخاري (٤٦٨٦)، ومسلم (٢٥٨٣).
(٣) أخرجه أحمد (١٤٥)، وابن أبي الدنيا في الشكر (٣٢) بسند رجاله ثقات.

قال ابن الجوزي: «فكل ظالم معاقبٌ في العاجل على ظلمه قبل الآجل، وكذلك كل مذنبٍ ذنبًا، وهو معنى قوله تعالى: ﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾ (النساء: ١٢٣)، وربما رأى العاصي سلامة بدنه؛ فظن أن لا عقوبة، وغفلتُه عما عوقب به عقوبة.

وقد قال بعض الحكماء: المعصية بعد المعصية عقاب المعصية، والحسنة بعد الحسنة ثواب الحسنة، وربما كان العقاب العاجل معنويًّا، كما قال بعض أحبار بني إسرائيل: (يا رب! كم أعصيك، ولا تعاقبني!) فقيل له: كم أعاقبك وأنت لا تدري؟! أليس قد حرمتك حلاوة مناجاتي؟»[١].

قال ابن الجوزي: «الواجب على العاقل أن يحذر مغبة المعاصي؛ فإن نارها تحت الرماد، وربما تأخرت العقوبة، وربما جاءت مستعجلة»[٢].

وقال: «قد تبغت العقوبات، وقد يؤخرها الحلم، والعاقل من إذا فعل خطيئة بادرها بالتوبة، فكم مغرور بإمهال العصاة لم يمهل.

وأسرع المعاصي عقوبة ما خلا عن لذة تنسي النُّهى، فتكون كالمعاندة والمبارزة، فإن كانت توجب اعتراضًا على الخالق، أو منازعة له في عظمته، فتلك التي لا تُتلافى، خصوصًا إذا وقعت من عارف بالله؛ فإنه يندر إهماله»[٣].

(١) صيد الخاطر، ص١٠٤.
(٢) صيد الخاطر، ص٣٣٩.
(٣) صيد الخاطر، ص٥٠٠.

وقال: «فالحذر الحذر من عواقب الخطايا، والبدار البدار إلى محوها بالإنابة؛ فإن لها تأثيراتٍ قبيحةً إن أسْرَعَتْ، وإلا اجتمعتْ وجاءتْ»[1].

يا من غدا في الغي والتيه وغره طول تماديه

أملى لك الله فبارزته ولم تخف غِبَّ معاصيه[2]

(١) صيد الخاطر، ص٥٠٢.

(٢) بحر الدموع، ص٣٦.



المجلس التاسع

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾[1]

من الآيات التي وعظ الله بها عباده: قوله سبحانه: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ (آل عمران: ١٨٥).

وعبرّ هنا بالذوق في قوله: ﴿ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾؛ لأنه أبلغ في الحصول؛ لأن الذوق يحصل به حق اليقين.

ودخل في قوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ بنو آدم، والجن، والملائكة، والحيوانات، وكل نفس، كما قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ (الزمر: ٦٨)، ويستثنى من خُلقوا للبقاء كالولدان والحور الذين في الجنة؛ فإنهم خلقوا للبقاء فلا يموتون.

---

(١) للعلامة ابن عثيمين رحمه الله، ملخصًا من تفسيره للآية في سورة آل عمران: (٢/ ٥١١).



وقوله: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ هذه حصر، يعني: لا توفَّون أجوركم إلا يوم القيامة، والمراد بالتوفية هنا: توفيَة الكمال، وإلا فإن الإنسان قد يوفَّى أجره في الدنيا، ويُدَّخر له أيضًا زيادةً على ذلك، والكافرُ أيضًا يوفَّى أجره في الدنيا، مثل ما عمل من خير فإنه يُطعم به في الدنيا، لكن في الآخرة ليس له خلاق.

قوله تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾، ومعنى ﴿زُحْزِحَ﴾: أي دُفع ببطء؛ وذلك لأن النار -أعاذنا الله منها- محفوفةٌ بالشهوات، والشهوات تميلُ إليها النفوس، فلا يكاد الإنسان ينصرف عن هذه الشهوات إلا بزحزحة؛ لأنه يُقبل عليها بقوَّة، لهذا قال: ﴿زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ﴾ أي: دُفع عنها بمشقَّةٍ وشدَّة، ﴿وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾؛ لأنه نجا من المرهوب وحصل على المطلوب.

وقد أفادت الآية الكريمة أن الفوز لا يكمل إلا بأمرين: أن يُزحزح الإنسان عن النار، وأن يُدخل الجنة. ومعلوم أن من زُحزح عن النار فلا بد أن يُدخل الجنة؛ لأنه ليس في الآخرة إلا داران فقط: إما النار وإما الجنة.

وقد بيَّن النبي ﷺ في الحديث الصحيح ما يحصل به هذا الثواب العظيم مِن الزحزحة عن النار وإدخال الجنة، فقال: «**من أحب أن يُزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتأته منيَّته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأت إلى الناس ما يحب أن يُؤتى إليه**»(1)، فذكرَ حقَّ الله وحقَّ العباد، فمن وجد من نفسه هذين الوصفين: الإيمان بالله واليوم الآخر، وأنه يأتي إلى الناس ما يحب أن يؤتى إليه؛ فليبشر بهذا.

وقد وصفت الدنيا بهذا لوجهين: الأول: لدنوِّها زمنًا، والوجه الثاني: لدنوِّها قدرًا. أما دنوها زمنًا فظاهر؛ لأنها قبل الآخرة، وأما دنوها قدرًا فقد قال النبي ﷺ: «**لموضع سوط أحدكم في الجنة خير من الدنيا وما فيها**»(2). وموضع السوط لعله يقارب المتر! «**خير من الدنيا وما فيها**» ليست دنياك التي أنت فيها، وليست دنياك الخاصة بك أنت، بل الدنيا من أولها إلى آخرها.

وقوله: ﴿إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ أي: إلا متعة تغر صاحبها وتخدعه، وكم من أناس زُيِّنت لهم الدنيا فانخدعوا بها، وكان مآلهم إلى وادٍ سحيق -والعياذ بالله-.

---

(1) مسلم ح (١٨٤٤).
(2) البخاري ح (٢٨٩٢).

فعلى العبد الحذر من مغبَّتها وغرورها، ولهذا ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**والله ما الفقرَ أخشى عليكم، ولكني أخشى أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من قبلكم فتُنافسوها كما تنَافسها مَن قبلكم، فتهلككم كما أهلكتهم**»[1]، وصدق الرسول ﷺ فإن هذا هو الخوف، وانظروا الآن لمَّا فُتِحت الدنيا على الناس حصل الهلاك، بل حتى الذين لم تُفتح عليهم إذا سمعوا من فُتحت عليهم هلكوا.

وعلى المؤمن أيضا أن يبادر للعمل الصالح؛ لأنه إذا كان ميتًا -ولا محالة- وهو لا يدري متى يموت؛ فإن العقل كالشرع يقتضي أن يُبادر ولا سيَّما في قضاء الواجبات والتخلي عن المظالم، فلا تُهْمِلْ ولا تؤخِّر، فإن التأخير له آفات، كثيرًا ما يقول الإنسان: أنا سأفعل هذا غدًا ولكن يتهاون، ثم يأتي غد وما بعده، ويضيع عليه الوقت.

---

(١) البخاري ح (٤٠١٥).



المجلس العاشر

جنات وظلال لأهل الإيمان[١]

يقول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ لَّهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَنُدۡخِلُهُمۡ ظِلّٗا ظَلِيلًا﴾ (النساء: ٥٧).

هذه الآية الكريمة جاءت بعد قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمٗا﴾ (النساء: ٥٦) وهذه طريقة القرآن؛ فإنه مثاني: تثنى فيه المعاني، فإذا ذكر فيه أهل النار ذُكِرَ فيه أهل الجنة، وإذا ذكر الحق ذكر الباطل، وهكذا.

وقدّم الله الإيمان على العمل الصالح في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ لأن العمل الصالح مبني على الإيمان، فعمل بلا إيمان لا فائدة منه، فالمنافقون يعملون، ويذكرون الله، ويصلون، ويتصدقون، ولكن ليس عندهم إيمان فلا ينفعهم.

(١) للعلامة ابن عثيمين رحمه الله، ملخصًا من تفسيره لهذه الآية في سورة النساء.

والأعمال الصالحة: هي التي جمعت الإخلاص لله والمتابعة للرسول ﷺ.

وقوله: ﴿سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ﴾ بينما قال في أهل النار -في الآية التي قبلها-: ﴿سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ﴾ فما الحكمة من ذلك؟

والجواب: أن أهل النار يفسح لهم لعلهم يتوبون إلى الله فيرجعون، وحينئذ لا يكونون من أهل النار، أما أهل الجنة فإنهم يدخلون الجنة، ولكن ليس المقصود جنة الآخرة فحسب، لكن يدخلون جنة الدنيا قبل جنة الآخرة، كما في قوله تعالى: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗ﴾ (النحل: ٩٧).

والمراد بالجنات في قوله: ﴿سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ﴾: ما أعده الله في الدار الآخرة لهؤلاء المؤمنين، ولا يَحسُن هنا أن نقول: الجنات: جمع جنة وهي البستان الكثير الأشجار؛ لأن هذا ينقص من شأن الجنة، إذ لا ينصرف إلا إلى بساتيننا في الدنيا، وهي مرة تيبس، ومرة تخضر، ومرة تصيبها الرياح، ومرة تستقيم، لكن إذا قلتَ: الجنات: جمع جنة: وهي الدار التي أعدها الله سبحانه للمتقين، فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر؛ حينئذ يبتهج القلب ويسر.

وقوله: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ أي: تحت أشجارها وقصورها، أنهار مطردة تحت الأشجار وتحت القصور، فهي من تحتها، وهذه الأنهار جاءت مفسّرة في قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗى﴾ (محمد: ١٥).

قوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ فهو خلود أبدي لا منتهى له.

قوله: ﴿لَّهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞ﴾ أي: للذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴿أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞ﴾ أزواج: جمع زوج، وهي الأنثى، وقد دلّت السنة على أن الواحد له أزواج متعددة، سواء من أهل الدنيا أو ممن خلق الله في الجنة وهن الحور.

وقوله: ﴿مُّطَهَّرَةٞ﴾ طهارة حسية: من البول والغائط، والحيض، والعرق، والرائحة المنتنة وغير ذلك، من كل ما يستحب إزالته والتنزه عنه فهي مطهرة منه.

ومطهرة أيضًا طهارةً معنويةً، فهي خالية من كل خلق سيء، لا غضب ولا تكرب للزوج، ولا عصيان، ولا اكفهرار في وجهه.

ولو اعترضت النساء وقلن: الرجال لهم أزواج مطهرة فما بالنا نحن؟ فنقول لهن: أنتن لَكُنَّ أزواج مطهرون، فالله طيب لا يقبل إلا طيبًا، ولا يكون

جاره إلا الطيب، وأنتن في الآخرة كل واحدة منكن لا تريد إلا زوجها، كما قال: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾ (الرحمن: ٥٦)، ولكن لما كان الزوج هو الطالب غالبًا صار هو الذي يقال له: لك زوجة فيها كذا وفيها كذا، أما الزوجة فلا تكون طالبة إلا نادرًا.

قوله تعالى: ﴿وَنُدۡخِلُهُمۡ ظِلّٗا ظَلِيلًا﴾ الظل: هو ما لم تحله الشمس، سواء كان فيئًا أم ظلًّا من أول النهار، وأما الظليل فهو الذي تحصل به فائدة الاستظلال؛ لأن من الظل ما ليس بظليل، فلو جلست تحت ظل جدار في أيام الصيف فأنت في ظل، لكنه ليس بظليل؛ لأن لفح الحر يأتيك، لكن الجنة ظل ظليل.

وجملة الآية فيها الحث على الإيمان والعمل الصالح؛ لأن الله سبحانه إنما ساق بيان نعيمهم حثًا على أن نعمل العمل الموصل إلى ذلك، نسأل الله بمنّه وكرمه أن يوفقنا لعمل الصالحات، والتوبة قبل الممات.



المجلس الحادي عشر

﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾(1)

هل سألنا أنفسنا -أثناء عباداتنا- عن مدى فهمنا لحقيقة العبادة وهل صدرت عن محبة لله تعالى؟

والأهم من ذلك: هل الله رضي منا هذه العبادة وأحبنا؟ وما السبيل لمعرفة ذلك؟

إن عبادة الله سبحانه وتعالى مبنية على محبته، وعبادة بلا محبة كجسد بلا روح؛ ولهذا نجد المشركين حين أحبوا آلهتهم أوصلتهم هذه المحبة إلى أن عبدوها من دون الله -عز وجل-.

قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾(البقرة: ١٦٥) قال الشيخ عبدالرحمن السعدي رحمه الله: «إن اتخاذ أنداد من الخلق يحبهم كحب الله، ويقدم طاعتهم على طاعة الله، ويلهج بذكرهم ودعائهم، هو الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله»(2).

---

(١) كتبته: د. أسماء بنت راشد الرويشد، المشرفة العامة على مركز آسية، وعضو الهيئة العالمية لتدبر القرآن.

(٢) القول السديد، ص(١١٧).

قال ابن تيمية رحمه الله: «فالعبادة تتضمن كمال الحب ونهايته، وكمال الذل ونهايته، فالمحبوب الذي لا يُعظَّم ولا يُذلُّ له لا يكون معبودًا، والمعظَّم الذي لا يُحبُّ لا يكون معبودًا»[1].

وحقيقة ذلك أن يقوم في القلب من محبة الله، وتعظيمه والذل له، ما يقتضي الامتثال لأمره، وكمال طاعته، وإيثاره على غيره.

فإذا أراد العبد أن يحصّل تلك المحبة، ويترقى في درجاتها؛ فعليه بالدليل على صدق محبته من خلال العمل بطاعة الله، وذاك هو الطريق الموصل إلى منْزلة محبة الله له، إذ لا يمكن للعبد أن يصل إلى منْزلة محبوبية الله تعالى، حتى يؤدي براهين محبته لربه، ويقدم دلائل طاعته.

ولكل من المنْزلتين -نعني المحبة والمحبوبية- درجات وعلامات، تكون بحسب قيام العبد بحق ربه، وصدقه، واجتهاده.

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾(المائدة: ٥٤).

﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ خبرٌ تهش له نفس المؤمن ويشتاق له قلب التقي.

وليس العجيب أن يحب العبد ربه وهو الذي أوجده وتفضل عليه، ولكن العجيب هو أن يحب اللهُ عبدَه الفقير إليه!

(١) الجواب الكافي ص (٢١١).

وما أجمل المقابلة ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾، فهل حُبٌّ بحُبٍّ أزكى من حب الرب للعبد؟!

إنها لأشرف المنازل وأسنى المطالب، فيها يتنافس المتنافسون، ولأجلها يعمل العاملون.

والمحب الصادق محبوباته كلها تبعًا لما يحب ربه، فهو لا يحب إلا له وفيه، ولا تستقيم المحبة إلا بذلك؛ ولهذا كان رأس الإيمان الحب في الله والبغض في الله، وكما جاء في الحديث فإن: «**من أحب لله، وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله، فقد استكمل الإيمان**»[(١)].

وهناك دلائل يجدها المحب في قلبه وعمله، يقول الربيع بن أنس: «علامة حب الله كثرة ذكره، فإنك لا تحب شيئا إلا إذا أكثرت من ذكره»[(٢)].

ويقول ابن مسعود رضي الله عنه: «لا ينبغي أن يسأل أحدكم عن نفسه إلا القرآن، فإن كان يحب القرآن فهو يحب الله، وإن لم يكن يحب القرآن فليس يحب الله»[(٣)].

وأما الميزان الذي يُعرف به المحب الصادق من المدعي، هو ما جاء في (آية الامتحان):

---

(١) رواه أبو داود، ح (٤٦٨١)، والترمذي (٨٥)، والحاكم (١٦٤).
(٢) المخلاة، بهاء الدين العاملي (٤٥).
(٣) رواه الطبراني في المعجم الكبير (٨٦٥٨)، والهيثمي في مجمع الزوائد (١٦٨).

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (آل عمران:٣١) قال الحافظ ابن كثير رحمه الله في تفسيره لهذه الآية: «هذه الآية حاكمة على كل من ادَّعى محبة الله، وليس هو على الطريقة المحمدية؛ فإنه كاذب في دعواه في نفس الأمر، حتى يتبع الشرع المحمدي، والدين النبوي في جميع أقواله وأفعاله وأحواله»[١].

وعلى ذلك فمن دلائل حب العبد لربه تقديم ما يحبه الله ورسوله على ما تحبه نفسه، ويتبيّن ذلك عند تعارض محاب النفس والهوى مع أمر الله ونهيه، فإن كان الحب قويًا صادقًا، فلن يتردد في مخالفة هواه تبعا لمرضاة الله.

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٤٧٧).



المجلس الثاني عشر

﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾[1]

قال ابن كثير رحمه الله: «الآية عظيمة العموم والشمول».[2]

رحمة الله العامة تغمر كل الخلائق، كل العوالم، كل الأشياء.. آثار رحمة الله في كل الوجوه، والأجناس، والأعراق.. تفحص آثار هذه الرحمة في كل مخلوق تراه، وكل بشر تشاهده.

راقب الرحمة في إشراق الشمس، وبزوغ القمر، وتدفق النهر، ونمو الحبة، وتفتح الزهرة، في إقبال الليل، في رحيل الظلام.

تحسس الرحمة في كل نبضة تخفق في قلبك، وكل قطرة دم تمشي في شرايينك، وفي كل خلية من مليارات الخلايا تعمل في جسدك.

استنشق الإيمان بهذه الرحمة مع الهواء اللطيف يسري في رئتيك، ومع قطرات الماء البارد في فمك، تحسسها مع خطو القدم، تحسسها في أرض تحملك، وسماء تظلك، وطريق يهديك، تحسسها في بسمتك وفي دمعتك وفي فرحتك وفي ألمك.

---

(١) كتبه: د. عبدالله بن بلقاسم.

(٢) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٤٨١).

استقبلها في ركضة طفل، وحضن أم، وعناق أب.

الرحمة معك تلف حياتك، تحيط بك، وتغمرك، تستوعبك، وتذهب في كل تفاصيل جسدك، وومضات حياتك.

اقرأ رحمة الله بك في وجوه تبسمت لك، ونفوس أحبتك، وخلق ساعدوك.

تذوقها مع لقمة سيقت إليك، وثوب نسج من أجلك،ومركب عَبَرَ البحار إليك.

دقق في آثارها في يديك وجلدك، انظر إليها في أناملك، انظر في عينك بعينك، بل اقرأها في وجعك، وفقرك، وتعبك، وغربتك، وعجزك؛ ستجدها معك تلاحقك، تختلط مع دموعك، وتمتزج بحزنك.

فتش صفحات حياتك، اقرأ سطور الرحمة التي كتبت بها تفاصيل سيرتك، اقرأ قصتك في أحشاء أمك، في ظلام حزنك، استمع لصوت يواسيك في داخلك، يهتف بك في أعماقك، يخفض وجعك.

ولا تنس في زحام الرحمات وذكرياتها، أن تلتفت بكل مشاعرك وعقلك وحسك نحو الرحمة العظمى، التي أعطاك ربك وهداك لها: (القرآن العظيم) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ (يونس: ٥٧)، ثم ارحل في الرحمات مع آياته.

اهتف في داخلك بقول ربك: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖ﴾ (الأعراف:١٥٦) تلذذ بها في حياتك، اعبر بها مآسيك وذكرياتك، املأ بها قلبك، بدد بها مخاوفك، امض بها إلى مستقبلك، اصطحب اليقين بها في كل حياتك.

﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖ﴾ كل شيء، في كل وقت،كل لحظة حزن، كل ومضة ألم، كل خاطرة خوف، وسعته، أحاطت به، غمرته، لفته، تخللته.

وسعتك أنت، وسعت أطفالك وأحباءك، وسعت ماضيك، وحاضرك، ومستقبلك، وسعتك في بيتك، وعملك، وسفرك، وحضرك، وحربك، وسلمك، ورزقك، ومرضك.

تحسسها في دموعك عند فراق الأحبة، تحسسها في خفق قلبك عندما يشتكي ابنك، تحسسها في لوعتك بحزن أمك، تأملها في الطير يضع الحبة في جوف صغاره، وفي أم الغزال تستبسل في وجه الأسد تحميه.

كل هذا من رحمة واحدة مخلوقة من مائة رحمة، من آثار الرحمة الكبرى التي هي صفته جل جلاله.

فيا ليت شعري كيف يقنط القانطون، وينقطع اليائسون؟!وربهم يقول لهم: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾.

في كل وقت وحين، أيقظ بهذه الآية التوبة في قلبك، وحرك بها محبة الله في جنانك، غير بها حياتك.

اشعر بهذه الرحمة الواسعة تحفك وتحويك، تعرض لها في مواطن الرحمة.

اقترب من الرحمة الخاصة التي جعلها الله للمحسنين ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾(الأعراف: ٥٦).



المجلس الثالث عشر

﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾[1]

يقول الله تعالى في قصة نبيه شعيبٍ عليه السلام: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾(هود:٩١).

فبين تعالى في هذه الآية أن نبيه شعيبا -عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام- منعه الله من الكفار، وأعز جانبه بسبب العواطف العصبية، والأواصر النسبية من قومه الذين هم كفار، وهو دليل على أن المتمسك بدينه قد يعينه الله، ويعزه بنصرة قريبه الكافر، كما بينه تعالى في مواضع أخر، كقوله في صالح وقومه: ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾(النمل:٤٩).

---

(١) للعلامة الشنقيطي رحمه الله، ينظر: "أضواء البيان" (٢/ ١٩٨-٢٠٠) ملخصا.

ففي الآية دليل على أنهم لا قدرة لهم على أن يفعلوا السوء بصالح -عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام- إلا في حال الخفاء، وأنهم لو فعلوا به ذلك خفاء وسرقة لكانوا يحلفون لأوليائه -الذين هم عصبته- أنهم ما فعلوا به سوءًا، ولا شهدوا ذلك ولا حضروه خوفا من عُصْبَتِهِ، فهو عزيز الجانب بسبب عصبته الكفار.

وقد قال تعالى لنبينا ﷺ: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾(الضحى:٦)، أي: آواك بأن ضمك إلى عمك أبي طالب؛ وذلك بسبب العواطف العصبية، والأواصر النسبية، ولا صلة له بالدين البتة، فكونه سبحانه وتعالى يمتن على رسوله ﷺ بإيواء أبي طالب له؛ دليل على أن الله قد ينعم على المتمسك بدينه بنصرة قريبه الكافر.

ولهذا لما كان نبي الله لوط -عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام- ليس له عصبة في قومه الذين أرسل إليهم؛ ظهر فيه أثر عدم العصبة، بدليل قوله تعالى عنه: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾(هود: ٨٠).

ولما ناصر بنو المطلب بن عبد مناف بني هاشم، ولم يناصرهم بنو عبد شمس بن عبد مناف، وبنو نوفل بن عبد مناف عرفَ النبي ﷺ لبني المطلب تلك المناصرة التي هي عصبية نسبية لا صلة لها بالدين، فأعطاهم من خمس

الغنيمة مع بني هاشم، وقال: «**إنا وبني المطلب لم نفترق في جاهلية ولا إسلام**»[١] ومنع بني عبد شمس، وبني نوفل من خمس الغنيمة، مع أن الجميع أولاد عبد مناف بن قصي.

فهذه الآيات القرآنية تدل على أن الله قد يعين المؤمن بالكافر لتعصبه له، وربما كان لذلك أثرٌ حسنٌ على الإسلام والمسلمين، وقد يكون من منن الله على بعض أنبيائه المرسلين -صلوات الله وسلامه عليهم-، وفي الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «**إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر**»[٢]، وفي المثل: (اجتن الثمار وألق الخشبة في النار).

فإذا عرفت دلالة القرآن على أن المسلم قد ينتفع برابطة نسب وعصبية من كافر، فاعلم أن النداء بالروابط العصبية لا يجوز؛ لإجماع المسلمين على أن المسلم لا يجوز له الدعاء بـ (يا لبني فلان) ونحوها.

وقد ثبت في البخاري من حديث جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال في تلك الدعوة: «**دعوها فإنها منتنة**»[٣]، وقوله ﷺ: «**دعوها**» يدل على وجوب تركها، ويؤكد ذلك تعليله الأمر بتركها بأنها منتنة.

---

(١) أبو داود ح (٢٩٨٠)، والنسائي ح (٤١٣٧)، وأصله في البخاري (٣١٤٠) بلفظ: «إنما بنو المطلب، وبنو هاشم شيء واحد».
(٢) البخاري ح (٣٠٦٢)، مسلم ح (١١١).
(٣) البخاري ح (٤٩٠٥)، مسلم ح (٢٥٤٨).

وما صرح النبي ﷺ بالأمر بتركه وأنه منتن لا يجوز لأحد تعاطيه، وإنما الواجب على المسلمين النداء برابطة الإسلام التي هي من شدة قوتها تجعل المجتمع الإسلامي كله كأنه جسد إنسان واحد، فهي تربطك بأخيك المسلم كربط أعضائك بعضها ببعض، قال ﷺ: «**إن مثل المؤمنين في تراحمهم وتوادهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى**»[1].

وإذا تأملت قوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾(المجادلة: ٢٢) تحققت أن الروابط النسبية تتلاشى مع الروابط الإسلامية، ولا يخفى أن أسلافنا معاشر المسلمين إنما فتحوا البلاد ومصروا الأمصار بالرابطة الإسلامية، لا بروابط عصبية، ولا بأواصر نسبية.

---

(١) البخاري ح (٦٠١١)، مسلم، ح (٢٥٨٦).



﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا﴾[1]

غالبًا ما نسمع عن حوادث تقع لأناس، وكل المؤشرات تدل على هلاكهم، لكن الله ﷻ يحفظهم وينجّيهم منها، لماذا؟

دعونا نتأمل قول الله تعالى: ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾(يوسف: ٦٤)، وهي آية كريمة قالها يعقوب عليه السلام عندما طلب منه أبناؤه أن يرسل معهم أخاهم بنيامين، لعلهم يظفرون ببغيتهم من الطعام لدى عزيز مصر.

ونلحظ هنا ختم هذه الآية بقوله: ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾فهي تشير إلى أن حالة الضعف التي تكتنف قلب العبد عند الدعاء، لها أثرٌ في استجابة العبد؛ فإن يعقوب عليه السلام أشار بهذا، فكأنه يقول: «هو أرحم الراحمين بي، وسيرحم كبري وضعفي ووجدي بولدي، وأرجو من الله أن يرده علي، ويجمع شملي به، إنه أرحم الراحمين»[2].

---

(١) كتبه: د. محمد بن مصطفى السيد، عضو الهيئة العالمية لتدبر القرآن.

(٢) تفسير ابن كثير (٤/ ٣٩٩).

وهذا كلّه يؤكّد في نفوسنا معنى اسمه تعالى: الحافظ، وكذلك الحفيظ، فهما دالان على أن الله يحفظ عباده، وفي ضمن هذا: حضّ للمؤمنين على المزيد من العناية والرعاية.

ولما كانت الملائكة من جند الله وعباده الذين لا يعصونه، فقد جعل سبحانه أحد مهامهم: حفظ عباده المؤمنين مما يكدرهم، بدنيًا أو روحيًا: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾(الرعد:١١).

لكن ما الطريق للوصول إلى هذا الحفظ؟

إن من أهم الطرق الموصلة إلى حفظ الله أن تحفظ الله، كما في وصية النبي ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما: «**احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك...**»[(١)]، وحفظك لله يعني: حفظ حقوقه وحدوده، وهناك حفظ خاص: منه قراءة آية الكرسي وخواتيم البقرة، فقد ورد فيها فضائل تتحدّث عن دورها في حماية الإنسان وحفظه.

فمنها قصة أبي هريرة رضي الله عنه مع الشيطان حين علّمه كلمات حيث قال له الشيطان: دعني أعلمك كلمات ينفع الله بها، قلت (أي: أبو هريرة): ما هي؟ قال: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾(البقرة:٢٥٥)، حتى تختم الآية، فإنه لا يزال عليك من الله حافظ،

(١) الترمذي، ح (٢٥١٦)، أحمد (٢٧٦٣).

ولا يقربك شيطانٌ حتى تصبح،... فقال النبي ﷺ: «**أما إنّه صدقك وهو كذوبٌ**»[1]، والشاهد من الكلام قوله: «فإنه لا يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطانٌ حتى تصبح»، فأي شيء نريده بعد ذلك إذا حفظَنا الله عند نومنا، وأبعد عنا الشياطين؟

ولا يتوقّف أمر الحفظ عند النوم، بل يتجاوزه إلى الحفظ سائر اليوم، ففي الصحيح عنه ﷺ: «**من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه**»[2]، وهذا يشمل كل ما يسعى المرء في الاكتفاء به، أو أنها تكفيه ما أهمّه أو كدّر خاطره وأفسد عليه حياته.

كما لا يتوقّف الحفظ عند الدنيا، بل يتجاوزه إلى الآخرة، ففي صحيح مسلم عنه ﷺ أنه قال: «**اقرءوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعًا لأصحابه، اقرءوا الزهراوين: البقرة وسورة آل عمران؛ فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو كأنهما غيايتان، أو كأنهما فرقان من طير صواف تحاجان عن أصحابهما**»[3].

---

(١) البخاري، ح (٢٣١١).

(٢) البخاري، ح (٥٠٥١)، مسلم (٨٠٨)، أبو داود (١٣٩٧)، ابن ماجه (١٣٦٩).

(٣) مسلم، ح (٨٠٤)، أحمد (٢٢١٤٦).

وإذا كان لآية الكرسي وخواتيم البقرة -وهي مفتتح القرآن- تلكم المنزلة، ففي ختامه كذلك، ويتمثل الحفظ في المعوذتين فهما دواء لكل داء حسيّ أو معنويّ بإذن الله تعالى، فعن عائشة رضي الله عنها «**أن رسول الله ﷺ كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذات وينفث، فلما اشتد وجعه كنت أقرأ عليه وأمسح بيده رجاء بركتها**»[١].

إن هذه السور والآيات المباركة التي نقرأ بعضها أدبار الصلوات، وبعضها آناء الليل وأطراف النهار في أوراد المسلم اليومية، وبعضها حين نأوي إلى فراشنا، هي محطات قرآنية تنثر السعادة في بيوتنا وقت الفرح والحزن، ووقت الصحة والمرض، ننال بفضلها بركة القرآن، ونعوّد أنفسنا وأولادنا على افتتاح أعمالنا كلها بالقرآن، ونجعله في الموضع اللائق به، ونجعل حياتنا تسير كلها بحفظ الله تعالى.

(١) البخاري ح(٥٠١٦)، مسلم (٢١٩٢)، أبو داود(٣٩٠٢)، مالك (٣٤٧١)، أحمد (٢٤٨٣١)، النسائي (٧٤٨٨).



المجلس الخامس عشر

﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡ﴾[1]

إذا دخل أهل الإيمان جنات عدن، وذاقوا لذات السعادة والراحة والأمن، وخلدوا في الجنان في بيوتهم وقصورهم، وغرفهم وخيامهم، مع من صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم، فلبسوا ثياب الحرير والسندس والإستبرق، وتحلوا بأساور اللؤلؤ والفضة والذهب، واتكؤوا على أرائكها في جلسات المؤانسة، وسقاهم ربهم شرابا طهورا، فإنهم حينئذ في حالة من المتعة واللذة، والفرح والسرور، والسعادة والحبور لا يمكن لعقل أن يتصور تجليات تلك الحياة على الحقيقة، ولا لقلب أن يخطر عليه هذا المشهد كما سيكون!

تخيل ما شئت من نعيم الجنة، وعش فيها بقلبك ما تعلمه من وصفها في القرآن والسنة، لكن أعِرني انتباهك لحظة واحدة في موقف من مواقف نعيم الجنة المتكرر، البهي ببهجته وحفاوته.

(١) كتبه: الشيخ مهند بن حسين المعتبي، إمام وخطيب جامع عبدالله بن عباس بجازان.

تخيل معي حين تكون في الجنة مع الأهل والأزواج والذرية في جلسات أنس وبهجة، ثم ترى الملائكة تدخل عليكم من كل باب؛ لتقول لكم: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡ﴾ (الرعد: ٢٤) فأي حفاوة ستجده حينها منهم؟!

وتفكر معي كذلك فيما تقوله الملائكة بعد السلام، إنها تقول: ﴿بِمَا صَبَرۡتُمۡ﴾.

﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡ﴾ فثبتم على الإيمان، والتوحيد، حتى الممات.

﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡ﴾ على طاعة الله ابتغاء وجهه، فأقمتم الصلاة، ونهضتم من فرشكم الوثيرة للقيام بين يدي الله، وأخرجتم من أموالكم صدقة وزكاة لله رغم تعلقكم بالمال، وصمتم شهر رمضان وتحملتم الظمأ والجوع والعطش، وقطعتم المسافات لحج بيت الله، وجاهدتم في سبيل الله وهو كره لكم، وأمرتم بالمعروف ونهيتم عن المنكر، واستقمتم على طاعة الله.

﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡ﴾ عن معصية الله ابتغاء وجهه، فهجرتم كل ما زينت لكم أنفسكم مما يغضب ربكم، وآثرتم رضاه على أهوائكم.

﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡ﴾ على ما أصابكم من أقدار الله ابتغاء وجهه، فصبرتم على فقد أحبابكم، وضياع أموالكم، وآلام أمراضكم، وكل ما تكرهون مما أصابكم.

إنه الصبر.. المفتاح العظيم لدخول الجنة بعد التوحيد..

إنه الزاد الذي يغذي السائر حتى يصل..

إنه الوقود العظيم الذي لا يقطع بالمسافر أبدا..

والصبر في القرآن في أكثر من تسعين موضعا! بل الإيمان نصفان؛ نصف صبر، ونصف شكر -كما قاله بعض السلف-، وقرره ابن القيم وابن تيمية عليهما رحمة الله، وقد قرن الله بينهما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ (إبراهيم: ٥).

فبالصبر تحقق الفلاح ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (آل عمران: ٢٠٠).

وبالصبر تظفر بمعية الله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (البقرة: ١٥٣).

وبالصبر تنال البشارة الإلهية، والصلوات الربانية، والرحمة القدسية: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ (البقرة: ١٥٥ - ١٥٧).

وبالصبر توفى أجرك بغير حساب ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (الزمر: ١٠).

وبالصبر تفوز بمحبة الله ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ (آل عمران: ١٤٦).

وبالصبر تحظى بالمغفرة والأجر الكبير ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾ (هود: ١١).

وفضائل الصبر كثيرة، بل أكثر الصفات الحميدة ترجع إلى الصبر، كالعفة؛ فهي صبر عن شهوة الفرج، وكالحلم؛ فهو صبر عن إجابة داعي الغضب، وكالزهد؛ فهو صبر عن فضول العيش، وكالجود؛ فهو صبر عن إجابة داعي الإمساك والبخل.

وإن أردت كتابا لتستعين به على تدبر القرآن في آيات الصبر؛ فمتع ناظريك بكتاب (عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين) لابن القيم رحمه الله.



المجلس السادس عشر

﴿ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ﴾[1]

مما جبل الله عليه النفوس: التعلق بمتع الدنيا وملذاتها، كما قال تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ﴾(آل عمران: ١٤)، والملاحظ أن هذه الْمُتَعَ الدنيوية سريعةُ الفناء، كثيرة العَنَاء، وهي مما تتعلق به قلوب الناس وتميل إليه نفوسهم، فمن صرف قصده إليها صارت شقاءً عليه ووبالًا في دنياه وأخراه، ومن عرف حقيقتها فاستعملها فيما يقربه لربه وعمل صالحًا سعد في دنياه وأخراه، وتلك هي السعادة الحقيقية وما منا أحد إلا وهو يبحث عن السعادة ويطلبها في مظانها، وقد بينها القرآن كأحسن مايكون البيان.

---

(١) كتبه: د.عبدالله بن منصور الغفيلي، عضو هيئة التدريس في المعهد العالي للقضاء.

قال ابن القيم رحمه الله: «وقد جعل اللهُ الحياةَ الطيبةَ لأهل معرفته ومحبته وعبادته، فقال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ (النحل:٩٧)، وقد فُسِّرت الحياة الطيبة بالقناعة والرضى، والرزق الحسن وغير ذلك، والصواب: أنها حياة القلب ونعيمه وبهجته، وسروره بالإيمان، ومعرفة الله، ومحبته، والإنابة إليه، والتوكل عليه؛ فإنه لا حياة أطيب من حياة صاحبها، ولا نعيم فوق نعيمه إلا نعيم الجنة»[1].

وإنك لن تجد دليلا للسعادة ولا مرشدا لها كما هو القرآن، فهو كلام من خلق الخلق سبحانه وهو أعرف بهم فهو يهديهم ويسعدهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ (الإسراء:٩) فكل حياة تعرض عنه فهي معوجة وضنك، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾(طه:١٢٤)؛ ولذلك جمع القرآن مالم يجمع غيره من أوصاف السعادة كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾(يونس:٥٧) فليس من مؤمن إلا وهو يبحث عن تلك الأوصاف الأربع فهي إكسير الحياة الطيبة، وهي الموجبة للفرح والسرور

(١) مدارج السالكين (٣/ ٢٤٣).

لا غيرها كما قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾(يونس: ٥٨) فبها تكون الغبطة والسعادة لا بدنيا زائلة ومتع فانية.

وإن العبد كلما كان عظيم العناية بالقرآن تلاوة، وحفظا، ومذاكرة، وتدبرا، وعملا وتطبيقا؛ نال من السعادة، والطمأنينة، وراحة الصدر، وزوال الهم والغم والحزن بحسب ذلك؛ ولهذا كان من دعائه عليه السلام: «**أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي**»[1].

قال ابن القيم: «في القلب شعث لا يلمه إلا الإقبال على الله، وفيه وحشة لا يزيلها إلا الأنس بالله، وفيه حزن لا يذهبه إلا السرور بمعرفته، وصدق معاملته، وفيه قلق لا يسكنه إلا الاجتماع عليه والفرار إليه، وفيه نيران حسرات لا يطفئها إلا الرضا بأمره ونهيه وقضائه ومعانقة الصبر على ذلك إلى وقت لقائه، وفيه فاقة لا يسدها إلا محبته والإنابة إليه ودوام ذكره وصدق الإخلاص له، ولو أعطي الدنيا وما فيها لم تسد تلك الفاقة أبدا»[2].

ولست أرى السعادة جمع المال ... ولكن التقي هو السعيد
وتقوى الله خير الزاد ذخرًا ... وعند الله للأتقى مزيد

(١) أحمد ح (٢٤٧)، ابن أبي شيبة (٣٢٩).
(٢) مدارج السالكين (٣/ ١٥٦).

فافتح قلبك لكتاب ربك وتدبر كلامه؛ فثم الجنة في الدنيا والآخرة، وحذار من أن يكون القرآن سببا في خسارتك بإعراضك عن العمل به كما قال تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ (الإسراء:٨٢).

فيا لخيبة المحرومين من الأنس بكلام رب العالمين! ويا لظلام المستنيرين بغير النور المبين والصراط المستقيم! فأسعد بتلك النعمة التي حرمها الكثيرون وقد اختصك الله بها ولولا فضله سبحانه لكنا في شقاء ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ (الأنعام:١٢٢) ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(الشورى: ٥٢). اللهم اجعلنا منهم.



المبادرات في القرآن الكريم(١)

المتدبر للقرآن الكريم والسنة النبوية يلحظ العناية الكبرى في إعداد الأمة وتربيتها على خلق المبادرة، فبالمبادرة للخير يتحقق رضا الله سبحانه وتعالى: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ (طـه: ٨٤)، وبالمبادرة تفتح لك أبواب الجنان: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (آل عمران:١٣٣).

ونجد أن القرآن يحث على المبادرة ويبين الفرق العظيم بين من بادر وبين من سوَّف وأجَّل ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُواْ﴾ (الحديد: من الآية١٠)، بل إن من صفات المنافقين التسويف والتثاقل وعدم المبادرة ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ﴾ (النساء: من الآية١٤٢) والسنة مليئة بالنصوص التي تحث على المبادرة والمسارعة إلى فعل الخير.

---

(١) كتبه: أ.د. ناصر بن سليمان العمر، رئيس مجلس أمناء الهيئة العالمية لتدبر القرآن الكريم، والمشرف العام على مؤسسة ديوان المسلم.

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه الصحيح: «**لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول، ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا**».[1]

بل إن النبي صلى الله عليه وسلم يعلمنا كيف نتقي الفتن، وذلك كما في صحيح مسلم قال: «**بادروا بالأعمال فتنا كقطع الليل المظلم يصبح الرجل مؤمنا ويمسي كافرا أو يمسي مؤمنا ويصبح كافرا يبيع دينه بعرض من الدنيا**»[2].

وعند مسلم[3] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «**لايزال قوم يتأخرون حتى يؤخرهم الله في النار**».

ويربينا صلى الله عليه وسلم على التبكير في الأعمال عامة، دينا ودنيا، وذلك بالدعاء لكل مبكر ومبادر، كما عند أبي داود[4] من حديث صخر الغامدي رضي الله عنه قال صلى الله عليه وسلم: «**اللهم بارك لأمتي في بكورها**».

ولقد فزع أهل المدينة ذات ليلة فانطلق ناس قبل الصوت فتلقاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم راجعا وقد سبقهم إلى الصوت[5].

---

(١) رواه البخاري ح(٦١٥).
(٢) ح(١١٨).
(٣) ح (٤٣٨).
(٤) ح (٢٦٠٨).
(٥) متفق عليه، مسلم (٢٣٠٧)، البخاري (٦٠٣٣).

ومبادرات الأنبياء -عليهم السلام- الذين أمر الله بالاقتداء بهم مسطرة بالكتاب والسنة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ﴾ (الأنعام: ٩٠).

ومن أعظم مبادرات الأنبياء: مبادرة خليل الرحمن بتحطيم الأصنام، ومن مبادراته هجرته إلى ربه وذبحه لإسماعيل وإكرام الضيوف.

إلى مبادرات عظيمة في قصة موسى عليه السلام كما في القرآن، حيث ذكر الله عددًا من المبادرات ومنها سقيه الغنم للفتاتين ومافتح الله عليه بسبب ذلك من خير عظيم.

أما مبادرات الصحابة فيصعب حصرها هنا، وأكتفي بقدوتين:

فمبادرات أبي بكر رضي الله عنه سارت بها الركبان كما في حديث «**من أصبح منكم اليوم صائما**»[١].

ومبادرات عمر رضي الله عنه كثيرة جدًا: فهو أول من كتب تاريخ الهجرة، وأول من جمع الناس على التراويح، وأول من دوَّن الدواوين.

ومبادرات النساء مسطورة مشهورة كما بادرت أم كلثوم بنت عقبة بن معيط رضي الله عنها في الهجرة إلى المدينة، ومبادرة أم حرام في غزوها مع زوجها رضي الله عنها وخوض غمار البحر، وقد قال لها النبي صلى الله عليه وسلم «**أنتِ من الأولين**».[٢]

(١) مسلم ح (١٠٢٨)،النسائي (٨٠٥٣).

(٢) البخاري ح(٢٧٨٨)، مسلم (١٩١٢)، أبو داود(٢٤٩٠)، الترمذي(١٦٤٥)، النسائي (٣١٧١)، ابن ماجه (٢٧٧٦).



ومن أعظم ما يربي النفس على المبادرة مراعاة هذه الصفات:

الصدق والإخلاص فهو يبث في الروح قوة ويقينًا.

تدبر القرآن والوقوف مع آياته في المبادرة والمسارعة.

الاقتداء بسير الأنبياء والمرسلين وخير القرون.

العمل الجماعي والتعاون على البر والتقوى.

أخذ الأمور بجدية وقوة.

اليقين بحسن جزاء المبادرين.

التفاؤل وعدم اليأس مهما طال الزمن.

الصبر والتحمل والبعد عن العجلة قبل آوان الأمر ونضوجه.

الدعاء والاستغفار واللجوء إلى الله.

وبعد: فأمتنا تنتظر منا أن نكون من المبادرين في أمور الدين والدنيا لنحميها من عدوها، ونجعل لها المهابة والقوة كما كان سلفنا الصالح، وأن نستغني عن أعدائنا.



المجلس الثامن عشر

﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾[1]

ستتحدث في هذا المجلس عن بعض مواضع العبرة والعظة في قوله تعالى: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ (القصص: ٢٤).

إن هذه الآية تكشف لنا خلقين عظيمين تخلّق بهما الأنبياء الكرام، ومنهم موسى عليه السلام ألا وهما: نفع الناس والتواضع، ومن جمَع هذين الخلقين، فقد بلغ في محاسن الأخلاق شيئًا عظيمًا.

يظهر الخلق الأول في قوله تعالى: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾ حيث بادر موسى عليه السلام إلى فعل الخير يوم لاح له رغم ما أصابه من تعب ونصب وخوف، فبمجرد رؤية المرأتين تنتظران حتى انصراف الرِّعاء؛ سقى لهما، دون

(١) كتبه: أ. د. عويض بن حمود العطوي، وكيل الدراسات العليا بجامعة تبوك.

معرفة سابقة ولم يطلب مقابلًا؛ ولذا عتب عليه الخضر -على ما ذكر- يوم قال في شأن القرية التي استطعما أهلها: ﴿لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا﴾ (الكهف: ٧٧)؛ تذكيرًا له عليه السلام بفعل الخير دون مقابل وهو ما اعتاد فعله من قبل.

﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ﴾ بعد فعل المعروف تنحى بعيدًا؛ لأنه لا ينتظر جزاءً ولا شكورًا من أحد، وحتى لا يحرج من بذل له المعروف ابتعد عنه، كما أن ذلك يدل على تعبه ونصبه من رحلة المطاردة والخوف، ولبذل المعروف في مثل هذه الظروف شأن مختلف، فقد يعجب الإنسان فيها بنفسه وبفعله، ولكن موسى عليه السلام ناجى ربه في تلك اللحظة فقال: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ﴾، وهنا يظهر التواضع لصاحب الفضل وهو رب العالمين سبحانه وتعالى، فلم يحمله هذا العمل -وهو مساعدة المرأتين والقوة التي أعطاه الله إياها- على أن يتفاخر بنفسه ولا أن يعجب بها، بل أقرّ بفضل الله عليه، وفقره إلى خالقه جلت قدرته.

ونلحظ الاستكانة والخضوع في المناداة: ﴿رَبِّ﴾ ولم تذكر معها (يا)؛ للإشارة إلى قرب المنادى جلت قدرته، وللإشعار بإسرار ذلك الدعاء، وذكر اسم الرب هنا لأن الموقف موقف إعانة ورعاية، وقدم ﴿لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ﴾ على ﴿فَقِيرٌ﴾ دون أن يُقال: إني فقير لما أنزلت إليّ؛ لاهتمامه بما أُنزل عليه من خير أكثر من اهتمامه بفقره، ودخول ﴿مِنۡ﴾ على ﴿خَيۡرٍ﴾ للإشعار بأن أي جزء من الخير منه سبحانه وتعالى فهو عظيم عنده عليه السلام.

والتعبير بالفقر عن حاجته للخير من ربه ﴿إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٍ فَقِيرٌ﴾ دون أن يقول مثلًا: إني محتاج؛ لأن الفقر أعظم صور الحاجة، وفيه إشارة إلى أن الفقر لا يكون في المال فحسب، بل يكون في غيره أيضًا، وأن منه ما هو ممدوح، وهو: كل فقر إلى الله في أي صورة كان.

يقول البقاعي: «وفي القصة ترغيب في الخير، وحث على المعاونة على البر، وبعث على بذل المعروف مع الجهد»[1].

(١) نظم الدرر للبقاعي (٦/ ١٧٢).



إن تقديم المعروف وخدمة الناس ونفعهم لا يعرف ظروفًا تُثني العزائم، بل يعرف قلوبًا تواقة إلى الثواب، لقد لحق النَّصَب والتعب والخوف به عليه السلام، لكنه نسي نفسه في تلك اللحظة وقدم العون لمن يحتاجه، يا لها من نفوس! وما أعظمهما من قلوب!

لقد فعل عليه السلام الخير، وطلب من الله الخير، وهكذا من أراد فضل الله، فليطلبه في نفع الناس؛ فالله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه.



المجلس التاسع عشر

﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ (١)

عندما تدرك المرأة المسلمة المؤمنة بالله وبرسوله ﷺ سِرَّ تميزها تستعلي بدينها وبإيمانها على كل شيء، وتشعر بالفخر والاعتزاز أنها مؤمنة؛ ولذلك خاطب الله نساء النبي ﷺ بخطابٍ يوقظ في نفوسهن سر التميز الحقيقي وهو إيمانهن وكونهن زوجات النبي ﷺ فقال: ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِۚ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ٣٢ ﴾(الأحزاب:٣٢) وهذا التميز الذي اختص الله به نساءَ النبي ﷺ، ولم يشاركهنَّ فيه غيرُهُنَّ من المؤمنات، إلا أَنَّهنَّ يشاركنهن في الإيمان بذلك الزوج العظيم والنبي الكريم، كما يشاركنهنَّ في الاهتداء بهديه والاقتداء به.

---

(١) كتبه: د. عبدالرحمن بن معاضة الشهري، أستاذ القرآن وعلومه المشارك بجامعة الملك سعود، عضو الهيئة العالمية لتدبر القرآن الكريم، ومدير عام مركز تفسير للدراسات القرآنية.

إنَّ الله في هذه الآية التي وردت في سياق عدة آيات عظيمة في سورة الأحزاب (من الآية الثامنة والعشرين حتى الخامسة والثلاثين) يؤكد فيها على أنَّ أمهات المؤمنين وزوجات النبي ﷺ هنَّ الأسوة الحسنة للمؤمنات، وقد جاء في مناسبة نزول الآيات عمومًا[١]، ونزول أولها خصوصًا[٢] ما يفهم منها أن النبي ﷺ بعد أن نصره الله في غزوة الأحزاب، ويهود بني قريظة، وأصبحت راية الإسلام هي الأولى في جزيرة العرب، رغب زوجات النبي ﷺ أن يكون لهنَّ حظهنَّ من الدنيا على غرار بنات كسرى وقيصر اللاتي كنَّ في الحُليِّ والحُلَلِ والخَدَمِ، ولم يكن في بيوت النبي ﷺ شيء من حطام الدنيا، ولم يكن عليه السلام يدخر شيئًا.

وروي أن أزواجه ﷺ كنَّ قد تغايرن عليه فهجرهن شهرًا[٣] أو تسعًا وعشرين يومًا[٤]، ثم نزل التخيير لهنَّ من الله تعالى، فاخترن الله تعالى ورسوله ﷺ والدار الآخرة وتركن الحياة الدنيا وزينتها -رضي الله تعالى عنهن وأرضاهن-.

---

(١) ينظر: البحر المحيط في التفسير لأبي حيان (٧/ ٢٢٧).
(٢) ينظر: فتح الباري لابن حجر (٨/ ٥١٩-٥٢٠) ح(٤٧٨٥)و (٤٧٨٦).
(٣) ينظر: تفسير الطبري (٢١/ ١٠٠).
(٤) ينظر: تفسير القرطبي (١٧/ ١٣٩).

إنَّ قوله تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِۚ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا﴾ رسالةٌ عظيمةٌ للمسلمة يجب أن تتأملها وتتدبرها، فإنها وإن كانت موجهةً لنساء النبي ﷺ خصوصًا، فإن نساء المؤمنين مخاطبات أيضًا بهذه الآية، وينبغي على المؤمنة أن تعلم أنها ليست كأي امرأةٍ في العالم، بل هي متميزةٌ بإيمانها ودينها وعقيدتها وقدواتها وأهدافها وأخلاقها وطموحاتها، وينبغي لها أن تتخذ من أمهات المؤمنين -الصادقات المخلصات المصدقات الخاضعات لأحكام الشريعة، المختارات لله ولرسوله ولدينه ولأوامره على أي أمرٍ غيرها، والمقدِّمات لأوامر الشريعة على حظوظ أنفسهنَّ- قدوةً تقتدي بهنَّ وبسيرتهنَّ وبصبرهنَّ.

وفي هذه الآية خصوصًا ينبه الله نساء النبي ﷺعلى حرمة التكسر في الكلام أثناء مخاطبة الرجال الأجانب حتى لا يطمع من في قلبه مرض، وهذا تعظيمٌ للعفاف في القول والخطاب، ولا شك أن نساء المؤمنين أولى بهذا الخطاب من نساء النبي ﷺ لما في نساء النبي ﷺمن التقوى والقرب من بيت النبوة، ولكنه منهج القرآن في التربية، والحث على الفضائل، فعندما يوجه الخطاب لأصحاب الكمالات الأخلاقية من الأنبياء وأزواجهم، فإنه يخاطب بذلك أيضًا أتباع هؤلاء الأنبياء من المؤمنين والمؤمنات.

إنَّ المسلمات اليوم أحوج للعودة إلى القرآن، وتأمل خطاب الله للمؤمنات خصوصًا في الآداب والأخلاق التي تخصهن من أي وقتٍ مضى؛ حتى يقدرن على التصدي لطوفان الغزو الفكري، والمادي الرهيب الموجه للمرأة المسلمة بكل وسائل الإعلام المتاحة، وهذا يلقي بالمسئولية على المرأة أولًا، وعلى أولياء الأمور ثانيًا أن يتقين الله تعالى في المحافظة على النساء المؤمنات من هذا الغزو، ويصبر الجميع على أوامر الله ونواهيه في المحافظة على المجتمع المسلم بالتربية على القرآن وأوامره وهداياته، وانتهاز المواسم القرآنية كرمضان وغيره للعيش مع القرآن، وربط النساء بالقرآن، وتربيتهن على حفظه والعمل به، والتخلق بأخلاقه، والتركيز على هداياته، لعل الله أن يحفظ أسرنا وبناتنا من كيد الكائدين، ومن أصحاب الشهوات الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون.



المجلس العشرون

﴿وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ﴾[1]

الدعوة إلى الله تعالى من أشرف المقامات التي يوفق الله لها من شاء من عباده؛ فالداعية متقلد لوظيفة الأنبياء، ومتشبه بهم وتابع لهم، قال تعالى عن نبيه ﷺ ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا﴾(الأحزاب:٤٥)، وقال ﷺ: «**من دعا إلى هدى، كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا**»[2].

ومن النماذج الرائعة في الدعوة إلى الله تعالى: ما قصّه الله تعالى في سورة يس، تلك القصة التي عرفت عند المفسرين بقصة حبيب النجار، وهي قصة تستحق التوقف عندها وأخذ العبر منها.

وملخص القصة: أن الله تعالى بعث إلى مدينة أنطاكية رسولين، فكذبهم قومهم فأيدهم الله بثالث، وحصلت بينهم محاورات كثيرة لدعوتهم فكانوا

---

(١) كتبه: د. عبدالمحسن بن زبن المطيري، الأستاذ بكلية الشريعة بالكويت، عضو الهيئة العالمية لتدبر القرآن الكريم، وأمين عام رابطة علماء المسلمين.

(٢) مسلم ح(٢٦٧٤).



لا يزدادون إلا عنادا واستكبارا، وهنا جاء دور صاحبنا حبيب، **حيث قام بعدة أمور مهمة:**

١) المبادرة بالدعوة والمشاركة بنفسه، فلم يقل حبيب: إن هذه المدينة فيها ثلاثة رسل فهي لا تحتاجني، بل بادر.

ومن هنا ينبغي لكل مسلم المشاركة في الدعوة بحسب قدرته، ولا يقصّر بحجة وجود العلماء، فيترك الدعوة، فلو كان هذا عذرا لأحد لكان حبيبٌ أولى الناس به.

٢) حبيب وظيفته النجارة، فهو لا مال له ولا جاه، ومع هذا لم يمنعه ذلك من الدعوة، فلا تقل: من أنا حتى أدعو، وكن كحبيب.

٣) حبيب مشغول بالنجارة وليس بطلب العلم، والمدينةُ فيها علماء بل رسل، ومع هذا شارك في الدعوة.

٤) منزل حبيب في أقصى المدينة، كما في الآية الكريمة: ﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ ﴾ والعادة أنه لا يسكن في الأطراف إلا الفقراء؛ لعجزهم عن شراء عقار في منتصف المدنية، فلم يمنع حبيبًا فقره، ولا بُعْدُ مكانِه من المشاركة في الدعوة إلى الله تعالى.

٥) لنتأمل في قوله تعالى: ﴿ رَجُلٌ ﴾ فلم يذكر الله سبحانه وتعالى اسمه لكنه ذكر قوله وفعله، فليس المهم من أنت، إنما المهم ماذا قدمت؟.

٦) وصف الله مبادرته بقوله: ﴿يَسْعَىٰ﴾ أي: يجري، فهو يخشى أن يفوته الأجر، وفعل ذلك حرصًا على هداية الناس؛ فكل تأخير قد يكون فيها تمكين للباطل وبُعْدٌ عن الحق، فاحرص على المبادرة عند رؤية المنكرات، حتى لا تكون واقعًا يصعب اقتلاعه.

٧) ﴿قَالَ يَـٰقَوْمِ﴾ فنسبهم لنفسه لتحبيبهم والتلطف معهم، وكأنه يقول: أنا منكم وأحب لكم ما أحب لنفسي.

٨) ﴿ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ طلب منهم اتباع من يستحق المتابعة، ولم يدعهم لنفسه ولمكاسب شخصية.

٩) ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ (يس:٢٢)فبدأ يذكر لهم أدلة كونهم مرسلين وأنهم صادقون، فالدليل الأول: أنهم لا يريدون مصلحة دنيوية من هذه الدعوة، والدليل الثاني: أنهم مهتدون صالحون، فأفعالهم تدل على أقوالهم، وصلاحهم يدل على هدايتهم ونصحهم، فهم يقولون ما يفعلون، وصالحون يوفقون للحق.

١٠) ﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَـٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَـٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ﴾(يس:٢٢-٢٣) فهو بعد أن ذكر أدلة صدق الرسل، بدأ بذكر أدلة صدق رسالتهم في الدعوة للتوحيد، فالدليل الأول: أن الخالق هو المستحق

للعبادة، الثاني: أننا سنرجع إليه فكيف سنعصيه، الدليل الثالث: أن من يُعبد من دون الله لا يستطيع أن يرد ما يقدره الرحمن.

١١) ﴿إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ﴾(يس:٢٥) أي: أنا أولكم التزاما بما أدعو إليه، فاسمعوا لي واستجيبوا.

١٢) فكانت نتيجة هذا الحوار والشفقة والدعوة أن قتلوه حتى خرجت أمعاؤه، ولكن كانت مكافأته عظيمة ﴿قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَ﴾(يس:٢٦).

١٣) ومن شفقة هذا الداعية الناصح: أنه حتى بعد موته لا زال يحمل هم أمته ﴿يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾(يس:٢٦-٢٧)، ونستفيد من هذا أن الدعوة سبب لدخول الجنة، وسبب للمغفرة والكرامة.

١٤) ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾(يس:٢٨) من عجيب هذه الآية أن الله تعالى نسب القوم له ولم ينسبهم للرسل الثلاثة، وكأن الآية تشير أن الانتقام من هؤلاء كان نصرة لهذا الداعية الناصح.



المجلس الحادي والعشرون

﴿لِمِثۡلِ هَٰذَا فَلۡيَعۡمَلِ ٱلۡعَٰمِلُونَ﴾ (١)

نتفيأ في هذا المجلس بعض ظلال قوله تعالى: ﴿لِمِثۡلِ هَٰذَا فَلۡيَعۡمَلِ ٱلۡعَٰمِلُونَ﴾(الصافات: ٦١).

فإن في هذه الآية إشارةٌ إلى نعيم الجنة، ومفهومه أن لا ينشغل الناس بالدنيا، ومن تأمل واقع كثير من الناس، وجدهم وكأنهم لا يعملون إلا للدنيا، والله تعالى يريدهم أن يعملوا للجنة.

ومتاع الدنيا واقع مشهود، ونعيم الجنة غيب موعود، والناس يتأثرون بما يرون ويشاهدون، ويثقل على قلوبهم ترك ما بين أيديهم إلى شيء ينالونه في الزمن الآتي، فكيف إذا كان الموعد يُنال غب الموت؛ من أجل ذلك قارن الله -تبارك وتعالى- بين متاع الدنيا ونعيم الجنة، وبين أن نعيم الجنة خير من الدنيا وأفضل، وأطال في ذم الدنيا وبيان فضل الآخرة؛ وما ذلك إلا ليجتهد العباد في طلب الآخرة ونيل نعيمها.

---

(١) كتبه: د. عبدالمحسن بن زبن المطيري، الأستاذ بكلية الشريعة بالكويت، عضو الهيئة العالمية لتدبر القرآن الكريم، وأمين عام رابطة علماء المسلمين.



ولو ذهبنا نبحث في سر أفضلية نعيم الآخرة على متاع الدنيا، **لوجدنا من وجوه متعددة:**

الأول: متاع الدنيا قليل جدا بالنسبة للآخرة، قال تعالى: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ (النساء:٧٧)، وقد صور لنا الرسول ﷺ قلة متاع الدنيا بالنسبة إلى نعيم الآخرة بمثال ضربه فقال: «**واللهِ ما الدُّنْيا في الْآخرة إلّا مثْلُ ما يجْعلُ أحدُكُمْ إصْبعهُ هذه وأشار يحْيى بالسّبّابة في الْيمّ فلْينْظُرْ بم ترْجعُ**»[١]،ما الذي تأخذه الإصبع إذا غمست في البحر الخضم؟ إنها لا تأخذ منه قطرة، هذا هو نسبة الدنيا إلى الآخرة.

الثاني: هو أفضل من حيث النوع، فثياب أهل الجنة وطعامهم وشرابهم وحليهم وقصورهم أفضل مما في الدنيا ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾(الإنسان:٢٠)، بل لا وجه للمقارنة، فإن موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها، فعن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها**»[٢]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**لقاب قوس في الجنة خير مما تطلع عليه الشمس وتغرب وقال لغدوة أو روحة في سبيل الله خير مما تطلع عليه الشمس وتغرب**»[٣].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٥٨).

(٢) أخرجه البخاري (٣٠٧٨).

(٣) أخرجه البخاري (٢٦٤٠).

الثالث: الجنة خالية من شوائب الدنيا وكدرها، فطعام أهل الدنيا وشرابهم يلزم منه الغائط والبول، والروائح الكريهة، وإذا شرب المرء خمر الدنيا فقد عقله، ونساء الدنيا يحضن ويلدن، والحيض أذى، والجنة خالية من ذلك كله، فأهلها لا يبولون ولا يتغوطون، ولا يبصقون ولا يتفلون، وخمر الجنة كما وصفها خالقها ﴿بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ (الصافات:٤٦، ٤٧) وماء الجنة لا يأسن، ولبنها لا يتغير طعمه ﴿أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ﴾(محمد:١٥)، ونساء أهل الجنة مطهرات من الحيض والنفاس وكل قاذورات نساء الدنيا، كما قال تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾(البقرة:٢٥).

الرابع: نعيم الدنيا زائل، ونعيم الآخرة باق دائم ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ (العنكبوت:٦٤)؛ ولذلك سمى الله -تبارك وتعالى- ما زين للناس من زهرة الدنيا متاعا؛ لأنه يتمتع به ثم يزول، أما نعيم الآخرة فهو باق، ليس له نفاد ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾(النحل:٩٦)، ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾ (ص:٥٤) ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾(الرعد:١٣) ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾(الحجر:٤٨).

الخامس: العمل لمتاع الدنيا ونسيان الآخرة، يعقبه الحسرة والندامة ودخول النيران، ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾(آل عمران:١٨٥)، وأما العمل للآخرة فلا يعقبه إلا الفوز بها [١].

---

(١) ينظر: الجنة والنار، للأشقر (ص:٢٢٣) بتصرف.



المجلس الثاني والعشرون

﴿ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾[1]

حين يكون الحديث عن خليل الرحمن ومن خلال القرآن، فإنه حديث يأخذ بالألباب، ومجلسٌ كهذا لا يُراد منه الإحاطة بحديث القرآن عنه، ولكن هي إشارة إلى آية واحدة فقط، جاءت ضمن تزكية الله له بقوله: ﴿ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾(الصافات:٤٨)، وهنا ينبغي لقارئ القرآن أن يطرح السؤال التالي: ما القلب السليم؟ الذي أثنى الله به على خليله إبراهيم؟

وأقرب ما قيل في ذلك ما ذكره ابن القيم رحمه الله حين قال: «هو الذي قد سَلِم من كل شهوة تخالف أمر الله ونهيه، ومن كل شبهة تعارض خبره، فسلِم من عبودية ما سواه، وسلم من تحكيم غير رسوله، فسلم في محبة الله مع تحكيمه لرسوله، في خوفه ورجائه، والتوكل عليه، والإنابة إليه، والذل له، وإيثار مرضاته في كل حال، والتباعد من سخطه بكل طريق»[2].

---

(١) كتبه: أ.د. ناصر بن سليمان العمر، رئيس مجلس أمناء الهيئة العالمية لتدبر القرآن الكريم، والمشرف العام على مؤسسة ديوان المسلم.

(٢) إغاثة اللهفان (ص: ٧).

وإبراهيم عليه السلام الذي جعله الله إمامًا كان نقيّ السريرة، سليم القلب، شهد الله له بذلك: ﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ (الصافات:٨٤)، ولا شكّ أن إبراهيم عليه السلام الذي رأينا بعض صفاته وأفعاله وبلاءه، لا شكّ أنه يحمل قلبًا سليمًا خَيِّرًا.

لم ينقل عنه أنه دعا على أحد من أعدائه، برغم الأذى الذي ناله، بل المنقول دعاؤه لهم: ﴿وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (إبراهيم:٣٦)، أما دعاؤه للمؤمنين فما أكثره في القرآن والسنة، ودعاؤه لأهل مكة بالبركة مشهور معروف، حتى إننا نرى أثره اليوم.

ومما يظهر سلامة قلبه عليه السلام دعاؤه لأبيه حتى تبيّن له أنّه عدوٌّ لله، فلمّا تبيّن أنّه عدوٌّ لله تبرّأ منه.

ومن تأمل سيرته وجد سلامة قلبه عليه السلام في حواراته ومناقشاته وبُعْده عن حَظِّ النَّفس، فقد كان يدرك عليه السلام ما لسلامة القلب من الأثر، بل كان ذلك همه؛ ولهذا لمّا دعا قال: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾(الشعراء:٨٧ - ٨٩)، وكلنا نحتاج إلى ذلك يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون إلّا من أتى الله بقلبٍ سليم، فيا معاشر الدعاة

والمربّين! ربوا الأجيال على طهارة القلوب وسلامتها من أدوائها، من الغل والحسد والبغي حتى على الخصوم! وأقول: بعض المنتسبين إلى الدعوة والعلم -هداهم الله- يربون أجيالًا على الحقد والبغض، يلوثون قلوب الناشئة ببغض علمائهم ودعاة الإسلام الذين بين أظهرهم، فليتهم يسيرون مع إخوانهم من المسلمين بسيرة إبراهيم مع أعدائه! لم يُؤْثَر عنه عليه السلام أنه دعا على أحدٍ من قومه، بل تجد منه الدُّعاء بالهداية، والرغبة في استقامتهم، تجد عِفّة اللسان، تجد الحكمة.

فانظر إلى قلبك أخا الإسلام! فأنت وحدك دون الناس من يبصره! قد ينظر الناس إلى هيئتِك، إلى عملك، إلى تصرّفاتك، إلى سلوكك، لكنهم لا يرون ما انطوى عليه قلبك، فانظر أنت إلى قلبك وفتشه، هل فيه غِش؟ هل فيه حِقد؟ هل فيه مرض؟ قبل أن يجيء العرض على ربك الذي لا تخفى عليه خافية ﴿يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾(الطارق:٩) هناك ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ (العاديات:١٠).

واعلم أنَّ سلامة القلب غُنم لك في العاجل والآجل، ولقد رأيتُ عددًا من النَّاس ممن عرفوا بمسامحة الناس وسلامة الصدر، رأيتهم يعيشون في راحة بالٍ وسعادةٍ وهناء.

والمقصود فتش قلبك، وانظر حالك، وحذارِ حذارِ من أن تنطوي نفسك على الحِقد والغِل والحسد وأمراض القلب وأدوائها، فإنها قد تقضي على صاحبها في الدنيا، فما بالك في الآخرة؟ ولن ينجو في الآخرة إلّا من أتى الله بقلبٍ سليم، أسأل الله أن يجعلني وإياكم منهم.



المجلس الثالث والعشرون

من ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ إلى ﴿وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ﴾ إلى ﴿فَٱتَّبِعُوهُ﴾[1]

حين يصدر الحديث عن أثر تدبر القرآن في إصلاح أحوال الأمة، عن عالم عاصر ألوانًا من التقلبات التي مرّت بها، والمحن التي ألّمت بها؛ فإنه سيكون حديثًا مؤثرًا، وهكذا كان حديث العلامة الشيخ البشير الإبراهيمي رحمه الله المتوفى سنة (١٣٨٥هـ)، وهو أحد كبار المصلحين المعاصرين، حيث يقول:

إن حقوق القرآن علينا من التدبر والاتباع، هي التي يعروها ما يعروها من الإهمال والضياع والتفريط والغفلة، فهي التي يجب التنبيه لها والتذكير بها دائما والدلالة على مواقعها من آيات الكتاب العزيز، وهي التي يجب على العالِم القرآني أن يختار للتذكير بها أصرح الآيات في معناها وأظهر الجمل في الدلالة عليها وأقرب الألفاظ لأذهان الناس.

---

(١) للعلامة البشير الإبراهيمي، ضمن مجموع مؤلفاته وآثاره -بتصرف واختصار-، (١/ ٣٢١).

وإذا قارنا بين ﴿وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ﴾(إبراهيم:٥٢) وبين ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ (ص:٢٩) وجدنا بينهما فرقا جليا لا يستهان به في مقام التذكير والإبلاغ في التأثير. فالإنذار ـ وإن كان معناه الإعلام بالشيء مع التخويف من عواقبه ـ فإنه لا يستلزم التدبر، الذي هو انفعال داخلي ذاتي يفضي إلى النظر في إدبار الشيء وغاياته على وجه من إعمال الذهن والفكر في ذلك، وهذا ما يدل عليه بناءُ الفعل (تفعّل)، أما أثر الإنذار فهو تأثير خارجي، والإنذار لا يُشْعِرُ النفس ما يشعرها التدبر من العهد المسؤول والأمانة الثقيلة.

أما الاتباع، فهو ثمرة التدبر، وهو الذي لا تتحقق الغايات التي يرمي إليها القرآن إلا به، وقد تكرر ذكره في القرآن في مناسبات شتى؛ تدل مستعرضها على أنه هو سر التدين والتأله، وأنه المحقق للكمال، وأنه العاصم من الضلال والهلاك، فليتدبر القارئ جملةً من الآيات القرآنية في هذا المعنى: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ﴾(الأعراف:٣)، ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُ﴾(الأنعام:١٥٣)، ﴿فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾(آل عمران:٣١)، ﴿وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّ﴾(لقمان:١٥)، ﴿ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾(يس:٢٠)، ﴿ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا﴾(يس:٢١)، ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ﴾(طه:١٢٣).

ويا للعجب من بيان القرآن وبيناته وإعجازه بفنون إيجازه! فالاتباع نوع من قفو أثر الغير، وترسم خطاه والانقياد له، ولهذا تجد القرآن يأمرك بالتدبر، واستعمال الحواس الظاهرةِ والباطنةِ قبل أن يأمرك بالاتباع، حتى تطمئن إلى أنك إنما تتبع فيما فيه حق وخير ورحمة، ثم إذا أمرك بالاتباع؛ فإنما ذاك فيما يتعالى على فكرك إدراكه، أو يصعب عليك تمييزه، أو يخاف فيه غلبة الأهواء عليك.

وبعد الأمر بالتدبر ينهى عن اتباع الهوى المضل عن سبيل الحق، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾(ص:٢٦)، وينهى عن اتباع أهواء الذين لا يعلمون، وعن اتباع خطوات الشيطان، وعن اتباع أولياء من دون الله، وعن اتباع السبل المتفرقة، توكيدا للمعنى الإيجابي وإيضاحا للحق الذي يجب أن يتبع.

إن المتدبر للقرآن حقًا سيخرج بعد هذا بحقيقة كبرى، وهي: أن الاتباع الذي يدعو إليه القرآن هو عين الاستقلال التام للفكر والإرادة، والعقل والوجدان؛ لأنه يحميها من شرور الأهواء، ويؤويها إلى حمى الحق وحده، والاحتماء بالحق الذي قامت به السموات والأرض، واستقر عليه تدبير الكون ونظامه، استقلال ما وراءه استقلال، وصدق الله: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾(المؤمنون:٧١).

إنه لم يمض على المسلمين في تاريخهم الطويل عصر هم فيه أبعد عن القرآن منهم في هذا العصر، ولم يمض على الدعاة إلى الحق وقت عظمت فيه العهدة واستغلظ الميثاق مثل هذا الوقت، وإنه لا مخرج لهم من هذه العهدة ولا تحلل من هذا الميثاق إلا بالدعوة إلى القرآن. فلا عجب- ونحن نشعر بثقل هذه الأمانة- من أن ترتفع أصواتنا بالدعوة إليه. وإنما العجب الذي لا عجب بعده أن نسكت أو نقصر، وإن من أحكم الوسائل لجذب الأمة إلى القرآن: وصف القرآن، وتشويق الناس إلى الإقبال عليه وتدبره وفهمه.



المجلس الرابع والعشرون

من فوائد قصة داود وسليمان عليهما السلام في سورة ص[1]

إن في قصص القرآن عبرًا وعظات، خاصةً تلك التي قصّها الله عن أنبيائه ورسله -عليهم السلام-، ومن ذلك قصة داود وسليمان في سورة ص، فإن فيها فوائد كثيرة، منها:

١) أن من أكبر نعم الله على عبده: أن يرزقه العلم النافع، ويعرف الحكم والفصل بين الناس، كما امتن الله به على عبده داود عليه السلام.

٢) ومنها: اعتناء الله تعالى بأنبيائه وأصفيائه عندما يقع منهم بعض الخلل بفتنته إياهم وابتلائهم بما به يزول عنهم المحذور، ويعودون إلى أكمل من حالتهم الأولى، كما جرى لداود وسليمان عليهما السلام.

٣) ومنها: أنه ينبغي استعمال الأدب في الدخول على الحكام -أي القضاة- وغيرهم؛ فإن الخصمين لما دخلا على داود في حالة غير معتادة ومن غير الباب المعهود، فزع منهم، واشتد عليه ذلك، ورآه غير لائق بالحال.

(١) للعلامة السعدي رحمه الله، ملخصة من تفسيره: (ص: ٧١٣).

٤) ومنها: أنه لا يمنع الحاكم من الحكم بالحق سوء أدب الخصم، وفعله ما لا ينبغي.

٥) ومنها: كمال حلم داود عليه السلام، فإنه ما غضب عليهما حين جاءاه بغير استئذان، وهو المَلِكُ، ولا انتهرهما، ولا وبخهما.

٦) ومنها: جواز قول المظلوم لمن ظلمه «أنت ظلمتني» أو «يا ظالم» ونحو ذلك أو باغ عليّ؛ لقولهما: ﴿خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾(ص :٢٢).

٧) ومنها: أن الموعوظ والمنصوح، ولو كان كبير القدر، جليل العلم، إذا نصحه أحد، أو وعظه، لا يغضب، ولا يشمئز، بل يبادره بالقبول والشكر، فإن الخصمين نصحا داود فلم يشمئز ولم يغضب ولم يثنه ذلك عن الحق، بل حكم بالحق الصرف.

٨) ومنها: أن المخالطة بين الأقارب والأصحاب، وكثرة التعلقات الدنيوية المالية، موجبة للتعادي بينهم، وبغي بعضهم على بعض، وأنه لا يرد عن ذلك إلا استعمال تقوى الله، والصبر على الأمور، بالإيمان والعمل الصالح، وأن هذا من أقل شيء في الناس.

٩) ومنها: أن الاستغفار والعبادة، خصوصا الصلاة، من مكفرات الذنوب؛ فإن الله رتب مغفرة ذنب داود على استغفاره وسجوده.

١٠) ومنها: إكرام الله لعبده داود وسليمان، بالقرب منه، وحسن الثواب، وأن لا يظن أن ما جرى لهما منقص لدرجتهما عند الله تعالى، وهذا من تمام لطفه بعباده المخلصين، أنه إذا غفر لهم وأزال أثر ذنوبهم، أزال الآثار المترتبة عليه كلها، حتى ما يقع في قلوب الخلق؛ فإنهم إذا علموا ببعض ذنوبهم، وقع في قلوبهم نزولهم عن درجتهم الأولى، فأزال الله تعالى هذه الآثار، وما ذاك بعزيز على الكريم الغفار.

١١) ومنها: أن الحكم بين الناس مرتبة دينية، تولاها رسل الله وخواص خلقه، وأن وظيفة القائم بها الحكم بالحق ومجانبة الهوى، فالحكم بالحق يقتضي: العلم بالأمور الشرعية، والعلم بصورة القضية المحكوم بها، وكيفية إدخالها في الحكم الشرعي، فالجاهل بأحد الأمرين لا يصلح للحكم، ولا يحل له الإقدام عليه.

١٢) ومنها: أنه ينبغي للقاضي أن يحذر الهوى، ويجعله منه على بال؛ فإن النفوس لا تخلو منه، بل يجاهد نفسه بأن يكون الحق مقصوده، وأن يلقي عنه وقت الحكم كل محبة أو بغض لأحد الخصمين.

١٣) ومنها: أن كل ما أشغل العبد عن الله، فإنه مشؤوم مذموم، فَلْيُفَارِقْه ولْيُقْبِلْ على ما هو أنفع له، وهذا ظاهر في قصة سليمان مع الخيل.

١٤) ومنها: القاعدة المشهورة: «من ترك شيئا لله عوضه الله خيرا منه»، فسليمان عليه السلام عقر الجياد الصافنات المحبوبة للنفوس؛ تقديما لمحبة الله، فعوضه الله خيرا من ذلك، بأن سخر له الريح الرخاء اللينة، التي تجري بأمره إلى حيث أراد وقصد، غدوها شهر، ورواحها شهر، وسخر له الشياطين، أهل الاقتدار على الأعمال التي لا يقدر عليها الآدميون.



المجلس الخامس والعشرون

﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ ءَانَآءَ﴾[1]

«ما شيء أجده في قلبي ألذُّ عندي من قيام الليل»[2] ما كان للتابعي الجليل ثابت البناني رحمه الله أن يقول هذا إلا بعدما زكت نفسه، وصَلَح قلبه، وطابت حياته، بعدما تعرَّض لنفحات الله في أسحار الليالي، وذاق لذة مناجاته في الأوقات الخوالي، فسبحان من تفضل على عباده بهذا النعيم قبل لقائه، وبصَّرهم بطريق السعادة، ورزقهم لذة هذه العبادة، فَهُم بليلهم ألذُّ من أهل اللهو بلهوهم، ولولا الليل ما أحبُّوا البقاء بالدنيا[3]!

وإن الناظر في النصوص الشرعية عن حقيقة هذه العبادة تتجلى له مقاصدها في عدة إشراقات قرآنية تظهر في كتاب الله سبحانه وتعالى بكون التهجد هو الصلة الدائمة بالله المؤدية للمقام المحمود الذي وعده محمدًا صلى الله عليه وسلم فما أحوج الآخرين من أمته للاقتداء به لينالوا علوَّ المقام ورفعة الدرجات، ففي سورة

(١) كتبه: الشيخ: عبداللطيف بن عبدالله التويجري.

(٢) صفة الصفوة (٢/ ١٥٥).

(٣) قاله أبو سليمان الداراني كما في حلية الأولياء (٩/ ٢٧٥).

الإسراء: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ (الإسراء: ٧٩)!

وفي آيات أخرى تبرز عدة أوامر إلهية لرسولنا الكريم ﷺ للقيام بهذه العبادة الجليلة، ففي سورة المزمل نداء للرسول ﷺ بترك التزمل (وهو التغطي بالليل) والنهوض إلى القيام بالليل والعبادة [(١)] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا﴾ (المزمل: ١ – ٤) فكان خيرَ مثال في ذلك، بأبي هو وأمي ﷺ.

وفي آية المزمل الأخرى بينت أن القيام بالليل أجمع للخاطر وأجدر لفقه القرآن: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾ (المزمل: ٦) كما قاله ابن عباس رضي الله عنهما[(٢)].

وفي سورة الشرح خطاب له ﷺ بعدم القيام إلا بعد الفراغ من أمور الدنيا وأشغالها؛ لكي يكون نشيطًا فارغ البال مخلصًا الرغبة والنية لله سبحانه وتعالى[(٣)]: ﴿فَإِذَا فَرَغۡتَ فَٱنصَبۡ ٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرۡغَب﴾ (الشرح: ٧ – ٨).

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٥٥٧).
(٢) أخرجه أبو داود ح (١٣٠٦).
(٣) ينظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٦٨٠).

وفي سورة آل عمران ورد الثناء على طائفة من أهل الكتاب بسبب هذا الفعل: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ (آل عمران: ١١٣)، وفي سورة الذاريات يبرز في سمات عباد الله المتقين: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (الذاريات: ١٥ - ١٨).

وفي إشراقة أخرى في سورة الزمر يأتي تفضيل القانت الخاشع على غيره: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا﴾ (الزمر: ٩).

ويتضح الأمر أيضًا في الأحاديث النبوية؛ حيث جاء الحثُّ عليها في صورة بهية وجزاء وافر في عدة أحاديث كريمة من الرسول الكريم ﷺ تارة في الشفاعة لصاحب هذه العبادة: «**فيقول القرآن: منعتُه النوم بالليل**»[١].

ومرة في حثٍّ وتربية شباب الأمة على ذلك: «**نعم الرجل عبد الله لو كان يصلي من الليل**»[٢].

(١) أخرجه أحمد ح(٦٦٢٦).

(٢) قال ذلك لعبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال سالم: فكان عبد الله بعد ذلك لا ينام من الليل إلا قليلًا. صحيح البخاري: (١١٢٢).

وفي حديث آخر بيَّن ﷺ أنه به تكون الغبطة الحقيقية: «**لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار، ورجل آتاه الله مالًا فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار**»[1].

وفي حثٍّ آخر يبيِّن ﷺ أنه اقتـداء وقربة ومنهاة عن الإثم، كما في حديث أبي أُمامة مرفوعًا: «**عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم، وهو قربة إلى ربكم، ومكفرة للسيئات، ومنهاة للإثم**»[2].

وأخيرًا -أيها المبارك- جاهد نفسك على التهجد ففيه خيرات عظيمة، وهو معين جدًا على التدبر، فلا يثبت القرآن في الصدر ولا يسهل حفظه وييسر فهمه، إلا القيام به في جوف الليل، كما يقول الشيخ محمد الأمين الشنقيطي[3]، كما أن التعرض لنفحات الله سبحانه وتعالى في هذا الوقت وقراءة كتابه بتدبر وخشوع ودعاء، زادٌ مضمون يعين على جميع مشاق الحياة وأتعابها.

(١) صحيح مسلم، ح (٨١٥).
(٢) أخرجه الترمذي، ح (٣٥٤٩).
(٣) مقدمة أضواء البيان: ص٤.



المجلس السادس والعشرون

﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ﴾[1]

إنَّ الانتفاع بالقرآن الكريم مرتبط بحضور القلب كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٞ﴾ (ق: ٣٧) والمرء إذا كان لقلبه أجمع، وعن الشواغل أبعد، كان أقرب إلى تدبر ما يتلو من كتاب الله؛ إذ إن القلب محل تدبر القرآن قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ﴾ (الشعراء: ١٩٢ - ١٩٤).

فتأمل أخي المبارك كيف خُصَّ القلب بإنزال القرآن عليه، حيث كان قلبه ﷺ محلًا للقرآن، وكذلك الحال لمن أراد تدبر القرآن والانتفاع به يجب أن يكون قلبه محلًا للقرآن كذلك.

وبيان ذلك: أن الانتفاع بالقرآن متحقق لأصحاب القلوب الحيَّة قال ابن القيم في قوله: « ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ﴾ فهذا هو المحل القابل والمراد به:

---

(١) كتبه: الشيخ: عبداللطيف بن عبدالله التويجري.

القلب الحي الذي يعقل عن الله كما قال تعالى: ﴿ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (يس: ٧٠)»[١]. «فعبر عن النفس الحية بالقلب؛ لأنه وطنها ومعدن حياتها»[٢].

وقد جمع اللهُ تعالى ذلك في قوله: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ (محمد: ٢٤) فعلق فهم القرآن وتدبره على انفتاح القلب وحضوره كما دل عليه المفهوم، وعلق الانصراف عن فهم القرآن وعن تدبره على انغلاق القلب، كما دل عليه منطوق قوله تعالى: ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ أي: «أم أقفل الله على قلوبهم فلا يعقلون ما أنزل الله في كتابه من المواعظ والعبر»[٣].

ولما كان سلفنا الصالح أصحاب قلوب حية وأفئدة نقية؛ انتفعوا بالقرآن وتدبروه حق تدبره، فظهرت آثار ذلك عليهم من وجل القلوب وقشعريرة الجلد ودمع العين، كما جاء بيان وصفهم في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ (الأنفال:٢) وقال عن تأثرهم: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ (الزمر: ٢٣).

---

(١) الفوائد، ص(٣).

(٢) تفسير القرطبي (١٧/ ٢٣).

(٣) جامع البيان (٢٦/ ٥٧).

وقد كانوا رضي الله عنهم على دراية بأثر طهار القلب في إقباله على كتاب الله، فكان لهم باب السبق في هذا الميدان قولًا وعملًا، فقد روي عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه أنه قال: «لو طهرت قلوبنا ما شبعت من كلام الله»[1].

وهذه قَوْلَةٌ[2] بليغة جامعة منه رضي الله عنه، وقد حقق ذلك عملًا من خلال تدبره لكتاب الله، حتى خرق مصحفه من كثرة ما يديم النظر فيه، ورثاه شاعر الرسول صلى الله عليه وسلم حسان بن ثابت بقوله:

ضحّوا بأشمطَ عنوانُ السجود بِهِ يُقَطّـع الليل تسبيحـًا وقرآنـا[3].

ونعتته زوجه فقالت: «فو الله لقد كان يحيي الليل بالقرآن في ركعة»[4].

فينبغي لتالي القرآن أن يطهر قلبه من الشهوات والشبهات؛ لأنها مانعة وحاجبة عن تدبر كتاب الله، وبالمقابل فتطهير القلب منهما دافع مؤثر في فهم القرآن وتدبره، قال ابن مسعود رضي الله عنه «إن هذه القلوب أوعية فأشغلوها بالقرآن، ولا تشغلوها بغيره»[5].

---

(١) الزهد للإمام أحمد، ص(١٨٨).
(٢) جاء في مختار الصحاح ما نصُّه: (ق و ل: قالَ يقول قَوْلًا وقَوْلَةً ومَقَالًا).
(٣) ديوان حسان بن ثابت رضي الله عنه (٢٣٠)، ومطلع القصيدة:
مَنْ سَرّهُ الموْتُ صِرْفًا لا مِزَاجَ لهُ فلْيأتِ مأسَدةً في دارِ عُثمانا
(٤) البداية والنهاية لابن كثير (٧/ ٢١٤).
(٥) حلية الأولياء لأبي نعيم (١/ ١٣١).

ولقد قال الله تعالى: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ (الواقعة: ٧٩) «فإذا كان ورقه لا يمسه إلا المطهرون؛ فمعانيه لا يهتدي بها إلا أصحاب القلوب الطاهرة»(١).

(١) شرح حديث النزول لابن تيمية ص(٤٢٨)، والمستدرك على فتاوى ابن تيمية (١/ ١٦٩).



المجلس السابع والعشرون

﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى﴾ (١)

قال تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى ۝١٧ ٱلَّذِي يُؤۡتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ۝١٨ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ ۝١٩ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ۝٢٠ وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ﴾ (الليل: ١٧-٢١).

هذه الآية أحد مناقب أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وهي تثبت له صفة التقوى، وتثني عليه بفضيلة الإنفاق.

يقول ابن كثير رحمه الله: «وقد ذكر غير واحد من المفسرين أن هذه الآيات نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه ،حتى إن بعضهم حكى الإجماع من المفسرين على ذلك، ولا شك أنه داخل فيها وأولى الأمة بعمومها فإن لفظها لفظ العموم...، ولكنه مقدم الأمة وسابقهم في جميع هذه الأوصاف وسائر الأوصاف الحميدة؛ فإنه كان صديقا تقيا كريما جوادا بذالا لأمواله في طاعة مولاه ونصرة رسول الله صلى الله عليه وسلم فكم من دراهم ودنانير بذلها ابتغاء وجه ربه الكريم، ولم يكن لأحد من الناس عنده منة يحتاج إلى أن يكافئه بها،

(١) كتبه: أ. د. عويض بن حمود العطوي، وكيل الدراسات العليا بجامعة تبوك.

ولكن كان فضله وإحسانه على السادات والرؤساء من سائر القبائل...»[1] انتهى كلامه.

ولنعد إلى تأمل هذه الآيات الكريمة، وما فيها من البيان العجيب:

يقول سبحانه وتعالى بعد الحديث عن النار: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى﴾، ولم يقل: ويتجنبها، كما قال بعد ذكر الجنة: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى﴾(الأعلى: ١١)؛ للدلالة على أن الله هو الذي جنبه تلك النار، وذلك فضل من الله ومنّة.

وجاء وصف (الأتقى) بهذه الصيغة؛ لبيان عظم اتصافه بهذه الصفة، وللإشعار بأن سبب تجنيبه النار هو التقوى، ثم بينت الآيات الصفة المميزة له، الدالة على التقوى ومقدارها ألا وهي الإنفاق ﴿ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾، والإنفاق من أهم سمات المتقين، قال تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ (آل عمران: ١٣٣، ١٣٤).

وجاءت كلمة (يتزكى) لبيان أن إنفاق المال تزكية له ولصاحبه، وجاء الفعل بصيغة المضارع (يتزكى)؛ للدلالة على تجدد التزكية كلما حصل الإنفاق، «وجملة ﴿يَتَزَكَّىٰ﴾ حال في ضمير ﴿يُؤْتِى﴾، وفائدة الحال التنبيه على أنه يؤتي ماله لقصد النفع والزيادة من الثواب؛ تعريضًا بالمشركين الذي يؤتون المال للفخر والرياء والمفاسد والفجور»[2].

(١) تفسير ابن كثير (١٤/ ٣٧٩).

(٢) التحرير والتنوير (١٦/ ٢٩٥).

وبيّنت الآيات أنه يفعل طلبًا للثواب، ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ﴾، والإخلاص في الإنفاق ليس أمرًا هيّنًا، إلا عند من وفقه الله من الأتقياء الأنقياء، وجاء النفي ﴿وَمَا لِأَحَدٍ﴾؛ للإشارة إلى عظم هذه المنقبة فيه.

والأصل في ﴿عِندَهُۥ﴾ أنه ظرف مكان يعبر به عن الحسيات، ودلّ هنا على تمكن المعنى كتمكن الكائن في المكان القريب[1].

وقد أثبت الإخلاص له بطريقين: الأول: نفي أن يكون ذلك لرد معروف، والثاني: إثبات كونه فعل ذلك لوجه الله، ﴿إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ و«المعنى: لا يُؤتِي مالَه إلا ابتغاءَ وجهِ ربِّه لا لمكافأةِ نعمةٍ»[2].

«والابتغاء: الطلب بجد لأنه أبلغ من البغي»[3]. يقول ابن كثير رحمه الله: «أي: طمعًا في أن يحصل له رؤيته في الدار الآخرة في روضات الجنات»[4].

وجاء ذكر اسم الله الأعلى هنا؛ لأن الإنسان جبل على طلب الرفعة بماله والثناء عليه به، والمؤمن يعمل ذلك العمل ابتغاء مرضات الله الأعلى، فالعلو منه وإليه سبحانه، والنتيجة إن فعل ذلك: ﴿وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ﴾،

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير (١٦/ ٢٩٦).
(٢) تفسير أبي السعود (٧/ ٢٤).
(٣) التحرير والتنوير (١٦/ ٢٩٦).
(٤) تفسير ابن كثير (٨/ ٤٢٢).

والرضا نعمة قلّ من ينعم بها؛ وهي نتيجة للتقوى وإنفاق المال لوجه الله، وقد تشير (سوف) إلى أن الرضى المقصود يكون في الآخرة؛ وذلك بالأجر العظيم الذي يرضي صاحبه، وجاء تأكيد وقوع ذلك الرضى باللام في (ولسوف)، وهذه الجملة «من جوامع الكلم؛ لأنها يندرج تحتها كل ما يرغب فيه الراغبون»[1].

(١) التحرير والتنوير (١٦/ ٢٩٦).



المجلس الثامن والعشرون

﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾[1]

هذا السؤال الذي تضمنته هذه الآية الكريمة، طالما قرأناه، وكثيرًا ما تلوناه، فهل أدركنا شيئًا من أثره في نفوس المتدبرين؟

إن المؤمن كلما تأمل في أفعال الله بالأمم الماضية، وتأمل في الحياة، وكيف قدَّر الله الأقدار؛ امتلأ قلبه إجلالًا وتعظيمًا لحُكْمِهِ في تصريف شؤون الخلق، وعلم أنَّ ما يخفى من الحكم أعظم مما يظهر للناس، وكلما استشعر قلبه تلك الحكم والمقاصد اطمأن وزاد يقينه بربه.

ومن ذلك ما يقدّره الله تعالى بحلول المصائب والنكبات، فإن لها حكمًا جليلة، منها: ظهورُ كمال علم الله وقدرته وعجز الإنسان وفقره وضعفه، وذلك حين يعجز الإنسان عن دفع الضر عن نفسه وهو يظن أنه استكمل أسباب الوقاية والحذر، وحين لا يدفع حي عن نفسه موتًا، وحين لا يدفع غني عن نفسه مرضًا، وحين تقع الزلازل والبراكين في ثوان معدودة تهز

(١) كتبه: سلمان بن عمر السنيدي، مؤلف كتاب: تدبر القرآن.

الأرض ومن عليها ثم تغير معالمها، وتقف أمامها قوى المخلوقين مشدوهة قاصرة. فسبحان من لا تخفى عليه خافية في السماء ولا في الأرض!

ومنها: تمكينُ الكافرين وتسلطهم على المؤمنين، ففي ذلك ابتلاء تظهر فيه عبادات كثيرة منها: شعيرةُ الجهاد بالنفس والمال، والصبرُ على الأذى في سبيل الله ومصابرة الأعداء، وصدقُ التوكل على الله، وحقيقةُ الإخلاص له في الدعاء، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾(محمد: ٤)، وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾(البقرة: ٢١٤).

ومنها: ما يصيب المجتمع المسلم من فتن ومصائب، ففي ذلك تمحيصُ المجتمع المسلم، وتمييزٌ للصادق من المنافق؛ فإنه حال الرخاء لا يظهر فيها الصادق من الكاذب، ولا يُعرف المؤمن من المنافق، فاقتضت حكمة الله أن تتغير بعض الأحوال ليَعْرِفَ المؤمنون أحوالهم، وتتمايز صفوفهم؛ وليكون جزاء المنافق على ما كسب من قول وعمل، قال الله تعالى: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾(آل عمران: ١٥٤).

ومنها: أن في المصائب تطهيرا لأهل الإيمان وتكفيرا لسيئاتهم، التي تكون سببا لدخولهم الجنة أو رفعة لمنازلهم فيها، قال تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ثَوَابٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ﴾ (آل عمران :١٩٥) وفي الصحيح عنه ﷺ قال: «**ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه**»[١]؛ ولهذا المعنى قال إبراهيم المقرئ ولما رفسته بغلته فكسرت رجله: «لولا مصائب الدنيا قدمنا على الله مفاليس»[٢].

ومن حكم الله في تغيير الأحوال وحدوث المصائب والنكبات: أن فيها عبرةً للمتكبرين، وإنذار للمعرضين لعلهم يرجعوا إلى ربهم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا مَا حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡقُرَىٰ وَصَرَّفۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ (الأحقاف:٢٧).

ومن الحكم في الأقدار المؤلمة والمصائب: أنها عقوبة معجلة على بعض معاصي الناس، كما قال الله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ (الروم: ٤١).

---

(١) رواه البخاري (٥٦٤١).

(٢) شعب الإيمان (١٢/ ٣٥١).



وهذه الحكم العظيمة لا يحيط بها إلا الله، فكم في حجب الغيب من فتح وفرج ونصر ورحمة!

ومن رحمة الله بعباده أن أطلعهم على شيء من حكمته البالغة؛ ليزيد المؤمن إيمانًا بربه، فكما هو حكيم في خلقه وتقديره، هو حكيم في شرعه وأمره، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.



﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ﴾[1]

هذا خبر من العليم الخبير، فيه بيان لحقيقة هذا الإنسان، الذي خلقه الله من علق، وعلمه ما لم يكن يعلم، فمع ما أنعم الله به عليه من النعم التي من أجلّها ما ذُكر من نعمة الخلق والتعليم، إلا أنه يقابل هذه النعم بالكفر والجحود، ويتجاوز حدّه فيطغى ويتكبر ويعاند ويتمرد، خاصة عندما يرى نفسه مستغنيا غير محتاج لأحد.

إن القارئ المتدبر لهذا الخبر المؤكد يتعامل مع ما دلّت عليه هذه الآية من جهتين:

الأولى: قلبية: بأن يصدّق بما أخبره الله به تصديقًا جازمًا، يزداد به إيمانه، ويقوى به يقينه.

وهذا هو المنهج التدبري الذي ينبغي التعامل به مع كل ما أخبر الله ﷻ به في كتابه: أن يقابل بالتصديق الجازم، ومن سلك هذا المسلك، واستحضره

---

(١) كتبه: د. محمد بن عبدالله بن جابر القحطاني، الأستاذ المشارك في جامعة الملك خالد بأبها.

بقلبه عند كل خبر من أخبار الله تعالى؛ فإنه ينال نصيبا وافرًا من منزلة «الصدِّيقيَّة»، فلا يزال يصدّق ويصدّق حتى يكتب عند الله صديقًا. ويا لها من منزلة رفيعة شريفة!

الجهة الثانية: سلوكية عملية، وذلك بأن يحذرَ من الطغيان الذي ذمّ الله به الإنسان، ويتجنبَ أسبابه، ويجتهدَ في القيام بما يقضي على هذا المرض الخطير إن وجدت علاماته وأعراضه.

والمتدبر لهذا الخبر في سياقه الذي ورد فيه سيجد أن أسباب هذا الطغيان ترجع إلى أصل واحد: وهو شعور الإنسان بالاستغناء، وهذا ما صرحت به الآية الكريمة التي تلت هذا الخبر مباشرة: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ (العلق: ٦، ٧).

والاستغناء: هو شدة الغنى، وهو الحال الذي يرى فيه الإنسان نفسه غير محتاج لأحد، وهي حالة نفسية خطيرة، تؤدي إلى التكبر والتساهل في ظلم الآخرين والاستخفاف بهم والتعدي على حقوقهم.

وجميل ومهم ما أورده العلامة القاسمي في تفسيره تعليقا على هذه الآية، حيث قال ما مختصره: «دلت الآية على قاعدة عظيمة في باب التموّل المحمود، قررها الحكماء المصلحون، وهي أن لا يتجاوز المال قدر الحاجة بكثير. قالوا: لأن إفراط الثروة مهلكة للأخلاق الحميدة في الإنسان، كما نطقت به الآية الكريمة.

قال بعض الحكماء: التمَوُّل لأجل الحاجات محمود بثلاثة شروط:

الشرط الأول: أن يكون إحراز المال بوجه مشروع حلال.

والشرط الثاني: أن لا يكون في التمَوُّل تضييق على حاجات الغير، كاحتكار الضروريات، أو مزاحمة الصناع والعمال الضعفاء، أو التغلب على المباحات.

الشرط الثالث: هو أن لا يتجاوز المال قدر الحاجة بكثير، وإلا فسدت الأخلاق؛ ولذلك حرمت الشرائع السماوية كلها والحكمة السياسية والأخلاقية والعمرانية أكلَ الربا، وذلك لقصد حفظ التساوي والتقارب بين الناس في القوة المالية؛ لأن الربا كسب بدون مقابل ماديّ، ففيه معنى الغصب وبدون عمل؛ ففيه الألفة على البطالة المفسدة للأخلاق، وبدون تعرض لخسائر طبيعية كالتجارة والزراعة والأملاك. دع أن بالربا تربو الثروات، فيختل التساوي بين الناس.» انتهى.(١)

وأما الأمور التي يحصل بها علاج هذا المرض فيمكن حصرها في ثلاثة دلت عليها آيات سورة العلق:

الأول: الإيمان بالآخرة وتذكر الرجوع إلى الله، وهذا ما أفاده ودلّ عليه قول الله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾ (العلق: ٨)، فكلما قوي الإيمان بالآخرة، وزاد اليقين بالرجوع إلى الله؛ قلّ الطغيان واضمحل.

(١) محاسن التأويل (٩/ ٥١١-٥١٢).



الثاني: العلم الجازم برؤية الله لعبده وقدرته عليه، فالله يرى هذا الإنسان، وهو قادر على إهلاكه وأخذه. وهذا ما أشارت إليه الآيات الكريمة في نفس السياق، حيث قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ (العلق: ١٤-١٨).

الثالث: العلم النافع الذي يثمر الذل والخضوع لله تعالى، وهذا مستنبط من الآيات التي افتتحت بها سورة العلق، والآية التي اختتمت بها، ففي مطلع هذه السورة قال الله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾(العلق:١-٥)، وفي آخرها قال سبحانه: ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩﴾(العلق: ١٩). والسجود لله والاقتراب منه لا يجتمعان مع الطغيان أبدا.



المجلس الثلاثون

﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾[1]

نعيش في هذا المجلس في رحلة تدبرية مع آية كريمة أنزلها الله تعالى في أول سورة نزلت من كتابه -وهي سورة العلق-، آية هي محط رحل العبد في مسيره لربه، هي قوله تعالى ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾(العلق :١٩).

ولنا مع هذه الآية وقفات تدبرية نقتبس من أنوارها وننهل من معينها؛ عسى أن تمس شغاف قلوبنا أنوارها.

الوقفة الأولى: مع معاني الآية ودلالاتها.

هذه الآية نزلت في أمر النبي ﷺ حين هدده أبو جهل بقوله: لئن رأيت محمدًا يصلي لأطأنّ عنقه، فقال الله ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾(العلق:١٩)[2]. ومعنى الآية: لا تلتفت إلى نهيه لك عن عبادة ربك، ﴿وَٱسْجُدْ﴾ لربك بصلاتك له، واقترب إليه بسجودك وبالطاعة.

---

(١) كتبه: د. محمد بن عبدالله الربيعة، الأستاذ المشارك بجامعة القصيم، وعضو الهيئة العالمية لتدبر القرآن.

(٢)ينظر: تفسير ابن جرير (٢٤/ ٥٢٧).

هذه الآية الكريمة جاءت في آخر سورة العلق التي افتتحت بـ ﴿اقْرَأْ﴾، فتأمل كيف افتتحت السورة بالعلم واختتمت بالعمل؛ ليدل على أن العلم الصحيح هو ما تبعه العمل.

تأمل تخصيص السجود دون الصلاة في السورة؛ ذلك أنه سر الصلاة والركن الأعظم فيها، ولكونه محط رحل المصلي بين يدي ربه.

في قوله ﴿وَاقْتَرِب﴾ عناية من الله لنبيه ولكل مؤمن وأي عناية، إنها نداء بالقرب منه والتقرب إليه، إنها كلمة وأي كلمة تختصر المسافات الطويلة بينك وبين الله لتصلك به مباشرة.

تضمنت هذه الكلمة معنيين: معنى التقرب إلى الله بالطاعات، ومعنى القرب من الله منزلة وفضلًا، وهما متلازمان فالتقرب إلى الله تعالى سبيل للقرب منه منزلة وفضلًا.

في قوله ﴿وَاقْتَرِب﴾ دلالة على أن الاقتراب إلى الله يستلزم ابتعادًا عن كل ماينافي التقرب إليه وما يصرف القلب عنه، فهل استشعرت ذلك وحققته؟

الوقفة الثانية: في ظلال الآية.

في حقيقة السجود:

قال البهوتي: «والسجود: غاية التواضع؛ لما فيه من وضع الجبهة، وهي أشرف الأعضاء على مواطئ الأقدام؛ ولهذا كان أفضل من الركوع»[1].

في فضائل السجود:

ورد في فضل السجود أحاديث منها: قوله ﷺ: «**أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد؛ فأكثروا الدعاء**»[2].

في سجود القلب:

قال ابن القيم: «قيل لبعض العارفين: أيسجد القلب؟ قال: نعم يسجد سجدة لا يرفع رأسه منها إلى يوم اللقاء فهذا سجود القلب، فقلب لا تباشره هذه الكسرة فهو غير ساجد السجود المراد منه، إذا سجد القلب لله هذه السجدة العظمى سجدت معه جميع الجوارح، وعنا الوجه حينئذ للحي القيوم، وخشع الصوت والجوارح كلها وذل العبد وخضع واستكان، ووضع خده على عتبة العبودية ناظرا بقلبه إلى ربه ووليه نظر الذليل إلى العزيز الرحيم...»[3].

---

(١) شرح منتهى الإرادات (١/ ١٩٥).

(٢) أخرجه مسلم ح (٤٨٢).

(٣) مدراج السالكين (ص٤٢٩).

الوقفة الثالثة : أثر الآية في حياتنا.

في زمن الطغيان والفتن وأذية الطغاة للمؤمنين ينبغي أن ينشغل المؤمنون بالإقبال على عبادة ربه والإعراض عن الجاهلين، وتأمل كيف أمر الله نبيه في مواجهة تهديد أبي جهل بقوله ﴿ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب ﴾.

في زماننا ترى في المسلمين ضعفًا في عبوديتهم وبعدًا وابتعادًا عن ربهم، ترى مظاهر من توسلهم بغير ربهم وتعلقهم بالمخلوقين، فأين هم من السجود بين يدي ربهم؟

في زماننا كثرت الهموم وتعقدت المشاكل، ولا سبيل لحلها وكشفها إلا بتوجه القلب إلى الله تعالى واتصاله به، والسجود هو مفتاح الاتصال الحقيقي.

الوقفة الأخيرة: ختامه مسك... همسة في آذان الساجدين.

لحظات السجود لحظات صفاء وصلة ولذة لاتساويها لذة ولا يعادلها صفاء، إنها جنة الدنيا. فهل تذوقتها أيها المسلم في سجودك؟ قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «إن في الدنيا جنة من لم يذقها، لم يذق جنة الآخرة»[1].

---

(١) المستدرك على مجموع الفتاوى (١/ ١٥٣).


فهرس المحتويات

مركز تدبر للدراسات والاستشارات

إعدادُ اللَّجنةِ العِلْميَّةِ في مركزِ تدبُّر

ثلاثون مجلسًا في التدبر

مجالسُ علميَّةٌ وإيمانيَّةٌ





المجموعة الرابعة

الطبعة الأولى

دار الحضارة للنشر والتوزيع

ثلاثون مجلسًا في التدبر

مجالس علمية وإيمانية

المجموعة الرابعة

إعداد اللجنة العلمية في مركز تدبر



مركز تدبر للدراسات والاستشارات

ثلاثون مجلساً في التدبر

مجالس علمية وإيمانية

المجموعة الرابعة

الطبعة الأولى

١٤٣٦هـ - ٢٠١٥

الرياض ـ الدائري الشرقي ـ مخرج ١٥

هاتف ٠١١٢٥٤٩٩٩٣ ـ تحويلة ٣٣٣

ناسوخ ٠١١٢٥٤٩٩٩٦

ص.ب.٩٣٤٠٤ الرمز: ١١٦٨٤

البريد الحاسوبي: tadabbor@tadabbor.com

www.tadabbor.com

....

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

مركز تدبر للاستشارات التربوية والتعليمة

ثلاثون مجلسا في التدبر (المجموعة الرابعة).

مركز تدبر للاستشارات التربوية والتعليمية - الرياض، ١٤٣٦هـ

٦٨ ص؛ ١٧ × ٢٢سم

ردمك: ٤-٣٤٩-٥٠٦-٦٠٣-٩٧٨

١- القرآن - احكام ٢- القرآن - مباحث عامة أ. العنوان

ديوي ٢٢٦ ١٤٣٦/٦٢٣٦

رقم الإيداع: ١٤٣٦/٦٢٣٦

ردمك: ٤-٣٤٩-٥٠٦-٦٠٣-٩٧٨


بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة النشر

الحمد لله، والصلاة والسلام على من زكّاه ربه واصطفاه، أما بعد:

فهذه هي المجموعة الرابعة من هذه السلسلة «ثلاثون مجلسًا في التدبر» تأتي بعد مراجعة تقييمية وتقويمية للمجموعات الثلاث السابقة، استفدنا فيها من تواصل الإخوة القراء، وخاصةً أئمة المساجد الذين أكرمونا بتفاعلهم الإيجابي، الذي حاولنا أن نستثمره في هذه المجموعة (الرابعة).

ومن أبرز ما سيلحظه القارئ الكريم في هذه المجموعة هو محاولة التركيز على فكرةٍ محددة من الآية التي يدور حولها المجلس، وفي وقت قصير نسبيًا.

نسأل الله تعالى أن تكون هذه المجموعة -مع الأجزاء السابقة- معينًا على تحقيق رؤيتنا ورسالتنا في هذا المشروع المبارك: «تدبر».

وصلى الله وسلّم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

نسعد بملحوظاتكم وتسديداتكم على: tadabbor@tadabbor.com

وكتب/ عمر بن عبدالله المقبل

رئيس مجلس إدارة الهيئة العالمية لتدبر القرآن الكريم

وعضو هيئة التدريس بجامعة القصيم

١٤٣٦/٦/١٥هـ

﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾[1]

هل تساءلت أخي المسلم القارئ يومًا عن سر تخصيص المتقين بهداية القرآن في قوله تعالى: ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾؟ وهل سألت نفسك وأنت تقرأ هذه الآية ما المراد بالمتقين هنا؟ وكيف أحقق هذا الوصف المتعلق بهداية القرآن؟

قال تعالى في أول سورة البقرة: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ﴾ (البقرة) تأمل كيف وصف الله تعالى كتابه بأربع صفات دالة على كماله وهي كمال علوه بقوله: ﴿ ذَٰلِكَ ﴾، وكمال مضمونه بقوله: ﴿ ٱلْكِتَٰبُ ﴾ وهو دلالة على استغراقه وتضمنه للكتب السماوية كلها، وكمال سلامته من النقص والخطأ والشك؛ ولذلك قال: ﴿ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ﴾ ما أكمل هذا الكتاب العظيم الذي جعله الله هدى للمتقين.

هذا القرآن لعظمه وعلو مكانته وكماله لايناله إلا من كمل نفسه بالتخلي عن موانع الانتفاع والاهتداء بالقرآن، وتحلى بأسباب الانتفاع والاهتداء.

أما موانع الانتفاع: فمنها الكفر والشك والنفاق والرياء والغفلة والشهوة والشبهة والانصراف والتولي والإعراض عن القرآن والكبر والمعاصي بأنواعها، فحذار حذار أخي المسلم من هذه الموانع التي هي أقفال على القلب

---

(١) كتبه: د. محمد بن عبدالله الربيعة، عضو هيئة التدريس بجامعة القصيم، وعضو الهيئة العالمية لتدبر القرآن.



تمنع من التدبر والاهتداء كما قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ (محمد) أما أسباب الانتفاع: فمنها الإيمان والإخلاص والتصديق والتعظيم والإقبال وصفاء القلب بالتوحيد واليقين مع الإتيان بالأسباب الحسية كالتطهر والاستعداد والاستماع والإصغاء والتدبر وغير ذلك.

فالتقوى المقصودة هنا الانتفاء من موانع الانتفاع والاهتداء، والتحلي بأسباب الانتفاع والاهتداء.

قال ابن القيم ﵀ في كلام جامع نفيس حول أسباب الانتفاع بالقرآن وموانعه: «إذا أردتَ الانتفاعَ بالقرآنِ، فاجمعْ قلبكَ عند تلاوتهِ وسماعهِ، وألقِ سمعَكَ، واحضُر حضورَ من يخاطِبُه به من تكلَّمَ به سبحانه منه إليه؛ فإنه خطابٌ منه لك على لسانِ رسولِهِ، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ (ق)»[1].

---

(١) الفوائد (٣).

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ﴾[1]

قال الله تعالى في سورة البقرة: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾﴾ إذا تأمل المتدبر هذه الآية الكريمة، وتفكر فيها؛ فإنه سيظهر له أنها قد تضمنت ثلاثة أقسام مهمة:

(الأول: سؤال وجواب، الثاني: نفي وإثبات، والثالث: أمر وتعليل).

وسأقتصر في هذا المجلس على بيان بعض الفوائد المهمة التي اشتمل عليها القسم الأول فقط، وهو قول الله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾.

أخبر ﷻ أنه وُجِّه للنبي الكريم ﷺ سؤالٌ من طائفة لم يَرِدْ في الآية ما يدل على تحديدها، وكان السؤال عن الأهلة: ما فائدتها؟ وما الحكمة من اختلاف أحوالها؟.

وبعد هذا الخبر جاء الأمر للنبي ﷺ بأن يجيب عن هذا السؤال، وأن يخبرهم بأن هذه الأهلة جعلها الله مواقيت للناس والحج، «فجعلها لصوم المسلمين ولإفطارهم، ولمناسكهم وحجّهم، ولعدة نسائهم وَمحلّ دَينِهم في أشياء، والله أعلم بما يُصلح خلقه»[2]. كما قال قتادة.

---

(١) كتبه: د. محمد بن عبدالله القحطاني، الأستاذ المشارك في جامعة الملك خالد بأبها.

(٢) جامع البيان في تأويل آي القرآن (٣/٢٨٠).

فباختلاف أحوال الهلال تُعرف الأوقات التي يحتاجها الناس لأمور دينهم ومعاشهم.

وفي هذا فوائد مهمة:

أولها: أهمية السؤال، وأن من حق الناس أن يسألوا عما يهمُّهم ويَشغَلُ تفكيرهم، مع الحرص على اختيار المسؤول المناسب، وألّا يوجه السؤال إلا إلى عالم ناصح ثقة.

الثانية: ضرورة الإجابة عن أسئلة الناس، وأن ذلك من مهمات الرسول ﷺ. فعلى ورثته من بعده أن يقوموا بهذا الواجب؛ حتى يكونوا من أتباعه ﷺ حقًا.

الثالثة: في الإجابة عن السؤال عن الأهلة بهذا الجواب الحكيم الذي يتعلق بما يحتاجه الناس عمليًا، وتركِ الخوض في التفاصيل العلمية الفلكية التي لا يحتاجها الناس، إشارةٌ صريحة إلى هدف القرآن الكريم ومقصوده الأعظم، وهو هداية الناس وإصلاح عقولهم، وتزكية نفوسهم. فلا ينبغي أن تحمّل آيات الكتاب الحكيم ما لا تحتمله من المعاني والتفسيرات العلمية الحادثة، ولا حاجة للتكلّف في تنزيل آياته على نظريات علمية ظنية تصيب وتخطئ؛ فالقرآن أجل وأرفع وأعظم من هذه العلوم والنظريات.

الرابعة: أنّ الله تعالى قد جعل الأهلة علامة لمعرفة المواقيت الشرعية والدنيوية للمسلمين، وهذه العلامة متوافقة مع طبيعة هذا الدين الكامل، الذي هو دين الفطرة التي فُطر الناس كلهم عليها. فعلى المسلم أن يعتز بدينه، وأن يحافظ على الطريقة التي ارتضاها الله له في معرفة التاريخ والمواقيت.

﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ﴾[1]

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى وصحبه ومن والاه أما بعد، فقد ذكر الله عز وجل وَعْد الشيطان بالفقر وأمره بالفحشاء، ووَعْدَ الله بالمغفرة والفضل، ثم قال: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾﴾ (البقرة)، وفي هذا الترتيب إشارة إلى أن من فضل الله الواسع العليم، إيتاؤه الحكمة، فمن وُفق إليها فقد وفق لخيري الدنيا والآخرة، وأسباب السعادة فيهما، وقد فسرت الحكمة في الآية بتفسيرات: منها النبوَّة، ومنها علم القرآن، ومنها الفقه فيه، ومنها العلم بالدين، ومنها ما جاء به النبي ﷺ، ومنها الورع، ومنها الخشية، ومنها الفهم والفطنة، ومنها الإصابة في القول والعمل، ومنها وضع الشيء في موضعه.

والصحيح أن الحكمة تجمع ذلك كله، ومن قال هي إصابة الحق بالعلم والعمل ينتظم قوله جميع ما تقدم، وهو في معنى قول من قال هي العلم بحقائق الأشياء على ما هي عليه والعمل بمقتضاها، وهذا أشمل من القول بأنها: فعل ما ينبغي على الوجه الذي ينبغي في الوقت الذي ينبغي، فهذا حدٌّ جامع للحكمة في الأفعال، وأصل الحكمة المنع من الانقياد لداعي الجهل والهوى، فأهلها على

---

(١) كتبه: أ.د. ناصر بن سليمان العمر، رئيس مجلس أمناء الهيئة العالمية لتدبر القرآن الكريم، والمشرف العام على مؤسسة ديوان المسلم.

نور من ربهم في اعتقاداتهم، وأعمالهم، وأقوالهم، ثم هم في هذا الخير مراتب ودرجات، في أعلاها الأنبياء والصِّدِّيقُون، وقد نوّه الله ببعضهم حيث قال: ﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ (النساء:٥٤)، وقال عن داوود: ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ (البقرة:٢٥١)، ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾ (ص)، ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ﴾ (الزخرف:٦٣) وقال عن العبد الصالح لقمان: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ (لقمان: ١٢).

والحكمة منها ما هو محض موهبة وفضل من الله، ومنها ما يوفق له المكتسب بالطلب إذا صدق وجد في طلبها من الله، فاجهد في أسباب تحصيلها، بالعلم النافع، المقتضي للعمل الصالح، وادأب على سؤال الحكيم العليم سبحانه أن يعلمك الحكمة، إنه سميع مجيب.

﴿يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ﴾(١)

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على مَن لا نبي بعده؛ وبعد:

فإن مقام الدعوة إلى الله من أجل المقامات، وأعلى المناقب، ولا أدل على مكانته الشريفة، ورتبته المنيفة إلا أنه الغاية من إرسال الرسل، فالداعية بالمقام الأول وارثٌ حظا كبيرا من ميراثِ النبوّة!

والداعون إلى الخير هم صفوة الخلق، ووظيفتهم على الوجه الصحيح اصطفاء من الله، فما كل أحد يستطيع القيام بهذه المهمة بأعبائها إلا من علم الله صلاحيته لذلك، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ (الأنعام: ١٢٤).

ولو لم يكن من شرف الدعوة إلى الله إلا قوله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٣٣﴾ (فصلت) أي: فلا أحد أحسن قولا من هؤلاء!

وهي كذلك سبيل النبيّ ﷺ كما قال تعالى: ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي﴾ (يوسف: ١٠٨) وقد اصطفى الله ﷻ من أتباع الأنبياءِ أناسًا ما هم بأنبياء، ولكنَّهم يقومون بوظائف الأنبياء، كما قال تعالى:

(١) إعداد اللجنة العلمية بمركز تدبر.

﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٠٤﴾ (آل عمران) تأمَّل في جمالِ قوله تعالى: ﴿يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ﴾ إلى التوحيد، إلى المكارم، إلى الفضائل، يغرسون في عقول الناس القيم الصحيحة، ويزرعون في نفوسهم الأخلاق الحميدة، ويرغِّبونهم في الفضائل، ويقبِّحون لهم الرذائل!

وتأمل كيف قدم (الدعوة إلى الخير) على (الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر)؛ فإن الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر يرجعان إلى الدعوة إلى الخير؛ فكل أمر بمعروف فهو دعوة إلى الخير، وكل نهي عن منكر فهو متضمن للدعوة إلى الخير كذلك.. فهذه الآية فذة جامعة لكل ما يقرب من الله، ويبعد عن سخطه.

فهنيئًا لمن شرَّفهم الله بهذا المقام الجليل!

اللَّهُمَّ اجعلنا من الدعاة إليك على هدًى وبصيرة.. وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ ﴾[1]

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على مَن لا نبي بعده؛ وبعد:

فمن الالتفاتاتِ المُدهشة في القرآن أنَّ الله ﷻ لما ذكر أحكامًا في سورةِ النساءِ تتعلَّق بالمحرَّماتِ في النكاح، وبعضِ أحكام العَقْدِ والمهور، وأنَّ هذا جاءَ إرادةً من الله؛ لبيانِ العلم للناس، وهدايةً لهم، قال بعد ذلك مُتفضِّلًا على عباده ومُمتنًّا: ﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ ﴾ (النساء)، وذلك أنَّهم كانوا في جاهليتهم يستحلُّون نكاحَ حلائل الآباء والأبناء، فلما حرَّم عليهم ذلك أخبرهم أنَّ يريد أن يتوبَ عليهم، ويعفوَ عما سلف من آثامهم، وما مضى من جاهليتهم، وأنَّه بذلك يُخرجهم من طريق الغواية والضلال إلى سبيل الهداية والرشاد.. وفي هذه الآية لُطفٌ بالِغ، وعنايةٌ عظيمة، ورحمةٌ كبيرة من الرحيم الرحمن!

ومَن تدبَّر هذه الآية، وقلَّبَ فيها نظرَه، وأجال فيه فِكَرَه، وجدَ أنَّ الله ﷻ في أحكامه الشرعيَّة يذكر أنَّه يريد بذلك رحمةَ خلقهِ، والإحسان إليهم، والتوبةَ عليهم!

وأيُّ شيءٍ أعظمُ من تكون إرادة الله بنا أن يتوبَ علينا، فيمحو زلاّتنا، ويغفر ذنوبنا، ويقيل عثَرَاتنا، ويعفو عن سيئاتنا؟! وأعظم من ذلك كلِّه أنه يفرحُ بتوبة التائبين، وهو عنهم غنيٌّ!

---

(١) إعداد اللجنة العلمية بمركز تدبر.

وهكذا.. لو تفكَّر كلُّ مسلمٍ فيما حَرَّم الله عليه، لوجدَ أنَّ الله ما أراد به إلاَّ خيرًا حين نهاه، وأنَّ العطَبَ كلَّ العطبِ في تقحُّمِ أسوار الخطايا والآثام، وأنَّ هذه هي محضُ إرادة أصحاب الشهوات، فشتَّان بين إرادة الله لعباده، وإرادةِ أصحاب الشهواتِ للخَلْق!

﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾﴾ (النساء).

اللَّهُمَّ أصلح قلوبنا، واغفر ذنوبنا، وتُب علينا، واهدنا سُبُلَ السلام، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾[1]

هذه الآيةُ الكريمةُ واردةٌ في سياق قصة ابني آدم عليه السلام في سورة المائدة، حينما قرّبا قُرْبانًا فتُقُبِّلَ من أحدهما ولم يُتَقبَّل من الآخر، فقتل الثاني أخاه الذي تقبَّل اللهُ قربانَه حسدًا له وظلمًا، وكان أولَ من سَنَّ القتل.

يقول الله تعالى بعد ذكر هذه القصة: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾﴾ (المائدة) ففي هذه الآية الكريمة يبيِّن الله عز وجل أن مَن قتل نفسًا معصومةً بغير حق، فهو كمن قتلَ الناس جميعًا؛ لأن من استباح نفسًا معصومة غيرَ مستحقة للقتل، فهو حَريٌّ بالاستهانة بغيرها.

وهكذا من أحيا نفسًا بأن امتنع عن إزهاقها ظلمًا وعدوانًا أو استنقذها من القتل والهلاك بغير حق، فهو كمن أحيا الناس جميعًا؛ لأنه بلا شك حريص على حفظ غيرها من النفوس.

وقد تضافرت نصوصُ الكتاب والسُنّةَ في التأكيد على حفظ الدماء المعصومة: وهي دماء المسلمين وأهل الذمة والمستأمنين، إلا إذا وُجد مسوِّغ شرعي لقتلها كالقصاص والحدود.

---

(١) كتبه أ. د. إبراهيم بن صالح الحميضي، أستاذ الدراسات العليا في جامعة القصيم.

بل إن الإسلام جعل قتلَ النفس بغير حق أعظمَ الذنوب بعد الشرك بالله تعالى، كما قال ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾﴾ (الفرقان) فهذه الذنوبُ الكبائر المذكورة في الآية هي أعظمُ الذنوب على الإطلاق، وأولها الشرك بالله، وثانيها قتل النفس بغير حق، وثالثها الزنا، وقد دلَّت السنةُ على ذلك كما في حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: قلتُ: يا رسول الله، أيُّ الذنب أعظم؟ قال: «**أن تجعل لله ندًا وهو خَلَقَكَ**» قلت: ثم أيٌّ؟ قال: «**أن تقتل ولدك خشية أن يَطْعَمَ معك**». قلت: ثم أيٌّ؟ قال: «**أن تُزاني حَلِيْلَةَ جارك**» ثم قرأ هذه الآية[1].

وهذا رَدٌّ على أعداء الإسلام الذين يتَّهمون الشريعة الإسلامية بالعنف والدعوة لسفك الدماء.

---

(١) البخاري ح(٦٠٠١)، مسلم ح(٨٦).

﴿ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ﴾[1]

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على مَن لا نبي بعده؛ وبعد:

فإنَّ الله خلقَ الموتَ والحياةَ؛ ليبلُوَ عبادَه أيُّهم أحسنُ عملًا ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ (الملك: ٢) فالحياة ابتلاءٌ واختبار؛ ليعلم الله الذين جاهدوا فيه ويعلمَ الصابرين.

وإنَّ من أعظم مواطن الامتحان؛ أن يُبتلى الإنسانُ بشيءٍ يحبُّه ويَهواه في الخَلَواتِ، وهو مما حرَّمه الله عليه، ولْنتأمَّلْ قولَ الله تعالى في هذه الآية الكريمة في سورة المائدة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾ ﴾ ولنتخيَّلْ كيف أنَّ الله أخبر المؤمنين السابقين أنه سيبلوهُم ويختبرُهم بشيءٍ مما يحبُّونه؛ وهو الصيد، وهو حلالٌ في أصله، لكنه حرامٌ على المُحرِمِ، ثمَّ يخبرُهم ﷻ أنَّه هذا الصيد سيكون في مُتناوَل أيديهم، أو مما تنالُه رماحُهم، فهو قريبٌ منهم جِدًّا، ونفوسُهم تدعوهم لصيدِه والاستمتاع بلحمه اللذيذ مع التعب والسفر، ثمَّ يخبرُ سبحانه أنَّ سبب هذا الابتلاء ليعلمَ مَن يخافه بالغيب ممن لا يخافه بالغيب!

---

(١) إعداد اللجنة العلمية بمركز تدبر.

فيا لله! يلتفتُ غايةَ اليمين فلا يرى أحدًا، ويلتفتُ غايةَ الشمالِ فلا يرى أحدًا، وينظرُ خلفَه وأمامَه فلا يرى أحدًا، ثم يرى الحيوانات البريَّة اللذيذة تتمشَّى بين يديه!

فهل ينجحُ في هذا الامتحان إلاَّ مَن راقبَ الله وخافه بالغيب؟!

وهل يكون تحقيقُ صدقِ الخشيةِ إلاَّ في الخلَوات؟!

ولنتدبَّر هذه الآية، ولننظر ما الذي تنالُه أيدينا في زمن الانفتاح، وما الذي نقدِرُ على فعله في الخلوات، وما الذي تُزيِّنه لنا نفوسُنا من الشهوات، ولا يرانا من البشر أحدٌ أبدًا.. ثم لنعرضَ أنفسَنا على هذا الامتحان!

فمن يراقِبُ الله ويخافُه بالغيبِ؛ توقَّف عند حدودِه مستشعرًا نظرَ الله إليه، ومَن يراقبُ الناسَ فإنه لا ينتظر إلا غفلتَه ليفعلَ بعد ذلك ما يشاء!

اللَّهُمَّ اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معاصيك، واملأ قلوبنا خوفًا منك ورجاءً فيك، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾[1]

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على مَن لا نبي بعده؛ وبعد:

فإنَّ من بلاغةِ القرآن وعظمتِه؛ أنَّك تجدُ فيه كلامًا قليلَ الحروفِ والمباني، كثيرَ الأحكام والمعاني، ومن ذلك قولُه تعالى: ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾ (الأنعام: ١٢٠) فإنَّ هذه الآيَةَ الفذَّةَ شاملةٌ للنهي عن كافَّةِ أنواع الذنوب والمعاصي والسيِّئات، ومَن تدبَّرها وعمل بها، كان من الصدِّيقين الذين يخشون الله في السرِّ والعَلَن، حتى قال الإمام القرطبيُّ ﵀ في تفسيره عند هذه الآية: «وهذه المرتبة لا يبلغها إلا مَن اتَّقى وأحسن»[2].

فهذا نهيٌ عظيمٌ من الله ﷻ لعبادِه أن يذَرُوا ظاهرَ الإثم وباطنَه، فإنَّ للإثمِ ظاهرًا: وهي ذنوبُ البدنِ والجوارح عامَّةً، أو ما يجاهرُ به صاحبُه... وباطنًا: وهي ذنوبُ القلبِ كالحسدِ والغلِّ وسوءِ الظنِّ ونحوها، أو ما يُخفيه العبدُ من الذنوب في السرِّ والخَلَوَات!

فمن تركَ ظاهرَ الإثمِ وباطنَه، كان صدِّيقًا، مراقبًا لله، مُتقيًا له حيثُما كان، وينال بذلك الفوز العظيم، والأجر الكبير.

---

(١) إعداد اللجنة العلمية بمركز تدبر.

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٧/٧٤).

وأكثرُ ذنوبِ الناسِ إنما هي في (باطنِ الإثم) لا في ظاهره؛ فإنَّ خَلْقًا كثيرًا يتنزَّهون عن (ظاهر الإثم) لكنْ تقلُّ مراقبتُهم لله في الغيبِ والخلَوات؛ ولذلك أثنى الله على مَن يخافُه في خلْوَته، ووعده بالأجر بالكبير، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾﴾ (الملك)؛ وذلك أنَّ الخلَواتِ هي مَحَكُّ الخشيةِ الحقيقيِّ، فمن خشِيَ ربَّه في الغيب، خَشِيَه في الشهادةِ من باب أولى، ومَن راقَبَ نظراتِ الناس فقط؛ ضعُفَت مراقبته لله في الخلوة.

ومما يَنبغي التفطُّنُ إليه؛ أنَّ من أعظمِ الإثم الباطن هو الإصرارَ على المعاصي، وذلك أنَّ المُصِرَّ على المعصيةِ قد عَقَدَ قلبَه على مخالفةِ مولاه، وهذا إثمٌ باطنٌ ولو لم يُذنِبِ الذنبَ الذي يُصِرُّ عليه.

وعليه فلن يكون العبدُ سالمًا من ظاهرِ الإثم وباطنِه حتى يكونَ قلبُه عازمًا على عدم مقارفة الذنوب إلاَّ ما يقعُ فيه بجهالةٍ.

اللّهُمَّ إنا نعوذ بك من مقارفةِ الآثامِ ظاهرةً وباطنةً يا قريبُ يا مُجيب، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

﴿ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ ﴾[1]

هذه الآية الكريمة وردت في سورة الأعراف المكية تضمنت عدة مدلولات عظيمة؛ و فيها تعريض بالذين أُخِذَ عليهم ميثاق الكتاب من أهل الكتاب ودرسوا ما فيه، ثم هم لا يتمسكون بالكتاب الذي درسوه، ولا يعملون به.

لكنَّ هذه الآية تبقى عامة تعطي مدلولها كاملًا لكل جيل، ولكل حالة على مرِّ العصور.

فهي تصوِّر مدلولًا واضحًا يكاد يُرى، مدلولًا يوحي بوضوح «أهمية التمسك بالكتاب بقوة»؛ ولهذا نجد أن قراءة الجمهور لـ (يمسِّكون) بالتشديد فيها صبغة لفظية خاصة، توحي بمعنى التكرير والتكثير للتمسك بكتاب الله -تعالى وبدينه، وهذا التمسك كما تفيد هذه القراءة يحتاج إلى الملازمة والتكرير لفعل ذلك، وهذا من أسباب الثناء عليهم[2].

و الجدَّ والقوة في التمسك بكتاب الله لا تنافي اليسر والسهولة، ولكنها تنافي التميع والتساهل! ولا تنافي سعة الأُفق ولكنها تنافي الاستهتار! ولا تنافي مراعاة الواقع، ولكنها تنافي أن يكون (الواقع) هو الحكم في شريعة الله! وتأمل في وصية الله لأنبيائه -صلوات الله وسلامه عليهم- وقومهم أن يأخذوا

---

(١) كتبه الشيخ/ عبداللطيف بن عبدالله التويجري.

(٢) ينظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٧/٣١٣).

ما أوتوا بقوة في آيات كثيرة، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖ﴾ (مريم: ١٢) وقوله لبني إسرائيل: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ﴾ (البقرة: ٩٣) وقوله لموسى ﷺ: ﴿فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَا﴾ (الأعراف: ١٤٥).

والتمسك بالكتاب في جدّ وقوة مع إقامة الصلاة -أي شعائر العبادة- هما طرفا المنهج الرباني لصلاح الحياة. وخص الله الصلاة هنا بالذكر بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ (الأعراف: ١٧٠) لفضلها، وشرفها، وكونها ميزان الإيمان، وإقامتها داعية لإقامة غيرها من العبادات [١].

والثناء على المصلحين الذين ورد في الآية يشير إلى هذه الحقيقة؛ حقيقة أن الاستمساك بقوة بالكتاب عملًا، وإقامة شعائر العبادة؛ هما أداة الإصلاح الذي لا يضيع الله أجره على المصلحين؛ لأنهم إذا قاموا بذلك أصبحوا لزامًا مصلحين لأنفسهم ولغيرهم.

والحياة لا تفسد إلا بترك طرفي هذا المنهج الرباني: ترك الاستمساك الجاد بالكتاب، وترك العبادة التي تُصلِح القلوب.

---

(١) ينظر: تيسير الكريم الرحمن للسعدي (٣٠٧).

﴿وَلَوۡ أَرَادُواْ ٱلۡخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً﴾[1]

تمرّ على الإنسان فرصٌ كثيرة: يتعلق بعضها بالطاعات، كما يتعلق بعضها بالعلم والتعلم، إضافة إلى فرص مختلفة في الحياة.

يتعامل الناس مع هذه الفُرص بطرائق مختلفة، فمن مبادرٍ مستعدٍّ لها، ومن مُضَيِّع غير مكترثٍ بها، فتفوت عليه مغانمها، وربما وقع في مغارمها، وقسم ثالث لم يأخذ الأمر بقوة، فأدرك منه نصيبًا، لكنه كان قادرًا على تعظيم أرباحه منه بيد أنه لم يفعل.

إن التأمل في النصوص يجد أنها تدعونا لأخذ زمام المبادرة دائمًا، والاستعداد المبكّر، تأملوا معي قول الله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَرَادُواْ ٱلۡخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً﴾ (التوبة: ٤٦) تأتي هذه الآية تعقيبًا على المنافقين الذين تخلفوا عن الجهاد مع رسول الله ﷺ، مظهرة أن سبب التخلف عدم استعدادهم للخروج، مما يعني عدم اكتراثهم بالأمر الشرعي؛ لأنهم لو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة.

هذه الآية تؤسس لمنهج راقٍ في التخطيط للأعمال والخروج من دائرة الارتجال والفوضى التي تنخر في كيان الفرد والمجتمع وتصيبه بعوامل الضعف والانكسار في الأعمال والمشاريع حال حدوثها.

---

(١) كتبه: د. محمد بن مصطفى السيد، عضو الهيئة العالمية لتدبر القرآن.

والاستعداد الذي تحدثت عنه الآية يشمل أمرين: أحدهما النية الصالحة بأن ينوي المرء في عمله رضا الله سبحانه، والثاني الاستعداد المادي، ويكون هذا الاستعداد لكلّ شيء بحسبه، تأملوا حديث رسول الله ﷺ: **«من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة»**[1] وحين يعظُم الهدف، يعظم الاستعداد له.

ومن الاستعداد: المعرفة التامة بالأمر الذي تنويه والتركيز فيه، فإن لم يكن لديك تلك المعرفة، فالجأ إلى استشارة من تتوسم فيهم معرفة، تدلك على الطريق الصحيح من الراسخين في العلم والتجربة، ثم تُتبِع الاستشارةَ الاستخارةَ؛ ليختار لك الله مافيه خيرك وصلاحك في أمر دينك ودنياك.

إن أحد أهم سلبيات عدم الاستعداد التردد والاضطراب في أداء العمل؛ ولذلك جاءت الآية السابقة لتؤكد هذا المعنى ﴿وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ (التوبة)، ونتيجة لذلك ربما فشل العمل أو لم يحقق تمام المقصود به.

---

(١) أخرجه الترمذي ح(٢٤٥٠)، الحاكم ح(٧٨٥١).

﴿وَٱصۡبِرۡ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ﴾(1)

الحمد لله ولي الصالحين، والصلاة والسلام على إمام الصابرين، وعلى آله وأصحابه أجمعين، أما بعد:

فمائة آية بل أكثر لم تكن لتنزل في غير أمر جليل وشأن عظيم؛ فلا نجاح ولا نصر في الدنيا ولا فلاح ولا فوز في الآخرة إلا بالصبر، ومنزلته من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، ولا إيمان لمن لا صبر له، كما قال علي رضي الله عنه.

والحديث عن الصبر وفضله وأنواعه لا يتسع له مقام كهذا، فيكفي الصابر أن الله معه ويحبه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٣﴾ (البقرة)، ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٤٦﴾ (آل عمران)، ومن أجَلِّ ما يكون الصبر فضلاً وأعظم ما يكون أثرًا: إذا اتصف به الداعية إلى الله، فيما يلاقيه من منكرات وفتن ومعوقات تثنيه عن سبيله؛ ولذا فإن الله عز وجل لما أمر نبيه بالاتباع، أتبعه بالصبر على ذلك؛ لأنه سيلاقي المعرضين والمعترضين، كما قال: ﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَٱصۡبِرۡ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ١٠٩﴾ (يونس).

قال ابن كثير: «أي تمسك بما أنزل الله عليك وأوحاه إليك، واصبر على مخالفة من خالفك من الناس ﴿حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ﴾ أي: يفتح بينك وبينهم، ﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ أي: خير الفاتحين بعدله وحكمته»(2).

---

(1) كتبه: د.عبدالله بن منصور الغفيلي، عضو هيئة التدريس بالمعهد العالي للقضاء، عضو الهيئة العالمية لتدبر القرآن الكريم.

(2) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٣٠١/٤).

قال السعدي: «﴿ وَٱتَّبِعْ ﴾ أيها الرسول ﴿ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ ﴾ علمًا، وعملًا وحالًا ودعوة إليه، ﴿ وَٱصْبِرْ ﴾ على ذلك، فإن هذا أعلى أنواع الصبر، وإن عاقبته حميدة، فلا تكسل، ولا تضجر، بل دم على ذلك، واثبت ﴿ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ﴾ بينك وبين من كذبك ﴿ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ فإن حكمه مشتمل على العدل التام، والقسط الذي يحمد عليه»[1].

فجاءت الآية بالأمر باتباع الوحي واليقين بموعود الله، وحسن الظن به، وهذا يغرس الصبر المأمور به في قلب المؤمن، ومتى كان ذلك كان الثبات على الحق والنصر، وكل من اتبع الوحي ابتلي بما ينبغي الصبر عليه، فمن صبر انتصر، ومن سخط خسر في دنياه وأخراه!

ولذا تكرر الأمر به وتثنَى في غير ما آية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾ ﴾ (آل عمران).

فاللَّهُمَّ أوزعنا شكرا وألهمنا ذكرا واجعلنا من الصابرين.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي (١/٣٧٥).

﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ﴾[1]

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على مَن لا نبي بعده؛ وبعد:

فإنَّ سورةَ هودٍ من أعظم سُورِ القرآن التي نزلت على النبيِّ ﷺ وفيها ذِكرٌ لأخبارِ الأنبياء قبلَه وما لاقَوْهِ من أقوامهم، وعانَوْه من أُمَمِهم؛ جاءت تسليةً له، وتثبيتًا لقلبِه، وموعظةً وذكرى للمؤمنين، كما قال الحقُّ ﷻ: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾ (هود) ومن أعظمِ الإرشادات والأوامر التي ذكرها الله تعالى في هذه السورةِ بعد الانتهاء من قَصصِ الأنبياء قولُه تعالى لنبيِّه ﷺ: ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ﴾ (هود)، فتعالَوْا إلى ظلِّ هذه الآيةِ نتدبَّرُ بعضًا من مواعِظها وأسرارِها.

فالآيةُ تضمَّنتْ أمرًا بالاستقامة: وهي إقامةُ النفس على الصراط المستقيم؛ وهو الإسلام بشرائعه وأحكامه، والمستقيمُ: هو المتمسِّك بشرائع الإسلامِ ظاهرًا وباطنًا.

وقد جاء ذِكر الاستقامةِ في القرآن في قوله تعالى في موضعين: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ ﴾ (فصلت: ٣٠) وذكر لهم بشائرَ ومغانم.

---

(١) إعداد اللجنة العلمية بمركز تدبر.

ثمَّ ذكر في هذه الآيةِ التي أمر فيها بالاستقامةِ قيدًا آخرَ؛ وهو أنَّ الاستقامةَ لها ميزانٌ ثابتٌ، وصراطٌ مستقيمٌ لا اعوجاجَ فيه، فلا يكون المستقيمُ مستقيمًا حقًّا على شريعة الله إلا إذا كانت استقامتُه كما أُمِرَ لا كما أراد، فلذلك قال له: ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ﴾ (هود: ١١٢) ولم يقل له: (فاستقِمْ كما أردتَ أو أحببتَ أو اشتهيتَ) فالاستقامةُ دينٌ متبوعٌ لم تُضبَط بالأذواقِ، ولا بالتشهِّي، ولا بالطبائع، بل فيها ما يوافقُ الهوى، وفيها ما تكرهه النفوسُ وتستثقِلُه، فتتمُّ عبوديَّةُ المؤمنِ بإخراجِ نفسِه من حُرِّيةِ الشهواتِ إلى رقِّ العبوديَّة الحقَّة لله ﷻ.

وهذه الآيةُ أصلٌ في التزام الشرعِ والاتِّباع، ونبذِ الأهواءِ والابتداع، فليكن نُصْبَ عينِ المؤمِنِ الذي يروم طريق الاستقامة أن يتعرَّفَ على طريقِ الله المستقيم؛ ليعبدَ ربَّه على بصيرة، لا أن يتخبَّط في ظلماتِ الأذواق والأهواء، فيضِلَّ عن سواء السبيل!

اللَّهُمَّ اهدنا صراطَك المستقيم، واجعلنا من ورثة جنَّةِ النعيم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾[1]

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على مَن لا نبي بعده؛ وبعد:

فإنَّ القرآنَ كلَّه ذِكرٌ، والذكر من أيسر العبادات وأشرفِها، فهو أيسر العبادات من جهة كونه لا يكلِّفُ الإنسانَ شيئًا إلا تحريكَ شفتيه، وأشرفُها من جهة كونه إشغالًا للقلبِ واللسانِ بأعظم مذكورٍ وهو الله ﷻ!

ولذلك فإنَّ الذاكرين اللهَ كثيرًا والذاكرات هم أقربُ العِباد إلى ربِّهم ومولاهُم!

ولو تدبَّرنا القرآنَ، لوجدنا أنَّ الله ﷻ كثيرًا ما يذكر الذكرَ في كتابه: أمرًا به، وحثًّا عليه، وثناءً على أهله، وبيانًا لمنزلته وآثاره وفوائده الجليلة..

وقد ذكر الحافظُ ابن القيم رحمه الله في كتابه (الوابل الصيِّب ورافع الكلم الطيب) أكثرَ من مائة فائدة من فوائد الذكر!

ووقفتُنا في هذا المجلس التدبُّري مع آيةٍ من آياتِ الذكر، بيّن الله فيها فائدةً عظيمةً من فوائد الذكر، تصبو له كلُّ نفس، ويتطلَّبُها كلُّ قلبٍ؛ ألا وهي طُمأنينة القلب.

---

(١) إعداد اللجنة العلمية بمركز تدبر.

قال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ۝٢٨ ﴾ (الرعد).

ذَكَر سبحانه في هذه الآية أنَّ المهتدين هو الذين آمنوا به، واطمأنَّت قلوبُهم بذكره، ثم بيّن أنَّ القلوب إنما تطمئن بذكر الله، فلا تطمئن بغيره!

وفي هذه الآية معنًى لطيفٌ يلامِسُ شغافَ القلب، وهو أنَّ اللسانَ قناةٌ إلى القلب، وقد تزول هذه القناةُ لأيِّ سببٍ أو عِلَّة ويبقى الإنسانُ حيًّا، لكنَّ الذِكرَ الذي يُورث الطمأنينة هو ما كان ناشئًا من القلبِ أولًا، فلا يعجز عنه حيٌّ أبدًا إلا مَن كان محرومًا، فإذا امتلأ القلب تعظيمًا لله وإجلالًا؛ انبعث مع اللسان في الذكر، فحصلَت الطمأنينة التامَّة!

اللَّهُمَّ اجعلنا ممن يذكرك ذِكرًا كثيرًا، ويُسبِّحُك بكرةً وأصيلًا، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ﴾[1]

سلامة الصدر نعمة لا يُدركها إلا قلائل الناس، وهي في الوقت ذاته صورة من صور النعيم التي يزهد فيها كثير من الخلق، ومن عجيب أمرها أنّ التنعّم بها تخطى حدود الدنيا ليكون أحد صور النعيم في جنات الخلد، قال تعالى: ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ﴾ (الحجر: ٤٧)، وهذه الجملة المُصوِّرة لهذه النعمة تأتي واسطة العقد لمجموعة من صور النعيم التي أعدها الله للمتقين يوم يلقونه، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ إِخۡوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمۡ فِيهَا نَصَبٞ وَمَا هُم مِّنۡهَا بِمُخۡرَجِينَ ﴿٤٨﴾﴾ (الحجر) هذه عشرة أنواع من النعيم للمتقين: الجنات، والعيون، والسلام، والأمن، وسلامة الصدر، والأخوّة، والتنعم بالسُّرُر، والتقابل، والسلامة من التعب، وعدم الخروج من ذلك النعيم.

وهذا الحشد من صور التنعّم والراحة، توسطه قوله تعالى: ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ﴾؛ لأن سلامة الصدر ونقاءه هو أسّ السعادة وأصل الهناء، وتأمل أيضًا إلى فعل ﴿وَنَزَعۡنَا﴾ حيث إن المتحدث هو رب العالمين، فهو المتفضل بهذه النعمة على عباده المتقين، فمهما صفّى الإنسان قلبه، ونظّف صدره؛ فلابد أن يبقى شيء يتناسب مع حال الدينا بما فيها من الكدر والأذى، بينما في الجنة التي هي غاية النعيم بما فيها من صور التنعّم لا يناسبها إلا

(١) كتبه: أ. د. عويض بن حمود العطوي، وكيل الدراسات العليا بجامعة تبوك.

النظافة الكاملة، وهنا يأتي النزع الذي يُشعر بإخراج الشيء من جذوره، بحيث لا يبقى له أثر، وهذا ما يعجز عنه البشر، ويتفضل به رب البشر على من يشاء من عباده في دار النعيم.

والتعبير بـ(ما) في ﴿مَا فِي صُدُورِهِم﴾ تشير إلى كل شيء يمكن أن ينغّص عليهم نعيمهم، ولما كان الصدر هو الموضع الذي يشعر فيه الإنسان بالهمّ، فتجده أحيانًا يزفر زفرات لينفّس عن ما في نفسه، قال تعالى: ﴿مَا فِي صُدُورِهِم﴾.

ثم خصص بعد العموم فقال: ﴿مِّنْ غِلٍّ﴾ وذلك لأن الغل وهو الحقد، هو أعظم ما يجلب للإنسان التعاسة والبؤس وضيق الصدر، وما أعجب حال الناس يحملون في صدروهم ما يجلب لهم الأذى، ولو أنهم تسامحوا ونظفوا صدورهم، لسعدوا في الدنيا قبل الأخرى، ذلك لأن أقل الغل يمنع النعيم الكامل؛ لذا قال سبحانه في شأن الجنة: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ أيْ: أيّ جزء من الغل.

واعلم يا مؤمن؛ إن أُنسَك بالأصحاب والإخوان لا يكتمل إلا بهذه الصفة (سلامة الصدر)؛ لأن الله قال بعدها: ﴿إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ فلم يذكر الأخوة والتقابل إلا بعد ذكر سلامة الصدر ونظافته.

فما أنتَ قائلٌ بعد هذا؟!

﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾[1]

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على مَن لا نبي بعده؛ وبعد:

فإنَّ حديثَ القرآن عن الآخرة، وفضلِها، وعظيمِ منزلتها، وكونِها أحقَّ بالإيثار من الدنيا، حديثٌ كثيرُ الذكر، كثيرُ الوُرود، بل إنَّ (سورةَ الأعلى) من السُّوَرِ التي يُسنُّ قراءتُها في مواضعَ من الصلَواتِ: كصلاةِ الجُمعة، وركعتي الشفع قبل الوتر، فيها تأكيدٌ لهذه الحقيقةِ العظيمة، وهو أنَّ حالَ أكثرِ الناسِ أنهم يؤثرون دُنياهم مع زوالها على أُخراهم مع خيريَّتها وبقائها، فيقول الحقُّ ﷻ: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝١٦ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۝١٧﴾ (الأعلى) وقفتُنا في هذا المجلس مع إحدى هذه الآيات، التي تذكر المقارنات بين الناس في اختلاف المقاصد والنيَّات، فيقول الحقُّ ﷻ بعد أن ذكر حالَ مَن كان يريد العاجلة -وهي الدنيا- وأنه ليس له منها إلا ما كُتب له، ذكر حالَ مَن يقابِلُهم وهم رُوَّاد الآخرة، فقال: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ۝١٩﴾ (الإسراء) وإنَّك إن تأملتَ هذه الآيةَ، لوجدتَ عجبًا عُجابًا في حُسنِ سَبْكِها، وجمالِ وَقْعِها، واستكمالها لشروطِ العمل الصالح!

---

(١) إعداد اللجنة العلمية بمركز تدبر.

ففي أوَّلها: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ ﴾ فهذا ذِكرٌ لنيَّةِ القلبِ، وإخلاصُ القصد فيها، ﴿وَسَعَىٰ لَهَا ﴾ فلا يكونُ المريدُ للآخرةِ صادقًا في إرادته حتى يُتبِعَ إرادتَه بالسعي والعملِ، وإلا كان ذلك مجرَّدَ ادِّعاء!

ثم لم تنتهِ الآية هنا، بل قال الحقُّ ﷻ: ﴿سَعْيَهَا ﴾ فأضافَ السعيَ للآخرة، وهذا يُحقِّقُ بعد شرط الإخلاصِ -لأنَّ سعيَ الآخرة يكون خاليًا من الرياء والتسميع- شرطَ المتابَعةِ وعدمِ الابتداع، فليس كلُّ سعيٍ يكونَ مقبولًا إلا سعيَ الآخرة، وهو صِراطُ الله المستقيم، ثم قال: ﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ أي: بالله والدار الآخرة، مُصدِّقٌ بوعدِ الله للمؤمنين، لا يشكُّ ولا يرتاب، ﴿فَأُولَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾ مقبولًا عند الله!

فتأمَّلْ.. كمْ في هذه الآية من العظةِ والتذكير والترغيب والترهيب!

اللَّهُمَّ اشرح صدورَنا بتدبُّر كتابك، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾[1]

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على مَن لا نبي بعده؛ وبعد:

هل لنا -معاشرَ الأكارم- أن نتخيَّل رجلًا قويمَ البدن، قسيمَ الوجهِ، طَلْعَ البهيَّة، إنْ مرَّ بطريق الناسِ، التفتوا إليه، وإن تحدَّثَ في مجلسهم، أصغَوْا إليه، وإن جاءَ في محفلهم، ابتهجوا به وقدَّموه.. ثم يأتي يومَ القيامةِ؛ هُو هُوَ لا يَزِنُ عند الله جناحَ بعوضة! فيا لَلهوانِ ويا للذِّلَّة!

في صحيح البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إنه ليأتي الرجلُ العظيمُ السمينُ يومَ القيامة لا يزن عند الله جناحَ بعوضة.. اقرءوا إن شئتم:** ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾»[2]!

نعم؛ هذه هي الآيةُ التي سيدور عليها تَدَبُّرُنا في هذا المجلس، فإنَّهم أناسٌ يأتونَ يومَ القيامةِ لا وزنَ لهم؛ فليس لهم حسناتٌ ترفعهم، بل هم الأخسرون أعمالًا، ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ (الكهف) وسببُ هذا الهوان يوم القيامةِ كما ذكره الله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾﴾ (الكهف) فقد كفروا بآياتِ الله، وكفروا بلقائه في الآخرة، واتخذوا آياتِ اللهِ ورسولَه محلَّ استهزاءٍ وتندُّر!

---

(١) إعداد اللجنة العلمية بمركز تدبر.

(٢) البخاري ح(٤٧٢٩)، مسلم ح(٢٧٨٥).

فيا اللهِ، أين ذهبت منزلتُهم في الدنيا؟! وأين ذهبت أُبَّهاتُهم؟! وأين صولاتُهم وجولاتُهم؟! وأين عِنادُهم وتحدِّيهم وكِبْرُهم؟! كلُّ ذلك زالَ واندثر، وأصبحوا لا يزنون جناحَ بعوضة!

فهل بعد هذا يغترُّ مسلِمٌ بأُبَّهةِ كافرٍ معاندٍ؟! فأين أبو جهلٍ الذين ملأ مكةَ سطوةً وعُتوًّا؟! وأين فرعونُ الذي قالَ أنا ربُّكم الأعلى؟! وأين عادٌ وثمود؟! وأين قارون والنمرود؟! وأين الملِكُ الذي أحرَق أصحابَ الأخدود؟! سيأتون جميعًا يومَ القيامةِ لا وزنَ لهم!

اللَّهُمَّ ثبِّتنا على دينك القويم، وصراطك المستقيم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

﴿ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ﴾(١)

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على مَن لا نبي بعده؛ وبعد:

فإنَّ أوَّلَ شيءٍ قد يلفتُ نظرَك وأنت تقرأ هذه الآية أنَّ الله ﷻ بعد أنْ ذكر في مَطلَعِ سورة الأنبياء -التي يُسميها بعضُ العلماءِ سورةَ العبادة- أنَّ حسابَ الناس قد اقترب، وأنهم في غفلةٍ مُعرِضون، ذكرَ اللهو، وأضاف هذا اللهوَ إلى القلوبِ، ونحن لا يكاد يتبادرُ إلى أذهاننا عن سماع (اللهو) إلاَّ لَـهْوُ الجوارح: كأنْ تكونَ العين لاهيةً بالنظر إلى المحرَّمات وفضول المباحات، وأن تكون الأُذن لاهيةً باستماع ما لا يحِلُّ استماعُه، أو مشغولةً بتتبُّع الأخبار المفضولة، والحكايات المرذولة، أو أن يكون اللسانُ لاهيًا بالأحاديثِ المحرَّمة: من غيبةٍ ونميمةٍ ونحوها، أو بالكلام المفضول الذي قد يضرُّ ولا ينفع، أو أن يكون لاهيًا بالتنقُّلِ من مَلهى إلى ملهى، ومن مكانٍ لآخر بلا أهدافٍ دينيةٍ ولا دُنيويَّة تعود عليه بالنفع في الدنيا أو الآخرة، بل لمجرَّد اللهو والعبث وإحراق الأوقات.. وهكذا في سائر لهوِ الأعضاء والجوارح.

هذا ما يتبادر في أذهانٍ كثيرٍ منَّا عندما نسمع كلمةَ (لهو)، لكنَّ الله ﷻ أضافَ اللهوَ للقلوبِ لا للجوارح؛ لسرٍّ بديع، وحكمةٍ لطيفة.

---

(١) كتبه: الشيخ مهند بن حسين المعتبي، إمام وخطيب جامع عبدالله بن عباس بجازان.

وذلك أنَّ القلبَ مَلِكُ الأعضاء، ومركزُ التحكُّم، فإذا كان القلبُ لاهيًا، ضعيفَ الحياة، بارد الإحساس، مُنْطَفِئَ النور، انشغلت الجوارح باللهو، وإذا كان القلب متعلِّقًا بالله، متوقِّدَ الإحساس، عظيمَ النور، أثَّر ذلك على انضباط الجوارح، فكانت الجوارحُ منقادةً للقلبِ الحيِّ، لا تتجاسرُ على معصيةٍ، ولا تتعمَّد تركَ واجبٍ؛ لأنَّ القلبَ هو الذي يأمرُها وينهاها.. ويؤيِّد هذا قولُ النبيِّ ﷺ: «**إلا وإنَّ في الجسدِ مُضغةً إذا صلَحت صلَحَ الجسدُ كلُّه، وإذا فَسَدت فسَد الجسدُ كلُّه؛ ألا وهي القلب**»[1]!

فحريٌّ بنا أن نتعاهدَ قلوبَنا، وأن ننفُضَ عنها غُبارَ الغفلة، وأنْ نُصلِحَ ما فسدَ منها؛ فالقلبُ محلُّ نظرِ الربِّ، وهو ﷻ لا ينظر إلى صُوَرنا ولا إلى أجسامنا، ولكن ينظر إلى قلوبنا وأعمالنا.

اللَّهُمَّ أصلح قلوبنا، واجعلها حيَّة بذكرك، منشغلةً بطاعتك، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

---

(١) البخاري ح(٥٢)،مسلم ح(١٥٩٩)،ابن ماجه ح(٣٩٨٤)، أحمد ح(١٨٣٧٤).

﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾[1]

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على مَن لا نبي بعده؛ وبعد:

فإنَّ من أعظم غاياتِ الإنسانِ في حياتِه مسلمًا كان أو غيرَ مسلمٍ: أن يكون له هدفٌ يسعى لتحقيقه، فإذا تحقَّق ذلك سُمِّيَ ذلك (نجاحًا)، وهو ناجح، فالنَّجاحُ في أمرٍ ما يُعدُّ هدفًا للإنسانِ في أيِّ مجالٍ يريدُه.

إلاَّ أنَّ هناك كلمةً هي ألطَفُ لفظًا، وأعمقُ معنًى، وأوسعُ أثرًا؛ وهي كلمةُ (الفلاح)!

أتدري ما (الفلاح)؟! وهل خطر ببالِك يومًا وأنتَ تسمعُ المؤذنَ يرفعُ صوتَه مناديًا للصلاةِ: (حيَّ على الصلاة، حيَّ على الفلاح)؟! وهل فكَّرتَ مَلِيًّا في سرِّ الجمعِ بين الصلاةِ والفلاح؟!

إنَّ الفلاحَ -كما يقرِّره العلماء- هو الفوز بإدراك المطالِب، بل قال جمعٌ من العلماء: وليس في كلامِ العربِ كلمةٌ أجمعَ للخير من لفظة (الفلاح)!

وفي هذا المجلِسِ نقفُ وقفةً عند قولِ الحقِّ ﷻ في مطلَعِ (سورة المؤمنون): ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾، وهي سورةٌ ترسِم خارطةَ الطريق للفلاح الأبديِّ، وتبيِّن عوائق هذا الطريق؛ ولذلك افتُتِحت بذكر فلاح المؤمنين، واختُتِمت بذكر عدمِ فلاحِ الكافرين!

---

(١) إعداد اللجنة العلمية بمركز تدبر.

ومما يذكرُه أهلُ البلاغةِ؛ أنَّ الحرفَ (قدْ) إذا دخل على الفعلِ الماضي أفاد تحقُّقَ معناه، فالفلاح للمؤمنين حقٌّ لا شكَّ فيه ولا تردُّد، وهو وإن كان جزاؤهم في الآخرةِ إلاَّ أنه متحقِّق بلا ريب..

وقد جاء هذا في القرآن في ثلاثةِ مواضع: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾، ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤﴾ (الأعلى)، ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾. (الشمس).

ثمِّ بعدما ذكرَ هذه الحقيقةَ -وهي فلاحُ المؤمنين- لم يترك تفصيلَ أحوالهم، فلا يقولُ قائلٌ: ومَن هؤلاء المفلِحون؟! بل بيَّن لهم أعظم البيانِ أوصافهم، وفصَّل أحوالهم، وذكر من أعظم خِصالِهم ثمانيةَ أعمالٍ من أعمالهم الجليلة، التي مَن امتثلَها فقد خالطَت بشاشةُ الإيمانِ قلبُه، وهي: الخُشوع في الصلاة، والإعراض عن اللغو، وإيتاء الزكاة، وحفظُ الفروجِ من الحرام، ومراعاة الأمانة والعهد، والمحافظة الدائمة على الصلاة.

ولذلك فإنَّ الفلاحَ الأبديَّ من أعظم ما يتنافس فيه المتنافسون!

اللَّهُمَّ اجعلنا من عبادك المؤمنين، وأوليائك المفلحين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

﴿ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾[1]

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على مَن لا نبي بعده؛ وبعد:

فإنَّ مِن أعظمِ المشاريع الشخصيَّة الأُخرويَّة، التي يكون العملُ فيها في الدنيا، والجزاءُ عليها في الآخرة، هو أن يأتي الإنسانُ ربَّه يومَ القيامةِ بقلبٍ سليم!

سليمٌ من الشرك معمورٌ بالتوحيد، سليمٌ من الشكوك معمورٌ باليقين، سليمٌ من الشبهات التي تُعارِضُ خبرَ الله، ومن الشهوات التي تُعارِض أمرَ الله ونهيَه. وذلك أنَّه من أعظم موازين النجاة يوم القيامةِ.

ومجلسُنا التدبُّريُّ هنا حول قولِ الله تعالى في سورة الشعراء: ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾ (الشعراء).

ومن اللطائف أنَّ هذه الآية جاءت في الثناء على إمامِ الموحِّدين إبراهيم عليه السلام وقد ذُكِرَ (القلبُ السليم) في القرآن مرَّتين، كلا الموضِعَين جاء مع ذكرِ إبراهيم عليه السلام هذه الآية في الشعراء، وقوله تعالى في سورة الصافات: ﴿ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ ﴾، وجاء ذِكرُ القلبِ كذلك عن إبراهيم في قوله تعالى له لما طلبَ من ربِّه أن يُريَه كيف يحيي الموتى: ﴿ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ ﴾ (البقرة: ٢٦٠).

---

(١) إعداد اللجنة العلمية بمركز تدبر.

إنَّ آيةَ سورة الصافَّات في الثناء على إبراهيم ﷺ ﴿ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ مع هذه الآية في سورة الشعراءِ؛ لَتُقَرِّرُ بجلاءٍ حقيقةً قرآنيَّة: أنَّ مدار الصلاح في الدنيا، والفلاحِ في الآخرة على صلاحِ القلبِ وسلامته، وأنَّ القلبَ من أعظم ما ينبغي أنْ يُعتَنى به: تزكيةً وتربيةً وإصلاحًا وتهذيبًا؛ لِيَأتي العبدُ ربَّه يومَ القيامةِ سليمَ القلبِ، فيُكرمُه ربُّه بالجنَّة.

فاللهَ اللهَ في الاعتناء بالقلوب؛ لننجوَ في يومٍ تتقلَّبُ فيه الأبصار والقلوب!

اللّٰهُمَّ أصلح قلوبنا، وزكِّ أعمالنا، واهدنا سُبُلَ الرشاد، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَ﴾[1]

هذه جزء مما قاله والد الفتاتين اللتين سقى لهما موسى ﷺ حين ورد ماء مدين:

﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٢٧﴾ (القصص) وفيه من الفوائد:

١- السماحة في العقود واللين فيها ولو كانت عقود معاوضة كما قال النبي ﷺ: «**رحم الله عبدًا سمحًا إذا باع، سمحًا إذا اشترى، سمحًا إذا قضى، سمحًا إذا اقتضى**»[2].

٢- أنه يجوز للإنسان أن يثني على نفسه ما يعلم فيها من الخير إذا اقتضت المصلحة ذلك حيث قال: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَ﴾.

٣- من هدايات الآية أن يكون غرض الإنسان من عقود المعاوضة كالإجارة هو المصلحة المترتبة عليها لا المشقة على العامل.

٤- أثر النية الصالحة في تمام العقود وكمالها، فقد كان الجزاء من جنس العمل، حين أتم موسى الأجل، وقد قال ﷺ: «**فإن صدقا وبينا، بورك لهما في بيعهما**»[3].

---

(١) كتبه: د. عبدالله بن بلقاسم بن عبدالله.

(٢) البخاري ح(٢٠٧٦)، ابن ماجه ح(٢٢٠٣)، ابن حبان ح(٤٩٠٣).

(٣) البخاري ح(٢٠٧٩)، مسلم ح(٢٠٧٩)، أبو داود ح (٣٤٥٩)،الترمذي ح(١٢٤٦)، النسائي ح(٤٤٥٧).

٥- فيه أثر الإعلان عن نية الإنسان الطيبة تجاه الآخرين، وأثرها في توطيد العلاقة؛ ولذا أرشد النبي ﷺ إلى ذلك بقوله: «**إذا أحب أحدكم أخاه، فليعلمه أنه يحبه**»[١].

٦- أن في عقود المعاوضة من المماكسة والتفاوض ما قد يوغر الصدور؛ لذا ينبغي على المتعاقدين أن يطيبا الكلام.

٧- أن من خرج في سبيل الله، فإن الله يلطف به ويرحمه ويقيض له من يرأف به ويحسن إليه.

٨- مهما كانت المودة بين الصالحين، فلا يمنع من التعاقد والتشارط، وأن ذلك أبعد من حصول الاختلاف والتنازع.

٩- فيه الرحمة بالعمال والأجراء ففي قوله: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ﴾ (القصص)، إشارة إلى عدم الاستقصاء والاستيفاء منهم.

١٠- فيه حفظ الجميل فإن الرجل الصالح وإن شارط موسى ﷺ، لكنه حرص على التلطف به في الكلام؛ رعاية لسابق جميله.

---

(١) أبو داود ح(٥١٢٤)، أحمد ح(١٧١٧١).

﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾[1]

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على مَن لا نبي بعده؛ وبعد:

فإنَّ من أجلِّ العبادات، وأزكى القُربات التي جاء في القرآنِ الحثُّ عليها، والثناءُ على أهلها، والتأكيد على علوِّ شأنها: قيامَ الليل!

فإنَّ القيام في ظُلُماتِ الليل بين يديْ ربِّ العالمين دَأبُ الصالحين، وشرَفُ المؤمنين، وهو عبادةٌ لا حظَّ للنفسِ فيها؛ ولذلك يتمحَّضُ فيه الإخلاص، فإنَّه عبادةٌ خفيَّة، وفي وقتِ هجوعٍ وراحةٍ، والنفسُ داعيةٌ إلى الفراش، ولا يقومُ إلا مَن له عزمٌ وجِدٌّ!

لو قلَّبتَ الآياتِ الواردةَ في ذلك؛ لوجدتَ كلامَ المولى ﷻ في ذلك متفرِّقًا في السُّوَر: كقوله تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾﴾ (الإنسان)، وقولِه: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا ﴿٧٩﴾﴾ (الإسراء)، وقولِه: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ﴿٤٩﴾﴾ (الطور)، وقولِه: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ ﴿٤٠﴾﴾ (ق)، وقولِه: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ (الذاريات) وغيرُها آياتٌ كثيرة، والأحاديث في ذلك أكثر، فأيُّ شرفٍ لصاحب قيام الليل كهذا الشرف؟!

---

(١) إعداد اللجنة العلمية بمركز تدبر.

ومجلِسُنا هذا حول آيةٍ من هذه الآياتِ التي فيها الثناء على أهل الليل، جاءت بلفظٍ عجيب، وأسلوبٍ عظيم.. فلما ذكر الحقُّ ﷻ أنَّه لا يؤمن بآياتِه حقَّ الإيمان إلا مَن إذا ذُكِّر بها خرَّ ساجدًا، وسبَّح بحمده من غير استكبارٍ، قال بعد ذلك في وصفِهم: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾ (السجدة: ١٦).

فتأمَّل كيف أسند التجافي عن مواضع النوم إلى الجُنُوب، والجنوبُ ما هي إلا جوارِحُ تابعةٌ للقلب، والقلبُ محلُّ النشاط والكسل، لكنَّه لما كان القلبُ متيقِّظًا مستعدًا للعبادة، فكأنَّما الفِراشُ والجَنْبُ متباغضان، فالجنبُ ينفرُ ويتجافى عن مضجعه؛ رغبةً في القيام بين يدي الله!

فهنيئًا لمن شرَّفه الله بالقيام بين يديه في ظُلمات الليل، فهذه الآية في قيام الليل عند جمهور المفسرين، وقد قال بعضُهم بأنَّ من صلَّى العشاء والفجر في جماعةٍ أخذ من هذه الآية بنصيب!

اللَّهُمَّ اجعلنا من أهلك وخاصَّتك، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

﴿صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[1]

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على مَن لا نبي بعده؛ وبعد:

فحديثُ هذا المجلسِ التدبُريِّ سيكونُ عَبِقًا ذا رائحةٍ أزكى من الطيبِ بلا شكٍّ؛ لأنَّه حولَ قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾ (الأحزاب) إنَّنا لا نكاد نستطيعُ أن نتخيَّلَ الحجمَ الحقيقيَّ لمحبَّةِ النبيِّ ﷺ في قلوبِ أصحابه، وكيف لا تكونُ محبَّتُهم له عظيمةً، وبهِ أخرجهم الله من الضلالِ إلى الهدى، ومن الظلمات إلى النور، ومن الغواية إلى الرَّشاد؟!

تأمَّلْ كيف حَرَصُوا بعد نزول هذه الآيةِ على تعلُّمِ الصفةِ الكاملة للصلاةِ عليه ﷺ.

ولا تتعجَّبْ أن تعلمَ أنَّ صحابيًا ككعبِ بن عجرةَ رضي الله عنه لما تعلَّم صفة الصلاةِ على النبيِّ ﷺ رأى أنَّ تعليمَ ذلك لإخوانه من الهدايا!

ففي الصحيحين من حديثِ ابن أبي لَيلى قالَ: لَقِيني كعبُ بنُ عُجْرَةَ، فقال: ألا أُهْدِي لك هَدِيةً؟! خرج علينا رسُولُ الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقلنا: قد عرفنا كيف نُسلِّمُ عليك، فكيف نُصلِّي عليك؟! قال: «**قولوا: اللهُمَّ صلِّ على مُحَمَّدٍ، وعلى آل مُحمَّدٍ، كما صلَّيتَ على آلِ إبراهيم، إنَّك حميدٌ مجيدٌ، اللهُمَّ بارك على مُحَمَّدٍ وعلى آلِ مُحمَّدٍ، كما باركت على آل إبراهيم، إنَّك حميدٌ مجيدٌ**»[2].

---

(١) إعداد اللجنة العلمية بمركز تدبر.

(٢) البخاري ح(٣٣٧٠)، مسلم ح(٤٠٦)، أبو داود ح(٩٧٦)، النسائي ح(١٢٨٩)، ابن ماجه ح(٩٠٤).

إنَّك حينما تصلِّي وتُسلِّم على رسولِك ﷺ، فإنما تسألُ الله تعالى أن يُثني عليه في الملأ الأعلى، وأن يزيدَه تشريفًا ورِفعةً، وذلك مما يحبُّه رسول الله ﷺ؛ ولذلك كان من جزاءِ مَن يصلي عليه مرَّةً؛ أن يُصلِّيَ الله عليه عشرًا.

والصلاةُ على النبيِّ ﷺ أداءٌ لأقلِّ القليل من حقِّه، وشكرٌ له على إحسانِه إلينا.

وقد ذكر ابنُ القيِّم رحمه الله في كتابِه القيِّم: (جِلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على خير الأنام) أكثر من أربعين ثمرةً من ثمار الصلاة والسلام عليه ﷺ، وهو كتابٌ مفيدٌ جدًا.

اللَّهُمَّ اجزِ نبيَّنا محمدًا عنَّا بأفضل ما جزيتَ نبيًّا عن أمَّتِه، وأدمِ الصلاةَ والسلامَ عليه أبدًا يا ربِّ العالمين.

﴿ إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ ﴾[1]

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على مَن لا نبي بعده؛ وبعد:

فإنَّ الله تبارك وتعالى يُغْدِقُ على عبادِهِ مِنَنًا عظيمة، ويُسبِغُ عليهم نعمًا جسيمة، ظاهرةً وباطنة، حسيَّةً ومعنويَّة، وقد جعل لهم السمع والأبصار والأفئدة لعلَّهم يشكرون.

ولكنْ ليس من نعمِ الله نعمةٌ أجلَّ ولا أعظمَ من أنْ يصفيَك من بين عباده، وأنْ يجتبيَك من سائر خلقه؛ لتكون من أهله وخاصَّته، بالعلم النافع، والعمل الصالح!

وهذا ما امتنَّ الله به على أنبيائه، ومنهم إبراهيم وابنه إسحاق وحفيدِه يعقوب عليهم السلام فقال تبارك وتعالى في الثناء عليهم: ﴿ وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٤٥﴾ ﴾ (ص) فهم أولوا العمل الصالح: وهو القوَّة الجسديَّة المشار إليها بالأيدي، وأولوا العلم النافع: وهي القوَّة العِلميَّة المُشار إليها بالأبصار، (فهم أهلُ القوَّةِ في العبادة، والبصيرةِ النافذة) كما قاله ابنُ كثير رحمه الله[2].

وأعظمُ الفضلِ في ذلك كلِّه أنَّ الله أمدَّهم بأعظم المَدد، وأقوى العُدد؛ وهي ذكرى الدار الآخرة في قلوبهم؛ فقلوبهم حيَّة أبدًا بذكر الآخرة، فمنها يستمدُّون قوَّة أبدانهم على الطاعة، وقوَّة أبصارهم في الحقِّ، ويَدعُون الناسَ إلى ذِكر الآخرة؛ فهي دار المقرِّ بعد دار الممرِّ، وفيها الحياة الأبديَّة الخالدة.

---

(١) إعداد اللجنة العلمية بمركز تدبر.

(٢) ينظر: تفسير القرآن العظيم (٧/٧٦).

فيقول الله عن هذه الخصيصة: ﴿ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ ﴾ (ص).

قال القرطبي: «إنا أخلصناهم بأنْ يذكروا الدارَ الآخرةَ، ويتأهَّبوا لها، ويَرغَبوا فيها، ويُرَغِّبوا الناسَ فيها»[1].

* ولذلك؛ فإنَّ قوَّة العبدِ في بدنه على طاعة الله، وقوَّة بصيرته في الحقِّ والعلم، ناتِجٌ عن حياة قلبه، وامتلائه بذكر الآخرة، فإذا كان القلبُ بذكرِ الدنيا معمورًا، وعن ذكر الآخرة محسورًا، ثَقُل بدنُه في العبادة والطاعات، وضعُفَت بصيرتُه في الحقِّ والمشتبهات، وسار إلى الله سيرًا ضعيفًا لا قوَّة فيه ولا عزيمة!

فالشأنُ كلُّ الشأنِ في إعمار القلوب بذكر الآخرة، فلا يريدُها صادِقٌ إلا سعى لها سعيَها الحثيث.. ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ ﴾ (الإسراء) اللَّهُمَّ أصلح قلوبنا، واجعلها حيَّة بذكرك، منشغلةً بطاعتك.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٥/٢١٨).

﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾[1]

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على مَن لا نبي بعده؛ وبعد:

فإنَّ المؤمنَ يسير إلى ربِّه على طائرٍ؛ جناحاه: الخوفُ والرجاء، ورأسُه المحبَّة، وبهذا يثبُتُ سيرُه، ويستقيمُ دربُه، فلو غلَّبَ الخوفَ على الرجاء، فلربَّما قنِط من رحمة الله، ولو غلَّب الرجاء على الخوفِ، لربَّما أمِنَ مكرَ الله، ولو عبد الله بلا محبَّةٍ، لكانت عبادتُه جافَّةً لا رُوحَ فيها!

وكُلَّما ازدادُ المؤمنُ معرفةً بالله وتقرُّبًا إليه، عظُمتْ خشيَتُه، وعظُمَ خوفُه، وازدادُ رجاؤه؛ ولذلك فإنَّك لن تعجَبَ إن علمتَ أنَّ الآيةَ التي سنقفُ معها في هذا المجلسِ، وهي قولُه تعالى في سورة الزمر: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾﴾ (الزمر) جاءتْ في سياقِ ذكر حَسرةِ الظالمين -وهم الكافرون- وأنَّه لن ينفعهم شيءٌ يومَ القيامةِ يفتدون به ولو أنَّ لهم الأرضَ كلَّها، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾﴾ (الزمر) بل وسيظهر لهم في ذلك اليومِ من صنوفِ العذاب، ودقَّةِ الحساب، وعدل الميزان، وسجلِّ الأعمال، ما لم يكونوا يتوقَّعونه أبدًا!

---

(١) إعداد اللجنة العلمية بمركز تدبر.

ولكنْ؛ لما كان أصلُ ظلمِ النفسِ في جنبِ الله لا يكاد يسلمُ منه إنسانٌ، وأنَّ الله قد قال -وقوله الحقُّ- في سورة الزلزلة: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨ ﴾ (الزلزلة)، خاف كثيرٌ من السَّلفِ من هذه الآية خوفًا عظيمًا، حتى قال بعضُهم: إنها أخوفُ آيةٍ في كتابِ الله[1]!

وذلك أنَّ الإنسانَ قد يعملُ أعمالًا هي من سخط الله، ولا يُلقي لها بالًا، فيتفاجئ بها يوم القيامةِ في ميزان سيئاته!

وحقًّا؛ إنَّها آيةٌ مخيفةٌ جدًّا، ترتعدُ لها فرائصُ المؤمن؛ خوفًا من هذا المشهد، وكان الإمام سفيان الثوري رحمه الله إذا قرأ هذه الآيةَ قال: «ويل لأهل الرياء، ويل لأهل الرياء»[2]!

اللَّهُمَّ قِنا عذابَك يوم تبعثُ عبادَك، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

---

(١) الدر المنثور (٢/٧)

(٢) تفسير النسفي (٣/١٨٥).

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ﴾[1]

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على مَن لا نبي بعده؛ وبعد:

فإنَّ هذا القرآنَ عظيمُ الشأنِ، جليلُ المنزلة، مناقِبُه جسيمة، وفضائله عظيمة، تكلَّم به ربُّ العالَمين، ونزل به الروحُ الأمين، على خير المُرسلين، بلسانٍ عربيٍّ مُبين.

فتعالَوا نتدبَّرُ آيةً من آي الكتابِ تدلُّ على فضلِه، وفضلِ ليلةِ نزوله.

قال الحقُّ ﷻ: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ﴾ (الدخان: ٣) فالقرآن إذن نزل مِن عندِ الله، من السماءِ إلى الأرض، ونُزُولُه كان في ليلةٍ لا كالليالي، فقد نزلَ في ليلةٍ كثيرةِ البركة، عظيمةِ الشأن، في ليلةٍ هي خيرٌ من ألفِ شهر، كما قال الله عنها: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣ ﴾ (القدر) فهذه الليلةُ ليلةُ القرآن، فلن تكونَ كسائرِ الليالي أبدًا.. فهي مباركةٌ في نفسها، مباركةٌ بتشريف الله لها، مباركةٌ بتفضيلها على سائر الليالي، مباركةٌ بخيريَّتها وحدَها على أعوامٍ تتجاوزُ ثمانينَ عامًا، مباركةٌ ببركةِ القرآن الذي نزل فيها.

---

(١) إعداد اللجنة العلمية بمركز تدبر.

هذه الليلة المباركة كان النبيُّ ﷺ يُحييها صلاةً وقرآنًا وذِكرًا ودعاءً وتَضَرُّعًا، وكان ﷺ يحثُّ أمَّته على إحيائها، ومما جاء في فضلِها قوله ﷺ في حديث أبي هريرةَ رضي الله عنه في الصحيحين: «**من قام ليلةَ القدر إيمانًا واحتسابًا، غُفِرَ له ما تقدَّم من ذنبه**»[1].

فهل سيفرِّطُ العاقِلُ في هذه الليلةِ وفيها من المغانِم ما لا يحصيه إلاَّ الله؟!

وهل سيُحييها بغير القرآن والصلاةِ والدعاء والقيام والبرِّ والإحسان؟!

وهل ستكون هي وسائر أيَّام العامِ سواء؟!

هنا يتفرَّق الناس، ويتبيَّن العقلاء، ويظهرُ للمرءِ فقهُه وحِرصُه وأولوياته.. وليتذكَّر دائمًا كلَّما لاح له فضلُ هذه الليلةِ؛ أنَّها ليلةٌ مباركة: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ﴾!

اللَّهُمَّ وفِّقنا لقيام ليلةِ القدرِ إيمانًا واحتسابًا، وتقبَّل مِنَّا يا ذا الجَلالِ والإكرام.

(١) البخاري ح(١٩٠١)، مسلم ح(٧٦٠)، أبو داود ح(١٣٧٢)، الترمذي ح(٦٨٣)، النسائي ح(٢١٩٣)، أحمد ح(١٠١١٧).

﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾[1]

إن كلمة التوحيد -لا إله إلا الله- هي أساس الدين، وحصنه الحصين، وطريقه القويم، وصراطه المستقيم.

ولهذه الكلمة المكانةُ العظمى في دين الإسلام؛ فهي أول ركن من أركان الإسلام، وأعلى شعبة من شعب الإيمان، وهي أول واجب على المكلف، وآخر واجب عليه، وقبول الأعمال متوقف على النطق بها، والعمل بمقتضاها.

أما معناها الحق الذي لا ينبغي العدول عنه فهو: لا معبود حق إلا الله.

وللشهادة ركنان:

١- نفي في قوله (لا إله) أي: نفي الألوهيــة عن كل ما ســوى الله.

٢- إثبات في قوله (إلا الله) أي: إثبات الألوهية لله وحده لا شريك له.

وهذا الأسلوب يعرف بأسلوب القصر، وهو من أقوى الأساليب التي يؤتى بها لتمكين الكــلام وتقريــره في الذهن؛ لدفع ما فيه من إنكار أو شكٍّ.

وطريقُ القصر في كلمة التوحيد:النفي والاستثناء.

وقد ذكر العلماء لها شروطًا سبعة، لا تصح إلا إذا اجتمعت، واستكملها العبد، والتزمها بدون مناقضة لشيء منها.

---

(١) كتبه: د. محمد بن إبراهيم الحمد، عضو هيئة التدريس بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة القصيم، والمشرف العام على موقع دعوة الإسلام.

وليس المرادُ من ذلك عدَّ ألفاظِها وحِفْظَهَا؛ فكم من عامي اجتمعت فيه، والتزمها ولو قيل له: عَدِّدْها لم يحسن ذلك.

وكم من حافظ لألفاظها يجري فيها كالسهم، وتراه يقع كثيرًا فيما يناقضها.

وهذه الشروط مأخوذة بالتتبع والاستقراء، وقد نظمها الشيخ حافظ الحكمي رحمه الله بقوله:

* العلـــمُ واليقـــينُ والقبـــولُ ... والانقيـــادُ فَـــادْرِ مـــا أقول

والصدقُ والإخـــلاص والمحبةْ ... وفَّقَـــكَ اللهُ لمـــا أحبـــه

وأضاف بعضهم شرطًا ثامنًا ونظمه بقوله:

وزيد ثامنُها الكفران منك بما ... سوى الإله من الأوثان قد ألها

وهذا الشرط مأخوذ من قوله ﷺ: «**من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله، حرم ماله ودمه**»(١).

هذه هي الشروط السبعة مع زيادة الشرط الثامن على وجه الإجمال.

نسأل الله ﷻ أن يرزقنا حبه وحب من يحبه والعمل الذي يقربنا إلى حبه إنه على ذلك قدير، وبالإجابة جدير.

---

(١) رواه مسلم (٢٣).

﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾[1]

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على مَن لا نبي بعده؛ وبعد:

فإن الإنسان في حياته يرى أناسا لا يحصي عددهم إلا الله، يخالط ويعاشر ويحدث ويقابل خلقا تختلف لغاتهم، وبلدانهم، وأشكالهم، وصورهم، وأحوالهم، وأهدافهم.. وقد يخيل إليه بادي الرأي أن هذا ضال، وذاك مهتد بناء على قرائن يستند إليها.

إلا أن هذا قد يكون صوابا، وقد يكون خطأ، وقد يكون محتملا، لكن الحقيقة المطلقة؛ أن من يعلم حقائق الناس وبواطنهم، هو الله وحده العليم الخبير!

هذا هو موضوع هذا المجلس التدبري حول قول الله تعالى في سورة النجم: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ۝٣٠﴾ (النجم) إن الإنسان مهما أظهر من خير أو شر، ومهما أتقن دور التمثيل على خشبة مسرح الحياة، ومهما أخفى ومهما أسر، فإن الناس لن يعلموا ذلك على وجه الحقيقة والقطع، وإنما يعلم ذلك حقا الله وحده تبارك وتعالى.

فأي شر لرجل يظنه الناس من أهل الخير والصلاح والهداية، وهو عند الله ليس كذلك، فهو أعلم بمن اهتدى؟! وأي خير لرجل لا يأبه به الخلق ولا يرونه شيئا، وهو عند الله من الأخيار المهتدين؟!

---

(١) إعداد اللجنة العلمية بمركز تدبر.

فتدبر هذه الآية، والتفكر فيها يحي النفس من الأدواء، ويوقظ القلب من الغفلة، فيصبح غاية تفكير الإنسان في إصلاح قلبه، وتزكية نفسه، تصحيح قصده، ومراقبة سيره؛ لأنه يعلم أن الله هو العالم حقا بحقيقة المهتدي وغير المهتدي، وأنه ﷻ يستوي عنده العلم ببواطن الأمور وظواهره، كما قال عز وجل: ﴿ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ ﴾ (الرعد)، وأن أنظار الناس وتقييمهم وميزانهم لا يرفع عند الله وضيعًا، ولا يضع عنده رفيعًا.

اللَّهُمَّ زينا بزينة الإيمان، واجعلنا هداة مهتدين، غير ضالين ولا مضلين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾[1]

حينما يقلّب أحدنا محركًا من محركات البحث على الشبكة العالمية للبحث عن معلومةٍ ما، فإنه يفاجأ بكمٍ هائل من النتائج التي ظهرت، والتي تذكر متى حفظ هذا المقطع أو تلك المقالة والتغريدة باليوم والساعة بل والدقيقة!

هنا.. يُصاب بعضنا بالدهشةِ والذهولِ من كثرة النتائج ودقّتها! وحُقَّ له ذلك!

فكيف إذا علم أن هذه النتائج إنما هي فقط منذ بدأ عمل محركات البحث هذه! وأنها لا تحفظ ولا تسجل سوى ما نُشِرَ على الشبكة العالمية! فكم غاب عنها من أعمال السنين والقرون الماضية؟ وكم خفي عليها مما لم يُنْشر في على شبكة المعلومات؟ وكم غاب عنها من أعمال القلوب التي لا يحصيها ولا يعلمها إلا الله! هنا يقع قوله تعالى: ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ (المجادلة: ٦) موقعه من القلب، هيبةً وإجلالًا!

أما الهيبة: فتمثر خوف كل واحدٍ منا -أيها الإخوة- من هذا الإحصاء الدقيق الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، سواء من عمل القلوب أم من عمل الجوارح!

---

(١) كتبه د.عمر بن عبدالله المقبل، الأستاذ المشارك بكلية الشريعة بجامعة القصيم، عضو الهيئة العالمية لتدبر القرآن.

وأما الإجلال: فإن هذا الحال يورث العبد تذكر سعة علم الله، الذي لا يعزب عنه مثقال ذرةٍ في السماوات ولا في الأرض، فيورثه ذلك الحياء من الله، أن يراه على حالٍ لا يحبها ولا يرضاها، وأن يحاسب نفسه عند التقصير والزلل.

وقف بعض الصالحين مع نفسه محاسبًا لها، وقد بلغ الستين من العمر، فعدَ أيامه فإذا هي واحدٌ وعشرون ألف يوم وخمسُمائةِ يومٍ، فصرخ وقال: يا ويلتي أألقى الله بواحدٍ وعشرين ألف ذنب لو كنت لم أذنب إلا ذنبًا واحدًا في كل يوم؟ فكيف وهي ذنوب متتابعة؟!

فهكذا ينبغي أن يحاسب الإنسان نفْسَهُ على الأنفاس، وعلى معصيته بالقلب والجوارح في كل ساعة، ولو رمى العبدُ بكل معصيةٍ حجرًا في داره؛ لامتلأتْ دارُه في مدةٍ يسيرة قريبة من عمره، ولكنه يتساهل في حفظ المعاصي والملكان يحفظان عليه ذلك: ﴿أَحْصَـٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾[1].

اللَّهُمَّ ارزقنا خشيتك في الغيب والشهادة، واجعلنا ممن يعبدك كأنه يراك.

---

(١) إحياء علوم الدين (٤٠٦/٤).

﴿قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[1]

نودي رسول الله ﷺ في مطلع سورة المزمل وهي من أوائل القرآن نزولا بهذا النداء اللطيف ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ أي: يا أيها المتلفف خوفًا مما نزل عليك، لا تلجأ إلى الفراش طلبًا للاستئناس واستعادة الطمأنينة إلى قلبك وإسكان وجيف فؤادك؛ بل عليك بقيام الليل حيث السكينة والهدوء والرحمة، والتلذذ بمناجاة مولاك، واستمداد القوة واستنزال العون من الله الرحيم المعين سبحانه، وفي أعطاف النداء فائدتان كريمتان:

أولاهما: التلطف في المخاطبة والمعاتبة خصوصًا للخائف المرتاب، فإن العرب دأبت على معاتبة الحبيب باسم مشتق من حالته، كقوله النبي ﷺ لعلي رضي الله عنه عندما رآه نائمًا في المسجد على التراب: «**قم أبا تراب**»[2].

والثانية: التنبيه لكل متزمل راقد ليله أن يأخذ حظه من الليل ويتزود من مناجاة باريه.

عندما جاء الحث على قيام الليل جاء مباشرًا مع مراعاة حاجته إلى النوم والسكن؛ لأن حاجة الإنسان إلى الزاد الروحي أعظم من حاجته إلى الطعام والشراب والنوم.

---

(١) كتبه: د. محمد بن عبدالعزيز الخضيري، عضو هيئة التدريس بجامعة الملك سعود، وعضو الهيئة العالمية لتدبر القرآن.

(٢) البخاري ح(٤٤١)، مسلم ح(٢٤٠٩)، السنن الكبرى ح (٨٤٨٥)، ابن حبان ح(٦٩٢٥).

ثم بين الله له ما الذي يفعله في قيامه بقوله: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤﴾ أي: اقرأ القرآن أثناء قيامك في الليل قراءة تثبت وتؤدة وتمهل تسمعها الأذن ويرتاح لها القلب ويسبح في حناياها الفكر، حاذرًا أن تكون قراءة هذٍ وهذرمة أو ترديد ألفاظ بلا فهم أو تدبر.

وجاء الأمر بالترتيل مقرونًا ببيان عظمة القرآن وأنه قول ثقيل، مليء بالأحكام والحكم والدروس والعظات، بعيد الغور كثير المعاني واسع العطاء، فلا يليق به سرعة التلاوة ولا مجرد مرور الألفاظ على الألسن والقلوب.

ولكون القرآن بهذه الفخامة والسعة والعمق فإن اللائق به هو الوقت الذي تكون الأصوات قد هدأت والأحياء قد سكنت والنفس قد ارتاحت وأقبلت؛ ولذا قال: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦﴾ يقول: إن ناشئة الليل أي: ساعاته وأوقاته أو هي القيام بعد النوم هي أشد في موافقة القلب والسمع لما يتلى من كلام الله، وأبين قولا .

ثم بين له أن أشغاله الأخرى وحاجات نفسه قد جعل الله لها النهار كله ﴿إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ۝٧﴾ أي: تصرفا وتقلبا في أشغالك وأعمالك وحاجات بدنك وأهلك، ولن تجد شيئًا أعون عليها أفضل من أن تخصص وقتا من ليلك لمناجاة ربك.

وقد جرب العارفون ما لقيام الليل من أثر على قوة قلب القائم وصبره وشدة تحمله وسعة أخلاقه وسكون نفسه ورضاه بمقادير ربه والبركة في الوقت والجهد.

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾[1]

سورة الشرح من السور العظيمة التي جمع الله تعالى فيها أصول أسباب السعادة وانشراح الصدر؛ ولذلك سميت باسم (الشرح)، فكلمة الشرح في كل أسمائها.

وقد جاءت هذه السورة بعد سورة الضحى، التي ذكر الله تعالى فيها النعم الحسية للنبي ﷺ، ثم جاءت هذه السورة بذكر النعم المعنوية بشرح الصدر ووضع الوزر ورفع الذكر.

خاطب الله تعالى نبيه في هذه السورة بذكر مننه وأنعامه عليه من شرح الصدر حسا ومعنى، ورفع ذكره، وبيان أن العسر معه يسره، وكيف يشكرها ويقوم بحقها من الإقبال بالطاعة على الله ﷻ وإخلاص الرغبة إليه.

هذا ملخص تفسير الآية، وبالتأمل نجد أن الله سبحانه ذكر في ذلك عشرة أصول للسعادة وانشراح الصدر، وهي على النحو التالي:

١- أن السعادة بيد الله وحده سبحانه، من قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾ (الشرح: ١)، فهو سبحانه الذي يشرح لا غيره.

٢- السعادة تكون في القلب وليس العقل، من قوله ﴿لَكَ صَدْرَكَ﴾، فالصدر يكنى به عن القلب كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾.

٣- مغفرة الذنوب، من قوله تعالى: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢﴾، فكلما كان الإنسان متخففًا من الذنوب، كان أقرب إلى السعادة.

---

(١) كتبه: د. عبدالمحسن بن زبن المطيري، الأستاذ بكلية الشريعة بالكويت، عضو الهيئة العالمية لتدبر القرآن الكريم، وأمين عام رابطة علماء المسلمين.

٤- رفع الذكر الحسن، من قوله تعالى: ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤ ﴾، فالذكر الحسن يستجلب دعاء الناس، ويستنطق الألسنة بالثناء.

٥- ما خلق الله عسرًا بلا يسر، من قوله: ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ ﴾، وعندما يعرف المرء ذلك، فإن هذا يذهب عنه أكثر الهم، فهو يوقن أن هناك حلا، ولكن المطلوب منه هو البحث عنه فقط.

٦- اليسر ينزل في لحظة نزول العسر، من قوله تعالى: ﴿ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦ ﴾، ولم يقل بعد العسر يسرا، فمنذ حصول العسر والمشكلة والهم يبدأ لطف الله ويسره وتنفيسه.

٧- كل عسر معه يسران؛ لتكرار النكرة (يسرا) الذي يدل على التعدد، ولذلك قال كثير من السلف: والله لا يغلب عسر يسرين.

٨- استثمار الفراغ من أصول السعادة، من قوله ﷻ ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴾، فيه إشارة إلى أنه لا ينبغي أن يكون له فراغ.

٩- العبادة، من قوله تعالى: ﴿ فَٱنصَبْ ﴾، أي: أقبل على الطاعة والعبادة، والعبادة هي بوابة السعادة الكبرى، ومن مشهور كلام شيخ الإسلام ؒ: من أراد السعادة الأبدية، فليلزم عتبة العبودية[١].

١٠- الإخلاص في صرف وجوه الرغبات لله ﷻ وحده لا لسواه، من قوله ﷻ: ﴿ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ۝٨ ﴾، وتحقيق هذا المعنى العظيم هو مسك الختام.

اللَّهُمَّ ارزقنا سعادة وانشراحًا وفرحًا وسرورًا يا رب العالمين.

---

(١) مدارج السالكين (١/٤٢٩).

فهرس المحتويات

يُهدى ولا يُباع

تدبّر مركز تدبّر للدراسات والاستشارات

ثلاثون مجلساً في التدبّر

مجالسُ علميّةٌ وإيمانيّةٌ

المجموعة الخامسة



إعدادُ اللّجنةِ العِلميّةِ في مركزِ تدبُّر

طبع على نفقة بعض المحسنين جزاهم الله خيراً

دار الحضارة للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى

ثلاثون مجلساً في التدبر

مجالس علمية وإيمانية

المجموعة الخامسة



مركز تدبر للدراسات والاستشارات

ثلاثون مجلسا في التدبر

مجالس علمية وإيمانية

المجموعة الخامسة

الطبعة الأولى

١٤٣٧هـ - ٢٠١٦م

الرياض - الدائري الشرقي - مخرج ١٥

هاتف ٢٥٤٩٩٩٣ ٠١١ - تحويلة ٣٣٣

ناسوخ ٢٥٤٩٩٩٦ ٠١١

ص.ب. ٩٣٤٠٤ الرمز: ١١٦٨٤

البريد الحاسوبي: tadabbor@tadabbor.com

@tadabbor .... www.tadabbor.com





فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

مركز تدبر للاستشارات التربوية والتعليمة

ثلاثون مجلسًا في التدبر (المجموعة الخامسة).

مركز تدبر للاستشارات التربوية والتعليمية - الرياض، ١٤٣٧هـ

٦٨ ص؛ ١٧ × ٢٢ سم

ردمك: ٩-٥-٩٠٧١٢-٦٠٣-٩٧٨

١- القرآن - مباحث عامة ٢- القرآن - التفسير الحديث أ. العنوان

ديوي ٢٢٧,٦ ١٤٣٧/٧٠٠٢

رقم الإيداع: ١٤٣٧/٧٠٠٢

ردمك: ٩-٥-٩٠٧١٢-٦٠٣-٩٧٨

ثلاثون مجلسًا في التدبر

مجالس علمية وإيمانية

المجموعة الخامسة

إعداد اللجنة العلمية في مركز تدبر


بسم الله الرحمن الرحيم



الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على إمام المتدبِّرين، وخاتم المرسلين، نبيِّنا محمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين، أمَّا بعد:

فاستمرارًا في مسيرة هذا الإصدار المبارك من إصدارات مركز تدبُّر، سلسلة: «**ثلاثون مجلسًا في التدبُّر**» نضع بين يديك (**المجموعة الخامسة**) التي سعينا فيها إلى مواصلة التجديد والتطوير؛ لتكونَ هذه المجالس نماذجَ تطبيقية في التدبُّر يستفيد منها عمومُ المسلمين بمختلِف فئاتهم.

وإن كلَّ ما تلمسه أخي المبارك في هذه المجموعة من تطوير وتغيير إنما هو بفضل الله تعالى أوَّلاً، ثم بمساهمة وإثراء كثير من القرَّاء والمتابعين، من خلال تواصلهم بالاقتراحات والملحوظات، كتب الله أجرهم وأجزل مثوبتهم.

وستلحظ في هذه المجموعة التنوُّع في الأسلوب، والتركيزَ على الموضوعات الإيمانية والعملية، التي تلامس حاجةَ المسلم وواقعه، وتعينه على إصلاح قلبه، وتساعده في تقويم سلوكه، متدبِّرًا كتاب ربِّه، مهتديًا بهداياته، مستنيرًا بنور آياته.

وستلاحظ أخي القارئ الكريم أيضًا، أن أواخر الكلمات في هذه المجموعة ضُبطت بالشكل؛ لتسهلَ قراءتها دون لحن، خاصَّةً لمن يلقيها على جماعة المسجد أو في الخُطَب والدروس واللقاءات.

نسأل الله تعالى أن تكونَ هذه المجموعة معينًا على تحقيق رؤيتنا ورسالتنا في هذا المشروع المبارك: «تدبُّر»، وإننا لا نستغني عن تواصلكم وإثرائكم كما عوَّدتمونا.

بارك الله في الجهود، وسدَّد الخطا.

وصلَّى الله وسلَّم وبارك على نبيِّنا محمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين.

رئيس اللجنة العلمية

عبد اللطيف بن عبد الله التويجري

١٤٣٧/٧/٥هـ



جاءت هذهِ الآيةُ في سياقِ الحديثِ عن بنِي إسرائيلَ؛ حيثُ أخذَ اللهُ عليهِمُ الميثاقَ بواسطةِ سيِّدِنا موسَى ﷺ أنْ يعمَلُوا بكتابِ اللهِ، فلم يعملُوا بما فيه، ونبذُوهُ وراءَ ظهورِهِم، فقالَ اللهُ ﷻ لهم: ﴿خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ [البقرة:٦٣]، ومعنى: ﴿بِقُوَّةٍ﴾؛ أي: بعزْمٍ ونشاطٍ وجِدٍّ[١]، ومعنى الآيةِ: قلنا لبنِي إسرائيلَ: خذوا الكتابَ -وهو التوراةُ- بجِدٍّ وعزيمةٍ، ومواظبةٍ على العملِ بما فيه، وتَدَارسُوهُ ولا تنسَوْا تدبُّرَ معانِيه، واعملوا بما فيهِ مِنَ الأحكامِ، فإنَّ العملَ هو الذي يجعلُ العلمَ راسخًا في النفسِ مستقرًّا عندها، لا يُلابِسُ نفوسَكم فيه ضعفٌ، ولا يَصحبُها وهَنٌ ولا وهْم[٢].

فأحكامُ اللهِ والعملُ بها منهجُ حياةٍ، منهجٌ يستقرُّ في القلبِ تصوُّرًا وشعورًا، ويستقرُّ في الحياةِ وضعًا ونظامًا، ويستقرُّ في السلوكِ أدبًا وخلقًا.

---

(١) المحرر الوجيز: ١/ ١٨٠.

(٢) تفسير المراغي: ١/١٣٦.

وقد ذكرَ اللهُ ﷻ هذا التوجيهَ لبني إسرائيلَ في مواضعَ؛ منها: قولُه تعالى: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱسۡمَعُواْ﴾ [البقرة:٩٣]، وقوله تعالى: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٦٣﴾ [البقرة]، [الأعراف:١٧١].

ولكنَّ بني إسرائيلَ نقضوا الميثاقَ، ونَسُوا اللهَ، ووقعوا في المعصيةِ، حتى استحقُّوا غضبَ اللهِ ولعنتَهُ، وهم كذلكَ في كلِّ وقتٍ وحينٍ؛ فلْنحْذَرْ من مواثِيقِهم وعهودِهم؛ لِأَنهم لم يَفُوا بعهدِ اللهِ ﷻ وميثاقِهِ، فكيفَ بعهودِهم معَ غيرِه؟!

وإذا كان الأمرُ بأخْذِ الكتابِ بقوَّةٍ لبني إسرائيلَ، فهو بالأجدرِ أمرٌ لكلِّ مؤمنٍ غَيُورٍ على دينِهِ؛ أنْ يأخذَ ما آتاهُ اللهُ من تكاليفِ الشريعةِ بالعزيمةِ والثباتِ على العملِ بها، ودعوةِ الأمَّةِ إلى اتِّباعِها؛ لينالَ في الدنيا رضا اللهِ، فيَحظَى بالسعادة، ويرتَقِيَ في سُلَّمِ الحضارة، وينالَ في الآخرةِ الرضوانَ الدائمَ، والنعيمَ المقيمَ. فهل مِن مُشَمِّرٍ لتلبيةِ أمرِ اللهِ تعالى؟!

﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾[1]

هاهنا وَقَفاتٌ تَدَبُّريةٌ مع هذه الآية: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [البقرة: ١٤٨]؛ لعلَّها تَبعثُ في نفوسِنا التَّنافُسَ في سبيلِ طاعةِ اللهِ تعالى والتقرُّبِ إليه سبحانه.

الوقفةُ الأولى: وردتِ الآيةُ في سياقِ الحديثِ عن القِبلةِ حثًّا لأُمَّةِ الإسلامِ على المسابقةِ فيما فضَّلهم اللهُ تعالى به؛ من شريعتِهِ الغرَّاءِ، والتوجُّهِ إلى بيتِهِ الحرامِ؛ فقالَ تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [البقرة: ١٤٨]؛ فالمقصودُ: المبالغةُ في الأمرِ بالتمسُّكِ بالشريعةِ والقيامِ بحقِّها؛ وهو العملُ والطاعةُ، وأعظمُ ذلك الصَّلاةُ التي يَتوجَّهون فيها إلى القِبلةِ التي اختارها اللهُ تعالى لنبيِّه ﷺ.

الوقفةُ الثانيةُ: الاستباقُ فيه زيادةٌ على المُسارعةِ؛ لأنَّ في الاستباقِ محاولةَ لسبقِ الآخرينَ، ومجاهدةً للنفسِ في ذلك؛ ولما فيه من الحثِّ على إحرازِ قَصَبِ السَّبقِ في طاعةِ اللهِ؛ قال وهيبُ بنُ الوردِ: «إنِ استطعتَ ألَّا يَسْبِقَكَ إلى اللهِ أحدٌ فافعَلْ».

الوقفةُ الثالثةُ: التعبيرُ بـ«الخيراتِ» دونَ «الوجهاتِ»، دالٌّ على أنَّ ما نحنُ عليه -أمَّةَ الإسلامِ- هو الخيرُ كلُّه، وهو سببٌ لحصولِ الخيراتِ كلِّها.

---

(١) كتبه: د. محمد بن عبد الله الربيعة، عضو هيئة التدريس بجامعة القصيم، وعضو الهيئة العالمية للتدبر.

الوقفةُ الرابعةُ: التعبيرُ بـ«الخيراتِ» بصيغةِ الجمعِ يُشعِرُ بكثرةِ طُرُقِ الخيرِ وتعدُّدِها، وأن الطريقَ إلى اللهِ تعالى مَلأى بالخيراتِ؛ فإذا وصلتَ إلى خيرٍ فسابِقْ في خيرٍ آخرَ، فأنتَ تُسابِقُ إلى اللهِ تعالى.

الوقفةُ الخامسةُ: «استباقُ الخيراتِ» قدرٌ زائدٌ على «فعلِ الخيراتِ»؛ فالاستباقُ إليها يعني: أن تكونَ من أوَّلِ الفاعلينَ لها المحافظينَ عليها؛ كإدراكِ الصفِّ الأولِ، وتكبيرةِ الإحرامِ، ومواساةِ الفقراءِ، والأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عن المنكرِ، وغيرِ ذلك.

الوقفةُ السادسةُ: ممَّا يعينُ على المسابقةِ للخيراتِ والفوزِ فيها: الاستعدادُ للطاعاتِ قبلَ وقتِها، وتدريبُ النفسِ عليها؛ كأن تُلزِمَ نفسَكَ بالمسابقةِ في طاعةٍ ما، حتى تعتادَها وتكونَ فيها من السابقينَ، ثم في طاعةٍ أخرى؛ وهكذا.

الوقفةُ السابعةُ: قال ابنُ القيِّمِ ﵀: «السَّابِقُونَ في الدُّنيا إلى الخَيراتِ، هُمُ السَّابِقُونَ يومَ القيامةِ إلى الجنَّاتِ»؛ ولذلكَ قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ١١ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ١٢﴾ [الواقعة].

الوقفةُ الأخيرةُ: تذكُّرُ الموتِ والآخرةِ من أعظمِ ما يُعينُ على المسابقةِ إلى الخيراتِ؛ ولهذا ختمَ اللهُ الآيةَ بقولِه: ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُواْ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ١٤٨]؛ فحَرِيٌّ بالمؤمنِ أن يغتنمَ حياتَهُ بالمسابقةِ إلى ربِّهِ لينالَ بذلك قَصَبَ السَّبْقِ في جَنَّاتِهِ.

جعلَنا اللهُ تعالى منَ المُسابقينَ إلى الخيراتِ والسابقينَ المقرَّبينَ في الجنَّاتِ.



لعلَّكَ أخي الكريمُ تسألُ: ما معنَى وِلايةِ اللهِ للمؤمنينَ؟ وبمَ استحَقَّها المؤمنونَ؛ حتى أقتدِيَ بهم؟

ودونَكَ الجوابَ:

الوَلِيُّ: الحَلِيفُ[١]، وهو الذي ينصرُ مولاهُ؛ فاللهُ يُحِبُّ عبادَهُ فيَهدِيهم، ويزيدُهُم هدًى على هداهُم، ويتولَّى أمورَهُم، فيُقدِّرُ لهم ما فيه نفْعُهُم ومصالحُهُم، وينصرُهُم على أعدائِهِم، ويُعينُهُم فلا يَكِلُهم إلى غيرِهِ.

ومظاهرُ ولايةِ اللهِ تعالى لعبادِهِ المؤمنينَ متعدِّدةٌ؛ منها ما يأتي:

أنهُ سبحانهُ يذُبُّ عنهم الشُّبهاتِ؛ حتى يكونَ تمسُّكُهُم بالعُروةِ الوُثقَى مستمِرًّا، ويَأمَنُوا انفصامَها[٢]، ويُخرجُهُم من الشُّبَهِ في الدِّينِ- إنْ وقعت لهم- بما يَهدِيهِم ويُوفِّقُهُم إلى حلِّها، حتى يخرجوا منها إلى نورِ اليقينِ[٣]. وينصرُهُم على أعدائِهِم، ويُخرجُهم من ظُلُماتِ الكفرِ والمعاصِي والجهلِ،

---

(١) التحرير والتنوير: ٣/ ٣٠.

(٢) المرجع السابق: ٣/ ٣٠.

(٣) تفسير الكشاف: ١/ ٣٠٤.

إلى نورِ الإيمانِ والطاعةِ والعلمِ، ويُنجِّيهم من ظلماتِ القبرِ والحشرِ والقيامةِ، ويُدخِلُهم جنَّاتِه؛ حيثُ النعيمُ المقيمُ، والراحةُ والفسحةُ والسرور.

وأمَّا بمَ استحقُّوا وِلايةَ اللهِ تعالى؟

فالجوابُ: أنهم تولَّوا ربَّهم، فلمْ يَبْغُوا عنهُ بدَلًا، ولم يُشرِكُوا به أحدًا، وأنهم اتخذُوهُ حبيبًا، فأنِسُوا به، وأنهم وَالَوْا أولياءَهُ، وعادَوْا أعداءَهُ[1].

وعند تدبُّرِ الآيةِ في سياقِها تجدُ أنَّ الوِلايةَ بحسَبِ الإيمانِ، فإذا زادَ إيمانُ العبدِ زادتْ ولايةُ اللهِ له، وزادَ توفيقُ اللهِ له في حياتِه الدينيَّةِ والدنيويَّة.

هذه ولايةُ اللهِ، وهؤلاءِ أهلُها، فلْنحْرِصْ عليها، ولْنَعَضَّ عليها بالنَّواجِذِ؛ حتى يَتحقَّقَ الفوزُ بالمطلوبْ، والنجاةُ مِنَ المرهوبْ.

ولعلَّكَ أخي الكريمُ تسألُ: وهل مِن دعاءٍ دعا بهِ النبيُّ ﷺ لِنَيْلِ ولايةِ الله؟

والجوابُ: ردِّدْ في تأمُّلٍ وخشوعٍ هذا الدعاءَ النبويَّ؛ لتتحقَّقَ لكَ ولايةُ اللهِ بعدَ الأخذِ بأسبابِها: «اللَّهُمَّ اهْدِنَا فِي مَنْ هَدَيْتْ، وَعَافِنَا فِي مَنْ عَافَيتْ، وَتَوَلَّنَا فِي مَنْ تَوَلَّيتْ، وَبَارِكْ لَنَا فِي مَا أَعْطَيتْ، وَقِنَا شَرَّ مَا قَضَيتْ، إِنَّكَ تَقْضِي وَلَا يُقْضَى عَلَيكَ، إِنَّهُ لا يَذِلُّ مَن وَالَيتْ، تَبارَكْتَ وتَعَالَيتْ»[2].

---

(١) تفسير السعدي: ص ١١١، بتصرُّف يسير.

(٢) صحيح ابن حبان (٧٢٢)، قال الألباني: صحيح، انظر المشكاة (٢٧٧٣).

﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا ﴾[1]

يقولُ اللهُ تبارك وتعالى مشجِّعًا عبادَهُ المؤمنينَ، ومقوِّيًا عزائِمَهُمْ، ومنهِّضًا هِمَمَهُمْ: ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا ﴾ [آل عمران: ١٣٩]؛ أي: ولا تَهِنُوا وتضعُفُوا في أبدانِكُم، ولا تحزنوا في قلوبِكُم، عندما أُصِبْتُمْ بهذهِ المصيبةِ، وابتُلِيتُمْ بهذهِ البلوى؛ فإنَّ الحزنَ في القلوبِ، والوهَنَ على الأبدانِ: زيادةُ مصيبةٍ عليكم، وعونٌ لعدُوِّكُمْ عليكم، بل شجِّعُوا قلوبَكُمْ وصبِّرُوها، وادفَعُوا عنها الحزنَ، وتصلَّبُوا على قتالِ عدوِّكُم.

وذكرَ اللهُ تعالى أنَّهُ لا ينبغِي ولا يليقُ بهِمُ الوهَنُ والحزنُ -وهمُ الأعلَوْنَ في الإيمانِ- رجاءَ نصرِ اللهِ وثوابِه، فالمؤمنُ المتيقِّنُ بما وعدَهُ اللهُ منَ الثوابِ الدُّنيوِيِّ والأُخرَوِيِّ، لا ينبغِي له ذلك؛ ولهذا قالَ تعالى: ﴿ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾.

ثم سَلَّاهُم بما حصلَ للمشركين منَ الهزيمةِ، وبيَّنَ الحِكَمَ العظيمةَ المترتِّبَةَ على ذلكَ، فقالَ: ﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، فأنتُمْ وإيَّاهمْ قد تساويتُمْ في القَرْحِ، ولكنَّكُمْ ترجُونَ منَ اللهِ ما لا يَرجُونَ؛ كما قالَ تعالى: ﴿ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ﴾ [النساء: ١٠٤].

---

(١) تفسير السعدي: ص ١٤٩ - ١٥٠.

ومِنَ الحِكَمِ في ذلك أنَّ هذهِ الدارَ يُعطِي اللهُ منها المؤمنَ والكافر، والبَرَّ والفاجِر، وأنَّ اللهَ تعالى يُداوِلُ الأيامَ بينَ الناسِ؛ يومٌ لهذه الطائفةِ، ويومٌ للطائفةِ الأخرى؛ لأن هذه الدارَ الدنيا مُنقضِيةٌ فانيةٌ، وهذا بخلافِ الدارِ الآخرةِ؛ فإنها خالصةٌ للذينَ آمَنُوا.

ومن الحِكَمِ أيضًا: أنْ يَختبرَ اللهُ عبادَهُ بالهزيمةِ والابتلاءِ؛ ليتبيَّنَ المؤمنَ مِنَ المنافقِ؛ لأنهُ لوِ استمرَّ النصرُ للمؤمنينَ في جميعِ الوقائعِ لدخلَ في الإسلامِ مَن لا يُريدُهُ، فإذا حصلَ في بعضِ الوقائعِ بعضُ أنواعِ الابتلاءِ، تبيَّنَ المؤمنُ حقيقةً الذي يرغبُ في الإسلامِ، في الضرَّاءِ والسرَّاءِ، واليُسْرِ والعُسْرِ، ممَّن ليس كذلك؛ قال تعالى: ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَ﴾، وهذا أيضًا مِن الحِكَمِ؛ لأنَّ الشهادةَ عندَ اللهِ مِن أرفعِ المنازلِ، ولا سبيلَ لِنَيْلِهَا إلا بما يحصُلُ مِن وجودِ أسبابِها؛ فهذا مِن رحمتِهِ بعبادِهِ المؤمنينَ: أنْ قيَّضَ لهم مِنَ الأسبابِ ما تكرهُهُ النفوسُ؛ لِيَنالُوا ما يحبُّونَ مِنَ المنازلِ العاليةِ والنعيمِ المقيمِ.



إنَّ للمواعظِ الصادقةِ تأثيرًا مباشِرًا في القلوبِ الحيَّةِ بالإيمانِ، فتجِدُ الوعظَ -وهو الأمرُ والنهيُ والتذكيرُ المقترنُ بالترغيبِ أو الترهيبِ- بابًا من أبوابِ الحثِّ على العملْ، ومُجافاةِ الكسلْ، ومُجانبةِ المعاصي والزَّلَلْ.

وإذا كان كثيرٌ من مواعظِ الصالحين العاملين من سَلَفِ الأمَّة من الصحابةِ ومَن بعدَهم بهذه الدرجةِ من التأثيرِ، فكيف شأنُ الوعظِ إذا كان من اللهِ تعالى وتقدَّسَ؟!

يعِظُ اللهُ عبادَهُ، وهو خيرُ من يعِظُ، ومن لم يجدْ لوعظِ الله في قلبِه أثرًا، فلن تدومَ له آثارُ مواعظِ غيرِهِ؛ قال تعالى مُذكِّرًا: ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣١]، وقال أيضًا مُحذِّرًا آكلَ الرِّبا: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، بل وصفَ كتابَه بأنه موعظةٌ منه؛ فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٧﴾ [يونس]، وقال لنبيِّه نوحٍ ﷺ مُحذِّرًا: ﴿إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝٤٦﴾ [هود]، وقال مُحذِّرًا عبادَه من إطلاقِ الألسنةِ في الأعراضِ: ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١٧﴾ [النور]، فكلُّ هذه الآياتِ يُبيِّنُ اللهُ فيها أنَّه يعظُ عبادَهُ، ويدلُّهم على ما فيه صلاحُهم.

---

(١) كتبه: الشيخ مهنَّد بن حسين المعتبي، إمام وخطيب جامع عبدالله بن عباس بجازان.

وأمَّا آيةُ هذا المجلسِ، فإنها عجيبةٌ، فإنَّ اللهَ سبحانه لمَّا ذكرَ في سورةِ النساءِ الأمرَ بأداءِ الأماناتِ إلى أهلِها، والحكمِ بين الناسِ بالعدلِ، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِ﴾ [النساء: ٥٨] -وهذه أوامرُ إلهيَّةٌ لتحقيقِ الأمانةِ والعدلِ- أردف ذلك بقولِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ٥٨﴾ [النساء]؛ فجعلَ- سبحانه- وعظَه لنا نِعمَ الشيءُ هو! وهذه كلمةُ ثناءٍ، وجُملةُ مدحٍ عالٍ، فنعمَ الوعظُ وعظُ الله؛ فبِهِ صلاحُ القلوبِ، وحياةُ الأرواحِ، وانضباطُ الجوارحِ.

وإنما يتحقَّقُ نفعُ الوعظِ إذا عُمل به؛ ففي السورة نفسِها قال تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَشَدَّ تَثۡبِيتٗا ٦٦﴾ [النساء]، إلى آخرِ الثمراتِ!

فلنُحْيِ قلوبنا بمواعظِ ربِّنا، فثَمَّ الفلاحُ!



إنَّ مَنْ أُوتيَ العدلَ ملَكَ نفسَهُ، ومَن ملَكَها نَجا.

وقد ندَب اللهُ ﷻ إلى العدلِ فعلًا وقولًا وخُلُقًا؛ قالَ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ [النحل: ٩٠]، وقال جلَّ وعلا: ﴿وَإِنۡ حَكَمۡتَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ۝٤٢﴾ [المائدة]، والآياتُ في ذلكَ وفي ذمِّ الجَورِ والوعيدِ عليهِ، أشهرُ مِن أنْ تُحصَى؛ قالَ اللهُ تعالى: ﴿أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٨﴾ [هود]، وقالَ سبحانَهُ: ﴿وَأَمَّا ٱلۡقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبٗا ۝١٥﴾ [الجن]، وقال تقدست أسماؤُه: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمۡ لِيَوۡمٖ تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ۝٤٢﴾ [إبراهيم]، وفي هذا تعزيةٌ للمظلومِ، ووعيدٌ للظالم. والناظرُ في الشريعةِ يجِدُ نصوصَها قد حثَّتْ على العدلِ بجميعِ جوانبِهِ:

فهي تأمرُ بالعدلِ مع البعيدِ البغيضِ؛ يقولُ الحقُّ تباركَ وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ۝٨﴾ [المائدة].

---

(١) كتبه: أ.د. ناصر بن سليمان العمر، رئيس مجلس أمناء الهيئة العالمية لتدبر القرآن الكريم، والمشرف العامُّ على مؤسسة ديوان المسلم.

وتأمرُ النبيَّ الكريمَ داودَ ﷺ بالعدلِ؛ يقولُ الحقُّ ﷻ: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص: ٢٦]، بل أمَرَ اللهُ تعالى بهِ خاتمَ الأنبياءِ والرسلِ محمدًا ﷺ: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ [الشورى: ١٥]. وقالَ تعالى في بعثةِ سائرِ الرسلِ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥].

بل إنَّ الشريعةَ الغرَّاءَ تأمرُ بالعدلِ مع الكافرِ: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾﴾ [الممتحنة].

فإذا قامَ العدلُ في البلادِ عُمِّرتْ، وإذا ارتفعَ عنِ الديارِ دُمِّرتْ، وإن الدولَ لَتدومُ معَ الكفرِ ما دامَتْ عادلة، ولا يقومُ مع الظلمِ حقٌّ، ولا يَدومُ به حكمٌ، ولو كانت مسلمةً.

وفي أجواءِ العدلِ يكونُ الناسُ في الحقِّ سواءً، لا تَمايُزَ بينهم ولا تفاضُلَ، وبالعدلِ يشتدُّ أزْرُ الضعيفِ، ويَقوَى رجاؤُه، وبالعدلِ يهونُ أمرُ القوِيِّ وينقطِعُ طمعُهُ.

كتب أحدُ الولاةِ إلى عمرَ بنِ عبدِ العزيز: إن مدينَتَنا قد خرِبَت ونُريدُ ما يعمرُها! فقال: «اعمُرْها بالعدلِ، ونظِّفْ طُرُقَها مِنَ الظلمِ».

فاتقوا الله! ﴿لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾.



هذهِ قاعدةٌ قرآنيةٌ عظيمةٌ، يحتاجُ إليها الإنسانُ في مَقامِ التميزِ بينَ الأقوالِ والأفعالِ، والمقالاتِ والسلوكيّاتِ.

والخبيثُ والطيِّبُ يشملانِ الأمورَ الحسيَّةَ والمعنويةَ من الأقوالِ والأفعالِ، والمعتقداتِ والأخلاقِ، والأموالِ والأماكنِ، والمآكلِ والمشارِبِ؛ فلا يستوي إيمانٌ وكفرٌ، ولا طاعةٌ ومعصيةٌ، ولا جنَّةٌ ونارٌ.

ولا ريبَ أنَّ الغرضَ مِنَ الآيةِ ليسَ مجرَّدَ الإخبارِ بأنَّ الخبيثَ لا يستوي معَ الطيِّبِ، فذلكَ أمرٌ معروفٌ ومستقِرٌّ في الفِطَر، بلِ الغرضُ: الترغيبُ في كلِّ طيِّبٍ، والتنفيرُ مِن كلِّ خبيثٍ؛ قولًا واعتقادًا، عملًا ومكسبًا.

ولمَّا كان في بعضِ النفوسِ ميلٌ إلى بعضِ الأقوالِ أو الأفعالِ أو المكاسبِ الخبيثةِ، وكانَ كثيرٌ منَ الناسِ يؤْثِرُ العاجِلَ على الآجِلِ، والفانيَ على الباقِي- جاءَ التحذيرُ من الخبيثِ بأسلوبٍ عجيبٍ يقطعُ الطريقَ على مَن قد يحتجُّ بكثرةِ الآخذينَ بهِ؛ فقالَ ﷻ: ﴿ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ﴾ [المائدة: ١٠٠]،

---

(١) كتبه: أ. د.عمر بن عبد الله المقبل، أستاذ الحديث بجامعة القصيم، رئيس مجلس إدارة الهيئة العالمية لتدبر القرآن.

وذلكَ أنَّ في بعضِ الخبائثِ والمحرَّماتِ شيئًا من اللذَّةِ الحسيَّةِ أو المعنويَّةِ؛ كالمالِ الكثيرِ المحرَّمِ، أو الوصولِ إلى اللذَّةِ الجسديةِ عن طريقِ الزِّنَى، أو الخمرِ، أو غيرهما من الملذَّاتِ المحرَّمةِ؛ فهذهِ قد تُغرِي الإنسانَ وتعجِبُه.

ولعظيمِ موقعِ هذهِ القاعدةِ وما دلَّتْ عليهِ؛ فقد كثُرَ تأكيدُ القرآنِ إيَّاها في صورٍ شتَّى؛ منها:

١- تأكيدُ ضرورةِ العنايةِ بالمكاسبِ الطيِّبةِ؛ قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ [البقرة: ١٦٨]، وتتأكدُ الوصيةُ بهذا في عصرِنا الذي فُتحتْ فيه على الناسِ ألوانُ المكاسبِ المحرَّمةِ والشبهاتِ.

٢- لا يصِحُّ بحالٍ من الأحوالِ أنْ نجعلَ الكثرةَ مقياسًا لطِيبِ شيءٍ ما، وصحَّتِه وسلامتِهِ منَ المحاذيرِ الشرعيَّةِ؛ وهذا أمرٌ يصدُقُ على الأقوالِ والأفعالِ والمعتقداتِ، بل يجبُ أن نحكمَ على الأشياءِ بمدَى موافقتِها للشَّرعِ المطهَّرِ.

تأمَّلْ مثلًا في قلَّةِ أتباعِ الرسلِ وكثرةِ أعدائِهم: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦].

وختامًا؛ فلْتتيَقَّنْ -أيُّها المؤمنُ- أنَّهُ ما في الخبيثِ مِن لذَّةٍ إلا وفي الطيِّب مثلُها وأحسنُ، مع أمْنٍ مِن سوءِ العاقبةِ في الدنيا والآخرةِ.

وتيقَّنْ أيضًا أنَّ مَنْ طابتْ حياتُه وأقوالُه وأفعالُه ومعتقدُه، طاب منقلبُهُ إلى اللهِ.

اللَّهُمَّ اجعلنا ممَّن تتوفَّاهُمُ الملائكةُ طيِّبين، يا ربَّ العالمين.



* هذا مَثَلٌ ضربَه اللهُ لِلَّذي هداهُ بعدَ الضلالةِ، ومنحَهُ التوفيقَ لليقينِ الذي يُمَيِّزُ بهِ بينَ الحقِّ والباطلِ، والهُدى والضلالِ، بِمَن كان ميْتًا فأحياهُ الله، وجعلَ له نورًا يمشِي بهِ في الناسِ مستضِيئًا به.

ولقد جاءَ التشبيهُ بديعًا؛ إذْ جعلَ العبدَ قبلَ إسلامِهِ، ودخولِ نورِ الإيمانِ في قلبِهِ، كحَالِ مَن كانَ عديمَ الخيرِ، عديمَ الإفادةِ؛ كالميِّتِ، وقد تبيَّنَ بهذا التشبيهِ تفضيلُ أهلِ استقامةِ العقولِ على أضدادِهِم.

والنورُ هو: القرآنُ، وقيلَ: الإسلامُ؛ وكلاهما صحيحٌ[1].

وقولُه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ [الأنعام: ١٢٢] يتضمَّنُ أمورًا:

أحدُها: أنه يمشِي في الناسِ بالنورِ، وهم في الظلْمةِ، فمَثَلُهُ ومثَلُهُم كمَثَلِ قومٍ أظلَمَ عليهِمُ الليلُ، فضلُّوا ولم يهتدُوا للطريقِ، وآخرُ معهُ نورٌ يمشِي بهِ في الطريقِ ويراها، ويرى ما يحذَرُهُ فيها.

---

(١) تفسير ابن كثير: ٣/٣٣٠.

وثانِيها: أنهُ يمشِي بنورِهِ، فهم يقتبِسُون منهُ؛ لحاجتِهم إلى النورِ.

وثالثُها: أنه يمشي بنورِهِ يومَ القيامةِ على الصراطِ، إذا بقِيَ أهلُ الشركِ والنفاقِ في ظلماتِ شركِهِم ونفاقِهِم[1].

وإنَّ الإيمانَ يُنْشِئُ في القلبِ حياةً بعدَ الموتِ، ويُطلقُ فيهِ نورًا بعدَ الظلماتِ، تلكَ الحياةُ التي يستطيعُ بها معرفةَ حقائقِ الأشياءِ وتقديرَها وتصوُّرَها بحسٍّ آخرَ لم يكنْ يعرِفُهُ قبلَ هذهِ الحياةِ.

و ﴿نُورًا﴾ يبدو كلُّ شيءٍ تحتَ أشعَّتِهِ وفي مجالِهِ جديدًا كما لم يبْدُ مِن قبلُ لهذا القلبِ الذي نوَّرَهُ الإيمانُ.

ويجِدُ المؤمنُ تفسيرَ الأحداثِ والتاريخِ في نفسِهِ وعقلِهِ، وفي الواقعِ مِن حولِهِ، كأنَّهُ يقرأُ مِن كتابٍ[2].

«اللَّهُمَّ اجْعَلْ فِي قَلْبِي نُورَا، وَفِي سَمْعِي نُورَا، وَفِي بَصَرِي نُورَا، وَعَنْ يَمِينِي نُورَا، وَعَنْ شِمَالِي نُورَا، وَأَمَامِي نُورَا، وَخَلْفِي نُورَا، وَفَوْقِي نُورَا، وَتَحْتِي نُورَا، وَاجْعَلْ لِي نُورَا»[3].

---

(١) التفسير القيِّم لابن القيِّم: ص ٣٠١.

(٢) في ظلال القرآن: ٣/ ١٢٠١.

(٣) صحيح مسلم: (١٨٢٤).

﴿أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾

لمَّا تجرَّأ قومُ موسى ﷺ على اللهِ جُرْأةً كبيرةً، وأساؤُوا معه الأدبَ، بقولِهم: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةً﴾ [النساء: ١٥٣]، أخذتْهمُ ﴿ٱلرَّجۡفَةُ﴾، فصَعِقوا وهَلكوا، فتضرَّع موسى ﷺ إلى ربِّه بقولِهِ: ﴿أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾ [الأعراف: ١٥٥]؟ والمقصودُ من الاستفهامِ في الآيةِ: الاستعطافُ والتضرُّعُ من موسى ﷺ إلى اللهِ تعالى؛ لأن المتجرِّئينَ على اللهِ ليس لهم عقولٌ كاملةٌ تردعُهم عمَّا قالُوا وفعلُوا؛ فالسَّفاهةُ: «خِفَّةُ العقلِ واضْطرابُه»[(١)].

فخَشِيَ موسى ﷺ أن يشملَ عذابُ اللهِ مَن كانَ معَ القومِ المتجرِّئينَ وإنْ لم يشارِكْهُم في سببِ العذابِ؛ كما قالَ تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗ﴾ [الأنفال: ٢٥]، وما رواهُ البخاريُّ بسندِهِ، عن زينبَ بنتِ جَحْشٍ ﷺ، أنَّ النبيَّ ﷺ دخل عليها فَزِعًا يقولُ: **«لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَيْلٌ لِلْعَرَبْ، مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبْ! فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذَا»، وحلَّق بإصبعِهِ الإِبْهَامِ والتي تليها، فقالتْ زينبُ: فقلتُ: يا رسولَ اللهِ، أَنَهْلِكُ وفينا الصَّالحونَ؟! قال: «نَعَمْ؛ إِذَا كَثُرَ الخَبَثُ»**[(٢)].

---

(١) التحرير والتنوير: ١/ ٧٢٥.

(٢) صحيح البخاري (٣٣٣١).

ومِمَّا يُستفادُ من هذه الآيةِ: أنهُ على المؤمنِ أنْ يَلتزِمَ الأدبَ معَ اللهِ، وألَّا يسلُكَ مسلَكَ العِنادِ.

وعلى الدعاةِ والمصلحينَ أن يَتضرَّعوا إلى اللهِ أن يَصرِفَ عن أقوامِهم عذابَهُ، بعدَ قيامِهم قيامَ عزمٍ وتصميمٍ بواجبِهِمُ الدَّعويِّ نحوَهُم.



هذهِ معاتبةٌ مِنَ اللهِ تعالى لفريقِ المؤمنينَ الذينَ أشارُوا بأخْذِ الفداءِ يومَ بدرٍ؛ إذْ أَسَرُوا المشركينَ، وأبقَوْهُم لأجلِ الفداءِ.

والإرادةُ هنا: بمعنَى المحبَّةِ، و ﴿عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا﴾ [الأنفال: ٦٧] هو المالُ[١]، «وإنما سُمِّيَ عرَضًا؛ لأنهُ لا ثباتَ له ولا دوامَ، فكأنهُ يَعرِضُ ثم يَزولُ»[٢].

فكلُّ عرَضٍ مِن أعراضِ الدنيا ليسَ فيهِ حَظٌّ مِن نفعِ الآخرةِ، فهو غيرُ محبوبٍ للهِ تعالى، وكلُّ عرَضٍ مِنَ الدنيا فيهِ نفعٌ مِنَ الآخرةِ ففيهِ محبَّةٌ مِنَ اللهِ تعالى؛ فلذلكَ عاتبَ اللهُ المؤمنينَ على أخذِهِمُ الفداءَ؛ ليُنبِّهَهُم على أنهُ حقيقٌ عليهِم ألَّا ينسَوْا في سائرِ أحوالِهم وآرائِهم الالتفاتَ إلى إعزازِ دينِه، وقمعِ أعدائِه، ونصرِ أوليائِه، وجعْلِ كلمتِهم عاليةً فوقَ غيرِهم.

إنَّ عرَضَ الحياةِ الدنيا لا يجوزُ أنْ يدخُلَ للمؤمنينَ في حسابٍ إذا خرجوا يجاهدونَ في سبيلِ الله، أو في حالِ خروجِهم للقيامِ بالدعوةِ إلى اللهِ؛ فإنهُ ليسَ الدافعَ إلى الجهادِ في سبيلِ اللهِ، وليس الدافعَ إلى الدعوةِ إلى اللهِ،

---

(١) التحرير والتنوير: ١٠/ ٧٧.

(٢) تفسير الرازي: ١٥/ ٥١١.

ولا الباعث عليهما؛ روى الإمامُ أبو داودَ ﷺ بسندِهِ، عن أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنه، أنَّ رجلًا قال: يا رسولَ اللهِ، رَجُلٌ يُرِيدُ الجِهادَ فِي سَبِيلِ اللهِ ﷻ، وَهُوَ يَبتَغِي عَرَضًا مِنَ الدُّنيَا؟ فقالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لا أَجْرَ لَهُ**»، فَأَعْظَمَ ذَلِكَ النَّاسُ، فَقَالُوا لِلرَّجُلِ: عُدْ إلى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَلَعَلَّكَ لَمْ تُفْهِمْهُ، فَقَالَ الرَّجُلُ: يَا رَسُولَ اللهِ، رَجُلٌ يُرِيدُ الجِهادَ فِي سَبِيلِ اللهِ ﷻ، وَهُوَ يَبتَغِي مِنْ عَرَضِ الدُّنيَا؟ فقالَ ﷺ: «**لا أَجْرَ لَهُ**»، فَأَعْظَمَ ذَلِكَ النَّاسُ، فَقَالُوا لِلرَّجُلِ: عُدْ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فقال له الثَّالِثَةَ: رَجُلٌ يُرِيدُ الجِهادَ فِي سَبِيلِ اللهِ ﷻ، وَهُوَ يَبتَغِي عَرَضَ الدُّنيَا؟ قَالَ ﷺ: «**لا أَجْرَ لَهُ**»[1].

فعلَى المؤمنِ أنْ يُرَبِّيَ نفسَهُ في كلِّ عملٍ على ابتغاءِ مرضاةِ اللهِ، وأنْ يحمِلَها على ذلكَ مهما تحمَّلَ في سبيلِ ذلكَ مِنَ المشاقِّ، فالسلعةُ غاليةٌ!

---

(١) سنن أبي داود (٢٥١٦)، قال الألباني: حسن.



لمَّا كانَ سلفُنا الصالحُ أصحابَ قلوبٍ حيَّهْ، وأفئدةٍ نقيَّهْ، انتفعُوا بالقرآنِ وتدبَّرُوهُ حقَّ تدبُّرِه، فظهرتْ آثارُ ذلك عليهم؛ من وجَلِ القلوبِ، واقْشِعْرارِ الجلودِ، ودمْعِ العيونِ؛ كما قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢]، وقالَ ﷻ عن تأثُّرِهِم بالقرآنِ الكريمِ أيضًا: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣].

وقد تحقَّقَ لهم أيضًا العملُ الصالحُ مع الرسوخِ في علومِ الشريعةِ؛ قالَ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّةَ رحمه الله: «ومَن أصغَى إلى كلامِ اللهِ وكلامِ رسولِهِ ﷺ بعقلِهِ، وتدبَّرهُ بقلبِهِ؛ وجَدَ فيهِ مِنَ الفَهْمِ والحلاوةِ والهُدى وشفاءِ القلوبِ والبركةِ والمنفعةِ، ما لا يجدُهُ في شيءٍ من الكلامِ لا منظومِهِ ولا منثورِهِ»[٢].

ولا ريبَ أنَّ هذهِ الأمورَ إنما تحصُلُ مِن خلالِ طهارةِ قلبِ العبدِ، وخاصَّةً فيما يتعلَّقُ بتعامُلِهِ معَ كتابِ ربِّهِ تعالى، ولقد حازَ سلَفُنا الصالحُ قصَبَ السَّبْقِ

---

(١) كتبه: الشيخ عبد اللطيف بن عبد الله التويجري، رئيس اللجنة العلميَّة في مركز تدبُّر.

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم: ص ٣٨٤.

في هذا المَيدانِ قولًا وعملًا؛ فقد رُويَ عن أميرِ المؤمنينَ عثمانَ بنِ عفَّانَ ﷺ أنه قالَ: «لو طهُرَت قلوبُنا ما شبِعتْ من كلامِ اللهِ»[١].

وهذه قَوْلَةٌ بليغةٌ جامعةٌ منهُ، وقد حقَّقَ ذلك عملًا من خلالِ قراءَتِهِ وتدبُّرِهِ لكتابِ اللهِ تعالى حتى خُرِقَ مصحفُهُ من كثرةِ إدامةِ النظرِ فيه، ورثاهُ شاعرُ الرسولِ ﷺ حسانُ بنُ ثابتٍ ﷺ بقولِه:

ضَحَّوْا بِأَشْمَطَ عُنْوَانُ السُّجُودِ بِهِ ... يُقَطِّعُ اللَّيْلَ تَسْبِيحًا وَقُرْآنَا[٢]

ونعتَتْهُ زوجُهُ فقالت: «فواللهِ! لقد كانَ يُحْيِي القرآنَ في ركعةٍ»[٣].

فينبغِي لتالِي القرآنِ أنْ يُطهِّرَ قلبَهُ منَ الشَّهواتِ والشُّبهاتِ؛ لأنها مانعةٌ حاجبةٌ عن تدبُّرِ كتابِ اللهِ؛ وتطهيرُ القلبِ منها دافعٌ مؤثِّرٌ في فَهمِ القرآنِ وتدبُّرِه؛ قال ابنُ مسعودٍ ﷺ: «إنَّ هذهِ القلوبَ أوعيةٌ، فأَشغِلوها بالقرآنِ، ولا تشغلُوها بغيرِه»[٤].

ولقد قالَ اللهُ تعالى: ﴿لَا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٩]، فإذا كانَ وَرَقُهُ لا يَمَسُّهُ إلا المطهَّرونَ، فمعانِيهِ لا يَهتدِي بها إلا أصحابُ القلوبِ الطاهرةِ[٥].

---

(١) الزهد، للإمام أحمد: ص ١٨٨.

(٢) ديوانه: ص ٢٣٠، ومطلع القصيدة:

مَنْ سَرَّهُ الموتُ صِرْفًا لا مِزَاجَ لهُ ... فلْيأتِ مأسَدةً في دارِ عُثمانا

(٣) البداية والنهاية، لابن كثير: ٧/ ٢١٤.

(٤) حلية الأولياء، لأبي نعيم: ١/ ١٣١.

(٥) شرح حديث النزول، لابن تيميَّة: ص ٤٢٨، والمستدرك على فتاوى ابن تيميَّة: ١/ ١٦٩.

﴿يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا﴾

بعدَ أنْ أمرَ نوحٌ عليه السلام أهلَه والمؤمنينَ بركوبِ السفينةِ؛ لينجُوَ بهم مِنَ العذابِ، ويسيرُوا بها في رعايةِ اللهِ وحفظِهِ، في هذهِ اللحظةِ الرهيبةِ الحاسمةِ ينظُرُ نوحٌ عليه السلام فإذا أحدُ أبنائِهِ في مَعزلٍ عنهم وليسَ معهم! وتستيقِظُ في كِيانِهِ الأبوَّةُ الملهوفةُ، ويروحُ يهتِفُ بالولدِ الشاردِ: ﴿يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا﴾ [هود: ٤٢]، ولكنَّ البُنوَّةَ العاقَّةَ لم تحفِلْ بالأبوَّةِ الملهوفةِ، والفتوةَ المغرورةَ لم تقدِّرْ مدى الهولِ الشاملِ.

والأبوةُ الصالحةُ تحبُّ الذرِّيةَ الصالحةَ، والنَّسلَ الطيِّبَ، وترجو منَ اللهِ أنْ يجعلَ صفوةَ الخلقِ ومشاعلَ الهدايةِ مِن نسلِها؛ لأنها منْقَبةٌ عظيمةٌ، وكرامةٌ جسيمةٌ، لا يُدرَكُ لها نظيرٌ.

وقولُ نوحٍ عليهِ السلام لابنِهِ: ﴿ٱرۡكَب مَّعَنَا﴾ كنايةٌ عن دعوتِهِ إلى الإيمانِ بطريقةِ العرْضِ والتحذيرِ، وقد زادَ ابنُهُ- دلالةً على عدمِ تصديقِهِ بالطوفانِ- قولَه متهكِّمًا: ﴿سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِ﴾ [هود: ٤٣][1]، ظنًّا منهُ أنهُ ماءُ سيلٍ عاديٍّ، يمكنُ النجاةُ منه بالتحصُّنِ في مكانٍ عالٍ، أو جبلٍ شامخٍ، فقالَ الوالدُ الملهوفُ: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ﴾ [هود: ٤٣].

---

(١) التحرير والتنوير: ١٢/ ٧٦.

وهكذا يفرِّقُ الضلالُ بينَ الابنِ وأبيهِ، حتى لَيَأبَى الولدُ وهو بينَ يَدَيْ هذا البلاءِ المحيطِ به، أنْ يستجِيبَ لأبيهِ، وأنْ يستمِعَ له، فيخرُجُ عن أمرِهِ، وهو يدعوهُ إلى ما فيه سلامتُهُ ونجاتُهُ، وهكذا يُوفَّى كلٌّ من الأبِ والابنِ جزاءَ ما كسَبَ، فينجُو الأبُ بإيمانِهِ، ويهلَكُ الابنُ الكافرُ بكفرِهِ.

فالإيمانُ يُنجِي، والكفرُ يُهلِكُ ويُرْدِي، وعقوقُ الوالدينِ كثيرًا ما يُسبِّبُ الهلاكَ في الدنيا.

و ﴿يَـٰبُنَىَّ﴾ تصغيرُ «ابنٍ»، وتصغيرُه هنا تصغيرُ شفَقةٍ، بحيثُ يُجعَلُ كالصغيرِ في كونهِ محلَّ الرحمةِ والشفقةِ[1].

فما أعظمَ الأبوَّةَ الصالحةَ في رحمتِها وشفقتِها، وعلوِّ همَّتِها ومطالبِها!

---

(١) التحرير والتنوير: ١٢/ ٧٦.

﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾[1]

هكذا دعا يوسُفُ ﵇ ودعا الصالحونَ في الأممِ قبلَهُ وبعدَه، كما قالت تلكَ النخبةُ لفرعونَ: ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتۡنَاۚ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ ١٢٦﴾ [الأعراف]، وقد شرَعَ لنا نبيُّنا ﷺ -في جملةِ ما شرعَ مِنَ الدعاء- هذا السؤالَ؛ كما في دعاءِ الجنائزِ المأثورِ: «ومَنْ توفَّيْتَهُ منَّا فتوَفَّهُ علَى الإسْلامِ»، ورُوِيَ في الدعاءِ الطويلِ قولُه: «**اللهُمَّ توفَّنا مسلمِينَ، وأحْيِنَا مسلمِينَ، وألْحِقنا بالصَّالحينَ**»، وهذا قريبٌ من دعاءِ يوسفَ ﵇: ﴿تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ١٠١﴾ [يوسف]، وكانَ ذلكَ منهُ بعدَ أنْ تمَّتْ له النِّعمةُ، وحازَ المُلكَ، واجتمعَ له الإخوةُ مع الأبوينِ. قال بعضُهم: ضاقت به الدنيا ﵇ فلمْ يقُل: توفَّني، أُلقِيَ في الجُبِّ، فلم يقُل: توفَّني، وأُقيمَ للبيعِ في سوقِ مَن يَزيدُ -وهو الكريمُ ابنُ الكِرامِ- فلم يقُل: توفَّني، واتُّهِمَ في عِرْضِهِ ولم يقُل: توفَّني، وحُبِسَ في السجْنِ بِضْعَ سنينَ فلم يقُل: توفَّني، ثم لمَّا تمَّ له المُلْكُ، واستقامَ له الأمرُ، ولَقِيَ الإخوةَ نادِمينَ، والأبوَيْنِ راغبَينِ، وطابتْ له الحياةُ- قال ﵇: ﴿تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا﴾، فعُلِمَ أنَّ حبَّهُ لِلِقاءِ اللهِ كانَ عندَهُ أجَلَّ منَ الدنيا التي تمكَّنَ منها!

---

(١) كتبه: الشيخ إبراهيم بن عبدالله الأزرق، باحث وكاتب إسلامي.

وللهِ حبُّ الأنبياءِ ما أنبلَه! وإيمانُهم ما أعظمَه! ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة:١٦٥].

وقد استنبطَ بعضُ أهلِ العلمِ مِن هذا جوازَ تمنِّي الموتِ لا لِضُرٍّ نزلَ، وقال: مِن أماراتِ صدقِ الحبِّ تـمنِّي ورودِ الموتِ على حالٍ حسنةٍ، لا لضُرٍّ نزل أو بأسٍ أصابَ، بل شوقًا إلى لقاءِ الحبيبِ!

والذي عليه أهلُ التحقيقِ أنَّ ذلك لم يكنْ تمنِّيًا للموتِ، ولا سؤالًا له منجَّزًا، لكنَّهُ سؤالٌ للثباتِ على الإسلامِ، إلى حينِ تمامِ الأجلِ، وانقضاءِ العُمُرِ؛ كما يقولُ الداعي لغيرِهِ: أماتكَ اللهُ على الإسلامِ.

قالَ ابنُ عقيلٍ: «لم يتمَنَّ يوسُفُ الموتَ، وإنما سألَ اللهَ أنْ يموتَ على صفةٍ؛ والمعنى: توفَّنِي إذا توفَّيتَنِي مسلمًا»، قال القرطبيُّ: «وهذا قولُ الجمهورِ».

فاللهُمَّ ثبِّتنا على الدِّينِ، وتوفَّنا مسلمينَ، وألحقنا بالصالحين.

﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ (١)

الشكرُ منزلةٌ عاليةٌ لا يُوفَّقُ لها إلا الخُلَّصُ مِنَ الناسِ؛ كما قالَ اللهُ تعالى: ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴿١٣﴾ ﴾ [سبأ]، وهي عبادةٌ تُثمِرُ السعادةَ والزيادةَ؛ قال سبحانَهُ وتعالى: ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم: ٧]، ولقد دأبَ القرآنُ الكريمُ على تذكيرِ العبادِ بنِعمِ الربِّ تبارك وتعالى ليبلُغوا بتدبُّرِها منزلةَ الشكرِ العاليةِ، حتى سُمِّيتْ سورةُ النحلِ بـ«سورةِ النِّعَمِ» التي قالَ اللهُ فيها: ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [النحل].

ومِن هنا كانت هذهِ الوقفةُ التدبُّريةُ مع هذه الآيةِ: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ [النحل: ٥٣].

فمِن أعظمِ أسبابِ الشكرِ: تذكُّرُ النعمِ الربانيَّةِ، الدينيَّةِ والدنيويَّةِ، الظاهرةِ والباطنةِ، الجليَّةِ والخفيَّةِ؛ عندَ حصولِ منفعةٍ، ودفعِ مضرَّةٍ؛ ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾، فهو الذي خلقكَ جنينًا في رحمِ أمِّكَ وغذَّاكْ، وعدَّلكَ وسوَّاكْ، وأعظمُ مِن ذلكَ أنْ لِلإسلامِ هداكْ، ﴿ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ ﴾ [الحجرات: ١٧]، فالحمد لله ربِّ العالمين.

---

(١) كتبه: د.عبد الله بن منصور الغفيلي، عضو هيئة التدريس بالمعهد العالي للقضاء، عضو الهيئة العالميَّة لتدبُّر القرآن الكريم.

نقولُها في كلِّ حينٍ وآنْ، ونحنُ نتقلَّبُ في نِعَمِ الرحمنْ؛ ولذا أمرَنا اللهُ مرارًا بذكرِها في مثلِ قولِهِ تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾ [المائدة: ٧]، فذِكْرُها مِن شكْرِها، فتذكَّرْ دومًا: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، فهي تحريرٌ للقلبِ مِن عبوديةِ غيرِ اللهِ، ومانعةٌ له من التقرُّبِ للمخلوقين.

وإذا رُمْتَ النعمةَ فاطلُبْها من مُسْدِيها، وتواضعْ لمعطِيها، ولا تكنْ كالمتكبِّرِ الذي قال: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ﴾ [القصص: ٧٨]، بل كنْ متواضعًا، واذكرْ فضلَ ربِّك: ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي﴾ [النمل: ٤٠]، وكذلك مقالةُ العبدِ الصالحِ ذي القرنينِ: ﴿قَالَ هَٰذَا رَحۡمَةٞ مِّن رَّبِّي﴾ [الكهف: ٩٨].

ويظلُّ المؤمنُ يَذكرُ ربَّهُ شاكرًا نعمَهُ، فالذِّكرُ مِغْرافُ القلبِ؛ فمَنْ كانَ قلبُهُ شاكرا، كانَ لسانُهُ ذاكرا؛ وفي ذلك يقولُ اللهُ تعالى: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ۝١٥٢﴾ [البقرة].

فردِّد صباحًا ومساءً: «اللهُمَّ ما أصبحَ بي مِن نعمةٍ أو بأحدٍ من خلقِكَ، فمنك وحدَكَ لا شريكَ لك»، واستعِنْ على شكرِكَ لربِّكَ بذكرِكَ له: «اللهُمَّ أعنِّي على ذكرِكَ وشكرِكَ وحُسْنِ عبادتِك».

﴿شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[1]

قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢]

مِنَ المعلومِ أنَّ جِماعَ أمراضِ القلبِ هي أمراضُ الشبُهاتِ والشهَواتِ.

والقرآنُ الكريمُ شفاءٌ للنوعَينِ، ففيهِ مِنَ البيِّناتِ والبراهينِ القطعيَّةِ ما يُبيِّنُ الحقَّ مِنَ الباطلِ، فتزولُ أمراضُ الشُّبَهِ المُفسِدةِ للعلمِ والتصوُّرِ والإدراكِ، بحيثُ تَرى الأشياءَ على ما هي عليهِ.

وليسَ تحتَ أديمِ السماءِ كتابٌ متضمِّنٌ للبراهينِ والآياتِ على المطالبِ العاليةِ؛ من التوحيدِ، وإثباتِ الصِّفاتِ، وإثباتِ المعادِ والنبوَّاتِ، وردِّ النِّحَلِ الباطلةِ، والآراءِ الفاسدةِ، مثلُ القرآنِ الكريمِ؛ فإنهُ كفيلٌ بذلكَ كلِّهِ، متضمِّنٌ له على أتمِّ الوجوهِ وأحسنِها، وأقربِها إلى العقولِ وأفصحِها.

فالقرآنُ هو الشفاءُ على الحقيقةِ منْ أدواءِ الشُّبَهِ والشكوكِ، ولكنَّ ذلكَ موقوفٌ على فهمِهِ ومعرفةِ المرادِ منهُ؛ فمَنْ رزقَهُ اللهُ تعالى ذلكَ أبصَرَ الحقَّ والباطلَ عِيانًا بقلبِهِ، كما يرى الليلَ والنهارَ، وعلِمَ أنَّ ما عَداه من كتبِ

---

(١) إغاثةُ اللهفان: ١/ ٤٤-٦٤.

الناسِ وآرائِهم ومعقولاتِهم إنما هي علومٌ لا ثقةَ بها، بل هي آراءٌ وتقاليدُ، أو ظنونٌ كاذبةٌ لا تُغني من الحقِّ شيئًا، أو أمورٌ صحيحةٌ لا منفعةَ للقلبِ فيها، أو علومٌ صحيحةٌ قد صعُبَ الطريقُ إلى تحصيلِها، وأطالُوا الكلامَ في إثباتِها، مع قلَّةِ نفعِها؛ فهي: «لَحمُ جَمَلٍ غَثٍّ، عَلَى رَأسِ جَبَلٍ وَعْرٍ؛ لا سَهْلٌ فَيُرتَقَى، ولا سَمِينٌ فَيُنْتَقَلَ».

وأمَّا شفاؤُه لمرضِ الشهَواتِ فذلكَ بما فيهِ من الحكمةِ والموعظةِ الحسنةِ، بالترغيبِ والترهيبِ، والتزهيدِ في الدنيا، والترغيبِ في الآخرةِ، والأمثالِ والقَصَصِ التي فيها أنواعُ العِبَرِ والاستبصارِ، فيَرغَبُ القلبُ السليمُ إذا أبصَرَ ذلكَ فيما ينفعُهُ في معاشِهِ ومعادِهِ، ويَرغَبُ عمَّا يضرُّهُ، فيصيرُ القلبُ محبًّا للرشدِ، مبغضًا للغيِّ.

فالقرآنُ مُزيلٌ للأمراضِ الموجِّهةِ للإراداتِ الفاسدةِ، فيَصلُحُ به القلبُ، فتَصلُحُ إرادتُهُ، ويعودُ إلى فطرتِهِ التي فَطَرهُ اللهُ عليها، فتَصلُحُ أفعالُهُ الاختياريَّةُ الكسْبِيَّةُ، كما يعودُ البدنُ بصحَّتِهِ وصلاحِهِ إلى الحالِ الطبيعيِّ، فيصيرُ لا يَقبَلُ إلا الحقَّ، كما أنَّ الرضيعَ لا يقبلُ إلا اللبنَ.

﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾[١]

أخبرَ اللهُ سُبحانَهُ وتعالَى أَنَّ أولَ ما تكلَّم بِهِ المَسِيحُ عيسى بنُ مريمَ ﷺ أن قال: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۝٣٠ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ [مريم:٣٠-٣١]، «والبركةُ: ثبوتُ الخيرِ الإلهيِّ في الشيءِ»[٢]، والمبارَكُ: الذي تُقَارِنُ البركةُ أحوالَهُ وأعمالَهُ؛ ذلكَ أَنَّ اللهَ تعالى أرسلَ عيسى بنَ مريمَ ﷺ «رحمةً لبني إسرائيلَ؛ لِيُحِلَّ لهم بعضَ الذي حُرِّمَ عليهِم، ولِيدعُوَهم إلى مكارمِ الأخلاقِ بعدَ أنْ قسَتْ قلوبُهم وغيَّرُوا مِن دينِهم، فهذه أعظمُ بركةٍ تُقارِنُه. ومِن بركتِهِ ﷺ أنْ جعلَ اللهُ حلولَهُ في المكانِ سببًا لخيرِ أهلِ تلك البُقعةِ؛ حيثُ زيادةُ المنافعِ وكثرتُها، واهتداءُ أهلِها، وتوفيقُهم إلى الخيرِ؛ ولذلكَ كانَ إذا لقِيَهُ الجهَلَةُ والمفسدونَ انقلَبُوا صالحينَ، وانفتحَت قلوبُهم للإيمانِ والحكمةِ»[٣].

ومن أعمالِهِ ﷺ أنه كان نافعًا لغيرِهِ، معلِّمًا الخيرَ، آمرًا بالمعروفِ، ناهيًا عن المنكرِ، قضَّاءً للحوائجِ، مُرشِدًا للضَّالِّ، ناصِرًا للمظلومِ، مُغِيثًا للملهوفِ، وغيرُ ذلك من الأعمالِ الصالحةِ المرضيةِ للهِ ﷻ.

---

(١) كتبه: د. توفيق بن علي زبادي، باحث في مركز تفسير للدراسات القرآنية.

(٢) مفردات ألفاظ القرآن للراغب: ص ١١٩.

(٣) التحرير والتنوير: ١٦/ ٩٩.

والتعميمُ في قولِه تعالى: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ تعميمٌ للأمكنةِ، فهو حيثما حَلَّ تَحُلُّ معهُ البركةُ، وعبَّرَ تعالى عن هذه الصفاتِ بصيغةِ الماضِي؛ إشارةً إلى تحقُّقِها وحدوثِها فعلًا في المستقبلِ.

فبركاتُ الأنبياءِ وورثتِهِم مِنَ الدُّعاةِ باعتبارِ نفعِهم للخَلقِ بدُعائِهم إلى طاعةِ اللهِ، وبما يُنزِّلُ اللهُ من الرحمةِ على أقوامِهم، ويدفعُ عنهم العذابَ بسببِهم.

والدعاءُ بالبركةِ من سنَّةِ الأنبياءِ عليهم الصلاةُ والسلامُ، فكانَ مِن دعاءِ نوحٍ ﷺ الذي لقَّنَهُ اللهُ ﷻ له وعلَّمَهُ إيَّاهُ: ﴿رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٩]، وقال رسولُ اللهِ ﷺ: **«مَنْ أَطْعَمَهُ اللهُ طَعَامًا فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنا فِيهِ، وَأَطْعِمْنَا خَيْرًا مِنْهُ، وَمَنْ سَقَاهُ اللهُ لَبَنًا فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنا فِيهِ، وَزِدْنَا مِنْهُ»**(١).

فلنقْتَدِ بالأنبياءِ عليهِمُ الصلاةُ والسلامُ في أحوالِهم وأعمالِهم ودعائِهم؛ حتى نكونَ مباركِينَ أينما كنَّا: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام:٩٠].

---

(١) سنن الترمذي (٣٤٥٥)، قال الألباني: حسن.



﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةً﴾[1]

يتقلَّب الإنسانُ في رحلةِ حياتِهِ الدُّنيويَّةِ بين بلاءينِ واختبارينِ؛ مصداقَ قولِ الحقِّ سبحانَهُ: ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥]. ولعلَّ اللهَ قدَّم ذكر الشرِّ في الآيةِ لظهورِ الابتلاءِ به ووضوحِ معناهْ، وأخَّر ذكرَ الخيرِ لخَفاءِ الابتلاءِ به وغُموضِ فحواهْ؛ إذ أوَّلُ ما يتبادَرُ إلى الأذهانِ حينَ يُذكَرُ الابتلاءُ ما ظاهرُه شرٌّ وغُرمْ، على حينِ يَغفُلُ المرءُ غالبًا عن البلاءِ المستترِ في طيَّاتِ ما ظاهرُهُ خيرٌ وغُنمْ؛ ومن هنا أُتِيَ كثيرون!

أمَّا مظاهرُ الابتلاءِ بالشرِّ فكثيرةٌ معروفة، ومن أوَّلِ ما يستحضرُهُ المرءُ منها قولُهُ تعالى: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٥﴾ [البقرة]. فهذه المصائبُ الظاهرةُ تُصيبُ العبدَ امتحانًا لإرادتِهِ وصدقِ يقينِه، فمَن صَبَر على تجرُّعِ مُرِّها راضيًا مُحتسِبًا، كانت سببَ خيرٍ كبيرٍ له في الدنيا والآخرة. ومن هنا قال بعضُ السلفِ: «لو عَلِمنا كم نغرِفُ من الأجرِ بعدَ المِحَنِ لما تمنَّينا سرعةَ الفرَجِ!».

---

(١) كتبه: الأستاذ أيمن بن أحمد ذو الغنى، عضو رابطة الأدب الإسلاميِّ العالميَّة.

وأمَّا الابتلاءُ بالخيرِ فهو عامٌّ في كلِّ خيرٍ؛ من مالٍ وجاهٍ وسلطان، ومن قوَّةٍ وصحَّةٍ وهمَّة، ومن علمٍ وعقلٍ وفهم.. فإنَّ هذه النعمَ إن لم يُقابلْها العبدُ بالشكرِ، والاعترافِ بفضلِ اللهِ المنعمِ، وتسخيرِها في طاعتِهِ ورضوانِهِ، انقلبَت وَبالًا عليه.

فكم من عالمٍ اغترَّ بعلمِهِ فباهى به العلماء، وماری به السُّفهاء!

وكم من داعيةٍ أعجبَتهُ نفسُه؛ لإقبالِ الناسِ عليه، وازدحامِهم بين يديه!

وكم من ثريٍّ أطغاه مالُهُ؛ ففي سخَطِ اللهِ بدَّدَه، وفي المنكراتِ والشهَواتِ بذَّره!

وكم من صاحبِ جاهٍ ضنَّ بجاهِهِ كِبْرًا وغرورًا!

وكم من ذي سلطانٍ أعمَت عينيه قوَّتُهُ فبطَش وظَلَم!

والسعيدُ مَن وفَّقه اللهُ لالتزام الصبرِ في العُسرْ، والشُّكرِ له تعالى في اليُسرْ؛ ليكونَ فيمَن أخبر النبيُّ ﷺ عنهم بقولِه: «**عَجَبًا لأَمرِ المُؤمنِ إنَّ أَمرَهُ كُلَّهُ خَيرٌ، وليسَ ذاكَ لأَحَدٍ إلَّا لِلمُؤمنِ؛ إنْ أَصابَتهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فكانَ خَيرًا لَهُ، وإنْ أَصَابَتهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكانَ خَيرًا لَه**» [صحيح مسلم].

اللَّهُمَّ جمِّلنا بالإيمانْ، وكمِّلنا بالإحسانْ، وأعذنا من شرورِ أنفسنا، يا كريمُ يا رحمانْ.



افتتاحٌ بديعٌ من جوامعِ الكَلِمِ؛ لسورةِ المؤمنونَ التي موضوعُها الإيمانُ بكلِّ قضاياهُ ودلائلِهِ وصفاتِهِ.

والفَلاحُ: الظَّفَرُ بالمطلوبِ، والبقاءُ في الخيرِ.

فأخبرَ تعالى بفلاحِ المؤمنينَ، وإحرازِهم البقاءَ الدائمَ، وأكَّدَهُ بـ ﴿قَدْ﴾ التي تفيدُ التحقيقَ لدخولِها على الماضِي.. والسؤالُ: مَنِ المؤمنونَ الذينَ كتَبَ اللهُ لهم هذهِ الوثيقةَ، ووعدَهمْ هذا الوعْدَ؟

والجوابُ: أنَّ اللهَ سبحانَهُ حكَمَ بحصُولِ الفلاحِ لِمَن استجْمَع صفاتٍ سبْعًا؛ هي:

﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢﴾ والخشوعُ: حضورُ قلبِ المصلِّي، واستحضارُه قُرْبَ اللهِ تعالى، وسكُونُ قلبِه، واطمِئنانُ نفسِه، فتسْكُنُ حركاتُهُ، ويقِلُّ الْتِفاتُهُ.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣﴾ واللَّغْوُ: الكلامُ الذي لا خيرَ فيهِ ولا فائدَةَ.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤﴾ أي: هم مُؤَدُّون لزكاةِ أموالِهم، على اختلافِ أجناسِها، مُزَكُّونَ لأنفسِهم من الأخلاقِ والأعمالِ السيئةِ التي تزكو النفسُ بتركِها.

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ ﴾ عنِ الزِّنَى، وما يدْعو إليه؛ كالنَّظرِ واللمْسِ ونحوِهما.

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ ﴾ أي: هم ضابِطُونَ لها حرِيصُونَ على القيامِ بها، والمراد: جميعُ الأماناتِ؛ من حقوقٍ للهِ وحقوقٍ للعبادِ.

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ أي: يُداوِمُون عليها في أوقاتِها، بشروطِها وأركانِها.

فمدَحَهم تعالى في أوَّلِ الآياتِ بالخشوعِ في الصلاةِ، وفي آخرِها بالمحافظةِ عليها؛ لِأَنَّهُ لا بد منهما معًا؛ فالمُداومةُ عليها منْ غيرِ خشوعٍ، والخشوعُ منْ دونِ محافظةٍ؛ كلاهما مذمومٌ ناقصٌ[1].

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾: الموصُوفُونَ بتلكَ الصفاتِ: ﴿ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ ﴾ [المؤمنون: ١٠، ١١]، والفِردَوسُ: أعلَى الجنَّةِ ووسطُها وأفضلُها؛ أو هو جميعُ الجنَّةِ؛ لِيَدْخُلَ بذلك عمومُ المؤمنينَ على درجاتِهم ومراتبِهم كلٌّ بحسَبِ حالِه، ﴿ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾ ﴾ لا يَظْعنُونَ عنها، ولا يَبْغُون عنها حِوَلًا؛ لاشْتمالِها على أكمَلِ النعيمِ وأفضلِهِ وأتمِّهِ بلا مُكدِّرٍ ولا منغِّصٍ.

إنهُ الوعدُ الصدْقُ، وعدُ اللهِ؛ لا يُخلِفُ وعْدَهُ، وإنهُ الفلاحُ في الدارينِ، يُحِسُّهُ المؤمنُ بقلبِهِ، ويَجِدُ مِصْداقَهُ في واقعِ حياتِه.

فهلْ مِن مُشَمِّرٍ مشتاقٍ لِنَيْلِ هذا الوعدِ الذي لا يُخلَفُ؟!

---

(١) تفسير السعدي: ص ٥٤٧.

﴿ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ ﴾(١)

هذا منزلٌ منْ منازلِ الأتقياءِ الكُمَّلِ، وغايةٌ في مقاماتِ الجلالِ والجمالْ، ونهايةٌ في مراتبِ الورَعِ والكمالْ، غايةٌ عزيزةٌ غاليةٌ، ولكنَّها ممكنةٌ، وقد: «كَمُلَ من الرجال كثيرْ»، وإنما دونَها مجاهداتٌ وطولُ مَسيرْ! ومَن التزمَ جادَّةَ الطريقِ مستهدِيًا باللهِ غيرَ متَّخذٍ سِوَى القرآنِ مِنهاجًا؛ وصلَ إن شاء اللهُ.

إنها إذنْ صفةٌ من صفاتِ أهلِ اللهِ الأولياءِ الأتقياءْ، والصدِّيقينَ النُّجباءْ: ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ ﴾ [الفرقان: ٧٢]، إنها البراءةُ التامَّةُ الكاملةُ من الزورِ، الزورُ بمختلِفِ معانِيه، منْ كلِّ صورِ الباطلِ، وضُروبِ المنكرِ؛ قولًا وفعلًا. لا شهودَ له عندَ هذه الثُّلَّةِ المؤمنةِ، ليسَ بمعنَى أنها لا تقترِفُ شهادةَ الزورِ عندَ استشهادِها فحسْبُ، فهذا أمرٌ طبيعِيٌّ، بل إنها لا تحضُرُ مواطِنَهُ أصلًا، ولا تشهدُ نواديَهُ وتجمُّعاتِه، فالشهادةُ هنا بمعنَى الحضورِ والشهودِ والمعايَنةِ والمخالطةِ؛ كما في قولِه تعالى: ﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾ [البقرة: ١٨٥].

فشهودُ الزورِ هنا: حضورُهُ وملابَسَةُ مجالسِهِ، ومصاحبةُ أهلِهِ وهم متلبِّسونَ به. والزورُ: جامعٌ لكلِّ ضروبِ الباطلِ من شِرْكيَّاتٍ وخرافيَّاتٍ،

---

(١) مجالس القرآن للدكتور فريد الأنصاري: ص ٢٦٤-٢٦٥.

وكذبٍ وبهتانٍ، وفسقٍ وفجورٍ، فكلُّ ذلك يُقاطِعُ عبادُ الرحمنِ مجالسَهُ مقاطعةً تامَّةً، بَلْهَ أنْ يُشاركُوا فيهِ بشهادةٍ أو قولٍ، فشهادةُ الزورِ القضائيةُ من أعظمِ الموبقاتِ، وقد صحَّ قولُ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيها لأصحابِهِ، ممَّا رواهُ الشيخانِ، عن عبدِالرحمنِ بنِ أبي بَكْرَةَ، عن أبيهِ، قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**أَلا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الكَبَائِرِ؟!» قلنا: بلى يا رسولَ اللهِ، قال: «الإِشْرَاكُ بِاللهِ، وَعُقُوقُ الوَالِدَيْنِ»، وكانَ متكئًا فجلسَ، فقالَ: «أَلا وَقَوْلُ الزُّورِ، وَشَهَادَةُ الزُّورِ، أَلا وَقَوْلُ الزُّورِ وَشَهَادَةُ الزُّورِ**».

وهذا المعنَى داخلٌ طبعًا في مقتضَى الآيةِ من بابِ أَوْلى! لكنَّ سياقَ الدلالةِ قاضٍ بعمومِ الأوَّلِ، وهو نفيُ حضورِ الزورِ بإطلاقٍ، وهو الذي رجَّحهُ ابنُ كثيرٍ رحمه الله بدلالةِ ما بعدَهُ مِن قولِهِ تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾﴾ [الفرقان]؛ أي: وإذا اتَّفق مرورُهم بهِ قدَرًا كما يمرُّ عابرُ السبيلِ، كانوا كِرامًا حقًّا على أعلى ما تكونُ منازلُ كرمِ النفسِ والأخلاقِ؛ فلم يتدنَّسُوا منهُ بشيءٍ؛ لا مشاركةً، ولا افْتتانًا، ولا وقوفًا، ولا الْتِفاتًا ولا نظرًا.

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا﴾[1]

إنَّ جوارحَ الأمِّ كلَّها التي ترصُدُها لطفلِها، قد أصبحتْ أدواتٍ معطَّلةً لا تعملُ، فغدا قلبُها -وهو مركزُ العواطفِ والمشاعرِ- كِيانًا فارغًا، لا يستقبِلُ من الطفلِ ما يصِلُهُ بأمِّهِ، مِن مشاعرَ وعواطفَ، غيرَ تلكَ العواطفِ السلبيَّةِ؛ من قلقٍ وأسًى ولَوْعةٍ.

وهذا هو السرُّ في هذا التعبيرِ المعجزِ: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا﴾ [القصص: ١٠]!

- وفي قولِه تعالى: ﴿أُمِّ مُوسَىٰ﴾: إشارةٌ إلى أنَّ هذا الوليدَ -وهو في رعايةِ اللهِ، وفي ضمانِ وعدِهِ بحفظِهِ- قد أصبحَ ذا وجودٍ معترَفٍ به في هذا المحيطِ الذي ضاعتْ فيهِ معالمُ الأطفالِ، وأُهدِرتْ فيهِ دماؤُهم، إنهُ الآنَ شخصيَّةٌ معروفةٌ، وعَلَمٌ ظاهرٌ، يأخذُ مكانَهُ في هذهِ الأحداثِ، تمامًا كما يأخُذُ فرعونُ مكانَه فيها.

- وقولُه تعالى: ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ﴾؛ أي: إنها- وقد فرَغَ قلبُها من هذا المهدِ الذي كانَ لوليدِها في سُوَيْداءِ القلبِ- أوشَكتْ أنْ تصرُخَ وتندُبَ هذا الوليدَ، وتُناديَ في الناسِ: إن هذا الطفلَ الذي وُجِدَ مُلقًى في اليمِّ،

(١) التفسير القرآني للقرآن: ١٠/ ٣١٥-٣١٦.

والذي التقطَهُ آلُ فرعونَ؛ هو وليدُها، وإنها لَتَوَدُّ أن تُلقِيَ عليه ولو نظرةً واحدةً، قبلَ أنْ يصيرَ هذا المصيرَ المجهولَ!

- وقولُه تعالى: ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾؛ أي: أمسَكْنا على قلبِها ما فيهِ مِن نوازعَ تريدُ الانطلاقَ إلى الكشفِ عن وجهِ الوليدِ.

- وقولُه تعالى: ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٠﴾: تعليلٌ لهذا الربطِ الذي ربطَه اللهُ سبحانه على قلبِها، وهو أنها بعدَ أنْ تتكشَّفَ لها الأمورُ، ستعلمُ أنَّ وعدَ اللهِ حقٌّ، وبهذا يتأكَّدُ إيمانُها باللهِ، ويقْوَى يقينُها بهِ، وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ ما يُبتلَى به المؤمنونَ الصابرونَ من مصائبَ ومِحَنٍ إنما هو تثبيتٌ لإيمانِهم، وترسيخٌ لقواعدِ هذا الإيمانِ في قلوبِهم، حيثُ ينكشِفُ لهم وراءَ كلِّ مصيبةٍ، وعقِبَ كلِّ محنةٍ، أنَّ ذلكَ لم يكنْ إلَّا عنْ تدبيرِ الحكيمِ العليمِ، وأنهم لو استقبَلوا مِن أمورِهم ما استدبَروا، لَمَا أقاموها إلَّا على هذا الوجهِ الذي أقامَهُ اللهُ ربُّ العالمين.



إنَّ هذه الآيةَ العظيمةَ مِن سورةِ العنكبوت: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٖ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٦٠﴾ [العنكبوت]، تُذكِّرُنا بحقائقَ كبرَى لَطالَمَا نسِيناها، أو تدلُّ أفعالُنا على أنها تغيبُ عنَّا.

فهذه الآيةُ فيها توضيحُ عدَّةِ أمورٍ؛ منها:

تقديمُ لفظِ الجلالةِ على الفعلِ ﴿ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا﴾، يدلُّ على الحصرِ والاختصاصِ، وأنَّ الرزَّاقَ هو اللهُ تعالى لا غيرُهُ، والرزقَ بيدِ اللهِ سبحانَهُ.

ومع وضوحِ هذهِ الحقيقةِ لدَى المسلمينَ، نجدُ أنَّ حرصَهم على الأرزاقِ، وتَقَاتُلَهُم عليها، وارتكابَهم المحظوراتِ واقترافَهم المحرَّماتِ؛ في سبيلِ الحصولِ على المالِ- يدُلُّ على غيابِ هذه الحقيقةِ عندَ كثيرٍ من الناسِ.

كثيرٌ مِنَ الكائناتِ لا تحمِلُ رزقَها حقيقةً، ولا تحمِلُ همًّا له؛ فلا مخازنَ ولا ثلاجاتِ ولا حافظاتٍ، ومعَ هذا فاللهُ يرزقُها، فهي لا تحمِلُ رزقَها ولا تحمِلُ همَّهُ، واللهُ سبحانه يرزقُها أينما كانت، أمَّا الإنسانُ الذي يعرِفُ أنَّ اللهَ يحملُ رزقَهُ فهو دائمُ الهمِّ في طلبِ الرزقِ!

---

(١) كتبه: د. عبد المحسن بن زبن المطيري، الأستاذ بكلية الشريعة بالكويت، عضو مجلس أمناء الهيئة العالميّة لتدبُّر القرآن الكريم، والأمين العام لرابطة علماء المسلمين.

إذا كان اللهُ تعالى يرزقُ الدوابَّ التي لا تعقِلُ، فكيفَ يخذُلُ عبادَه المؤمنينَ الموحِّدينَ؟! كيف يتركُكَ بلا رزقٍ؟! لذلكَ قالَ سبحانَهُ: ﴿ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡ﴾؛ أي: كما رزقَها يرزُقُكم، وكما أطعَمَها يُطعِمُكُم.

ثم ختمَ اللهُ تعالى هذه الآيةَ الكريمةَ باسْمَيْنِ عظيمَيْنِ من أسمائِه الحسنَى: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾، ولهما أعظمُ الأثرِ على معنَى الرزقِ، فـ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾: يسمعُ دعاءَ طالبِ الرزقِ، ولا يخفَى عليهِ خافيةٌ، ولا تختلطُ عليه الأصواتُ.

و﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾: يعلمُ متى يَستجِيبُ لعبدِه، وما أفضلُ الأوقاتِ لرزقِهِ، وما أفضلُ أنواعِ الرزقِ التي يُعطِيها عبدَهُ؛ فهناكَ رزقُ الإيمانِ، ورزقُ العلمِ، ورزقُ الخُلُقِ، ورزقُ المالِ، ورزقُ الأولادِ، ورزقُ الحبِّ؛ كما قال ﷺ عن خديجةَ ﵂: «**إِنِّي رُزِقْتُ حُبَّهَا**».

أسألُ اللهَ تعالى أنْ يرزقَنَا من فضلِهِ، ويفتَحَ علينا مِن أبوابِ رزقِهِ.

﴿ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ﴾

في قولِهِ تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾ ﴾ [الأحزاب] دعوةٌ لنساءِ النبيِّ ﷺ وبناتِهِ ونساءِ المؤمنينَ عامَّةً؛ أنْ يَحْمِينَ أنفسَهنَّ منْ ألسنةِ السُّوءِ؛ بأنْ يُدنِينَ عليهِنَّ من ثيابِهنَّ، وأنْ يُرسِلْنَها حتى تكسُوَ أجسامَهُنَّ إلى مواقعِ أقدامِهِنَّ.

وهذا هو لباسُ المحتشِمَاتِ، على خلافِ ما كانَ عليهِ لباسُ المتبرِّجاتِ الدَّاعِيَاتِ الرجالَ إلى أنفسِهِنَّ.

وفي قولِهِ تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ هذا الزِّيَّ الساترَ -الذي تَلبَسُهُ نساءُ النبيِّ ﷺ وبناتُه ونساءُ المؤمنينَ- هو مَعْلَمٌ مِن معالِمِ المرأةِ الحرَّةِ العفيفةِ التي لا مَطمَعَ لأحدٍ فيها.

وفي قوله تعالى: ﴿ أَدْنَىٰٓ ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ هذا الزِّيَّ ليسَ وحدَهُ الذي يَقِي الحرائرَ والعفيفاتِ مِن ألسنةِ أهلِ الفجورِ والفسقِ، ولكنَّهُ- على أيِّ حالٍ- وِقاءٌ يُجمِّلُ الحرَّةَ ويُزيِّنُ العفيفةَ، ويُضفِي على طُهرِها طُهرًا، وعلى عِفَّتِها جلالًا وعفَّةً؛

فهو وإنْ لم يكنِ الكمالَ كلَّهُ؛ فهو مِن سِماتِ الكمالِ، وإنْ لم يكنِ العفّةَ كلَّها؛ فهو مظهرٌ من مظاهِرِها[1].

«والمقصودُ بالآيةِ التي نزلتْ بعدَ استقرارِ الشريعةِ: أنْ يكونَ السترُ المأمورُ به زائدًا على ما يجبُ مِن سترِ العورةِ؛ وهو أدبٌ حسَنٌ يُبعِدُ المرأةَ عنْ مظانِّ التُّهَمةِ والرِّيبَةِ، ويَحمِيها مِن أذَى الفُسَّاقِ.

واللِّباسُ الشرعِيُّ: هو الذي يسترُ جميعَ الجسدِ، ولا يشِفُّ ما تحتَهُ ولا يصفُهُ.

فإنْ كانتِ المرأةُ في بيتِها وأمامَ زوجِها فلها أنْ تلبَسَ ما تشاءُ.

﴿ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾؛ أي: إنَّ إدناءَ الجلابيبِ والتستُّرَ أقربُ إلى أنْ يُعرفْنَ أنهنَّ حرائرُ، لسْنَ بإماءٍ ولا عَواهِرَ، فلا يَتعرَّضَ لهنَّ بالأذَى أهلُ الفسقِ والرِّيبةِ.

﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾ لما سلفَ منهنَّ مِن إهمالِ التَّستُّرِ، ولمنِ امتثلَ أمرَهُ بعدَ أن أخلَّ بالتستُّرِ خطأً بغيرِ قصدٍ، ﴿ رَّحِيمٗا ﴾ واسعَ الرحمةِ بعبادِهِ؛ إذ راعَى مصالِحَهُم وأرشَدَهم إلى هذا الأدبِ الحسَنِ»[2].

---

(١) التفسير القرآني للقرآن: ١١/ ٧٥١ - ٧٥٣.

(٢) التفسير المنير للزحيلي: ٢٢/ ١٠٨.

﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِ﴾

جاءتْ هذه الآيةُ في سياقِ الحديثِ عن القريةِ التي أرسلَ اللهُ تعالى لها المرسلينَ؛ اعتناءً مِنه بهمْ، وإقامةً للحُجَّةِ عليهمْ بتوالِي الرسُلِ إليهمْ؛ يأمرونَهُم بعبادةِ اللهِ وحدَهُ، وإخلاصِ الدينِ له، وينهونَهُم عن الشركِ والمعاصِي، فما كانَ منهم إلَّا أنْ كذَّبوا الرسلَ، واستهزؤُوا بهم!

و(الحسرةُ): شدَّةُ الندمِ مَشوبًا بتلهُّفٍ على نفعٍ فائتٍ، و(العبادُ): اسمٌ للبشَرِ، وهو جمعُ عبدٍ، وجميعُ الناسِ عبيدٌ لله تعالى؛ لأنهُ خالِقُهم والمتصرِّفُ فيهم[1]، والمرادُ بالعبادِ هنا: مكذِّبو الرسلِ. والمعنَى: يا حسرةً على العبادِ تعالَي واحضُرِي؛ فإنَّ الاستهزاءَ بالرسُلِ مِن أعظمِ الموجباتِ لحضورِكِ[2].

وهذا التفجُّعُ على مكذِّبِي الرُّسُلِ «استعارةٌ في معنَى التهويلِ والتعظيمِ؛ لِمَا فعلُوا مِن استهزائِهم بالرسُلِ»[3]، فإنَّ المستهزئِينَ بالنَّاصحِينَ الذينَ كانت بنصائِحِهم سعادةُ الدَّارينِ، يستحِقُّونَ أنْ يتحسَّروا على أنفسِهم،

(١) التحرير والتنوير: ٢٣/ ٨.

(٢) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: ٦/ ٢٩٥.

(٣) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جُزَي: ٢/ ١٨١.

ويَتَحَسَّرَ عليهم المُتحَسِّرونَ[1]، فهي حالٌ بائسةٌ مؤسفةٌ تنتهي بأصحابِها إلى شرٍّ وخيمٍ، وبلاءٍ عظيمٍ!

يا حسرةً على العبادِ؛ تُتاحُ لهم فرصةُ النجاةِ فيُعرِضُونَ عنها، وأمامَهم مصارِعُ الهالكينَ قبلَهُم لا يتدبَّرونَها، ولا يَنتفِعُون بها، ويَفتَحُ اللهُ لهم أبوابَ رحمتِهِ بإرسالِ الرسلِ إليهم حينًا بعدَ حينٍ؛ ولكنَّهم يتجافَونَ أبوابَ الرحمةِ، ويُسيئون الأدبَ مع اللهِ[2].

فما أعظمَ مقامَ الرُّسُلِ الكرامِ، ووَرَثَتِهِم من الدعاةِ الناصحين! الذينَ يدْعونَ مَن ضَلَّ إلى الهدَى، ويَصبِرونَ منهم على الأذَى، ويُبَصِّرونَ بنورِ اللهِ أهلَ العمَى. فكم من قتيلٍ لإبليسَ قد أحيَوهْ، وكم من ضالٍّ تائِهٍ قد هدَوهْ! فما أحسنَ أثرَهُم على الناسِ، وما أقبحَ أثرَ الناسِ فيهم!

وما أقبحَ شقاءَ المستهزئينَ بالرسلِ الكرامِ، ووَرَثَتِهم من الدعاةِ الناصحينَ في كلِّ عصرٍ وحينٍ! وما أطولَ عناءَهم، وأشدَّ جهلَهم! حيثُ كانوا بهذه الصفةِ القبيحةِ، التي هي سببٌ لكلِّ شقاءٍ وعذابٍ ونَكالٍ.

---

(١) تفسير أبي السعود: ٧/ ١٦٥.

(٢) في ظلال القرآن: ٥/ ٢٩٦٧.

﴿ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم ﴾[١]

إنَّ الإنسانَ مجبولٌ على السعيِ نحوَ التفوُّقِ، والبحثِ عن الأفضلِ، فتجِدُ التاجِرَ يسعَى لتنميةِ تجارتِهِ، والموظَّفَ يسعَى للترقِّي، والطالِبَ يسعَى للتفوُّقِ، وهو ما أكَّدَهُ القرآنُ الكريمُ في قولِه تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ ﴾ [الملك: ٢]، فقد جعلَ سِرَّ خلْقِ الموتِ والحياةِ، وسببَ التفاضُلِ بينَ الناسِ: حُسْنَ العملِ.

ولذلك أمَرَنا اللهُ سبحانه وتعالى أنْ نتَّبِعَ أحسَنَ ما أُنزِلَ إلينا مِن ربِّنا؛ فقال: ﴿ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم ﴾ [الزمر: ٥٥]، قال السَّعْدِيُّ: «ممَّا أمرَكُم بهِ مِنَ الأعمالِ الباطنةِ... ومن الأعمالِ الظاهرة... وأنواعِ الإحسانِ؛ ممَّا أمرَ اللهُ به؛ وهو أحسنُ ما أُنزِلَ إلينا مِن ربِّنا»[٢]. ويقولُ الآجُرِّيُّ: «صفةُ قومٍ إذا سمِعُوا القرآنَ تتبعوا من القرآنِ أحسنَ ما يتقرَّبُونَ بهِ إلى اللهِ ﷻ ممَّا دلَّهم عليه مولاهُمُ الكريمُ؛ يَطلُبونَ بذلك رضاهُ، ويَرْجُونَ رحمتَهُ»[٣].

---

(١) كتبه: د. محمد بن مصطفى السيد، عضو الهيئة العالميَّة لتدبُّر القرآن.

(٢) تفسير السَّعدي: ص ٨٥٩.

(٣) أخلاق حملة القرآن: ص: ٨.

ويقولُ الشّنقيطِيُّ: «أي: يُقدِّمونَ الأحسنَ الذي هو أشدُّ حُسنًا، على الأحسنِ الذي هو دونَهُ في الحُسْنِ، ويقدِّمونَ الأحسنَ مطلقًا على الحَسَنِ»[1].

وأعمالُ الخيرِ متفاوتةٌ بحسَبِ الزمانِ والمكانِ والحالِ، لكنَّ الآيةَ نظَّمتْ أوْلوِيَّاتِ عملِ الخيرِ، ودعَتنا إلى الارتقاءِ في البحثِ عن الأفضلِ، وعدمِ الاكتفاءِ بعملِ الخيرِ أيًّا كان، وكلَّما سعَى المرءُ نحوَ الأفضلِ؛ كان عملُه أكثرَ إتقانًا وأجرًا، ولابدَّ من المبادرةِ في ذلك: ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ بَغۡتَةٗ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾ [الزمر: ٥٥]، حتى ننالَ البُشْرَى: ﴿فَبَشِّرۡ عِبَادِ ١٧ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [الزمر: ١٧ - ١٨].

والتعبيرُ بقولِهِ تعالى: ﴿يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓ﴾، يدلُّ على تجدُّدِ الاستماعِ، وتجدُّدِ الاتِّباعِ؛ قال ابنُ تيميَّةَ رحمَه الله: «والمحْمُودُونَ الذين أثنَى اللهُ عليهم هم المتَّبِعُونَ لذلك استماعًا وتدبُّرًا وإيمانًا وعملًا»[2].

فاللّٰهُمَّ اجعلنا منهم.

---

(١) أضواء البيان: ٧/٤٨.

(٢) الاستقامة: ١/٢٧٧.

﴿وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ﴾[1]

هذا أمرٌ عظيمٌ موجَّهٌ للنبيِّ ﷺ ولأتباعِهِ مِن بعدِهِ؛ بالاستقامةِ كما أمرَ اللهُ تعالى.

فما الاستقامةُ؟ وما دَلالةُ تقييدِها بقولِه: ﴿كَمَآ أُمِرۡتَ﴾؟

وهذا السؤالُ مفتاحٌ مهمٌّ لفهمِ الآيةِ وتدبُّرِها.

والنظرُ في سياقِ الآيةِ، وتأمُّلُ ما قبلَها وما بعدَها، ومعرفةُ ما سِيقَت لأجلِهِ- يُعِينُ على فَهمِ المرادِ منها، ويَفتحُ آفاقًا لتدبُّرِها.

فقد وردَ هذا التوجيهُ الكريمِ: ﴿وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ﴾ ضمنَ جملٍ عشرٍ، اشتمل عليها قولُه تعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ١٥﴾ [الشورى]؛ وهي آيةٌ عظيمةٌ مباركةٌ، «لا نظيرَ لها سِوى آيةِ الكُرسِيِّ»؛ كما قالَ ابنُ كثيرٍ.

---

(١) كتبه: د. محمد بن عبد الله القحطاني، الأستاذ المشارك في جامعة الملك خالد بأبها.

وبتأمُّلِ سياقِ الآيةِ؛ تتبيَّنُ الحقائقُ الآتية:

- أهميَّةُ الاستقامةِ؛ حيثُ تكرَّرَ الأمرُ بها في القرآنِ، وأُمِرَ بها الرسولُ ﷺ والمؤمنونَ، وكلُّ أمْرٍ خُوطِبَ به العظماءُ فهو عظيمٌ.

- الاستقامةُ كلمةٌ جامعةٌ؛ تعنِي: تحقيقَ العبوديةِ لله تعالى؛ بفعلِ الأوامرِ واجتنابِ النواهِي، وتشملُ استقامةَ القلبِ والجوارحِ، وتقتضِي المداومةَ على ذلك حتى المماتِ.

- شرطُ صحَّةِ الاستقامةِ الإخلاصُ للهِ تعالى، وموافقةُ شرعِهِ؛ فلا يطلبُ العبدُ مرضاةَ أحدٍ سِوَى اللهِ، ولا يخرجُ عمَّا شرعَهُ اللهُ؛ فهي مهمَّةٌ شاقَّةٌ، تحتاجُ إلى علمٍ قبلَها، ويقظةٍ في أثنائِها، وصبرٍ ومداومةٍ عليها؛ فليسَ الشأنُ في امتثالِ الأمرِ: ﴿وَٱسۡتَقِمۡ﴾، ولكنَّ الشأنَ كلَّ الشأنِ في التقيُّدِ بـ﴿كَمَآ أُمِرۡتَ﴾!

- أكثرُ الناسِ حاجةً للاستقامةِ: الدعاةُ إلى اللهِ، وكلُّ مسلمٍ صادقٍ هو داعيةٌ إلى اللهِ حسَبَ قدرتِهِ؛ فقد جاءَ الأمرُ بالاستقامةِ بعدَ الأمرِ بالدعوةِ إلى التوحيدِ، واستقامةُ الدعاةِ: قيامُهم بما يَدْعُون إليهِ، واستمرارُهم عليه بلا فتورٍ.

وفي الأمرِ بالاستقامةِ بعدَ الأمرِ بالدعوةِ، إشارةٌ إلى أنَّ كمالَ الدعوةِ إلى الحقِّ لا يحصُلُ إلا إذا كانَ الداعِي مستقيمًا في نفسِه.

- أخطرُ شيءٍ يصرِفُ العبدَ عن الاستقامةِ، ويَحولُ بينَها وبينَه: اتِّباعُ أهواءِ المبطِلِينَ؛ فمَنِ اتَّبعَ أهواءَهم هَوَى وخَرَّ من رفعةِ الاستقامةِ إلى سحيقِ الضلالةِ.

فاللهُمَّ وفِّقْنا للاستقامةِ على دينِكَ كما أمرتَنا، وثبِّتْنا عليها حتى نلقاكَ راضيًا عنَّا.



﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾[1]

إنَّ شأنَ المؤمنِ إذا ضاقت بهِ الحِيَلُ، وانقطعَتْ بهِ السُّبُلُ، أنْ يلجأَ إلى ربِّهِ فيدعُوَه، وهذا نبيُّ اللهِ نوحٌ عليهِ السلام، قضَى عمرَهُ في دعوةِ قومِهِ: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت: ١٤]، دعاهُمْ بكلِّ السبُلِ ليلًا ونهارًا، سِرًّا وجِهارًا، فلما تقدَّم بهِ العُمرُ، وأعْيَتهُ الحِيَلُ، دعا ربَّهُ؛ ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ﴿١٠﴾﴾ [القمر].

وفي ذكرِ الربوبيَّةِ هنا ﴿رَبَّهُۥٓ﴾ ما يشيرُ إلى معانِي الحفظِ والرعايةِ والحمايةِ، فهو يدعُو ربَّهُ الذي حفِظَهُ ورعاهُ وسدَّدهُ، ربَّهُ الذي يحفَظُ جميعَ الخلقِ ويُدبِّرُ أمورَهم، فكانَ نصُّ دعائِهِ: ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾؛ أشارَ إلى نفسِهِ بقولِهِ: ﴿أَنِّي﴾، ووصفَهَا بما يدُلُّ على ضعفِهَا أمامَ قوَّةِ اللهِ وقهرِهِ، فقالَ: ﴿مَغْلُوبٌ﴾؛ أي: وقعتْ عليَّ الغَلَبَةُ من قومِي الذين أفْنيتُ عمرِي في دعوتِهم، وهو ما تُبيِّنُهُ الآيةُ السابقةُ لهذهِ الآيةِ: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾﴾ [القمر]، وجعلَ الغلبةَ واقعةً عليهِ: ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ﴾، لا على دعوتِهِ، فلم يقلْ: غُلِبَتْ دعوتِي، أو غُلِبَ دينِي!

---

(١) كتبه: أ. د. عُويِّض بن حمود العَطَوي، أستاذ البلاغة بجامعة تبوك.

وقولُه هذا وصفٌ لضعفِهِ، وقد جعلَهُ وسيلةً لطلبِ نصرِ اللهِ سبحانَهُ، كما قال زكريًّا عليهِ السلام: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ ﴾ [مريم].

ثم رتَّبَ على بيانِ ضعفِهِ طلبَ النصرِ؛ فقال: ﴿ فَٱنتَصِرْ ﴾، وهنا لم يذكُرْ نفسَهُ، فلم يقُلْ: فانصُرْني، بل قالَ: ﴿ فَٱنتَصِرْ ﴾، فالمهمُّ هو انتصارُ الدعوةِ، ففي الضعفِ أظهرَ نفسَهُ، وفي النصرِ تناسَاهَا.

وقولُه: ﴿ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴾، كلماتٌ موجَزةٌ عظيمةُ الدَّلالةِ، اختصَرتِ العمرَ الطويلَ في سبيلِ الدعوةِ إلى اللهِ.

وكان الدعاءُ موجَزًا، وجاءَ النصرُ مفصَّلًا: ﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ ﴾ [القمر].

يا لها مِن آياتٍ تُبيِّنُ قدْرَ ضعفِ المخلوقِ أمامَ عظمةِ الخالقِ سبحانَه!

﴿أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾

جاءتْ هذهِ الآيةُ في سياقِ الحديثِ عن يومِ الحُدَيْبِيَةِ، حينَ اضطربَتْ قلوبُ المؤمنينَ مِن قهر الكفَّارِ لهم، ودخولِهم تحتَ شروطِهِمُ التي لا تحمِلُها النفوسُ، فبيَّنتِ الآيةُ عنايةَ اللهِ تعالى بالمؤمنينَ بإصلاحِ نفوسِهم، وإذهابِ خواطرِ الشيطانِ عنهم، وإلهامِهم الحقَّ في ثباتِ عزْمِهم، وقرارةِ إيمانِهم.

و﴿ٱلسَّكِينَةَ﴾: الطُّمأنينةُ والثباتُ[1]؛ أي: أنزلَ اللهُ سبحانَهُ في قلوبِهم السكونَ والطُّمَأنينةَ بسببِ الصُّلحِ والأمنِ؛ ليعرِفُوا فضلَ اللهِ تعالى عليهم بتيسيرِ الأمنِ بعدَ الخوفِ، والهُدنةِ بعدَ القتالِ؛ فيزدادوا يقينًا إلى يقينِهم[2].

قال ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما: لما آمَنُوا بالتوحيدِ زادَهُم العباداتِ شيئًا شيئًا، فكانوا يَزْدادُونَ إيمانًا إلى إيمانِهم، حتَّى قالَ لهم: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣]، فمنَحَهم أكملَ إيمانِ أهلِ السماواتِ والأرضِ[3].

---

(١) تفسير المراغي: ٢٦/ ٨٤.

(٢) تفسير الزمخشري: ٤/ ٣٣٤.

(٣) المحرر الوجيز: ٥/ ١٢٧.

فكانَ في ذلك الحادثِ خيرٌ عظيمٌ لهم، كما كان فيه خيرٌ للنبيِّ ﷺ بأنْ كانَ سببًا لتشريفِهِ بالمغفرةِ العامَّةِ، ولإتمامِ النعمةِ عليه، ولهدايتِهِ صراطًا مستقيمًا، ولنصرِهِ نصرًا عزيزًا.

والسَّكينةُ حينَ يُنزِّلُها اللهُ في قلبٍ، تكونُ طُمَأنينةً وراحةً، ويقينًا وثقةً، ووقارًا وثباتًا، واستسلامًا ورِضًا.

يقولُ ابنُ القيِّمِ رحمه الله: «كان شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّةَ رحمه الله إذا اشتدَّتْ عليهِ الأمورُ: قرأَ آياتِ السكينةِ[1]، وسمعتُه يقولُ في واقعةٍ عظيمةٍ جرَتْ له في مرضِهِ، تَعجِزُ العقولُ عن حملِها- من محاربةِ أرواحٍ شيطانيَّةٍ، ظهرتْ له إذ ذاك في حالِ ضعفِ القوَّةِ- قال: فلما اشتدَّ عليَّ الأمرُ، قلتُ لأقاربي ومَنْ حولي: اقرؤُوا آياتِ السَّكِينةِ، قالَ: ثم أقلعَ عنِّي ذلك الحالُ، وجلستُ وما بي قَلَبَةٌ»[2].

فلْنقرأْ آياتِ السَّكينةِ بتدبُّرٍ؛ حتى يطمئنَّ القلبُ، ويرتاحَ البالُ، وتذهبَ عنَّا شدائدُ الأمورِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى أخبرَ عن إنزالِها على رسولِهِ ﷺ وعلى المؤمنينَ في مواضعِ القلقِ والاضطرابِ.

---

(١) سورة التوبة (الآيات: ٢٦، ٤٠)، وسورة الفتح (الآيات: ٤، ١٨، ٢٦).

(٢) قَلَبَة: ألَمٌ وعِلَّة. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر: ٤/ ٩٨.



إنَّ الحديثَ هاهنا سيتناول هَدْيَ قولِ اللهِ تعالى: ﴿لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [المجادلة:١٠].

فأنتَ إذا تأمَّلتَ هذهِ الآيةَ وجَدتَّ أنَّ مِن أعظمِ مقاصدِ الشيطانِ: إدخالَ الحزَنِ على المؤمنِ، وأدركتَ أن مِن أعظمِ مقاصدِ الشريعةِ: إسعادَ المؤمنِ، وطَرْدَ الحزَنِ عنه.

قال اللهُ ﷻ: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ الشيطانَ لا يَقِفُ عن محاولةِ تكديرِ صفوِ المؤمنِ، وإزعاجِهِ في كلِّ حالٍ؛ فتراهُ يُذكِّرُهُ بما يسوءُهُ، ويُمَنِّيهِ بالأمانيِّ الباطلةِ التي تجلِبُ له الشقاءَ، وتراهُ أيضًا يجلِبُ عليه الذكرياتِ الأليمةَ والاحتمالاتِ السيِّئةَ، والخيالاتِ المثبِّطةَ عنِ العملِ.

---

(١) كتبه: د. محمد بن إبراهيم الحمد، عضو هيئة التدريس بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة القصيم، والمشرف العامُّ على موقع دعوة الإسلام.

فإذا استجابَ الإنسانُ لذلك؛ فصارَ يستدعِي تلك الخواطرَ، ويجترُّ تلكَ المآسيَ، ويسترسِلُ مع الاحتمالاتِ الرديئةِ، والظنونِ السيِّئةِ- عاشَ في ألمٍ وضِيقٍ، وصارَ يأكلُ بعضُه بعضًا، ويعذِّبُ نَفْسَه بنفسِه.

أمَّا إذا قطَعَ تلك الوارداتِ، ودرَأَها عن نفسِه ما استطاعَ، واشتغَلَ بما يَعْنِيهِ، ونظَرَ إلى الجوانبِ المشرقةِ في الحياةِ، وفي سيرتِهِ، واستعاذَ منَ الشيطانِ ووساوسِهِ- كَبُرَتْ نَفْسُه، وعَلَتْ هِمَّتُه، وكثُرَ نشاطُه، وزادَ إقبالُه، وانشرحَ صدرُه، وعظُمَ إنتاجُه.

وهذا ممَّا يفسِّرُ لنا سرَّ النجاحِ عندَ بعضِ الناسِ، وسرَّ الإخفاقِ عندَ آخرينَ؛ فالنجاحُ يَكْمُنُ في كونِ الناجحينَ يتوكَّلونَ على اللهِ، ويستحضرونَ أنَّ كيدَ الشيطانِ ضعيفٌ، وأنهُ ليس بضارِّهم شيئًا إلا بإذنِ اللهِ.

والإخفاقُ يكمُنُ في كونِ المخفقينَ يسْتَرسِلونَ معَ الأوهامِ، ويَدَعُونَ كيدَ الشيطانِ يستحوذُ على أفكارِهم، ويأخُذُ بمجامِعِ قلوبِهم، فيُقعِدُهم عن العملِ، ويُفْضِي بهم إلى البَطالةِ والكسلِ.

فالآيةُ الكريمةُ تُشيرُ إلى أنهُ ينبغِي للمؤمنِ أنْ يكونَ مشرقَ النفسِ، مبتهجًا بالحياةِ، مطمئنَّ الخاطرِ، بعيدًا عن كلِّ ما يكدِّرُ عليه صفوَهُ؛ فذلكَ ممَّا يبعثُهُ إلى قوَّةِ الإقبالِ على اللهِ، والحرصِ على ما ينفعُهُ في أمورِ دينِهِ ودنياهُ؛ ذلكَ أنَّ المبتهجَ بالحياةِ يزيدُهُ ابتهاجُهُ قوَّةً إلى قوَّتِه، فيكونُ أقدرَ على الجِدِّ، وحسْنِ الإنتاجِ.



هذا ما أخبرَ اللهُ تعالى بهِ عن مقالةِ نفرٍ مِنَ الجنِّ حينَ استمعُوا إلى قراءةِ النبيِّ ﷺ، وما وجدُوهُ في أنفسِهِم مِنَ الدهشةِ والانبهارِ والاستعظامِ، وهم يسمعُونَ كلامًا غيرَ مألوفٍ لهم، ولا يجرِي على ما سمِعُوه من كلامِ الخلقِ، لقد وجدوا كلامًا لا يُشبِهُ كلامَ الناسِ في لفظِهِ ومعناهُ، وهمْ بذلكَ يُعبِّرونَ عن صوتِ الفِطرةِ التي انتفضَتْ فيهم، وقد أشرَقَ عليها نورُ القرآنِ العظيمِ.

يصِفُونَ دهشةَ أسماعِهِم وقلوبِهم وعقولِهم حينَ غمرتْهُم أعاجِيبُ القرآنِ في اللفظِ والمعنَى، وقد جاءَ هذا الوصفُ في سياقِ الثناءِ على النفَرِ المؤمنينَ الذينَ استقْبلُوا القرآنَ بهذهِ الرُّوحِ المنصِفَةِ السويَّة اليَقِظَةِ الحيَّةِ التي استشعَرتْ عظمةَ كتابِ اللهِ تعالى.

اختصرَ الجنُّ تلكَ المعانيَ العظيمةَ في كلمةٍ واحدةٍ: ﴿عَجَبًا﴾، اختصرُوها في إثارتِهِ للدهشةِ في كلِّ لفظةٍ وجملةٍ ومعنًى، إنَّهُ وصفٌ دقيقٌ لِمَا يشعُرُ به كلُّ مؤمنٍ وهو يتلقَّى القرآنَ دونَ حُجُبٍ أو أستارٍ، سيجِدُ نفسَ المشاعِرِ في روحِهِ، ولذَّةَ الدهشةِ في أعماقِهِ، يجدُها في سمعِهِ وفي قلبِه.

---

(١) كتبه: د. عبدالله بن بلقاسم بن عبدالله.

سيجدُ الدهشةَ في قَصَصِهِ وأحكامِهِ وأخبارِهِ، سيجدُها حين تَبهَرُهُ عِظاتُ القرآنِ وتشريعاتُهُ، ووعدُهُ ووعيدُهُ، وبيِّناتُهُ وحُجَجُهُ، سيجدُ دهشةَ القرآنِ حينَ يكونُ معهُ في فرحِهِ وحزَنِهِ، ومرضِهِ وصحَّتِهِ، وقوَّتِهِ وضعفِهِ. سيجدُ العجبَ في شفاءِ القرآنِ لأَدْواءِ قلبِهِ، وضِيقِ صدرِهِ، سيَبهَرُهُ القرآنُ حينَ يقرَؤُهُ في الشدائدِ والمخاوفِ والآلامِ. سيَبهَرُهُ حينَ تُشرِقُ أنوارُ هداياتِهِ في ظلماتِ الطريقِ، وتَستَبِينُ بآياتِهِ الدُّروبُ في حالِكاتِ الظلامِ، سيجدُ شيئًا مختلِفًا من آثارِهِ، شيئًا لا يُشْبِهُ الأشياءَ، سيجدُ مواساةً لا تُشبِهُ مواساةَ مُحبِّيهِ، ونصحًا لا يُماثِلُ نصيحةَ مُقرَّبيهِ، وعزاءً لم يسمَعْ مثلَهُ مِن أشفَقِهِم علَيهِ.

ستتكرَّرُ دهشتُهُ معَ كلِّ لفظٍ يفهمُهُ، ومعنًى يتدبَّرُهُ، سيتعاظَمُ انبهارُه وهو يرى نفوذَ الوحْيِ في أعماقِ رُوحِهِ، وتأثيرَهُ العظيمَ في فطرتِهِ.

إنها دهشةٌ متجدِّدةٌ، وانبهارٌ لا ينطفِئُ، وشعورٌ بالتعظيمِ لا يتوقَّفُ. سيبقى مع كثرةِ التَّرْدَادِ عجبًا، ومع عُمقِ التأمُّلِ مُبهِرًا، ومع مُداومَةِ التدبُّر مدهشًا.



أخبرَ اللهُ سبحانه وتعالى عن حالِ الأبرارِ، الذينَ آمَنوا بقلوبِهم، وعمِلُوا الصالحاتِ بأبدانِهم بأنهم خيرُ البريَّةِ.

والبَرِيَّةُ: جميعُ الخَلقِ؛ لأن اللهَ تعالى بَرَأَهُمْ، وأَوجَدَهم بعدَ العَدَمِ[١].

وهؤلاءِ الأبرارُ استحقُّوا هذهِ الخيريَّةَ؛ للأسبابِ الآتيةِ:

- أنهم عبدُوا اللهَ وعرفُوه.

- أنهم صدَّقُوا بما جاءَ به النبيُّ ﷺ.

- أنهم عمِلُوا صالحَ الأعمالِ، فبذلُوا النفسَ في سبيلِ اللهِ وجهادِ أعدائِه، وبذلُوا نفيسَ المالِ في أعمالِ البِرِّ، وأحسنُوا معاملةَ خلقِه.

فكلُّ عبدٍ مؤمنٍ صالحٍ: هو من خيرِ البريَّةِ.

وهذهِ الخيريةُ التي استحقُّوها حكْمٌ منَ اللهِ قاطعٌ لا جدالَ فيه، ولا رادَّ له.

---

(١) المحرر الوجيز: ٥/ ٥٠٨.

وجزاءُ هؤلاءِ الأبرارِ:

جنَّاتُ عَدنٍ خالدينَ فيها أبدًا.

رِضَا اللهِ عنهم؛ بما قاموا به منْ مراضِيه.

روى الإمامُ مسلمٌ بسندِهِ، عن أَبي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «**إِنَّ اللهَ يَقُولُ لأَهْلِ الجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ، فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ، وَالخَيْرُ فِي يَدَيْكَ، فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟! فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لاَ نَرْضَى يَا رَبِّ، وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ؟! فَيَقُولُ: أَلاَ أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ؟! فَيَقُولُونَ: يَا رَبِّ، وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُ: أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلاَ أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا**»(١).

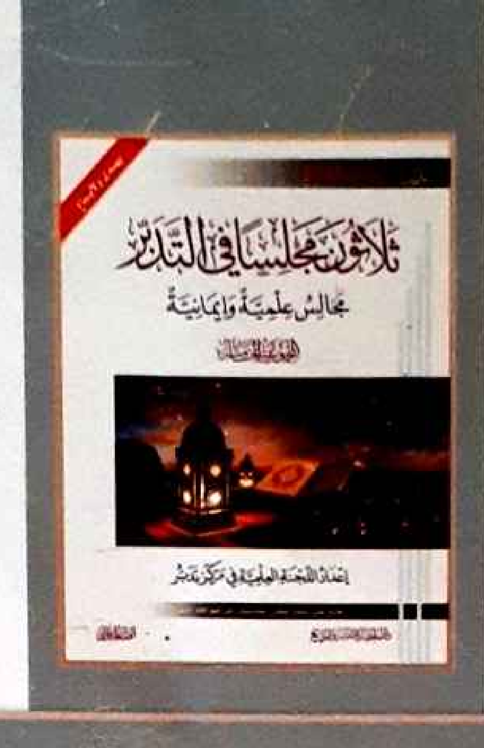
ومن بلاغةِ القرآنِ تقديمُ الثناءِ عليهم في قولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾، على بشارتِهم في قولِه تعالى: ﴿جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾؛ «ليكونَ ذكرُ وعدِهم كالشكرِ لهم على إيمانِهم وأعمالِهم»(٢)، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ شَكُورٌ﴾ [الشورى:٢٣]، سبحانَه وتعالى يَغفرُ الكثيرَ من الزَّلَلْ، ويشكرُ القليلَ من العملْ، فيُعطِي ﷻ عبدَهُ ما يُشْكَرُ عليهْ، ثم يَشْكرُهُ على إحسانِهِ إلى نفسِه لا على إحسانِهِ إليهْ.

---

(١) صحيح مسلم: (٧٣١٨).

(٢) التحرير والتنوير: ٣٠/ ٤٨٥.


فهرس





رغبة في التعاون مع إخواننا المسلمين في إحياء هذه المجالس في المساجد والبيوت، جاءت فكرة «مجالس تدبر القرآن»، وستكون ضمن سلسلة متتابعة -بمشيئة الله تعالى-؛ لتكون امتدادًا لبقية الإصدارات العلمية والتربوية التي سبق نشرها، وتهدف إلى تحقيق رؤيتنا - أن يتدبر القرآن كل من يقرؤه- في هذا المشروع العظيم.

وإذ نقدم هذه المجالس الثلاثين في «مجموعتها الثانية» - والتي حرر كثيراً منها عدد من الأعضاء المؤسسين لمشروع تدبر- فإننا نرجو الله تبارك وتعالى أن تحقق أهدافاً منها:

- أن تكون معينةً للإمام في مسجده -وخاصة في شهر رمضان- وللخطيب في منبر الجمعة، في تناول بعض القضايا المهمة -التي يحتاجها الناس- من منظور تدبري، وفق أصول علمية للتدبر.

- أن تكون مادةً مناسبة للمجالس التي يعقدها عدد كبير من الآباء مع أزواجهم وأولادهم في بيوتهم، سواء في رمضان أو غيره.

- أن تكون عونًا لمن أحب أن يقرأ مادة مختصرةً في المنتديات أو المجالس أو الاجتماعات العائلية.

ناصر العمر

tadabbor@tadabbor.com

للتواصل مع الدار: ص. ب: ١٠٢٨٢٣ الرياض ١١٦٨٥
فاكس: ٢٧٠٢٧١٩- المبيعات والتوزيع: ٢٤١٦١٣٩- فاكس: ٢٤٢٢٥٢٨
المنطقة الغربية: جـوال: ٠٥٠٧٧٧٠٤٢١
البريد الإلكتروني daralhadarah@hotmail.com
موقعنا الإلكتروني www.daralhadarah.com.sa
الرقم الموحد: ٩٢٠٠٠٠٩٠٨





